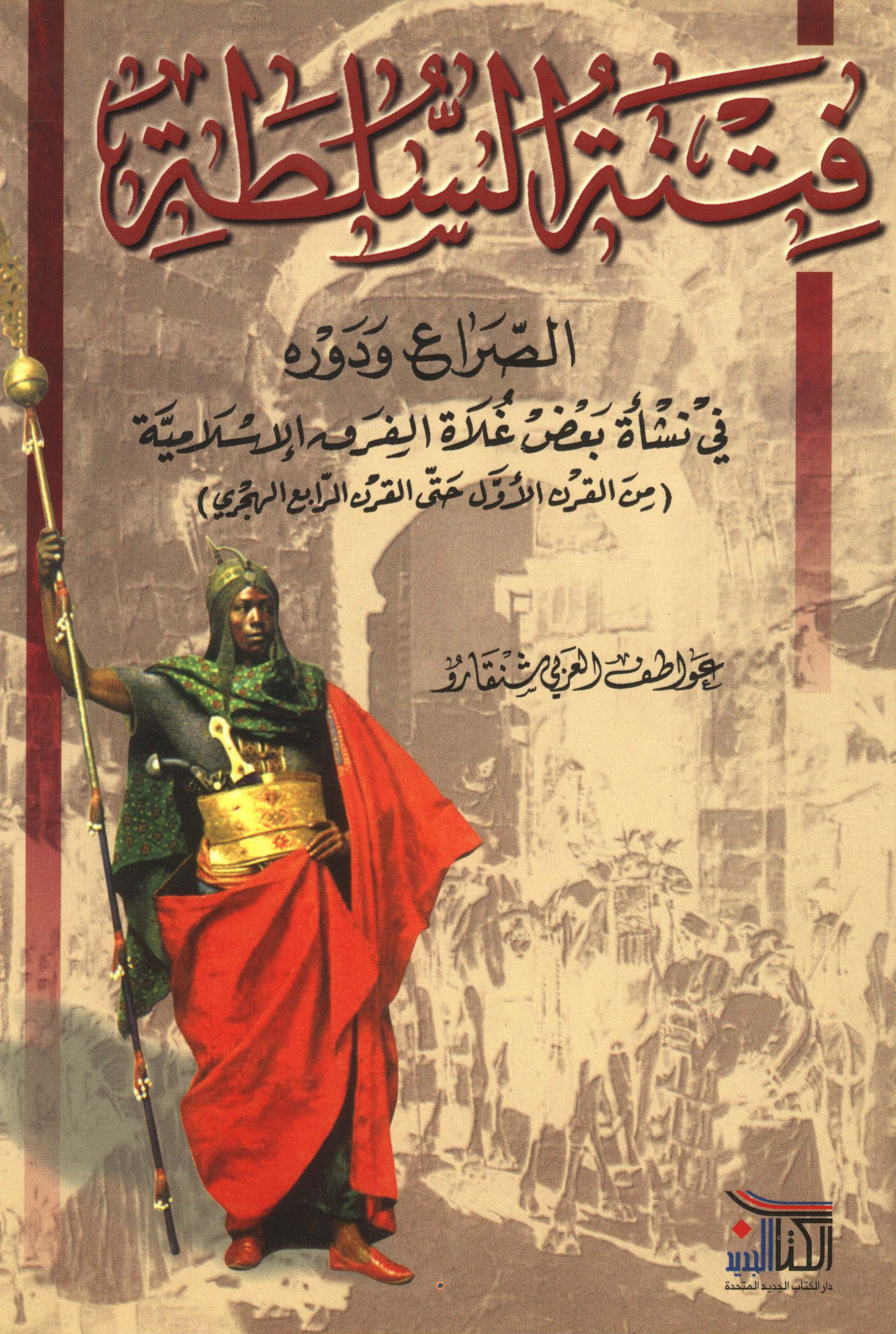


فتنة السلطة
الصراع ودوره
في نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية
(من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري)
عواطف العربي شنقارو
دار الكتاب الجديد المتحدة



تطرح هذه الدراسة، عدة إشكاليات، ولكنها تركّز على مفهوم «الخلافة» وتأثيراتها الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية، لتقدم من خلال مسألة السلطة والصراع عليها، دراسة واسعة عميقة، في موضوع الفرق الإسلامية وتشعباتها المختلفة، بموروثاتها وتأثيراتها الأيديولوجية والعقائدية.

فمفهوم الخلافة / السلطة الذي طرح في البداية كاستمرار لسيطرة أرستقراطية قريش شبه الإقطاعية القديمة، تغيّر وتعدّل مع الفتوحات. وتوسع الدولة لصالح سيطرة طبقة أخرى، كرّسها عهد بني أمية، تحمل مفاهيم مغايرة، ونظرة مختلفة لموضوع الخلافة، وبالتالي السلطة. هذا العصر أسس لنشوء الفرق، حيث تغوص الكاتبة في أسباب نمو وتوالد هذه الفرق والتأثيرات التي جاءت من الخارج، إذ اعتمدت السلطة على عنصرين لنقل الدواوين والعلوم، هما العنصر الفارسي (القوي)، والعنصر البيزنطي (المَوالي) الأقل مرتبة ولكنه يحتل موقعاً هاماً. هذا التنوع في مواقع السلطة، أنتج تنوعاً في العقائد والمفاهيم وعزّز من التأثيرات الخارجية (الإشراقية خصوصاً) وكذلك اليونانية وغيرها، وعززت الصراع بين مفهومين رئيسيين (الخلافة، والإمامة).



دار الكتاب الجديد المتحدة

اوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج طابق 5
خليوي : 03/933989 - هاتف وفاكس 00961/1/542778

توزيع : دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية ـ زاوية الدهماني ـ السوق الأخضر
هاتف : 3338571 - 4449903 - 00218.21/4448750 فاكس : 00218.21/4442758
ص . ب : 13498 طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

ISBN 9959-29-008-5
9789959290083

فتنة السلطة

الصراع ودوره

في نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية

(من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري)

فِتْنَةُ السُّلْطَة

الصِّرَاع وَدَوْرُه

فِي نَشْأَةِ بَعْضِ غُلَاةِ الفِرَقِ الإِسْلَامِيَّة
(مِنَ القَرْنِ الأَوَّلِ حَتَّى القَرْنِ الرَّابِعِ الهِجْرِي)

عواطف العربي شنقارو

دار الكتاب الجديد المتحدة

الطبعة الثانية

حزيران/يونيو/الصيف 2001 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4669/ 99

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-008-5

دار الكتب الوطنية/ بنغازي – ليبيا

تصميم الغلاف: علي شمس الدين

دار الكتاب الجديد المتحدة

أوتوستراد شاتيلا - الطيونة، شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 - 03 - هاتف وفاكس: 542778 - 1 - 00961

بيروت - لبنان

توزيع **دار أويـا** للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 - 4449903 - 3338571. 21 . 00218 - فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس - الجماهيرية العظمى

قائمة المحتويات

الإهـــداء

إلى من أخذ بيدي، وأحاطني برعايته
وكان نهراً فياضاً بالبذل والعطاء
إلى من اقترن اسمه باسمي منذ لحظة ميلادي
إلى روح والدي رحمه الله

عواطف

مقدمة الطبعة الثانية

من خلال نظرة شمولية إلى التاريخ الإسلامي في مساراته ومصائره حيث يبدو الاتصال الوثيق بين المسببات والأسباب، ذلك التلاحم بين المقدمات والنتائج. جاءت الطبعة الثانية مؤكدة على أهمية الفكر السياسي المطروح حيث اتسم الصراع على السلطة في الاسلام ومنذ وفاة الرسول ﷺ بظهور الاتجاهات الأيديولوجية الكبرى التي انطلقت منه أو تبلورت عنه.

ومن هنا سيجد الباحث نفسه أمام مجازفة علمية تتخللها جملة من التساؤلات من هذا الموضوع حول التيارات المؤطرة من الفرق لاحقاً هل هي التي اقامت النظام السياسي، أم إن النظام السياسي هو الذي أفرز الفرق؟ وهل كانت الرؤية للخلافة والشورى مثالية من حيث الوجهة النظرية إلى حد فشلت كلاً منها من حيث التطبيق؟ وما دور الطبقة الارستقراطية التي امتلكت المال والتي سيطرت على الحياة الاقتصادية والتي كانت تهيمن على السلطة السياسية والدينية والمدعومة قبلياً والتي خلقت تفارقاً طبقياً واجتماعياً وأفرزت حركة الموالي والشعوبية.

وكل هذه التفصيلات والجزئيات تتداخل مع بعضها تداخلاً عضوياً صحيحاً على مستوى التأثر والتأثير، الفعل والانفعال حيث يغدو من الصعوبة بمكان دراسة كل ظاهرة على حدة، منفصلة بالكلية من الظواهر الأخرى. وهذا العمل هو أشبه بمشروع عمل مفتوح نسعى جادين بإذنه تعالى لاستكمال دراسته التي بدأنا بها منذ ق 1 ـ ق 4 هـ/ ق 7 ـ 10 م وسنكملها إلى سقوط بغداد 1258م. محاولين تسليط

الضوء على العلاقة الأصيلة المتبادلة بين الإسلام وبين وقائع التاريخ السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتحقيق التوازن المطلوب بين الجوانب السياسية والجوانب العقيدية والحضارية التي ساهمت في الصراع على السلطة أو ساهم الصراع على السلطة فيها، لعلنا نستطيع أن نضيف كلمة جديدة إلى التاريخ العربي الإسلامي فهي حسبنا.

المؤلفة

المقدمة

اتسم الصراع على السلطة في الإسلام بالعنف سواء على مستوى الخطاب - الشكل - أو على مستوى الفعل - الموضوع - فمنذ بدء الخلاف الذي دار بين المهاجرين والأنصار، وما ترتب عليه من اجتماع في السقيفة برزت فرق عديدة انشق عنها فرق غُلاة في المنهج والعمل في فترة لاحقة واتخذ الصراع على السلطة وما رافقه من فهم سياسي تدابير مختلفة،اكتنفه خلاف سياسي مكتظ باختلافات وملابسات كثيرة سواء كانت مجتمعية، أو إثنية، أو سوسيو ثقافية، وترتبت عليه نتائج مسّت الأمة العربية الإسلامية بشكل مباشر أو غير مباشر منذ وفاة الرسول عليه السلام 10هـ / 632م والى يومنا هذا.

وفى ضوء ذلك كانت الرغبة قوية عندي فاتجهت للبحث في موضوع (الصراع على السلطة وأثره في نشأة بعض غُلاة الفرق الإسلامية واتجاهاتها منذ ق1، ق4هـ/ ق6م، ق10م) مما طرح جملة من التساؤلات في هذا الموضوع ومنها سؤال ملحّ حول التيارات المؤطرة في الفرق لاحقاً هل هي التي أقامت النظام السياسي، أم أن النظام السياسي هو الذي أفرز الفرق؟

والتساؤل التالي هل كانت الرؤية للخلافة والشورى مثالية من حيث الوجهة النظرية إلى حد فشل كلّ منها من حيث التطبيق؟ وهل عاد الصراع السياسي إلى ذهنية الناس ما قبل الإسلام عند المسلمين أي إلى الذهنية الموروثة ؟ وما أثر الطبقة التجارية التي امتلكت المال ويحتمل ان سيطرت على الحياة الاقتصادية وكانت تهيمن على السلطة السياسية والدينية والمدعومة قبلياً ؟ وما هو الأثر الخفي الذي يمكن ان تكون قد لعبته حركة الشعوبية والزندقة في الصراع على السلطة وفى تغذية أفكار الفرق وغُلاتها وما موقف العصبية العربية من كل ذلك ؟.

فالهدف من التعرض لهذا الموضوع هو الوصول إلى إجابة عن التساؤلات المتعلقة بمفهوم الدين وطرحه بوصفه منظومة من الأفكار يفترضها في الأساس الإيمان بوجود اللّه وتؤثر هذه الأفكار في المجتمع وتتأثر به سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

نعني بالمفهوم السياسي مجموعة الأفكار، والأساسيات والأيدلوجيات للشعوب التي دخلت الإسلام والتي ساهمت في صنع القرار السياسي وهي التي تحدد متى وأين تستخدم السلطة، وتحدد مظاهر العنف التي بدأت تبرز في المجتمع الإسلامي مع بداية الصراع عليها. ولهذا كانت الممارسة السياسية أداة تفرقة وخلاف، فكثرت الأقوال وتعددت الآراء، وبرزت الفرق وغلاتها وذهب كل فريق مذهباً معيناً، وصار لكل فريق أنصار تنادي به وتتعصب له.

وتعددت الروايات واختلفت الأسانيد، وكثرت الأحاديث الموضوعة لمناصرة النزعات السياسية، مما أدى إلى نوع من المجادلة الفكرية بل والصدام المسلح ولكي نقف على حقيقة هذا الصراع والذي يمكن أن نسميه صراعاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً على السلطة تحت ستار الدين.

ومن أجل الوصول إلى الهدف لابد من العودة إلى الجذور التاريخية والمتمثلة في العصبية القبلية قبل الإسلام، ثم تتبع نشأتها مع انتشار الدين الإسلامي وما أفرزته هذه العصبية القبلية من ظهور لحركة الشعوبية والزندقة التي فجرها الصراع بين القوميات الأخرى للنيل من القومية العربية، وغرس الفتن والفوضى وبث أفكار الزندقة التي انتشرت بين فرق الغُلاة وبسبب ذلك طفحت على السطح النزعات القبلية ثم المذهبية بعد وفاته عليه السلام مباشرة 10هـ / 632م وتفرقوا شيعاً وأحزاباً مع أن القرآن أوضح موقفه وبشكل حازم من الذين فرقوا دينهم من أجل الوصول إلى السلطة مستغلين الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فقد قال تعالى: **﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء. . .﴾**[1]، وقال ﷻ: **﴿ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون. . .﴾**[2].

(1) القرآن الكريم : سورة الأنعام، الآية 159.
(2) القرآن الكريم : سورة الروم، الآية 32.

وانطلاقا من هذه المعطيات كان التفكير في بحث الأسباب والدوافع التي أدت بالمسلمين إلى أن يتفرقوا شيعاً وأحزاباً، كل يعتقد أنه على حق وأن أفكاره ومعتقداته هي الصحيحة إلى الحد الذي بلغ المغالاة في المواقف، فسعت كل فرقة بما تمتلك من اجتهادات فكرية وموروثات عقائدية أن تؤكد وجهة نظرها فكان ذلك سبباً آخر أضيف إلى الأسباب الرئيسية التي أدت بنا إلى التفكير في الخوض بهذا الموضوع والرغبة في الكشف عن الأهداف التي سعت إليها الفرق الإسلامية وغلاتها دون نسيان التعرض إلى الظروف السياسية والاقتصادية التي أفرزت الفرق عامة والغُلاة منها بخاصة وهي أسباب أسهمت في النشأة والتكوين وستتخذ هذه الدراسة من المشرق العربي ميداناً باعتبار أن ما حدث في المغرب لاحقاً كان مشرقي المصدر، وهذا دليل على الرباط القوي بين المشرق أرض الحدث، والمغرب صداه.

وسنتبع في استقراء الأحداث المنهج التحليلي وهو منهج قائم على تفسير الأحداث ومعرفة عللها ونتائجها من خلال الدراسة النقدية للمصادر الأولية والمراجع ذات العلاقة الوطيدة.



دراسة لبعض المصادر والمراجع
التي اعتمدت عليها الدراسة

تكاد القرون الأربعة الأولى في التاريخ الإسلامي تجنح إلى القلق والاضطراب أكثر من الاستقرار حيث شهدت مع بدايات القرن الأول نماذج خفية من التيارات والعصبيات التي أفرزها الصراع على السلطة وكان من البديهي أن ينقسم المجتمع الإسلامي إلى فرق وشيع ويحاط بالخصوم فينعكس ذلك على الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية.

وجاء سقوط الخلافة الراشدية 11-35هـ/ 632-655م مقدمة لظهور الكثير من الصراعات وفرق الغُلاة والتي نمت خلال أربعة قرون من ق1-ق4هـ، 6-10م، ورغم وفرة المصادر التي تناولت هذه الفترة وتنوعها فإنها في بعض الأحيان تسقط في مشكلة الانحياز والمناصرة لبعض التيارات والفرق على حساب فرق وتيارات أخرى كما سنلاحظ.

أولاً : المصادر

أ - المخطوطات :

معهد المخطوطات العربية «جامعة الدول العربية / القاهرة».

1- استتار الإمام / وهو أول تاريخ للإسماعيلية ينبئ عما جرى لأئمتهم أيام الكتمان والاستتار وكان تاريخ النسخ أواخرالقرن الرابع عشر هجري، ومطلع القرن الخامس وفي المخطوط معلومات تاريخية لا توجد في غيره، وهو ما أخذ

(1) مخطوط استتار الإمام: رقم المخطوط 3589 رقم الفيلم 3175.

منه قدماء المؤرخين وكان مرجعهم الوحيد في أحداث تلك الأيام خاصة ولاسيما وأن مؤلفه أحمد بن محمد النيسابوري وقد كان واحداً من أشهر دعاة الدولة الإسماعيلية أيام صاحبها المعز لدين الله الإسماعيلي، والمخطوط يوضح تنظيم الدعاة وتوزيعهم على الأمصار الإسلامية وبحثهم عن الإمام الذي كان مستتراً لمنحه زكاتهم وقد أفادني هذا في الدراسة وبخاصة في الفصل الأخير وتحديداً في مبحث الفرق (فرقة الشيعة/ الإسماعيلية) حيث يشرح الصراع العنيف الذي حدث بين دعاتهم من أجل «الإمامة» وهروب الإمام المهدي وانتقاله من مدينة إلى أخرى ووقوع مشايخ بني هاشم في يد الأغر في عهد المعتصم 279هـ/ 892م.

ونلاحظ التحيز الواضح للشيعة وللإسماعيلية وعما جرى لأئمتهم أيام الكتمان والسرية ويوضح كم هم ثقاة ومضطهدون، رغم أن كتب الفرق مثل الشهرستاني، والبغدادي، وابن حزم وغيرهم توضح مغالاة هذه الفرق وتطرّف أئمتهم وهذا ما تجاهلته تماماً المخطوطة، كما أنها تجاهلت انتماء القرامطة لحركة الإسماعيلية وكأنها تتبرأ منهم.

2- **السيرة الإسماعيلية** / لمؤلفه محمد بن محمد اليماني في القرن الرابع عشر هجري وهو رجل من الشيعة وفيه كما هي العادة الكثير من كلمات التبجيل والتقدير لرجالات الشيعة وخاصة آل البيت، وهو تكملة لمخطوط استتار الإمام.

واستفدت من هذه المخطوطة في إيضاح الصراع بين البيت الهاشمي والبيت العلوي في السلمية، كما توضح التنظيم الدقيق في الفرقة الإسماعيلية وتتناول موضوع هجرة الشيعة الإسماعيلية إلى المغرب العربي واتصالهم بقبائل كتامة وغيرها من سكان بلاد المغرب العربي[1].

3- **تاريخ الجزري** / لمؤلفه ابن الجزري محمد بن محمد بن محمد، في القرن الثامن الهجري[2] يعالج هذا المخطوط الأحداث منذ ولادة الرسول وهجرته إلى المدينة ويستمر في ذكر أهم الأحداث التاريخية حتى قيام الدولة الزنكية ويتعرض لذكر العديد من العلماء والفقهاء المسلمين ولمؤلفاتهم. وقد ساعدني

---

(1) السيرة الإسماعيلية : ورقم المخطوط 3588، ورقم الفيلم 3174.

(2) تاريخ الجزري : رقم المخطوط 90، رقم الفيلم 25.

في موضوع الدراسة من حيث تواريخ الأحداث حيث يقدمها بشكل مختصر مثل تسلم الحسن الخلافة، ووفاة أبي موسى الاشعري و ثورة الزنج ومعركة النهروان وغيرها من الأحداث التي تناولتها الدراسة. وتتصف هذه المخطوطة بالإلمام الكامل بالأحداث الإسلامية سواء دولة الرسول أو الخلفاء أو خلافة بني أمية وبني العباس، وعصر الدويلات. ويلاحظ منذ البداية أن المؤلف كان موضوعياً في طرحه للأحداث حيث يعرضها دون أن يعلق أو يضيف شيئاً من عنده، إلا أنه لم يتقيد بالتسلسل التاريخي للأحداث حيث ينتقل من حدث لآخر متجاهلاً التاريخ الزمني للأحداث، وكان يركز كثيراً على تاريخ وفيات الأشخاص وهم ليسوا ذوي أهمية في صنع الحدث نفسه مثل وفاة الشاعر القطاني أو وفاة أبي الأسود الدؤلي ويهتم بجزئيات لم تصنع الأحداث ويعطيها عناوين جانبية في المخطوطة.

ثانياً: المصادر الأولية

1- **الإمامة والسياسة** / المنسوب إلى ابن قتيبة، وهو محمد بن عبد الله بن مسلم « 226هـ / 889م» وتاريخ وفاته 276هـ يلاحظ خلو هذا المصدر من الإسناد حيث تتردد عبارة «وذكروا» في مطلع رواياته دون تحديد مصدرها الأساسي، هذا ويتشكك الكثيرون في نسبته لابن قتيبة وهو أمر يجعلنا نرتاب فيه ونبعده عن لائحة المصادر الرصينة وبخاصة في طرحه للعديد من الأحداث مثل ثورة المدينة وموقعة الحرة وإن بدا موضوعياً وبعيداً عن التحمس للشيعة أو نقد الأمويين بشكل مبالغ فيه وكانت رواياته عن الحجاز على جانب كبير من الأهمية خاصة ذكره للدوافع التي كانت وراء تعاظم النقمة على البيت الأموي في أعقاب الأزمات الاقتصادية والفراغ الذي حدث في الحجاز نتيجة للهجرة ناحية المدن الجديدة مما ترك خراباً في الحجاز والمدينة.

إلا أن هذا المصدر يتميز بوفرة المعلومات وبشكل مقنن وملخص جداً دون الإسهاب في موضوعات جانبية وبشكل ممل وهي ميزة لهذا المصدر دون المصادر الأخرى.

2- **تاريخ اليعقوبي** / وهو أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت 284هـ/ 897م) إن اليعقوبي أحد أكثر المؤرخين الأوائل تعاطفاً مع العلويين، إنطلاقاً من انتمائه لشيعة علي ورغم هذا لا ننفي عن الكتاب أهميته وقيمته،

فمؤلفه هو أحد أصحاب الرأي في حركة الشيعة ويلاحظ عليه التحامل الشديد والمبالغ فيه على الأمويين وخاصة عند سرده لحملة الحجاج على ابن الزبير بالإضافه إلى إسهابه في (استباحة) الجيش الأموي لمدينة الرسول عليه السلام وهو موقف ينطلق من خلفية علوية ومتأثرة بردة الفعل التي حدثت آنذاك أما منهجه في العرض فهو إهمال الأسانيد.

وقد استفدنا منه في إجراء بعض المقارنات بين ما ورد في المصادر السنية مثل الطبري والبلاذري وغيرهم، وساعد في إثراء الدراسة عن طريق تنوع المصادر السنية والشيعية واتّبع اليعقوبي في عرض مادته تسلسل العهود خليفة بعد خليفة مستخدماً أسلوب الحوليات.

3- تاريخ الرسل والملوك للطبري / وهو محمد بن جرير (ت 310هـ/ 923م) وهو من مؤرخي القرن الثالث الهجري، ويعتبر كتابه قمة ما وصلت إليه الكتابة التاريخية في ذلك الوقت[1]. وتأتي أهميته في دقة الإسناد وذكر أكثر من رواية في موضوع واحد حيث أعطى لرواياته موقعاً من الثقة، خاصة وأن الخطاب الذي يورده الطبري يأتي بشكل مفصل ودقيق إلى حد الدهشة. عاش الطبري ببغداد عاصمة الأحداث ولهذا نلاحظ أنه يلتزم الحياد في ذكره لبعض الروايات، ويكتفي بالصمت وعدم التعليق على أي رواية ويكتفي بقول حدثني فلان... وهكذا.

والطبري رغم دقته المعروفة والتي تثير الدهشة، فإنه لم يستطع أن يحمي نفسه من الجو المتشنج والمشحون ضد بني أمية ربما يأتي ذلك عن غير قصد.

ومن أهم مميزات الطبري بعده عن التطرف في رواياته وتخلى عن إصدار أحكام على الأحداث بلا رويّة بل ترك للقارئ أن يستنتج ذلك وقد ساعد ذلك في الدراسة بل قامت دراستنا أصلاً على الاستفادة من الروايات التي وردت عند الطبري بسبب تنوعها واختلافها ودقتها وخاصة الروايات التي عاصرها الطبري بنفسه أو كان قريب العهد بها، وربما يؤخذ على الطبري أنه أسرف في قبول الإسرائيليات فيما يتعلق ببدء الخلق وقصص الأنبياء.

كما أتاح هذا المصدر إجراء مقارنة بين الإخباريين ورواياتهم المختلفة مما

---

(1) عبد العزيز الدوري : علم التاريخ عند العرب ص55.

ساعد على تقصّي الحقائق إلى حد ما من خلال هذا التنوع، وكان بالفعل مصدراً مهماً لاسيما وأن الطبري حصر تاريخه بالأمور السياسية الخاصة وبالمشاكل الداخلية للدولة.

4- **الفَرْق بين الفِرَق** / لعبد القاهر البغدادي (ت429هـ/ 1037م) مؤلف هذا الكتاب تميمي بغدادي، عالم متفنن، من أئمة الأصول وأعيان فقهاء الشافعية.

وأهمية هذا المصدر تكمن في ذكره للفرق وانقساماتها وذكره للغلاة وأهم الأفكار التي تبنتها كل فرقة وأقوالهم وبيان فضائح كل فرقة منها بالتفصيل. ويعتبر كتاب البغدادي من أهم المصادر التي تناولت موضوع الفرق بدقة متناهية دون التحيز لفرقة على حساب فرقة أخرى، بل نجده ينتقد هذه الفرق إلى درجة المغالاة أيضاً ويتهمهم جميعاً بالكفر دون استثناء ويصفهم بالضلالة حيث يذكر أقوالهم وفلسفتهم ويجري مقارنة بين بعضهم البعض.

وابتعد البغدادي كلية عن موقف الحياد أو الموضوعية وقد ساعدنا رأيه الفقهي في بعض أفكار وأطروحات هذه الفرق وخاصة الباطنية منها حين أعتبرهم فرقاً ضالة وكافرة وخارجة عن الإسلام وملة محمد عليه السلام.

5- **الملل والنحل** / لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت558هـ).

لقد قام الشهرستاني بتقسيم الفرق بحسب الآراء والمذاهب وأهل الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل.

ويمتاز بذكره للفرق بشكل ملخص ويركز على أهم مبادئهم ويجري مقارنات في أهم أوجه الاختلاف والاتفاق بين هذه الفرق وتقسيماتها وبين الفرق الأخرى وتقسيماتها أيضاً، وقد ساعدنا في الفصل الثالث (الفرق ومسألة الإمامة، والعدل والتوحيد والكبائر ونفي صفات الباري، والقول بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين، وقولهم في أصحاب الجمل 36هـ/ 656م وأصحاب صفين 37هـ/ 657م).

ولقد كان الشهرستاني سلبياً في تناول موضوع الفرق واختلافاتهم فلم يُدلِ برأيه أو برأي الإسلام بخصوص ما كانت تلك الفرق تتخاصم حوله، ويمتاز بذكره لبعض الديانات الأخرى مثل اليهودية والديصانية والمرقيونية وغيرها وقد ساعدنا في العودة للجذور التاريخية لهذه الفرق وتقصي الحقائق وتتبّعها من خلال

الأفكار والمعتقدات التي طرحتها الفرق الإسلامية والمأخوذة أصلاً من بعض الديانات غير العربية وعلى أيدي غير عربية أيضاً ويرجع الفضل في ذلك لحركتي «الشعوبية والزندقة».

ثالثاً : المراجع

1) **دولة بني العباس** : كتاب ألفه شاكر مصطفى بجزئين، بيد أنه لا يتعرض إلا لفترة الحكم العباسي المحصورة بين (132-232هـ/ 750-847م) واجتهد في جعل نهاية الدولة العباسية مقرونة بحادث قتل الخليفة المعتصم (218هـ833/ 227-852م) ومع الاعتراف بأن الفترة التي تلت هذا الحادث كانت مليئة بالقلق والتوتر، وتدخل الأجانب في الحكم إلا أن ذلك لا يلغي استمرار الحكم العباسي بصورة شرعية وواقعية.

تناول الكتاب بأسلوب سردي بعيد عن التحليل سياسة الدولة الخارجية ونظرتها الدينية وحياتها الاقتصادية[1]. ويعبر عن وجهة النظر السنية.

2) **الحجاز والدولة الإسلامية** : كتاب ذو أهمية فائقة في تناول فترة الدولة الإسلامية الأولى ألفه إبراهيم بيضون، وامتاز بتحليل الأحداث وتفسيرها محافظاً على التسلسل التاريخي لوقوعها، ولكن يؤخذ عليه انحياز المؤلف لشيعة علي بن أبي طالب إلى درجة يبتعد فيها عن الموضوعية مسخراً بعض الأحداث فيها على ما يساند الموقف الشيعي جاعلاً منهم الضحايا السياسيين لدولة بني أمية (41هـ/ 750م)[2].

3) **الحركات السرية في الإسلام** : أمعن مؤلفه محمود إسماعيل منذ البداية في الانحياز إلى الحركات السرية فاعتبرها قوى معارضة لتسلط الحكومات الثيوقراطية (أموية وعباسية) كما يسميها وأعطى لهذه الفرق شرعية حمل السلاح ضد السلطة الحاكمة، واعتبر ذلك أسلوباً نضالياً لا بد من اتباعه للوقوف بوجه القوى المتسلطة، وهو رأي يجعلنا ننفي الموضوعية عن المؤلف، لأنه داهم موضوعاً خطيراً وحساساً ولم يكن متأنياً في إعطاء الآراء وبدت في كثير من تفاصيلها مسبقة وقاطعة، ولم يُبد أي اهتمام للدوافع السياسية والعقائدية التي تقف

---

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج2

(2) إبراهيم بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية.

خلف تلك الفرق والتي لم تكن الشعوبية والزندقة بعيدة عنها.

ورغم ذلك تبقى أهمية الكتاب قائمة في كونه يعرض لهذه الفرق بوضوح، ويهتم بالجانب الاقتصادي والاجتماعي المسبب لظهورها، كما أنه أبرز العلاقة الجدلية بين الآراء والأفكار المنظمة لها، وبالتالي فإن قيمة هذا الكتاب تكمن في المعالجة الفكرية والفلسفية التي لم تكن بعيدة عن مناقشة الأوضاع السياسية والاجتماعية[1]. ولا نستطيع أن نتجاهل تشكيكه في مصداقية المؤرخين الأوائل من أمثال الطبري والشهرستاني وغيرهم ويعتبرهم موالين للسلطة سياسياً سنّيي المذهب، ورغم هذا التشكيك إلا أنه اعتمد عليهم في اقتباس النصوص التاريخية التي تفسر وتشرح الأحداث، كما أنه قسم الإسلام إلى يمين ويسار، وهذا بعيد جداً عن الإسلام، فالإسلام لا يعرف هذه التقسيمات بل هو «علم يقيني» خاصة تبريره القوي والعنيف للحركة القرمطية والإسماعيلية.

4 - **تاريخ الدولة العربية**: اعتمد يوليوس فلهَوْزَن في تأليف هذا الكتاب على المصادر العربية، وبدا غير دقيق في نقل بعض النصوص أو الإشارة إليها، وبرغم ذلك فقد ظهرت الجدية على المؤلف وبخاصة في معالجة أسباب قيام الدولة العربية وقوتها، وأظهر الموضوعية الصادقة في نظرته إلى الجنس العربي وخصائص قوته.

وأسرف في تحليل بعض النصوص وحمّلها تأويلات لا ترقى إليها وبخاصة إصراره على ربط العصبية القبلية وعنصر الدم بالدين الإسلامي، وتجاهل موقف الإسلام المبدئي من محاربة التعصب للقبيلة والجنس[2].

---

(1) محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام.

(2) يوليوس فلهو زن (Flhowzen): تاريخ الدولة العربية.



الفصل الأول

الخلافة الإسلامية ودورها في إشكالية السلطة

أ ـ المدخل : تطور مفهوم الجماعة من القبيلة إلى مفهوم الدولة.

ب ـ المبحث الأول : سقيفة بني ساعدة وظهور الاتجاهات السياسية.

ج ـ المبحث الثاني : مآزق السلطة في ظل خلافتي عثمان وعلي رضي الله عنهما، والصراع الشيعي منذ عهد عثمان (32هـ حتى 35هـ / 644-655م).

د ـ المبحث الثالث: إشكالية السلطة في العهد الأموي ودورها في بروز بعض الفرق الإسلامية من 41هـ/661م.

هـ ـ المبحث الرابع: مآزق الخلافة في العصر العباسي (132-334هـ/750-945م).



المدخل

تطور مفهوم الجماعة من القبيلة إلى مفهوم الدولة

(القبيلة هم بنو أب واحد[1] قال الله تعالى: ﴿**إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**﴾[2]، أي هو ومن كان من نسله، واشتق الزجّاج القبائل من قبائل الشجرة وهي أغصانها)[3]. والقبيل: الكفيل والضامن و الجماعة من الناس من الثلاثة فصاعداً من نجر واحد أو من قوم شتى[4].

إذاً فالقبيلة بالمفهوم اللغوي تعني النعرة والتناصر ومساندة أفرادها سواء كان ذلك بسبب القرابة أو الولاء والحلف و الجوار، أما معناها بالمفهوم الذي اعتنقته مجموعات من البشر في انتمائها إلى جد أعلى مشترك فإنه يدل على انتماء يميزها عن مجموعات أخرى مماثلة، ويفصلها عنها بحيث تكون العلاقات بين الطرفين علاقات تعارض وتنافس وصراع وهنا نميز دور القبيلة في معناه الصدامي وهو ما يعرف باسم (قانون الصراع القبلي)[5] ومنه ما حدث بشكل واضح بين قبيلة قريش وباقي القبائل العربية الأخرى، والذي كان واضحاً أيام الجاهلية الأولى ثم جاء الإسلام وحاول القضاء عليه نهائياً ونادى بالتخلي عنه في زمن الرسول عليه السلام. وعاد الصراع بعد وفاته واضحاً في الدولة الإسلامية وخاصة في المدينة (صراع السقيفة).

---

(1) ابن منظور : لسان العرب المحيط، ص12 باب (ق ب ل).
(2) القرآن الكريم : سورة الأعراف، الآية 26.
(3) ابن منظور : المصدر نفسه، ص 12.
(4) أحمد رضا : معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، ص488.
(5) الجابري : العقل السياسي العربي، رقم 3، ص79.

ولو رجعنا إلى تاريخ مكة السياسي نجده يبدأ مع قصي بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ الذي عاش في منتصف القرن الخامس الميلادي. قبل نحو قرن ونصف القرن من ميلاد الرسول ﷺ[1].

كانت المجموعة القبلية التي تعيش في مكة تُسيّر أمورها بدون سلطة مركزية لـكن السلطة المعنوية كانت نافذة لشيوخ هذه المجموعة المشتركة في النسب والمتجاورة في السكن بداخل مكة بينما كانت تسكن في ضواحيها قبائل أخرى أقل أهمية.

لقد استولى قصي على مكة سنة 440م بعد عودته من الشام حيث جمع القبائل القرشية وكان يرى في نفسه الحق في أن يتولى أمر الكعبة من خزاعة وبني بكر، وإن قريشاً قرعة إسماعيل بن إبراهيم وصريح ولده فكلم رجالاً من قريش وبني كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فأجابوه واستطاع قصي هزيمتهم عند العقبة حيث قاتلهم قتالاً شديداً، ثم انهزمت صفوفه وغلبهم قصي على ما كان بأيديهم من ذلك، وبذلك استولى قصي على مكة وتولى أمرها ونزحت خزاعة إلى الجنوب الشرقي منها[2] وكان لقصي أربعة أولاد هم: عبد الدار، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد مناف وكان هذا الأخير تاجراً كبيراً، وكذلك عبد العزى وعبد قصي.

أما عبد الدار، وكان أكبرهم، فقد أسند إليه أبوه وظائف الرئاسة في مكة من حجابة وسقاية ورفادة... الخ. وقد أورث هذه الوظائف لأبنائه من بعده[3].

وكان بين هاشم وأخيه عبد شمس منافسة، ويقال إنهما توأمان. وقد تحولت هذه المنافسة إلى صراع مكشوف بين أمية بن عبد شمس، وبين عمه

---

(1) وينتهي نسب قصي إلى فهر وهو الملقب بقريش، ثم يرتفع به النسابون إلى عدنان :جد عرب الشمال. فهو : قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر(قريش) بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزاعة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ويرفع النسابون شجرة النسب هذه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولكن مع اختلاف كبير بينهم. ينظر ابن هشام : السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا (وآخرون)، ص129، سلسلة تراث الإسلام.

(2) ابن هشام : السيرة النبوية، ص 130.

(3) ابن هشام : المصدر نفسه، ج 1، ص 123.

هاشم، الذي كانت إليه الرفادة والسقاية، فتنافر الرجلان وتنازعا وتراهنا على خمسين ناقة تنحر بمكة يدفعها المنهزم ويجلو عنها عشر سنين، واحتكما إلى كاهن خزاعة فحكم بينهما. وكان النصر لهاشم فأخذ الإبل من أمية ونحرها وأطعم الناس بينما سافر أمية إلى الشام حيث أقام عشر سنين (فكانت هذه أول عداوة بين بني أمية وبني هاشم) تم عقد بعد ذلك حلف الفضول[1] بين بني هاشم وبني عبد المطلب وبني زهرة وبني تيم وبني الحارث بن فهر وقد شهد الرسول ﷺ هذا الحلف وكان مايزال شاباً لم يوح إليه بعد وكان الغرض من هذا الحلف نصرة المظلوم. هذه الأحلاف والانقسامات توضح حقيقة عداء بني مخزوم وبني عبد شمس التاريخي حيث سيقفون لاحقاً في صف واحد ضد النبي وأهله بني هاشم، وهذه الشبكة من العلاقات القبلية والتركيبة الاجتماعية المعقدة والمتشابكة لم تكن تسمح لقريش بتصفية رجال الدعوة التابعين للرسول عليه السلام، لأن أي اعتداء جسماني دموي على أي فرد من أعضاء القبيلة التي ينتمي إليها هؤلاء الأفراد سيفجر بركاناً وحرباً أهلية شاملة ولهذا استطاعت الدعوة المحمدية أن تبقى حية تحت حماية نعرة الأقارب ونظام الجوار. رغم أن هذه العلاقات نفسها لم تكن من جهة أخرى تسمح لتلك الدعوة بالانتشار والانتصار، لأن نجاحها كان يعني في المفهوم القبلي الجاهلي ارتفاع بني هاشم إلى مركز السيادة على جميع القبائل لأن النبي منهم، وهذا ما لم يكن يقبله بنو عمومتهم بنو أمية، ولا الأبعدون بنو مخزوم. أما يثرب فوصفت بأنها أقل من نصف مكة[2] وكانت على مسافة بعيدة حيث تبلغ نحو ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة مما حدا ببعض الجغرافيين العرب[3] إلى اعتبارها (نجدية) أكثر منها (حجازية) وعلى الرغم من وقوعها في دائرة المواصلات الرئيسية لتجارة الشام، فإن حظها من التجارة الخارجية كان محدوداً إذا ما قورنت بمكة، وهذا هو سر الشعور التنافسي الذي سيطبع العلاقات المستقبلية بين المدينتين العظميين في الحجاز.

لقد كان التركيب السكاني غير متجانس في يثرب يشمل العرب (الأوس و الخزرج) ويهود بني قريظة وبني النضير، وقد أفقد هذا التركيب يثرب المبادرة

---

(1) ابن هشام :المصدر نفسه، ج1، ص133، 134.

(2) ابن خلدون : المقدمة، ص358.

(3) ابن خلدون : المصدر نفسه، ص358.

وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز بسبب الصراعات الداخلية الضارية بين قبيلتي الأوس والخزرج والذي كان المحرك الأساسي لها هو من يتولى الزعامة في المدينة من الأوس والخزرج والعصبية العمياء التي كان يحركها اليهود الذين ساهموا في القضاء على جزء كبير من طاقاتها وجعلوا مجتمعها مجتمعاً منغلقاً عكس مكة التي كانت لها فرص جيدة للانفتاح وراء حدود الحجاز من خلال نشاط كبار التجار القرشيين ولوجود الكعبة والأسواق التي كانت ذات قيمة كبيرة ومنها مثلاً (سوق عكاظ).

لذا فإن يثرب كانت تفتقد زعامة بارزة على المستوى التنافسي مع مكة التي استفادت من مركزها الديني في خدمة مصالحها الاقتصادية داخل الحجاز وخارجه بحيث كان كل من الدورين متلازماً مع الأخر ومكملاً له.

في هذه الظروف تمت البيعة الأولى والثانية وشقت بهما الدعوة المحمدية مرحلة جديدة وهي مرحلة الهجرة إلى المدينة والشروع في تأسيس الدولة، ومع الهجرة إلى المدينة تنتهي مرحلة وتبتدئ أخرى. كانت المرحلة المكية مرحلة الدعوة والصبر والمعاناة. أما المرحلة المدنية فستكون مرحلة تأسيس (الدولة والحرب) وستعمل في اتجاهين:

الاتجاه الأول: مرحلة البناء الداخلي من جهة وممارسة (السياسة) مع قريش بوسائل أخرى وفي مقدمتها الحرب النفسية وضرب المصالح، من جهة ثانية.

الاتجاه الثاني: مرحلة العمل على إدخال القبائل العربية في الإسلام، طوعاً أو كرهاً، من أجل بناء الدولة.

كانت القضية الأولى التي لابد للرسول ﷺ أن يواجهها في المدينة بعد هجرته سنة 622 م تتمثل في تنظيم حياة المهاجرين وعيشهم فهم الذين غادروا مكة تاركين ديارهم وممتلكاتهم.

وقد أظهر اهتمامه بهذه القضية في أول خطبة ألقاها بعد وصوله إلى المدينة إذ خصصها للدعوة إلى التضامن والتكافل بين جميع المسلمين وخاصة المهاجرين والأنصار ولكي يحسم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الدعوة ويحيلها إلى واقع اجتماعي ملموس سنّ «نظام المؤاخاة» وكانت المؤاخاة على الحق والمساواة بما في ذلك حق التوارث لأن الأخوة في الدين تقوم هنا مقام الأخوة في النسب وبذلك حلت (الأمة) محل القبيلة والعشيرة.

فالصحيفة كانت دستور الدولة التي أرساها الرسول في المدينة إذ ألغى بها قانون القبيلة رغم أثر العصبية القبلية في الحماية والمدافعة عن الرسول وحمايته في بداية الدعوة إلا أن المرحلة الثانية في بناء الدولة في المدينة، شهدت تأكيد الرسول على ذم العصبية حيث قال ﷺ: (إن الله أذهب عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب) وقال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1].

لقد كان واضحاً منذ البدء، أن النبي أجّل مسألة إخضاع القبائل البدوية إلى حين. وتوجه نحو مراكز الاستقرار التي كانت أكثر قدرة على استيعاب دعوته، لما تملكه من قوة مادية وتأثير معنوي، كانت الدعوة بأمس الحاجة إليهما من أجل ترسيخ أقدامها، ويجب ألا يغيب عن بالنا تجربة الرسول (ص) مع قبيلة بني حنيفة تلك التي أظهرت موقفاً عدائياً شديد التطرف بسبب عدم تمكن الإسلام في قلوب أفراد هذه القبيلة والتي سيظهر أثرها واضحاً في أعمال الردة بعد وفاته (ص).

ولعل البحث عن مقر مثل يثرب، لم تفرضه الصدفة بلقاء «العقبة» ولكنه اتصل بفترة طويلة من التأمل والتمهيد إلى تلك النقلة التاريخية التي تمت في أعقابه[2] بعد المرحلة التنظيمية التي قام بها الرسول في المدينة من خلال الصحيفة وما جاء فيها من إجراءات تنظيمية.

ومن المشاكل التي واجهت الرسول مشكلة علاقة دولة النبي مع القبائل البدوية المقيمة بجوارها أو على بُعدٍ منها فقد اتصفت هذه العلاقة بالفتور وانعدام الثقة من جانب النبي، الذي وجد في مواقف البدو تقلباً وفي نفوسهم ضعفاً أمام مصالحهم والتي كانت تصب في إطار التحالف «الإيلافي» مع مكة[3] حيث لجأ الرسول ﷺ إلى تطويع هذه القبائل بالقوة وتهديدها في مصادر ارتزاقها الأساسية والمتمثلة في قوافلها التجارية وعلى الرغم من طابع الحزم والقوة الذي واجه به الرسول مشكلة البدو، إلا أنه لم يصل إلى تحقيق معالجة جذرية لها، حيث ظلت بعد وفاته أحد عوامل الانفجار الأكثر خطورة في الدولة الإسلامية من حروب الردة إلى ثورات القبائل البدوية في دولة بني أمية وبني العباس.

---

(1) ابن خلدون : المقدمة، ص358.

(2) بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية، ص103.

(3) وات. م :محمد في المدينة. ترجمة شعبان بركات، ص349

لقد كان واضحا أن العلاقة بين الجناحين المؤسسين (المهاجرين والأنصار) في دولة (المدينة) هي الأزمة الموقوتة التي ستنفجر بعد موت النبي عليه السلام وكانت أولى مؤشرات هذا التنافس قد ظهرت مقنّعة في موقف عبد الله بن أُبي وجماعته من الخزرج، الذين ضاقوا بالنفوذ القرشي المتعاظم في (المدينة) هذا الشعور اصطدم بأول خيبة أمل تعرض لها الأنصار مع «الهجرة»، العودة إلى مكة. ولم يكن زعيم الخزرج وحامل راية الأنصار سعد بن عبادة يخفي حقده على قريش حيث كان لفتح مكة (8هـ / 630م) شأن آخر عنده ؟ اختلف شأنه لدى النبي والمهاجرين فهو لا يتردد بالمجاهرة فيما نسب إليه وهو على أبواب المدينة القرشية (اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة)[1] لقطع الطريق على وحدة المهاجرين ولإثارة النزاعات القبلية القديمة مما جعل النبي (ص) يعطي الراية لقريش حتى لا يثير ردة فعل مماثلة وعنيفة ويخلق أزمة[2]. واستطاع احتواء هذه النزعة التنافسية لدى الطرفين حيث تنبه لها الرسول منذ الهجرة، وذلك بسن (المؤاخاة)كتدبير مؤقت يستهدف العصبية القبلية في المرحلة الأولى، خاصة وأن المهاجرين ساهموا في إذكاء العصبية، التي ليست في حقيقة الأمر إلا نتاج الشعور بالتفوق واستئثار قريش وأنانيتها. فقد حمل هؤلاء في هجرتهم (وجه مكة). الأرستقراطي وصنعوا لأنفسهم ذلك الدور المهيمن الذي ستتكرس معه الشريعة القرشية في الزعامة «صراع السقيفة» فاستئثار مكة «بالفتح» بعد أن أصبحت ذات أهمية خاصة بعد الإسلام وعند المسلمين لوجود البيت العتيق قبلة المسلمين دون المراكز الوثنية الأخرى المعارضة كحاضرة للحجاز والتي تم إخضاعها بـ(الغزو) (حنين، هوازن، ثقيف) مما أدى إلى استغلال قريش لهذا الموقف كنوع من الامتياز تمتعت به على هذه القبائل.

وجاء العفو عن أبي سفيان - رغم تحجيمه - ليعطي لهذه الشرعية امتداداً خاصاً في البيت الأموي، من منطلق تمثيله لتيار لازال يجد بين المهاجرين من تحمس له، بالإضافة إلى ما قصده الرسول من هذا العمل وهو احتواء أكبر قوى معارضة مع إرضاء نعرة الأرستقراطية لدى أبي سفيان وتوخي المرونة في سياسته المكية وتفادي استخدام القوة واستبدالها بطرق مختلفة من الضغط السياسي والاقتصادي.

---

(1) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص118.

(2) علي بن أبي طالب ؛ الطبري، ج3، ص 118؛ أو الزبير بن العوام: جوامع السيرة، ص 231.

أما الأنصار فقد تحرج موقفهم بعد فتح مكة 8 هـ وأدركوا منذ انتزاع الراية من سعد بن عبادة وهو على أبوابها، أن ثمة معادلة لم تكن في مصلحتهم بعد التئام (جبهة المهاجرين)[1]. وعلى الرغم من استمرار المدينة عاصمة للدولة الجديدة، إلا أن الأنصار تحوّلوا فيها إلى أقلية أو كادوا يكونون كذلك مع قدوم المهاجرين الجدد واستمر الحال طيلة عهد الرسول الذي لم يدم بعد ذلك أكثر من ثلاث سنوات امتدت معها السيادة على شبه الجزيرة الموحدة لأول مرة في التاريخ تمثلت أولى بوادر الخلاف بين المسلمين حول من يخلف الرسول في أمرهم وكثرت الروايات وتناقضت في نقل الأحداث التي رافقت ما فعله الرسول وهو على فراش الموت فقيل إنه (ص) قال: (ائتوني اكتب كتاباً لا تضلوا بعدي أبداً). وقيل بل أوصى بثلاث: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة عمدا، أو قال فنسيتها)[2]. وجاء في صحيح البخاري لما حضر الرسول عليه السلام الموت وفي البيت رجال، قال النبي ﷺ (هلمّوا أكتب لكم كتابا لا تضلوا (أو لا تضلون) بعده). فقال بعضهم إن رسول الله عليه السلام قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت و اختصموا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف. قال رسول الله ﷺ: قوموا. قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم[3].

يخلص من ذلك أن النبي أراد قبيل موته أن يعهد بخلافته لشخص يختاره هو بنفسه، لكن هذه الإرادة لم تتحقق نتيجة المعارضة التي أبداها البعض، ونحن نعتقد أن هذا الطرح قدمته كتب الأخبار لأسباب ودوافع مصلحية بحتة إذ لا يعقل أن الرسول يغفل عن هذا الأمر العظيم بشأن هذه الأمة لو أراد ترك وصيّ عليها، ولكنه ترك للأمة حرية اختيارها بنفسها مؤكداً أن هذا الأمر هو أمر دنيوي يخص المسلمين في اختيار الشكل المناسب للحكم السياسي الذي يرغبون فيه حسب

---

(1) راجع قول الأنصار بعد فتح مكة :(أترون رسول الله عليه السلام إذا فتح الله عليه أرضه وبلده ويقيم فيها؟) ابن هشام : السيرة النبوية، ج 2، ص416.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ص 218، 223.

(3) البخاري، عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة :صحيح البخاري، (طبعة دار مطابع الشعب القاهرة، د. ت).

ظروف حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحسب العصور التي سيعيشونها، وما يحدث فيها من تطورات دون أن تكون الوصاية لأحد بوضع شكل أو إطار معين لهذه السلطة وهذا بُعد نظر عُرف عن الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام.

المبحث الأول

اجتماع سقيفة بني ساعدة وظهور الاتجاهات السياسية

ثمة إجماع على أن اجتماع السقيفة عقد يوم وفاة النبي في السنة الحادية عشرة للهجرة سنة (632م) وقبل الانتهاء من تهيئته وتشييعه ودفنه[1]. وكان الأنصار هم الذين سارعوا إلى الاجتماع أولا، وكان في نيتهم أن يولوا سعد بن عبادة أمر المسلمين بعد النبي. واستندوا في ذلك إلى سابقتهم في الدين وما نتج عنها من فضائل لم تتوفر لأية قبيلة عربية وعززوا موقفهم بالإشارة إلى أن النبي استمر زمناً طويلاً يدعو(قومه) إلى الإيمان بإله واحد، ولم يؤمن منهم إلا عدد ضئيل لم يكونوا قادرين على الدفاع عنه أو تعزيز الدين الجديد، وهذا ما خصّ به الأنصار. فبقوة الأنصار دانت العرب للإسلام وهو أمر دفع سعد بن عبادة إلى أن يخاطبهم بقوله: (استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس)[2] وحين تساءل بعض الأنصار عما يفعلون إذا رفض المهاجرون مقالتهم هذه، اقترحت طائفة أن تقول لهم: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بغير هذا الحل. ورغم ذلك رأى سعد بن عبادة في هذا الأمر بداية للضعف والوهن[3].

وكان للمهاجرين رأي أخر حيث رأوا أنهم أحق بالخلافة، لأنهم أهل النبي وأصحابه وقد تركوا بلدهم وهاجروا معه. وبين هذا الرأي وذاك اشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضي إلى النزاع. لولا مبادرة عمر بن الخطاب بمبايعة أبي بكر الصديق وهو يقول للأنصار: (والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج، 3ص223.
(2) الطبري: المصدر نفسه، ج3، ص216.
(3) الطبري: المصدر نفسه، ج3، ص219.

غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم)[1]. بل أن الطبري يذكر[2] أن عمر رأى إنه سلطانهم وإمارتهم وهم أولياء الرسول وعشيرته وهم أحق بذلك.

والغريب أن يصدر هذا الأمر من عمر بن الخطاب وهو أعدل الناس حيث اعتبر الدعوة الإسلامية، سلطاناً أو ملكاً أو إمارة وهم أحق بها لأنهم عشيرته وأولياؤه رغم أن الرسول عليه السلام لم يشر في أحاديثه إلى أنه ملك أو أمير أو سلطان بل هو مبلّغ لرسالة سماوية تنتهي بانتهاء اكتمال الدين. حيث قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[3]. وبالتالي فإننا نعتقد أن ما نسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر مشكوك فيه ويدعونا للنظر من جديد إلى تلك المقولات بوصفها مقولات تمس جوهر النقاش السياسي العام الذي يتوقف على حسمه مصير الدولة والسياسة في المجتمع العربي.

ولو نظرنا بشيء من الإمعان لعبارة الله أكبر وهي التي كانت شعار المسلمين منذ البداية وحتى النهاية في الحرب والسلم، والتمرد على الحاكم والظلم، وعمل الإحسان، تعبيراً عن هذه الروح الكامنة في رسالة التوحيد الإلهية فهي تعني ببساطة أنه لا سلطة يمكن أن ترتفع على سلطة الله ولا سلطان حقيقي لأحد على أحد ولا اعتراف بسلطة إلا لله ولا عبودية لغير الله[4]، وفي ضوء هذا التفكير نزعت بعض الفرق الشرعية نهائيا عن أي سلطة، بما في ذلك السلطة الدينية ورفضت التبعية السياسية لأي حاكم وبالتالي أنكرت الشرعية ولم يعترف بها حتى لصحابة رسول الله عليه السلام ومن هنا احتدّ الصراع والنزاع.

ولهذا نجد أن الإسلام لم يتحدث عن السياسة أو يقدم رأيه فيها. وليس من قبيل الصدفة تجاهل القرآن لها، فهذا التجاهل نابع من الاختيار الأول للدين والروح بمعنى الإرادي والحري والباطني كوعاء للرسالة مقابل الدولة التي كانت

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج3، ص201.
(2) الطبري : المصدر نفسه، ج3، ص220.
(3) القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 2.
(4) برهان غليون : نقد السياسة «الدولة والدين»، ص29، 43.

رديفاً لقوة السيطرة القهرية. فلقد وُلدتَ الدعوة عند العرب كحركة ثورية بالمعنى العميق للكلمة، وكان النبي قائداً روحياً وسياسياً وعسكرياً لهذه الحركة، أي كان يجمع في يده مهام الهداية والرعاية والحرب معا، بما كان يُمثله من وسيط بين السماء والأرض، أي كان حاملاً للرسالة ومتلقياً للوحي، وكان بذلك المحور الذي تلتف من حوله الجماعة، ومنبع القيم العاملة على تنظيمها بما هي جماعة الرسالة والوحي فلا يوجد هنا أي اختلاط بين الدين والدولة[1].

وهذا ما أراد الرسول غرسه في أذهان المسلمين، فأمر الدين قد بلّغهم إياه، وأمر الدنيا تركه لهم بعد أن وضع بعض النظم التي تساعدهم في أمر دنياهم كما جاءت واضحة في القرآن وهذا هو السبب الذي جعل المسلمين يقعون في صراع بمجرد وفاته. والبداية كانت مع الصحابي الجليل عمر بن الخطاب الذي رفض أولاً قبول فكرة موت الرسول ولم يكن سهلا على المؤمنين فهم أبي بكر رضي الله عنه عندما قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. وهذا ما أكده عمر رضي الله عنه عند البيعة ثم اعتذاره عن مبادرته في البيعة لأبي بكر في السقيفة دون التفاهم مع الآخرين فيقول: (يا أيها الناس إني قد قلت لكم بالأمس مقالة فما كانت إلا عن رأي، وما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهده رسول الله ﷺ..)[2].

وليس صحيحاً القول أن الصراع على السلطة كان صراعاً دينياً نابعاً من الدين نفسه[3]. لأن الوقائع التاريخية التي تُنبئنا بما جرى في السقيفة تدلّ على أن الصراع فيها كان صراعاً سياسياً حول من يتولى «السلطة أو الزعامة» بعد وفاة الرسول ومن هو أحق بها.

وفي هذا الإطار كانت مساعي قريش وتحركاتها لكي تفرض هيمنتها على باقي القبائل العربية، فكان الصراع واضحا بين البدو والحضر وبين قريش والأنصار وبين قبائل قريش نفسها وبين الهاشميين والصحابة وازداد الصراع السياسي وضوحاً بعد مقتل عثمان وعلي رضي الله عنهما، وبرزت عدة اتجاهات

(1) برهان غليون : المرجع نفسه، ص43.
(2) ابن هشام : السيرة النبوية، ج4، ص311.
(3) برهان غليون هو الذي طرح هذه النظرية وبنى عليها قضية تطور الخلافة. غليون: الدولة والدين، ص64.

وتيارات سياسية تمثلها فرق مذهبية بدأت تطفو على السطح بعد أن كانت مبعثرة اجتماعياً ومبعدة سياسياً ولهذا رأت أن الأوان قد حان للمطالبة بحقها في ممارسة حقها السياسي (أي ممارسة السلطة) من خلال عدة شعارات رفعها غُلاة الفرق تعبيراً عن آرائها ومفاهيمها السياسية فلا نزاع حول الأصول الدينية، وكان جوهر الخلاف يدور حول أمور سياسية بحتة وعقائدية منها فكرة الإمامة والحاكمية ومن أحق بها.

إن مرحلة مخاض عنيفة عاشها المسلمون منذ وفاة الرسول واجتماع السقيفة والخطبة المهمة التي ألقاها أبو بكر في السقيفة تلك الخطبة التي كان لها وقعها المؤثر في نفوس المجتمعين حيث أوضح فيها حال العرب قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له، والصبر معه، على أذى كل الناس لهم. فهم أول من عبَد الله وآمن برسوله وهم أولياؤه وعشيرته «وأحق الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلا ظالم وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام.. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور»[1]. فأبو بكر ﷺ أعلنها صريحة من خلال خطبته:

أولا: أنهم أصحاب الحق في تولي الأمور بعد الرسول لأنهم هم المهاجرون الأوائل وهم الذين تحملوا العذاب وصبروا معه على شدة الأذى وبالتالي من حقهم وحدهم تولي الأمور.

ثانيا: نجد أن أبا بكر الصدّيق رأى أن كل من ينازعهم هذا الأمر هو «ظالم» وهي صفة جعلت كثيراً من المسلمين يتراجع عن المطالبة بالحكم خوفاً من أن يكون ظالماً لاسيما أن توقيت إثارة هذه المطالب لم يكن مناسباً لأن الأيام كانت مفعمة بالحزن والألم نتيجة وفاة الرسول لكن هناك صراع خفي يكاد يعصف بالأمة الإسلامية يتمثل في اعتقاد أهل الرسول وعشيرته بأحقيتهم بهذا الأمر[2].

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج2، ص159.

(2) يجب أن نقف عند نقطة مهمة جدا وهي أن لفظ «الإمام» لم يتم ذكرها في الخطبة وإنما جاءت بعد ذلك بفترة من الزمن وركزت عليها العديد من الفرق وجهة نظرها السياسية والدينية.

ورغم الآراء العديدة والاختلافات حول الطريقة التي جرى فيها اختيار الخليفة الأول في الإسلام «حيث يرى إبراهيم بيضون أن اختيار أبي بكر كان إحدى الفلتات في التاريخ حيث الصدفة والمناسبة، لعبتا دوراً قوياً[1] . يرى سهيل زكار أن ما جرى في السقيفة لم يأخذ بعده الجدي إلا مع تحول القرار إلى أمر واقع»[2]، بينما يزعم البعض الأخر مثل الطبري، والمسعودي إنها جاءت نتيجة الشورى على أساس أن طرح البيعة لأبي بكر في السقيفة، جاء متوافقا مع بعض الآيات القرآنية[3].

لقد تولى المهاجرون السلطة الفعلية في الوقت الذي ابتعد الأنصار عنها كثيراً دون أن يكون للتسوية التي طرحها أبو بكر في السقيفة «نحن الأمراء وأنتم الوزراء»[4] أي نصيب من التنفيذ باستثناء مشاركة تمت لهم في عهد عمر الذي قرب منهم جماعة على حساب قريش ومشاركة أكثر فعلية في عهد علي إذ اعتمد عليهم في إدارته وحروبه[5] نتيجة موقفهم المؤيد له في تولي الأمور في السقيفة رغم أن هذا الأمر يشوبه الإبهام وذُكر فقط عند الطبري واليعقوبي[6].

وأعتقد أن أمر وصول أبي بكر الصديق إلى الخلافة لم يتم بناء على ما ورد ذكره إنما جاء نتيجة لتفكير عمر بن الخطاب السياسي الموهوب والإداري الصلب (وهذا ما أكدته فيما بعد خلافته) أن يقود السقيفة إلى الأمان بعدما رأى أن الأمر قد يتطور إلى نزاعات وصراعات من حيث اعتقاد كل فئة بأحقيتها بهذا الأمر (كالأوس والخزرج) فكانت السرعة في التحرك وفي الاختيار من الأسباب التي أدت إلى نجاح عمر في اختيار أبي بكر الصديق حيث كان ﷺ شخصية هادئة ومعتدلة فائزة بحب الجميع، بالإضافة إلى حب الرسول له وقربه منه وأسبقيته في الإسلام.

ورغم أن الأمور جرت كما أراد لها عمر في تولية أبي بكر وحماية وحدة

---

(1) إبراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية، ص19.

(2) سهيل زكار : تاريخ العرب السياسي، ص53-54.

(3) **﴿أمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾** القرآن الكريم: سورة الشورى، الآية 38.

(4) البلاذري: أنساب الأشراف، ج1، ص584.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج6، ص7، 9؛ البلاذري : المصدر نفسه، ص381.

(6) الطبري: المصدر نفسه، ج 3، ص198؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص123.

الأمة من الانشقاق، فإن أبا بكر اعترف في أواخر أيامه كما جاء عند اليعقوبي والمسعودي[1]: بأن ما جرى في السقيفة ليس فيه شيء من الشورى حيث قال: «ليتني سألت رسول الله ثلاث أشياء.. فلمن هذا الأمر فلا ينازعه فيه، وهل للأنصار فيه من شيء، وعن العمة والخالة تورثان أولا ترثان، وإني ما أحببت من دنياكم بشيء».

نستنتج من هذه الرواية أن أبا بكر كان يتوقع أن يكون للأنصار في أمر الولاية شيء وبالتالي عاش هاجس الخوف من أن يكون قد منعهم إياه.

عندما حدثت البيعة لأبي بكر في السقيفة رفض علي أن يبايع ورأى نفسه أحق بها وقد أيده في ذلك آل البيت جميعا. إلى أن جاءه أبو عبيدة بن الجراح وأقنعه بالمبايعة بعد أن حمل رسالة من أبي بكر الصديق وزاد عليها عمر بعضاً من آرائه واقتراحاته محاولين أن يقنعوه بما حدث في السقيفة، ويشرحون له كيف تطورت الأمور حتى كادت أن تعصف بوحدة الأمة فكان لابد من حل حاسم وفوري فجاءت مبايعة أبي بكر من أجل وحدة الأمة من الانشقاق[2].

ويزيد اليعقوبي[3] فيقول: وكان إلى جانب علي من غير آل البيت مجموعة نخبوية أخرى كانت مقربة من الرسول واحتلت مكانها في تاريخ الدعوة الإسلامية من أمثال «سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو، فضلا عن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله». ولا يخفى ما كان لهذه الفئة من ثقل معنوي في عاصمة الإسلام حيث ساهموا بشكل مباشر في صنع الأحداث السياسية والفرق التي انبثقت عنها عبر الصراعات الطويلة والتي سنتناولها في البحث.

وهذا الاختلاف القوي بين الصحابة في البداية يؤكد على أن ما حدث في السقيفة لم يأت عن طريق الشورى كما تزعم بعض المصادر السنية فالشورى التي عرفناها عن الرسول هي التي كانت تتم في المسجد حيث يجتمع المسلمون بالرسول ويتناقشون في أمور دينهم ودنياهم وكان فيها الرسول يناقش المسلمين دون تمييز ويأخذ برأيهم ومشورتهم لا فرق عنده بين عربي وأعجمي ولا بين صغير وكبير فالكل سواسية أمام الله وكان المسجد يضم أكبر عدد من

---

(1) اليعقوبي: المصدر نفسه، ج2، ص137؛ المسعودي: مروج الذهب، ص301، 302.

(2-3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص123.

المسلمين[1] وبالتالي كان يسمح بإعطاء الرأي لأكبر عدد منهم اهتداءً بما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية كمبدأ عام ونهج كلي، وترك أمر التفصيل فيه والتحديد له لاجتهاد الأمة وفق مصالحها المتجددة وحاجتها المتطورة ولقد عرض القرآن الكريم لمعنى الشورى في كثير من قصصه. فالشورى في القرآن فلسفة يزكيها كي تكون السبيل لمعالجة أمور الدنيا وسياستها **﴿وشاورهم في الأمر﴾**[2].

أما ما تزعمه بعض المصادر في أن الإمامة في قريش متكئة على رواية أبي بكر حيث تورد أن أبا بكر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «الأئمة من قريش»[3] فهي مقولة استغلتها جميع الفرق الإسلامية وفسرت بها «الإمامة» كلاً حسب رؤيتها ومصالحها وكانت النقطة الرئيسية في الخلاف والصراع خاصة بين الشيعة والخوارج. ولو سلمنا فعلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قالها فإننا نرى أن الرسول يقصد بها إمامة الصلاة والشرائع ولا يقصد الجانب السياسي بتاتاً. فكلمة الإمامة لم تكن معروفة بالمفهوم السياسي إلا بعد ظهور الشيعة والغُلاة من الخوارج وتحديداً في زمن عثمان بن عفان حيث أصبح الإمام في نظرهم هو من يتولى الأمور السياسية والدينية وخصوا بها شيعة عليّ وأولاده من بعده. أما في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فكانت الإمامة تعني الصلاة والدليل: أن الرسول أثناء مرضه طلب من أبي بكر أن يؤم المسلمين في الصلاة ولهذا السبب أخذها المسلمون عن طريق القياس[4] بينما نجد مثلاً أن الرسول يستعمل لفظ أمير للقائد الذي يقود السرايا التي كان بعثها عليه السلام في مراقبة قوافل قريش أو اعتراضها وهي ذات دلالة سياسية أكثر لأنها تعني «الزعامة» وبالتالي لو أن الرسول عليه السلام كان يقصد الزعامة لقال لهم مثلا «الأمراء من قريش» ولكنه قال :الأئمة ولو افترضنا صحة هذا الزعم فنظن أنه نوع من التفضيل قصد الرسول إعطاءه للمهاجرين باعتبارهم من أوائل الصحابة تكريماً لهم عن هجرتهم دفاعا عن الإسلام والناس الذين تبنوا هذه الفكرة تنطبق عليهم مقولة

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ؛ ابن خلدون :المقدمة ؛ ابن قتيبة : الإمامة والسياسة.
(2) القرآن الكريم : سورة آل عمران الآية 159.
(3) البلاذري : أنساب الأشراف، ج1، ص 584؛ ابن خلدون : المصدر نفسه، ص 543؛ الطبري :المصدر نفسه، ج3، ص108؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص10.
(4) ابن خلدون: المقدمة، ص339.

سيدنا علي في الخوارج (كلمة حق أريد بها باطل) وهذا لا يعني شيئاً سوى غياب الشورى (المتمثلة في شورى المسجد ومشورة أكبر عدد من الناس) وحلت محلها شورى وجوه سكان المدينة من المهاجرين والأنصار إذ لم يدخل في الشورى أفراد من وراء حدود العاصمة (المدينة) من عرب الحواضر أو أعراب البوادي.. وأيضا، ففي نطاق معاينة زعماء سكان المدينة يتبين أنه كان هناك ميزة وامتياز لتلك الهيئة الاستشارية القيادية وهي هيئة المهاجرين الأولين (المجلس الاستشاري للخلفاء) وهذه هي التي احتكرت لنفسها حق الترشيح من بين أعضائها لمنصب الخلافة، وكان لها الحق وحدها في ذلك وكثيراً ما كان تميّزها موضع جدل ونقاش وموطن خلاف قد أقر عمر بن الخطاب بهذا الخلاف حين قال عن نفسه عندما بايع أبا بكر الصديق وفرض على المسلمين مبايعته : «لو فعلتها مرة أخرى قاتلوني»[1] ورغم صنيعه الشورى المفتعلة والتي رافقت بيعة السقيفة نجد أن عصبية قريش هي التي حالت دون خروج السلطة من (المهاجرين). أصبحت نظرية فرضها القرشيون على المسلمين كافة ولا تزال بعض الفرق تعتبرها جزءاً أساسياً في تولي أمر الخلافة والسلطة.

ومع كل هذه الملابسات فقد تولى أبو بكر الصديق الخلافة وواجهه حدثان بارزان هما : الردة على المستوى المحلي، والفتوحات خارج الإطار الجغرافي للحجاز، وكان لكلا الحدثين تأثيره العميق والجذري على الدولة الإسلامية. أضف إلى ذلك مشكلة ولاية العهد والطريقة التي سيتم بها اختيار الخليفة.

حركة الردة:

ورد في التنزيل: ﴿**من يرتد منكم عن دينه**﴾، كما ورد مصطلح الردة عند ابن منظور بقوله: ارتّد عنه :تحول. والاسم الردّة ومنه الردّة عن الإسلام أي الرجوع عنه. وارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد إسلامه ورد عليه الشيء إذ لم يقبله وكذلك إذا أخطأه. ونقول :ردّه إلى منزله وردّ إليه جواباً أي رجع[2].

والردّة بالكسر :مصدر قولك ردّه يرُده ردّاً وردّةً. والردّة : الاسم من الارتداد.

(1) أبو يوسف: موسوعة الخراج، كتاب الخراج، ص12.

(2) ابن منظور: لسان العرب، ص1150.

وفي حديث القيامة والحوض: فيقال أنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم أي متخلفين عن بعض الواجبات. قال: ولم يُرد ردّ الكفر ولهذا قيده بأعقابهم لأنه لم يرتد أحد من الصحابة بعده إنما ارتد قوم من حفاة الأعراب(1).

وقد اتفق بعض المؤرخين على أن الردّة نوع من الانتكاس الديني والسياسي تورط فيه العرب قبيل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي بداية عهد أبي بكر(2). فقد كانت هذه الحركة أول اختبار للمجتمع الإسلامي الجديد وأول شرخ يصيب هذا المجتمع الموحّد في إطار الإسلام كما كانت المجابهة الأولى للخليفة، حيث وضعت كفاءته القيادية أمام الامتحان الصعب، فالاضطراب الذي لازم مواقف القبائل العربية التي لم يترسخ الإسلام في قلوبها لحداثته ما بين متبنٍّ ومرتد وساخط، وحّد مشاعر التيارات المختلفة في (المدينة) حول الخليفة أبي بكر ناسية همومها في الحكم لتتفرغ إلى الهم الأكبر والأخطر الذي استهدف جوهر العقيدة، وذلك أن وفاة الرسول جعلت بعض القبائل العربية تشعر بنوع من التحرر من التزاماتها المادية والمعنوية إزاء حكومة الرسول ممثلة في تأدية الزكاة(3).

ويبدو أن الأحداث السياسية التي حدثت في السقيفة جعلت القبائل تتمرد على سلطة المدينة وترفض تبعيتها كنوع من التحرر من النفوذ السياسي للدولة الإسلامية الجديدة والمنطلق أصلا من المفهوم الجاهلي خاصة وأن هذه القبائل لم يتمكن منها الإسلام فضلاً عن رفضهم دفع الزكاة حيث اعتبروها جزءاً من دولة الرسول. والرسول مات. ولقد كان أبو بكر حازماً وأثبت أنه رجل الدولة الأقوى وصاحب القرار المسؤول خاصة عندما اشتد أمر الردّة واستفحل أمر المرتدين، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي «عاصمة المسلمين» فهاجموها. ولم يتوان الخليفة في ضربهم بشدة واتهامهم بالتآمر على وحدة الدولة وعلى العقيدة هذه الشدة التي تزعّمها خالد بن الوليد بعد أن توحدت الجبهة السياسية في المدينة «المهاجرين والأنصار» حيث تضافرا معا في التصدي لهذه المحنة وتذليل أول محاولة تستهدف جوهر العقيدة ملتفة حول خليفتها. فهذه الحروب لو قيّمناها لوجدناها من الناحية السياسية أعادت وحدة الصف للأمة الإسلامية بعد أحداث

(1) ابن منظور : لسان العرب المحيط، ص1150.

(2) المؤرخون هم الطبري ؛ وابن الأثير؛ والمسعودي ؛ وابن خلدون.

(3) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج1، ص128

السقيفة ثم ليتفرغ الخليفة إلى المواجهة الثانية وهي الفتوحات الإسلامية لاستكمال مشروع الفتح ونشر الإسلام. أما المواجهة الثالثة التي واجهت الخليفة أبا بكر الصديق هي مسألة استخلاف عمر بن الخطاب ومبايعة أبي بكر له في حياته، غذت الأحداث السياسية غُلاة الفرق الإسلامية فوظفت أحداث المبايعة التي جرت في السقيفة ثم في استخلاف أبي بكر لعمر ثم ما جرى من استخلاف عمر لهيئة استشارية منحت لنفسها حق الشورى واتخاذ القرار نيابة عن الأمة في اختيار عثمان بن عفان وإبعاد علي بن أبي طالب ثم إلغاء هذا المجلس نهائيا بعد أن تولى عثمان بن عفان وسيطرة بني أمية على مقدرات الأمور السياسية والاقتصادية.

وكان لها دورها في إحداث الفتنة «الحرب الأهلية» بين المسلمين في عهد عثمان (35هـ / 655م)[1] وكان من نتائج هذه الحرب الصراع بين علي ومعاوية (36هـ/ 656م) ثم بين أولاد علي الحسن والحسين وبني أمية (60هـ/ 680م) ثم بين العلويين وأبناء عمومتهم العباسيين كل ذلك بسبب الصراع على السلطة. أدت هذه المصادمات الدامية والتي نشطت الفرق في تأجيجها وإشعال نار الفتنة عبر قرون من الزمن إلى انقسامات مذهبية. وأُدلل على ذلك بمقولة أبي بكر الصديق عندما مرض دخل عليه أناس من صحابة رسول الله عليه السلام يسألونه كيف أصبح ؟ فقال : (والله إني لشديد الوجع، ولما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشد علة من وجعي، إني وليت أمركم خيركم إلى نفسي، فكلكم ورم أنفه إرادة أن يكون هذا الأمر له)[2].

ويروي السيوطي أن أبا بكر سأل الصحابة عن عمر فأجمع الجميع على أن عمر هو خير من يلي هذا الأمر. ثم دعا عثمان بن عفان فكتب له وصيته باستخلاف عمر بن الخطاب وأوصى المسلمين بالسمع له والطاعة[3] وبهذا يتضح أن أبا بكر الصديق تصرف تصرفا رأى فيه خير الأمة حيث قال: اللهم إنّي لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيا[4]. وهو رأي تفرد

---

(1) هذه الحرب أعتبرها ظاهرة صحية من ناحية المبدأ لأنها تنطلق من مبدأ مساءلة الحاكم وهي قمة الشورى التي أرادها الإسلام رغم أنها استغلت بعد ذلك أسوأ استغلال من بعض الغوغائيين الطامعين العلويين في الجاه والسلطة.

(2) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة،ج1، ص23.

(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص86.

(4) السيوطي : المصدر نفسه، ص86-87.

به رضي الله عنه هو وبعض صحابته معتقدين أن إلى هذا الأمر صلاح الأمة وخيرها.

وبشيء من المصداقية نقول: إن الأمر لم تكن فيه شورى لكل الأمة «شورى المسجد» بل إن المهاجرين والأنصار أنفسهم دخلوا على أبي بكر حينما بلغهم أنه استخلف عمر[1]، فقالوا: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وأنت ترى غِلظته ؟ وهذا أول صوت مضاد رفع في وجه أبي بكر معلنين رفضهم لعمر بسبب قسوته وغلظته رغم أنها كانت للحق. ثم إن الفئة الأرستقراطية القرشية المتمثلة في «عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله» كانوا يرون في تولي عمر تهديداً لمصالحهم الاقتصادية، بينما نجد أن علياً ﷺ قد غُيّب تغييباً كاملا عن هذه المشاورات ولم أجد عند اليعقوبي أو الدّينوري أو السيُوطي أو الطبري أو غيرهم أي إشارة لوجوده أثناء مناقشة هذا الأمر، وهذا يدل على أن استبعاده كان مقصوداً من قبل الخليفة لعلمه أن علياً يرغب في هذا الأمر منذ وفاة الرسول، وبالتالي فإن مبايعته هو بالذات ستثير العديد من المشاكل بين الصحابة وقد يتحول الأمر إلى بيت آل هاشم العلويين حكماً وراثياً وتعطى له الصبغة الدينية وهذا يتنافى مع روح ونص القرآن. لقد أيقن الخليفة أبو بكر أن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل قوي جدير بتولي شؤون الأمة فكان عمر بن الخطاب الذي تولى الخلافة سنة 13هـ-634م، و قال: «ما أنا إلا رجل منكم ولولا أني كرهت أن أردّ أمر خليفة رسول الله لما تقلدت أمركم. فأثنى عليه خيرا»[2].

لقد امتاز عمر بعقليته التشريعية الفذة وقدرته على الاجتهاد وإعمال الرأي توخياً للعدالة المستمدة من جوهر الإسلام وقد قال فيه جعفر الصادق: [3] أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير. ولقد كان شديد المحاسبة لعمّاله حيث قال لهم: «. . إنما استعملتكم على أمة محمد لتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل. جردوا القرآن وأقلّوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم»[4].

---

(1) ابن قتيبة : المصدر نفسه، ج1، ص25.
(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج1،ص139.
(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص132.
(4) الطبري : تاريخ الرسل والملوك،ج4،ص204.

المبحث الثاني

مأزق السلطة في ظل خلافتي عثمان وعلي رضي الله عنهما والصراع الشيعي منذ عهد عثمان

(12ربيع الأول 11هـ حتى 23هـ 644/ 655 م)

إن حادثة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب سنة (23هـ/ 644م)لم تكن عادية في أسبابها وملابساتها، فالظروف التي رافقتها والبراعة المدهشة في حبك خيوطها، تبعث على الاعتقاد بأن وراء الاغتيال أسبابا سياسية واقتصادية فرغم اتباعه سياسة معتدلة مثل سياسة أبي بكر لكي يرضي الأطراف المختلفة ولا يثير الخصوم فضلاً عن إدارته الصلبة في الحكم وأسلوبه الصارم في تطبيق القوانين دون استثناءات أضف إلى ذلك الفتوحات الكبيرة التي تمت في عهده والتي جاء بسببها الانتشار الكبير لنفوذ الخلافة وحدث الاحتكاك بشعوب ذات تجربة قديمة في شؤون الحكم والعلاقات السياسية مثل الفرس في العراق، والبيزنطيين في الشام ومصر فأخذ عنهم طرق تنظيماتهم الإدارية و استعان بهم في استحداث تنظيمات إسلامية في أجهزة الدولة حيث دوّن الدواوين وأنشأ دواوين العطاء والجند ونظم الولايات والإمارات والقيادات العسكرية. وهذه التنظيمات التي أحدثها عمر في أجهزة الدولة قادرة على القيام بدورها المطلوب في الظروف البيئية والاجتماعية المختلفة في حماية الجماعات الإسلامية الناشئة وتعميق التربية الإسلامية والقرآنية وهي «استجابة حتمية لتحديات أفرزتها الفتوحات الكبرى التي تمت بسرعة مذهلة»[1].

---

(1) إبراهيم بيضون : التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص78، 79.

ويجب ألا نغفل عن أمر هام آخر أوجده عمر ويتمثل في موضوع العطاء وبيت المال وهو موضوع أثار نقمة الفئة الأرستقراطية[1] والتي عرفت بثروتها وغناها منذ الجاهلية الأولى وزادت بعد الفتوحات نتيجة للغنائم التي كسبوها من أمثال (عبد الرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، وطلحة بن عُبيد الله، وبعض بني أمية وعلى رأسهم عثمان ﷺ. رغم رفض عمر لهم وموقفه منهم) ففي عهده كان يستمد موارده من الغنائم بشكل رئيسي، ومن الزكاة والعُشر والجزية وكانت هذه الأخيرة على جانب من الأهمية، خاصة بعد قرار الخليفة بإبقاء الأراضي الزراعية في أيدي أصحابها الأصليين مما ساهم في توفير مناخ مشجع للاستقرار في البلاد المفتوحة من جهة، ودعم عائدات الدولة المالية من جهة ثانية وكان الغرض من هذا القرار هو تحقيق الانصهار والتلاحم بين مجتمعات هذه البلدان وبين العرب الفاتحين. غير أن ذلك سيعكس تحفظاً لدى الفئة الأرستقراطية في الحجاز وجلها من بقايا التجار وأهل الثراء قبل الإسلام. وهكذا ارتأى عمر كبح طموحاتهم في استثمار الأراضي الزراعية والاستفادة من الظروف المستجدة بعدما ألزمهم بالبقاء في الحجاز والإقامة تحت مراقبته لكن هذا الأمر اختلف في عهد الخليفة عثمان وكان من أسباب الثورة عليه.

أما القاعدة التي اتخذها عمر مقياساً لتوزيع العطاء فكانت لها خلفيات متصلة بمبدأ أساسه النسب[2] والقرابة برسول الله ثم بمبدأ الأسبقية في الإسلام أو المشاركة في أحداثه التاريخية البارزة لاسيما المعارك الأولى «كبدر وأُحد» وبقية المعارك الكبرى في الشام والعراق.

ولو بحثنا في نظام الحكم في عهد عمر، لوجدنا أن مردّ كل الأشياء في الدولة من حيث الجوهر إلى الله وليس الخليفة إلا المنفذ لإرادة الله ورسوله وهذا المعتقد ساد في العصر الإسلامي الأول، ومعنى ذلك أن الخليفة جمع في

(1) انظر فصل تحديد المصطلحات، ص276.

(2) يروي ابن الأثير في الكامل في التاريخ، ج 2ص297، أن الخليفة عمر بدأ بالعباس عم النبي. ثم الأقرب فالأقرب ثم فرض لأهل الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف وكذلك من شهد فتح الفتح وقاتل مع أبي بكر ومن ولي لأيام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة ألف ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين. الطبري :تاريخ الأمم والملوك،ج4، ص162، 163.

يده السلطة مع احتفاظه بمجلس هو عبارة عن هيئة استشارية غير رسمية غالبا ما تتكون من كبار الصحابة وذوي التجربة والمعروفين بأسبقيتهم في الإسلام وتنحصر مهمتها في تزويد الخليفة بالنصيحة وتتناقش معه في القضايا المصيرية. ويبدو أن هذا المجلس لم يكن موجوداً بصفته الهيكلية على الأرجح، وإذا رجعنا إلى قول أبي يوسف بهذا الشأن لا نجد ما يقطع بوجود هذا المجلس من الناحية العملية، سوى أنه يؤدي دوراً معيناً لشيوخ الصحابة إلى جانب الخليفة وهؤلاء حسب ما جاء في كتاب الخراج (مجلس من الكبار المسنين هم أهل الشورى وكان يتألف من كبار الصحابة، وكانت جلساته تعقد في مسجد النبي عليه السلام، وفي أغلب الأحيان كان يساعد هذا المجلس أعيان (المدينة) وزعماء البدو الوافدين إلى المدينة، فضلا عن أنه كان في مقدور كل فرد ممن حضر المجلس أن يدلي برأيه)[1].

وبهذا يتضح أن المجلس الاستشاري المحدود باعتباره هيئة مستقرة لم يكن له وجود محسوس إلى جانب الخلافة فيما كان المجلس العام الذي يعقد في المسجد والذي يضم أكبر عدد من المسلمين هو لقاء عام يتم بين الخليفة والناس على كافة المستويات من صحابة وزعماء وأفراد عاديين يشاركون في الرأي، وهذه هي الشورى التي نرى أنها هي الصحيحة فهي تذكرنا بشورى رسول الله وبالتالي تنفي المجلس الاستشاري المقتصر على أفراد مميزين وهو أمر يثير التساؤل لدينا حول وجود هذا المجلس أو عدم وجوده والتوصية به أو إهماله من قبل عمر أثناء إغتياله. فالمسعودي يذكر عزوف عمر عن تسمية أي مرشح أو هيئة مؤقتة على الرغم من إلحاح ابنه عبد الله على ذلك[2].

أما الطبري فقد أورد أن الخليفة أصيب بست طعنات قاتلة، وكان في وضع سيئ[3]، بيد أن ذلك لم يمنعه من مناقشة أمر الخلافة مع الصحابة الستة بالرغم من إصابته البالغة، وهو أمر يثير شكّنا، إذ كيف يتسنى لإنسان يصاب بمثل هذه الإصابة ويجد في نفسه القدرة على مناقشة مثل هذا الأمر الخطير. وعندما تتأمل الأشخاص الستة الذين أوصى عمر بهم نجدهم أنفسهم أعضاء المجلس

(1) أبو يوسف : موسوعة الخراج، ص30.
(2) المسعودي : مروج الذهب، ج2، ص351.
(3) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج5، ص13؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص25.

الاستشاري الذي أشرنا إليه فيما سبق والذي يتكون من أقطاب الأرستقراطية التقليدية وهم الفئة الغنية والتي حاربها عمر بكل قوة ومنعها من مغادرة المدينة إلى البلاد المفتوحة وبالتالي نجد أن تشكيلة المجلس بالكامل «ماعدا علي» كانت متجانسة الأفكار والمواقف إذ وحد بينها الوقوف دون وصول علي رضي الله عنه إلى الخلافة لأنه يمثل التيار المتشدد في الإسلام والمنحاز إلى الفئات الشعبية الفقيرة والمعبّر عن مصالحها وأفكارها وهو في ذلك أقرب الستة إلى سياسة عمر بن الخطاب بينما كان كل من عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله من فئة التجار وذوي الأموال والثروة وعُرف عنهم جميعاً حبهم الشديد لامتلاك الضياع والإقطاعيات وبسبب هذه المصالح تم اختيار عثمان بن عفان بأسلوب إنفرادي طرحه عبد الرحمن بن عوف ووضع نفسه بمثابة الوصي على هذا المجلس المتكون من الأعضاء الستة إذ قام بمهمة مساءلة الناس عمن يريدون أن يكون خليفة علي بن أبي طالب أم عثمان بن عفان وهذه الرواية التي يوردها المؤرخون تثير الشك والريبة وعدم المصداقية لدينا. وبالتالي جاء عثمان إلى الخلافة (23هـ/ 644م) وهو لا يدري على الأرجح بدور القوى الخفية المتمثلة في فئة الأغنياء والتي لا ننفي عنهم بطريقة أو بأخرى مهمة إغتيال الخليفة السابق من أجل تمهيد الطريق للخليفة الجديد عثمان بن عفان الذي وجدوا في كبر سنه وانتمائه الأموي وولائه لأهله وثرائه، المدخل الحقيقي إلى تحقيق رغباتهم في السلطة والثراء، وقد أكدت الأحداث التاريخية نجاحهم في الاستحواذ على أمر الناس حيث نجد أن هذه الفئة هي التي ساهمت في صنع الأحداث في هذه المرحلة الخطيرة، وهي التي بلغت من الثراء حداً فاحشاً (فالزبير بن العوام مثلا كان أول الخارجين إلى العراق بعد إبطال قرار الخليفة عمر بعدم مغادرة الصحابة للمدينة حيث امتلك ثروة ضخمة ومزارع في «السواد» وبيوتاً في الكوفة إلى آخر ما ترويه المصادر. كذلك عبد الرحمن بن عوف الذي كان واسع الثراء، وسعد بن أبي وقاص وهو أحد كبار المتموّلين، وطلحة بن عبيد الله الذي تفوق على أقرانه أموالا وضياعا)[1]. وهذا ما يتنافى ويتناقض مع حياة البساطة والعفوية السائدة في الدولة الإسلامية حتى ذلك الحين وإذا كانت هذه الفئة والتي مثلت المجلس الإستشاري للأمة قد انزلقت في مشروع الإثراء غير

(1) البلاذري : أنساب الأشراف، ج5، ص25.

المشروع، فكيف بالجماعات الأخرى المغمورة، ذات الإيمان السطحي والوافدة على الإسلام وعلى الدولة الإسلامية؟ يقيناً أن ذلك أثر فيهم ودفعهم إلى تشكيل تكتلات سياسية مناهضة لسياسة عثمان بن عفان تمثلت في الفرق والتي بدأت تبرز بعد تولي عثمان واستبعاد علي بن أبي طالب وقيامه بعزل العمال الذين كان قد ولاهم عمر بن الخطاب ، وعين بدلاً منهم أقرباءه من الأمويين : فقد ولى ابن عمه مروان بن الحكم على المدينة وكتب له بخمس غنائم أفريقيا، كما ولّى أخاه بالرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر[1] وعبد الله بن عمر وهو ابن خاله على البصرة[2] هذا فضلا عن سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وكلهم من أقربائه وقد ولاهم الكوفة على التوالي[3] وكان هؤلاء الأشخاص لا يملكون من مؤهلات الولاية سوى قرابتهم للخليفة، كما أنه كان لبعضهم ماضٍ معادٍ للإسلام فالحكم بن مروان، كما يقول البلاذري : «كان مغموضاً عليه في إسلامه وكان إظهاره الإسلام في يوم فتح مكة، فكان يمر خلف رسول الله، فيخلج بأنفه ويغمز بعينه، فبقي على ذلك التخلج وأصابته خَبْلَة»[4]، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح كان مطعونا في خلقه ودينه، وقد هدر النبي دمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابته للوحي. لولا شفاعة عثمان به. والوليد بن عقبة كذب على النبي ونزلت بسببه الآية الكريمة **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..﴾**[5] وسعيد بن العاص كان قليل الأمانة يود أن يقيم ملكا لنفسه ويقول : إنما هذا السواد بستان قريش[6].

وعلى هذا النحو كان اختيار الخليفة لعماله فكانوا هم أنفسهم سبباً في ثورة الأمصار عليه وليست فتنة كما اُصطلح على تسميتهم[7] بقدر ما هي ثورة اقتصادية واجتماعية قام بها سكان الأمصار نتيجة لما عانوه من ظلم عمال عثمان بن عفان

---

(1) البلاذري : أنساب الأشراف، ج 5، ص30.
(2) البلاذري : المصدر نفسه، ص30.
(3) الوليد بن عقبة هو أخو عثمان لأمه. البلاذري: المصدر نفسه، ص29.
(4) البلاذري: المصدر نفسه، ص31-40.
(5) القرآن الكريم : سورة الحجرات، الآية رقم6.
(6) البلاذري : المصدر نفسه، ص31-35.
(7) هشام جعيط : الفتنة، ص195.

واستبدادهم. ولو نظرنا بعين الإنصاف لوجدنا أنه من حق الناس علينا أن نعذرهم في ثورتهم هذه للأسباب التي أوضحناها.

أضف أن بعض المصادر[1] تصفهم بأنهم أقوام جفاة لم يتعمق الإيمان بعد في نفوسهم ولم يحظوا بصحبة رسول الله وبالتالي لا تزال متحكمة فيهم الجاهلية الأولى من التفاخر والعصبية فإحساسهم أنهم أصبحوا في مملكة المهاجرين والأنصار من قريش و كنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين جعلهم[2] يرفضون هذه الوضعية ويطالبون الخليفة بالعدل وبالعدول عن اتخاذه للضياع من مال المسلمين ونفيه لقوى المعارضة ضد سياسته مثل أبي ذر الغفاري، وعبد الرحمن بن حنبل ووقوفه إلى جانب من أهدر الرسول دمه (الحكم بن العاص، وعبد الله بن أبي سرح طريد رسول الله) وإهداره دم الهرمزان، ولم يقتل عبيد الله بن عمر، وغيرها من الأمور.

بالإضافة إلى أن سياسة عثمان التي تنطوي على السماح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم المفتوحة وامتلاك الضياع ممّا أدى إلى إتاحة الفرصة لكثير من القرشيين أن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أراضي في الأمصار[3]. وقد دلت الحوادث على أن إخلاء السبيل لرجالات قريش بالمدينة وإقامتهم بالأمصار الإسلامية ساعد على انتشار الفتن وشد أزرها خاصة بعد أن أوقف عثمان دور المجلس الاستشاري واختفى دوره منذ بيعة عثمان وكان من بقي من رموز ذلك المجلس أثناء محنة الخلافة طلحة والزبير فانتقل طموحهم من المدينة إلى الكوفة والبصرة وكان طلحة أكثر نشاطا في تحركه، حيث كان دائب المبادرة في اتصالاته مع المعارضة والاجتماع إليها بما يخفيه ذلك من تحريض مبطن على عثمان[4] خاصة بعد أن تقزم دوره السياسي في المشاورة والمشاركة في الحكم. بينما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوجس خيفة من نزوح سكان المدينة إلى الأمصار، فأبقاهم إلى جانبه في الحجاز. ويقول الشعبي[5]:(لم يمت عمر حتى

---

(1) ابن خلدون : المقدمة، ج1، ص380.
(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص174.
(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص3.
(4) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص167
(5) ابن الأثير :المصدر نفسه، ج 3، ص70.

ملته قريش. وكان حصرهم بالمدينة وقال: إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد) وهذه العبارة توضح عمق إحساس عمر وبُعد نظره في معرفته لقريش «وحبهم السلطة والجاه» خاصة وأنه المساهم الأول في بقاء الخلافة في «صراع السقيفة» وهذا هو ما يميز عدل عمر عن الآخرين مع أن هذه السياسة التي اتّبعها عمر إزاء الصحابة فيها تضييق على حريتهم الشخصية فإنه جنى من ورائها سلامة الدولة.

وكان من أثر سماح عثمان للمهاجرين بالإقامة في البلاد المفتوحة وامتلاكهم الأراضي بتلك البلاد أن أصبح عدد كبير منهم من كبار الأثرياء مما أدى إلى تذمر العرب الذين كانوا يقيمون في الأمصار وازداد سخطهم على عثمان وولاته لحرمانهم من أموال الفيء والغنائم، وطالبوا الخليفة بألا يعطي من الفيء إلا الذين قاتلوا عليه[1].

لم يتحرج كثير من سكان الأمصار الإسلامية على إظهار عدم ارتياحهم لسياسة عثمان ومواجهته بالمعارضة وقد لعبت بعض الشخصيات دوراً في ذلك منهم ابن سبأ[2] تلك الشخصية التي أجمعت المصادر الإسلامية على وجودها مثل الطبري وابن الأثير وغيرهم، وإذا كان بعض المعاصرين يتشككون في وجودها مثل طه حسين وعبد الواحد الأنصاري[3] فإننا نعتقد أن هذا التشكيك في غير محله فإن ابن سبأ حقيقة أكدتها المصادر ولكن الذي يدعو للدهشة هو قدرته على التلاعب بتاريخ الأمة كما يحلو له، وهو اليهودي الذي أسلم حديثاً كما يدعي حيث لعب دوراً مهماً في تهيئة العقول على الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي «وصي رسول الله» ونظام الوصاية الذي اتخذه منهجاً عند الشيعة لاحقاً معروف عند أصحاب الديانة اليهودية، ثم عمد إلى إثارة الناس على عثمان وولاته بقوله: (أن عثمان أخذها بغير حق)[4].

---

(1) هشام جعيط: الفتنة الكبرى، ص195.

(2) عبد الله بن سبأ يهودي من أهل صنعاء ومن الذين أسلموا زمن عثمان بن عفان، الطبري: المصدر نفسه، ج4، ص326.

(3) عبد الواحد الأنصاري: مذاهب ابتدعتها السياسة في الإسلام، ص، 35؛ أما طه حسين فقد قال في كتابه «علي وبنوه» ص98، 99 أنه رجل موهوم خرافي لا حقيقة له.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص488، 489.

بالإضافة لما أثاره من قضية أحقية علي وألوهيّته[1] كذلك استنكر أبو ذر الغفاري (30هـ/ 651م) أحد كبار أئمة الحديث، سياسة عثمان فأظهر استياءه من وجود أغنياء مفرطين في الغنى وبجانبهم فقراء معدمون ونادى بما أمر به الإسلام من عدالة ومساواة بين المسلمين فرفع بذلك (شعار الاشتراكية) وتسلح بما جاء في سورة التوبة ﴿. . . **والذين يكنزون الذهب والفضة..**﴾[2] وهو الصوت العلني الجريء المعبر عن مواقف مختلف الاتجاهات السياسية في الدولة الإسلامية، خاصة الفئات الاجتماعية الأكثر تضرراً من سياسة عثمان بن عفان كما أنكر على معاوية استئثاره بالمال وإنما هو مال المسلمين. ولقد أخذت الخلافة ترتاب في تحركاته (الغفاري)، ورأت أنها تجاوزت الإطار العفوي لتصبح دعوة منظمة ضد التيار الحاكم والمستأثر بالحكم والثراء وتقرر إبعاده إلى الشام ليكون تحت مراقبة معاوية بن أبي سفيان القوي في محاولة لإخفات صوته ورغم ذلك لم يسكت صوته[3] حتى في الولاية البعيدة (الشام) وخاف معاوية أن تتحول ولايته الآمنة والمستقرة إلى الفوضى والفتن من خلال الشعار الذي رفعه وهو «شعار العدل والمساواة».

ولم ينته دور الأفراد في الوقوف ضد السلطة الحاكمة فكان منهم عبد الله بن مسعود[4] (29هـ/ 649-650م)الذي رفع صوته ضد هدر الأموال وحسب الرواية التاريخية فإن عثمان رد على عبد الله بن مسعود وهو صحابي وأحد حفظة القرآن[5]: (إنما أنت خازن لنا، إذا أعطيناك، فخذ الأسباب وإذا سكتنا عنك فاسكت) فإذا به يرد عليه: (كذبت والله ما أنا بخازن لك ولأهل بيتك، إنما أنا خازن للمسلمين) وهكذا خرج عبد الله بن مسعود مطروداً من منصبه وفقدت خلافة عثمان الثقة التي أعطيت لصاحبها وهومناضل قديم في الإسلام. كذلك عمار بن ياسر وهو حليف لبني مخزوم وابن أَمة[6] وهو ينتمي إلى هذه العناصر

(1) البغدادي : الفرق بين الفِرق، ص226
(2) القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية 35.
(3) ابن سعد : طبقات، ج3، ص153
(4) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ج1، ص151.
(5) ابن سعد : المصدر نفسه، ص150
(6) المصدر نفسه، ج4، ص283.

من العبيد والأرقاء الذين دخلوا مبكراً في الإسلام فكان واحداً من المستضعفين الذين عذبتهم قريش باعتبارهم ضعفاء ولأنهم لا ينتمون إلى أية عشيرة لتثنيهم عن إيمانهم. إن عمار يدين للإسلام بكل شيء وكان عمر قد عينه والياً على الكوفة لأمد من الزمن وفي عهد عثمان رفع صوته عاليا ضد الخليفة لأنه سمح لنفسه بأخذ حلي ومجوهرات لعائلته من بيت مال المسلمين وهذا الأمر أغضب الصحابة ومنهم عمار حيث اعترض واحتج على سلوك الخليفة وهو أمر جعله يتعرض للتنكيل بشدة[1] وهكذا تشكلت المعارضة من الصحابة أولا ضد الاستغلال والتسلط العائلي دون أن تلجأ إلى العنف إلا أن اشتداد النقمة واتساع المعارضة فتح المجال أمام الناقمين فبالإضافة إلى العوامل السابقة ظهر عامل قوي ساهم مساهمة كبيرة في الأسباب التي أدت إلى مقتل عثمان رضي الله عنه فقد كان نظام العطاء «عطاء الجند» الذي سنّه عمر قائماً على أساس السابقة في الإسلام والقرابة من الرسول، فكان توزيع الجند باعتبار القبائل والأجناس مما يؤدي إلى تمييز هذه القبائل على غيرها، وكان عمر[2] يقدم العدنانيون على القحطانيين لأن النبوة فيهم والعدنانيين: يشملون قبيلتي ربيعة ومضر، ثم يقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ثم يقدم عمر قريشاً على مضر ثم يفضل عمر بني هاشم على أمية ثم يرتب بني هاشم بدرجة قرابتهم للرسول.

وعندما تولى عثمان وكان رجلاً ليّن العريكة محباً لأهله أقطع إقطاعيات من السواد لبعض أصحابه[3] وخصص أعطيات لمن يشارك في الغزو[4] بالإضافة لسماحه لبعض الصحابة بالخروج من المدينة والاتجاه إلى البلاد المفتوحة وهو أمر كان ممنوعاً في عهد عمر، إلا أن عثمان ترك الناس يمارسون التجارة بطرق مختلفة وفتح الباب لأنواع من الاتجار والمضاربة في «أسهم» المقاتلين وأعطيتهم مما جعل أهل المدينة يتخوفون على أعطيتهم وأسهمهم الواردة إليهم من العراق خاصة وأن المقاتلين الذين شاركوا في فتح العراق وقسمت بينهم أربعة أخماس خراج سواده وغيره كانوا قد رجعوا إلى المدينة أو أماكن سكناهم الأصلية وكانت

---

(1) البلاذري : أنساب الأشراف، ج5، ص48.
(2) الماوردي : الأحكام السلطانية ص 194؛ البلاذري : فتوح البلدان، ص453.
(3) ابن رجب : الاستخراج لأحكام الخراج، ص30.
(4) ابن رجب : المصدر نفسه، ص30.

تأتيهم حصصهم من الخراج كل سنة من العراق[1]. وعندما اضطربت الأمور في الكوفة اقترح عليهم عثمان أن يبيعوا أنصبتهم لمن يملك المال وبالفعل فالذين باعوا هم الضعفاء والذين اشتروا هم الأغنياء من كبار الصحابة أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف. وكانت نتائج هذا التدبير تركز الثروة في أيدي جماعة قليلة من الصحابة ورجال قريش فاتسعت الهوة بين فئة الأغنياء وفئة الفقراء خاصة بعد توقف الفتح وتكاثر النسل وهجرة الأعراب إلى الأمصار.

كان هذا الوضع من العوامل القوية في تفجير الثورة ضد الخليفة عثمان بعد أن تكونت طبقة أرستقراطية واسعة الثراء على حساب الفقراء وحاول الخليفة البحث عن حل للأزمة حيث وافق على مطالب أهل مصر بأن يعزل عبد الله بن سعد ويقيم مكانه محمد بن أبي بكر وكتب عهده وولاه[2]. وأعلن أمام وفد العراق بأنه تاب وقال: «أنا أول من اتعظ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه. . . وقال: فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحّينّ مروان وذويه ولا أحتجب عنكم»[3] ثم بكى فرقّ الناس وبكوا حتى اخضلت لحاهم[4].

ثم حدث أمر أدى إلى انفجار الموقف وعدم الثقة في وعود الخليفة حيث يروي ابن قتيبة[5] قصة الكتاب الذي أرسله الخليفة إلى واليه في مصر، وفيه من الحقائق ما يتناقض ووعوده التي قطعها على نفسه في مسجد «المدينة» والذي يأمر فيه واليه أن يقتل محمد بن أبي بكر ومن معه وأن يبطل كتابهم وأن يقر على عمله حتى يأتيه رأي آخر وكان مختوماً بختم الخليفة ورغم أن الخليفة عثمان أقسم بأنه لم يعلم عن هذا الأمر شيئاً ورغم أن الغلام أحيانا يقول إنه غلام مروان بن الحكم وأحيانا يقول غلام أمير المؤمنين فإن الناس فقدوا ثقتهم في عثمان فهو وإن لم يفعلها ترك خاتمه بيد الآخرين هو دليل ضعفه وعدم قدرته على السيطرة على أمور الدولة وتركها في يد بني أمية يعبثون بها وإن كتبها هو فهذا الأمر أشد ولهذا

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص614.
(2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص39.
(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص164.
(4) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج3، ص164.
(5) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج1، ص39، 40.

طالبوه بالعزل فقال قولته الشهيرة: «ما كنت لأخلع قميصا ألبسنيه الله»[1].

وفي الثامن عشر من ذي الحجة سنة(35هـ / 655م) اقتحم الثوار منزل عثمان وقتلوه بعد أن حاصروه ومنعوه من الخروج والصلاة في المسجد وحالوا دون وصول الماء إليه والزاد. فكان مقتل الخليفة خاتمة لأحداث مأساوية مؤلمة تشابكت فيها الظروف والأسباب.

يمكننا أن نتبين الاستياء العام من الأوضاع السائدة في عهد عثمان كان متمركزاً في الكوفة والفسطاط ففي الكوفة كان اثنا عشر ألفاً من اليمنيين وثمانية آلاف من نزار[2] وكانت هذه العصبية مثارًا للنزاع الشديد حيث كانت بينها الخصومات القبلية القديمة وعداوتها المتوارثة وذكريات الأيام والوقائع بالإضافة إلى الدور الذي قام به القراء قبل إحداث الفتنة وبعدها (33هـ / 653م) خصوصا في ظهور الأحزاب الدينية (الشيعية والخوارج)بعد صفين أما قبلها فكان لهم دور قوي في أعمال العنف التي حدثت ضد الخليفة.

والقراء هم قارئو القرآن ومرتلوه وهم محاربون ومقاتلون أيضاً، وهم مثل الآخرين يتلقون العطايا من الخليفة وكانوا جميعهم يحفظون القرآن في صدورهم. ونحن نعلم أن أول جمع تم للقرآن كان في عهد أبي بكر الصديق حيث عمل منها «مدونة» وحفظها ولم يهتم بنشرها وتعميمها[3] وورثها عنه عمر، وعند وفاته أعطاها لإبنته حفصة أرملة النبي. وكان من بينهم عبد الله بن مسعود في الكوفة وأبو موسى الأشعري في البصرة وكان هذا الأخير يمثل رأس الحربة في أمرين : أولهما أنه كان خازن بيت مال المسلمين في عهدي عمر وعثمان حتى سنة 29هـ، وثانيهما أنه كان عامل البصرة من سنة 17هـ إلى 29هـ وكان أبو موسى قد أوكل إليه عمر رضي الله عنه أمر البصرة دون أن يكون شريفا أو رئيس قبيلة أو ينتمي إلى قريش ولكن جذوره يمنية.

وبقي والي البصرة إلى عهد عثمان حتى تضايق منه آل أمية وطالبوا الخليفة بعزله وفعلا نفذ لهم رغبتهم. ويعتبر ابن مسعود وهو رجل ينتمي إلى قبيلة هذيل وهي حليفة قريش وكانت مكانته الاجتماعية لا تضاهي أحداً من الصحابة لأنه لا

(1) ابن الأثير : المصدر نفسه، ج3، ص83.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص276.

(3) ابن أبي داوود : كتاب المصاحف، ص6.

ينتمي إلى شرف أو نسب قبلي قوي. ولكنه كان من كبار رموز نقل الحديث[1] وأحد أهم ناشري القرآن ومفسريه وكان له جماعة من الصحابة عرفت «صحابة» ابن مسعود[2] وكانت له قراءته ولأبي موسى الأشعري قراءته. وفي أثناء الحملة على جرجان وطبرستان سنة 30هـ ذهل حذيفة بن اليمان من رؤية المسلمين يتجادلون بحماس شديد حول طرق القراءة المختلفة، أي حول القراءات فكان يصل بهم الأمر إلى حد رمي بعضهم باللعن واتهام بعضهم بالكفر[3] وربما كان حذيفة قد أشار على عثمان بوضع نسخة واحدة من القرآن خوفا من بذور فتنة كهذه وأيضاً لتعميق القرآن في قلوب المؤمنين الجدد والحفاظ عليه من الضياع خاصة أن معظم القُراء هم مقاتلون وبالتالي يحفظونه في صدورهم وخوفاً أن يستشهدوا فيضيع معهم القرآن وهم الحفظة. فوضع عثمان نسخة قرآنية واحدة ووحيدة في بداية ثلاثينيات الهجرة 650م. عرفت بالنسخة العثمانية. وعلى التوالي[4] أرسلت ست نسخ إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وبقيت نسخة في المدينة. وكان القصد توحيد النص والحفاظ عليه، وأمر بإلغاء النُسخ الأخرى الموجودة ولكن هذا الأمر صادف مقاومات لاسيما من جانب القُراء وعلى رأسهم ابن مسعود[5].

وهذا الأمر كان أحد أسباب ثورة أهل الكوفة والبصرة على عثمان بل تعتبر أخطر المطاعن التي وجهت للخليفة لأنه مس جوهر الدين وهو القرآن واتُهم بأنه أراد (محو الكتاب) بإيعاز من القراء. أما السبب الآخر في ثورة الأمصار هو موضوع «العطايا» فالأمصار عبارة عن مقاطعات عسكرية وكان العرب المقيمون فيها يطالبون بإنفاق جميع الغنائم[6] محليا أي في صالحهم الخاص، ويرون أنه ليس لباقي المسلمين في المدينة أو غيرها الحق في ذلك منهم فهم أصحاب الفتح

---

(1) ابن سعد : طبقات ج4، ص108.

(2) ابن سعد :المصدر نفسه، ج6، ص 10؛ ابن الجوزي، ج2، ص294.

(3) ابن أبي داوود : المصاحف، ص12.

(4) اليعقوبي :تاريخ اليعقوبي، ج2، ص170؛ ابن أبي داوود : المصاحف، ص15.

(5) القراء هم الأشتر وهو أحد المشاركين في الثورة ضد الخليفة عثمان، صعصعة بن صوحان، يزيد بن قيس، وابن مسعود، الأسود بن يزيد، علقمة بن القيس، حجر بن عدي الكندي، الأشعري.. الخ.

(6) كاهن كلود :تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص24.

وبالتالي أصحاب الحق في الاستفادة من هذه البلاد المفتوحة بسواعدهم بالإضافة إلى الصراع بين اثنين من أبناء الصحابة محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة في مصر خلال الحملة البحرية على البيزنطيين، «معركة ذات الصواري»[1] وكان لهذا أثره وصداه في المدينة إذ كان هناك توتر شديد وغليان في الرأي ساعده في الاشتعال أيضاً ورود رسائل إلى الأمصار تدعو إلى الثورة ضد عثمان رضي الله عنه وأقربائه خاصة بعدما ارتكب ولاته الأخطاء والتجاوزات مثل سعيد بن العاص والي الكوفة الذي شرب الخمر وصلى وهو ثمل مما دفعه إلى اعتبار سواد العراق بستان قريش حيث قال: «السواد قطين لقريش»[2] الأمر الذي دفع إلى خروج الأشتر النخعي على رأس مجموعة مسلحة ومنع سعيد بن العاص من الدخول إلى الكوفة وهذه الحادثة اعتبرت المؤشر على الثورة[3] أما بالنسبة للرسائل التي وصلت الأمصار[4] فيقال: إن الذي لعب دوراً في إرسالها ونسج المؤامرة على الأمة يهودي يمني دخل في الإسلام هو عبد الله بن سبأ الذي جال في الأمصار قبل إقامته في مصر وهو الذي لعب دوراً خطيراً في نشر أفكار حول رجعة النبي وحول الوصية أي الفكرة القائلة بأن علياً وريث النبي الشرعي والذي يجب أن تعود الخلافة إليه منذ البداية وهذه هي موضوعات التشيع العقائدي المقبل. أما الطبري[5] فيقول نقلا عن الواقدي لما كانت سنة 34هـ كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض أن أقدموا، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد.

وكان المتهمون بهذه الرسالات هم (علي وطلحة والزبير) خاصة بعدما تقزم دورهم السياسي وانتهى المجلس الذي كان يضمهم كهيئة استشارية في عهد عثمان وأصبح المستشارون هم أقرباؤه وأهل عشيرته مما زاد في غضبهم ونتج عن ذلك موقفهم السلبي في الدفاع عن الخليفة ماعدا «علي» الذي أرسل الحسن والحسين.

في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين تكمن بعض الأسباب والدوافع التي

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص337.
(2) المسعودي :مروج الذهب، ج2، ص337.
(3) المسعودي : المصدر نفسه، ص3.
(4) الطبري :المصدر نفسه، ج4، ص340- 341.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ص936.

أدت إلى انقسام الأمة إلى أحزاب سياسية لأمد طويل وتطورها إلى فرق، وكان مؤشراً على سقوط الذهنية الجماعية في الحكم، القائمة على العدل والمساواة وتكافؤ الفرص، وكانت من الأسباب المباشرة في اختلاف الآراء حول موضوع الإمامة والسياسة وطريقة الحكم والخلافة والتي كانت سببا في بروز الفرق المغالية والتي بدأت بظهور أكبر جزئين وهم الشيعة والخوارج نتيجة للصراع بين علي ومعاوية مما فتح المجال أمام المؤرخين المحدثين أن يطلقوا على أحداث هذه الفترة تسمية «الفتنة الكبرى»[1] وفي أحد المصادر القديمة قيل إنها (كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة)[2] ومع موت الخليفة عثمان بن عفان اندلعت حرب شارك فيها معظم المسلمين واستمرت لأكثر من خمسة أعوام كادت تقضي على العرب وهم لا يزالون على صلة قريبة بالنبوة والوحي.

وهذا الصراع يذكرنا بما تعرض له الصحابة وأهل السابقة أنفسهم من امتحان نفسي عظيم بعد مقتل عثمان دفع البعض منهم إلى الانعزال عن الحياة العامة والنزاع «المرجئة» فبقدر ما كان منطق المصالح وتوزيع الغنائم والعطايا يؤكد نفسه، ويترسخ مع اتساع الدولة. كان منطق ومفهوم[3] الرسالة والتبشير والجهاد لوجه الله يتراجع أو على الأصح يفقد هيمنته المطلقة. خاصة بعد أن هيمن الجو السياسي وظهرت الحاجة إلى السياسي الذي ينظم المصالح ويرعاها مثل «الدولة الأموية».

وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان بن عفان هي أن الخلافة الراشدية انتهت في المدينة وانتقلت إلى مقرها الجديد وأصبحت الخلافة خاوية المحتوى من حيث القداسة وصار الحكم الفصل فيه السيف خاصة بعد أن أصيبت «المدينة» بخراب الهجرة من قبل الصحابة في عهد عثمان، فلم تعد المدينة عاصمة الدولة وانتقل مركز الثقل السياسي والاقتصادي إلى الكوفة حيث سيأخذ الصراع على السلطة شكلاً آخر بين علي ومعاوية.

استطاع علي أن ينشر سيادته على جزيرة العرب كلها عدا الشام وحدها[4].

---

(1) المؤرخون المحدثون هم هشام جعيط، وطه حسين :الفتنة الكبرى.

(2) ابن خلدون :المقدمة، ص3801؛ برهان غليون : نقد السياسة " الدولة والدين"، ص78، 77.

(3) برهان غليون : نقد السياسة، الدولة والدين، ص77، 78

(4) يوليوس فلهوزن (Flhowzen) تاريخ الدولة العربية، ص30

وقد كان للشام الولاية مركزاً انفردت به لأن معظم العرب الذين كانوا يقطنوها لم يذهبوا إليها مهاجرين مثل باقي الأمصار ولقد كانوا لفترة طويلة واقعين تحت التأثير اليوناني والروماني قبل الإسلام تابعين لدولة الغساسنة ولذلك اعتادوا النظام والطاعة للحاكم، وكان معاوية والياً على هذه المنطقة منذ عهد عمر بن الخطاب واستمر في عهد عثمان بن عفان فأصبح هناك رباط قوي من الولاء من أهل الشام لمعاوية بن أبي سفيان. ورغم أنه لم يكن من المستحقين للخلافة فهو ليس من الصحابة بل هو ابن الطلقاء عكس طلحة والزبير اللذين كانا يطمحان للخلافة منذ عهد عمر ﷺ حيثُ كانا من الصحابة ومن المشاركين في الحرب الأولى ضد قريش ثم إنهما من المهاجرين الأوائل وهذا ما كانا يعتمدان عليه في مطالبتهم لحقهم السياسي، أما معاوية فقد استند على حق عثمان «أي قميص عثمان الذي ألبسه الله له ولن يتنازل عنه» وبالتالي فعندما قُتل رأى معاوية نفسه امتدادا لعثمان في الحفاظ على هذا القميص وكأن الله ألبسه إلى آل أمية جميعهم فاتخذ من قضية الثأر وسيلة لتبرير مطامعه فقد قال معاوية: «يا معشر الصحابة أوصيكم بشيخي هذا خيراً، فوالله لئن قُتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا. »[1] وفي ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة علي، ووجد العذر الذي يظهره وهو أنه ولي دم عثمان، وأن عليا تهاون في الدفاع عن عثمان وآوى قتلته. وهكذا وجد علي نفسه في مواجهة أمر تولي الخلافة حيث بايعه جميع من كان بها من الصحابة رضي الله عنهم.

ويقال (أن طلحة والزبير بايعا كارهين وغير طائعين، ثم خرجا إلى مكة وعائشة رضي الله عنها بها)[2]، فاتخذها كرمز لسلطته الدينية ولبيت النبوة ولمنح أنفسهم مزيدا من المؤيدين حيث خرجا بها إلى البصرة يطالبان بدم عثمان ويرفضان خلافة علي وبلغ ذلك عليا، فخرج إلى العراق فلقي بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم في موقعة الجمل سنة 36هـ/ 657م وقتل فيها طلحة والزبير وبلغ القتلى ثلاثة عشر ألفاً[3].

وهكذا أصبح الصراع على السلطة أكثر عنفاً وقتلاً وعلى أكثر من جبهة حيث اتجه علي بعد موقعة الجمل إلى الشام فالتقى بجيشهم على حدود الفرات وهناك

(1) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج1، ص 281؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ج1، ص195.
(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص195.
(3) السيوطي : المصدر نفسه، ص195.

عند صفين وقعت معركة حامية الوطيس ونال علي النصر في بداية المعركة حتى إذا رأى أهل الشام أنهم على وشك الهزيمة، رفعوا المصاحف على أسنّة رماحهم وأيدهم في ذلك أهل العراق وكان المقصود من ذلك: الإيهام والخديعة بأنكم تُريقون دم قوم مسلمين هم مثلكم ينضوون تحت راية كلام الله[1]. وهكذا انشقت الجماعة الإسلامية على نفسها ومن هنا وقعت الحيرة عند المسلمين فمن الذي منهم على حق؟ فكان القراء الموجودون في المقدمة والذين يضربون المثل لغيرهم هم أول من خفض السلاح أمام القرآن. فحذا الآخرون حذوهم وأجبر علي أيضا على الكف عن القتال واتفق على أن يكون التحكيم على يد محكمين يصدرون حكمهم على القرآن، لأنه عندما مانع في ذلك أولاً هددوه بأن يكون مصيره مصير عثمان.

كان التحكيم خدعة سياسية قادها عمرو بن العاص مع أبي موسى الأشعري وصار الخاتم والخديعة أصحاب البطولة في هذه القصة حيث خلع موسى خاتمه دليلاً على خلعه لصاحبه علي رضي الله عنه على أساس أن يخلع عمرو بن العاص خاتمه أيضا دليلاً على عزل صاحبه «معاوية» لكي يترك الأمر فيما بعد للمسلمين في من يشاؤون اختياره خليفة عليهم ولكن عمرو بن العاص خدع موسى وثبت خاتمه كدليل على أنه ثبت صاحبه معاوية بن أبي سفيان في الحكم ولهذا نجد أن جيش علي لما خرجوا من صفين في طريق عودته إلى الكوفة أدرك أنه قد خدع، واستلب النصر بخدعة تعيسة وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع في شرك الخديعة فأضلوا غيرهم واعتبروا أنه قد كان من أكبر الإثم ولاموا عليا أيضاً، لأنه قبل التحكيم «رغم أنهم أجبروه على ذلك»[2] ولأنه بقبوله التحكيم قد جعل القضية العادلة التي كانوا يحاربون من أجلها موضع شك بالفعل فطلبوا منه أن ينقض المعاهدة التي عقدها مع أهل الشام. وعندما رفض خرجوا عليه ونزلوا معسكراً خاصاً بهم في «حروراء» فسموا لذلك «بالحرورية» أما المسمى الذي عرفوا به في التاريخ فهو (الخوارج). والذين شكلوا فيما بعد جبهة مناقضة للشيعة أما أهل الكوفة فقد ظلوا في الحملة موالين لعلي وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم شيعة علي وكان موقفهم مغايراً لموقف معاوية الذي ظل يحظى

(1) يوليوس فلهوزن (Flhowzen): تاريخ الدولة العربية، ص54.

(2) كارل بروكلمان (Brocklmann): تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص 25.

بمناصرة أهل الشام وتأييدهم فهم صنيعته حيث كانوا يجلّونه منذ سنين طويلة وكانوا إلى جانب هذا قد اعتادوا شيئاً من النظام الحزبي والولاء المطلق له عندما كان والياً عليهم منذ أمد طويل وهم لم يعرفوا علياً ولا يعرفون سابقته في الإسلام ولا يشعرون بأي انتماء له حتى لو كان قريب رسول ﷺ وربما لم يسمعوا بعلي قط بالإضافة إلى تحمس أهل الشام لمعاوية في حقه لأخذ الثأر لعثمان بن عفان. وفي نفس الوقت كان معاوية قد أخذ الأهبة لفتح مصر من جديد ولقد حاول أمير مصر الجديد الذي عينه علي ﷺ أن يصد جيوش معاوية، فيما كانت تتقدم إلى وادي النيل ولكنه أخفق في محاولته سنة 658 م[1].

ثم إن معاوية وكّل استعمال الفتح إلى عمرو بن العاص، كما عقد هدنة في السنة نفسها مع الإمبراطور البيزنطي، وفي سنة 660م بويع معاوية بالخلافة رسمياً في مدينة القدس وتابعت جيوش معاوية مهاجمة الطرق بدون انقطاع فقد اضطر علي ﷺ أن يستعد لحملة يوجهها إلى الشام ولكنه قُتل في مسجد الكوفة سنة 40 هـ/ 661م قبل أن تبدأ المعركة ضد أهل الشام.

واستنادا إلى ما جاء في بعض المصادر العربية مثل ابن قتيبة[2]: (فإن قتل علي ﷺ كان انتقاماً لأهل النهروان، وقد أغرت به امرأة اسمها فتام حبيبها ابن ملجم، جاعلة دم علي ﷺ مهراً لها).

أما اليعقوبي فيقول[3]: (وقدم عبد الرحمن بن ملجم المرادي الكوفة سنة40 هـ، فلما بلغ علياً قدومه، قال: وقد وافى؟ أما إنه ما بقي عليّ غيره، هذا أوانه.. .). وكانوا ثلاثة انفار من الخوارج واحد اتجه إلى معاوية في الشام والثاني إلى عمرو بن العاص في مصر والثالث إلى علي في الكوفة وهو ابن ملجم، فأما صاحب معاوية فضربه ولكنه لم يصبه وبادر فدخل إلى داره بعد أن مسك به جنده. أما عمرو بن العاص فقد تخلف لعلة عن صلاة الفجر وأصيب بدلاً عنه خارجة بن جذامة خليفة عمرو فقال الخارجي: أردت عمرواً وأراد الله خارجة، أما ابن ملجم فإنه وقف لعلي عند المسجد وضربه على رأسه، فسقط وصاح: خذوه فتمكن منه قثم بن العباس وسلمه للحسن بن علي بن أبي طالب حيث

(1) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ص137.
(2) ابن قتيبة : المصدر نفسه، ص137.
(3) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص212.

اقتص منه بعد موت أبيه الذي صادف ليلة الجمعة العشر الأواخر من شهر رمضان سنة (40هـ / 661م) وهو ابن ثلاث وستين سنة وكانت خلافته أربع سنين وعشرة أشهر)[1].

ومن خلال ما تم طرحه من صراع بين علي ﷺ ومعاوية يتضح لنا أن مقتل علي لم يكن لأسباب شخصية كما تحاول بعض المصادر الأجنبية مثل بروكلمان، ويوليوس فلهاوزن أن تُعطي للقصة بُعداً دراماتيكياً ورغم أن الطبري[2] أيضاً يروي هذه القصة ويذكرها اليعقوبي[3] هو وابن الأثير بشكل مخالف حيث يؤكدون أن الخوارج هم الذين قاموا باغتيال الخليفة علي ﷺ رغم فشلهم في اغتيال معاوية وعمرو بن العاص بسبب معركة صفين ومسألة التحكيم وتكفير الخوارج إياهم جميعاً ورفعهم لشعار لا حكم إلا لله وكما قال علي ﷺ: (كلمة حق أريد بها باطل) هذه الفرقة التي ساهمت في صنع الأحداث السياسية والأحداث العنيفة فيما بعد.

وعند تقييم الوضع الذي حدث بين علي وشيعة معاوية وأنصاره، نجد أن الصراع بين المسلمين كان صراعاً سياسياً حول منصب الخلافة وحول أحقية كل طرف من أطراف النزاع في تولي الأمر ومما زاد المشكلة تعقيداً أن الأحزاب أو الفرق السياسية اصطبغت بصبغة دينية قوية نظراً لما للدين من أثر ومكانة في النفوس ولاعتقادهم وإيمانهم أن رأيهم وطموحهم السياسي لن ينجح إلا عن طريق واحد فقط وهو تغليفه بالدين وصار كل حزب سياسي فرقة دينية وصار الذين يقتتلون سياسياً يقتتلون دينياً، وبدل أن تسمي الفرقة اسمها إسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي تدعو إليه، تسمي إسماً يدل على المذهب الديني: كشيعة، وخوارج، ومرجئة، ومعتزلة. وبدل أن يتحاجّوا بنتيجة أعمالهم السياسية ويطرحون أفكارهم ومصالحهم بشكل مباشر تحاجّوا بالفكر والإيمان والجنة والنار وخلق القرآن ومن أحقُ بالإمامة وغيرها من المواضيع التي حسمها القرآن وأنهكوا قوة الأمة بالحرب والصراعات من أجل إقناع الآخرين بوجهة نظرهم الخاصة في هذه الموضوعات بدل أن يُوجّهوا اهتمامهم إلى نشر الإسلام الموحد الخالي من

---

(1) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص212.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص466.
(3) اليعقوبي :تاريخ اليعقوبي، ج1، ص212.

الانقسامات السياسية أو الدينية حسب تعبيرهم. فالقرآن واحد والإسلام واحد وعليك حق التفكير والتأمل والتفسير في القرآن بما يخدم قضية الإسلام ووحدته ووحدة أمته وهكذا كان الخلاف السياسي سبباً من أسباب الخلاف الديني وسبباً في نشوء الفرق والعقائد، الشيعة والمعتزلة والمرجئة والخوارج[1].

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ج 1، ص6 «أربع فرق القدرية والمعتزلة الصفاتية «المرجئة» والخوارج والشيعة ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب من كل فرقة أصناف تصل إلى ثلاث وسبعين فرقة».

المبحث الثالث

إشكالية السلطة في العهد الأموي
وأثرها في بروز بعض الفرق الإسلامية من 41-60هـ/661-671م

كانت الخلافة الراشدية قد انكفأت في العراق بعد سقوط الحجاز وقد وصلت إلى نهايتها المحتمة بعد اغتيال علي في 40هـ/ 661م. ولم تكن مبايعة الحسن التي جاءت بتأثير من الإتجاه المتحمس للحرب بقيادة الزعيم الأنصاري قيس بن سعد والزعيم الخزاعي سليمان بن صرد. [1] بالرغم من أن بيعته كانت من قبل شيعة أبيه وهي بيعة على الحرب وقتال معاوية إلا أنه كان عازفاً عن الحرب وميّالاً إلى المهادنة والصلح[2]. وتنازل عن حقه في الخلافة على أن تترك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت مال الكوفة[3] رغم أن الدينوري يخالف رأي المستشرقين ويقول إن الحسن طالب أهل شيعته على المبايعة والطاعة في الحرب والسلم[4]، فلما ارتابوا فيما سمعوا منه أمسكوا أيديهم، وقبض هو يده، فأتوا الحسين، يريدون مبايعته بدل أخيه الحسن، على أن يعاهدهم على محاربة أهل الشام، فرفض الحسين أن يبايعهم وأخوه الحسن حيّ. وهكذا لم يجدوا مفراً من مبايعة الحسن على ما شرط عليهم، وكاتب معاوية فاصطلحا على أن تكون الإمامة لمعاوية ما كان حياً، فإذا مات فالأمر للحسن، وهكذا فمبايعة الحسن

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج6، ص91؛ ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج1، ص151.

(2) الطبري : المصدر نفسه ج6، ص91.

(3) بروكلمان (Brocklmann): تاريخ الشعوب الإسلامية ص121. هذه المعلومات التي وردت عند بروكلمان نقلاً عن لامنس لم أعثر عليها في المصادر التاريخية بهذا المعنى.

(4) الدينوري : الإمامة والسياسة ص140.

جاءت بناء على طلب من شيعة والده وليس كما يقول بروكلمان إنها جاءت بعد أن أوصى علي لابنه بالخلافة وبمنحه الحق فيها وتحويلها إلى حكم وراثي وهذا الأمر مستبعد تماماً لأن الحسن عندما رفض الحرب كاد أهل الشيعة أن يتخلوا عنه ويبايعوا أخاه الحسين إلاّ أنه رفض. أي أن الأمر كان لأبناء علي أولاً وأخيراً كما أن تنازل الحسن لمعاوية لا يدل على ضعفه أو إنه غير سياسي أو ليس برجل الساعة كما توحي مصادر المستشرقين بل على عكس ذلك تماماً فهو يعرف أن التوقيت غير مناسب، فمعاوية هو الأقوى بجيش الشام الموحد على جند الكوفة المنقسمة بين شيعة وخوارج والذي يشكل خطراً وخاصة أنه لا يستطيع الاعتماد على شيعته من أهل العراق فهم منقلبون وغير ثابتين على مبدأ، ولهذا رأى أن يحقن دماء المسلمين إلى حين.

وعندما قتل الحسن أو مات- وهذا الأمر ليس مؤكداً في المصادر العربية التي توفرت لدي[1]، بسبب تضارب الآراء - فإن الشيعة سارعت إلى مبايعة الحسين بن علي مطالبين منه وداعين له برد حقه[2]. والشيعة يرون أن الخلافة هي حق علي وأولاده من بعده[3]. لكن علياً لم يسنّ مبدأها الوراثي ولم يطرحها كطرح سياسي في حين أن الحاكم (معاوية) هو الذي ورّث ابنه من بعده (60-64هـ/ 681-684م) بعد وفاة الحسن ولم يتخلف عن البيعة إلا أربعة أنفار: الحسين ابن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير وفي هذه الظروف الصعبة عهد معاوية لولاته على الكوفة والبصرة بمهمة عسيرة تقتضيهم تثبيت سلطته بين العراقيين الرافعين راية الثورة والعصيان. ولهذا ولى على الكوفة المغيرة بن شعبة حيث جعل همه أن يفسد، بدهاء بارع، بين الخوارج والشيعة وبذلك استطاع أن يشغل الكوفيين عن معارضة الأمويين معارضة فعالة، على الرغم من أنهم لم يكتموا كراهيتهم لأهل الشام[4]. لقد توفرت لمعاوية الأرضية المناسبة، مضافاً إليها الموقع العسكري المتطور، ومن ثم لعبة التحالف القبلي التي أتقنها، ومصاهرته لأقوى القبائل اليمنية في الشام. (قبيلة بني كلب)

---

(1) المصادر هي : الطبري ؛ المسعودي ؛ ابن قتيبة. الخ.

(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ص228.

(3) اليعقوبي : المصدر نفسه، ص225.

(4) بروكلمان (Brocklmann): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص122.

وهذه جميعها شروط فعالة لزعامة السياسة وصناعة النفوذ[1] واستفاد من الأحداث التي مرت في قضية مقتل عثمان بن عفان ﷺ حيث اتخذ منها وسيلة للمطالبة بمحاكمة المتهمين بقتل الخليفة السابق واستطاع بدهائه أن يُغرق الناس في جدل عقيم حول قتل الخليفة لكي يتفرغ للقضية الرئيسية وهي الاستئثار بالحكم. وقد استعادت الدولة وحدتها السياسية بعد تنازل الحسن (41-60هـ/ 661-671م) بعد أن تغير وجهها الذي صبغها به الصحابة من أبي بكر إلى عثمان، ذلك أن عهداً جديداً ومختلفاً ولد مع معاوية في دمشق التي أصبحت العاصمة المركزية للدولة الناشئة. أما الكوفة فقد تراجعت إلى الوراء، وبقيت مركزاً لاستقطاب المعارضة السياسية والدينية للنظام الأموي، بينما المدينة العاصمة الأولى، غابت وراء جدار النسيان، وانطوت على نفسها بعيداً عن الأحداث فتحولت إلى منفى للمعارضة السياسية، وجلهم من أبناء الصحابة. وهكذا تولى معاوية أمر الأمة وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام[2]: القسم الأول شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية، والقسم الثاني شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية ومن الصحابة وأن أولاده أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كانوا ببلاد العراق وقليل منهم بمصر، والقسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين عن الدين، ويعتقدون أن واجبهم الأول يتمثل في قتل معاوية ومن تبعه وقتل علي وشيعته. ونجح معاوية في القضاء على علي (رضي الله عنه)، وإضعاف شيعته بالقتل تارة وبالسياسة التي تتسم بالدهاء تارة أخرى. أما الخوارج فهم من أكثر الناس الذين أقلقوا معاوية ولم تنفع معهم سياسة معاوية لأنهم قوم غلوا في الدين غلواً عظيماً وفهموا كثيراً منه على غير وجهه وكانوا منتشرين في أغلب الأمصار الإسلامية. وعندما بايع معاوية لابنه يزيد بالولاية من بعده أثار غضب مروان بن الحكم عليه إذ كان واليا على المدينة فخرج منها إلى الشام على رأس أهل بيته وأخواله من بني كنانة حتى أتى دمشق، فنزلها ودخل على معاوية موبخاً وقائلاً[3]: «أقم يا بن أبي سفيان واعدل عن تأميرك الصبيان واعلم أن لك من

---

(1) بيضون : التيارات السياسية في القرن الأول، ص125.

(2) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص77.

(3) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص218-219.

قومك نظراء وأن لك على مناوأتهم وزراء» فقال له معاوية (أنت نظير أمير المؤمنين وعدته في كل شديدة وعضده بعد ولي عهده).

وهذا الحوار يؤكد رغبة معاوية الشديدة في أن تكون ولاية العهد من بعده وراثية وأن لا تخرج من بني أمية أبداً وأن ينتزع رغبة الهاشميين في أن تكون لهم وينقض مبايعته للحسن بن علي بن أبي طالب وهو نوع من الصراع على السلطة متمثل في العقلية القديمة المغروسة في نفوسهم على مراكز القوة منذ العصر الجاهلي. ورغم ذلك فاننا لا نستطيع أن ننفي عن معاوية حلمه وإتقانه للسياسة، ولا التأني في الأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم ورفقه بهم على طبقاتهم[1].

وبُويع يزيد بن معاوية (60هـ/ 680م) فكانت أيامه ثلاث سنين وثمانية أشهر إلا ثماني ليالٍ، وأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد من الناس قبل موته، وفي ذلك قال عبد الله بن همام الشعر.[2] أما الحسين فقد هرب إلى مكة حتى لا يبايع يزيداً وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة لكي يتأكد مما كتبه الشيعة إليه حيث أرسلوا له: «إنا قد حبسنا أنفسنا على بيعتك ونحن نموت دونك ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك».[3] وعندما وصل مسلم بايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألف رجل وقيل ثمانية عشر ألفا فكتب إلى الحسين يسألهُ القدوم وعندما هيأ الحسين نفسه إلى الخروج إلى الكوفة أتاه بعض أهل بيته من أبناء عمومته وأصحابه ومنهم عمر بن الجن بن الحارث وابن عباس[4] حيث حذره من الخروج إلى الكوفة لأنهم أهل غدر وعدم ثقة وليست بالمكان المناسب. ففيها عمال يزيد وأمراؤه، وحسب ما جاء ذكره عند الطبري[5] إن الوحيد الذي شجعه هو عبد الله ابن الزبير. ومع كل التحذيرات التي وجهت إلى الحسين ومحاولة تذكيره بخذلان

---

(1) المسعودي : المصدر نفسه، ج3، ص222.

(2) تلقفها يزيدُ عن أبيه — فخذها يا معاويَ عن يزيد
فقد علقت بكم فتلقفوها — ولا ترموا بها الغرض البعيد

المسعودي : المصدر نفسه، ص 241؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص 228.

(3) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص228.

(4) الطبري : المصدر نفسه، ج5، ص382.

(5) الطبري : المصدر نفسه، ج5، ص183.

أهل العراق لأبيه وأخيه حرصاً منهم على الدنيا وظناً بها فإنه أصر على المضي إلى هدفه. ولا نعلم سبباً لهذا الإصرار القوي رغم قلة عدده وتفوق خصمه ورغم أن الرسالة التي بعث بها مسلم بن عقيل لابن عمه الحسين والتي تحذر الحسين من القدوم بعد أن اكتشف مسلم خيانة أهل الكوفة وتخليهم عنه عندما أمسك به الوالي عبيد الله بن زياد. وهذه الرسالة مشكوك في أمرها لتضارب الآراء حولها بين الطبري وابن قتيبة ولم يأت على ذكرها المسعودي، ولو افترضنا أن الحسين استمر في مسيرته نحو الكوفة تحت إلحاح إخوة مسلم بن عقيل لكي ينتقموا له فهذا أيضاً أمر لا يخضع للمنطق أو العقل إذ كيف يجازف الحسين في تسعين رجلاً وامرأة بقتال من هم أقوى منه عدة وعتاداً ولا يمكن أن يكون الحسين بهذه السذاجة ليذهب ويرمي نفسه وآل بيته إلى التهلكة ويختار الموت طواعية والانتحار بمحض الإرادة وهو المؤمن التقي هذا رغم ما جاء عند ابن قتيبة[1] من أن إخوة عقيل قالوا له: «أترجع وقد قتل أخونا وقد جاءك من الكتب ما نثق به» وهنا نجد أنفسنا أمام احتمال آخر مفاده أن هناك كتباً أخرى جاءت للحسين تؤكد استمرار وقوف أهل الكوفة معه لكن لم تذكرها المصادر التاريخية لكني لم أجدها إلا عند ابن قتيبة الذي يؤكد وجود رسائل أخرى تطلب من الحسين القدوم إلى الكوفة وهكذا التقى الحسين مع جيش عبيد الله بن زياد بوادي السباع عند كربلاء[2]. ويروي ابن قتيبة أن الحسين عندما سأل عن اسم هذه المنطقة وعرف أنها كربلاء قال: هذا كرب وبلاء. ويبدو أن هذه مبالغات تذكرها بعض المصادر السنية مثل الطبري والبلاذري المتعاطفة مع الحسين ﷺ نقلاً عن الروايات الشيعية أيضاً حيث قتل الحسين في 10محرم سنة 680م وهكذا انتهت خطة الثورة (أي ثورة الحسين)، انتهاءً مؤلماً. ولكن استشهاد الحسين كان له تأثير وشأن معنوي كبير عند الشيعة رغم عدم تأثيرها السياسي الواضح إلا أنها عجلت في تطور المذهب الشيعي (حزب علي) الذي أصبح فيما بعد ملتقى جميع النزاعات المناوئة للعرب (الشعوبية)[3] ورغم ضآلة هذه الحركة من الناحية العسكرية إلا أنها أثرت في كثير من الأوساط التي عطفت على آل البيت فأضافوا إلى معاصيهم السابقة

---

(1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص5.

(2) ابن قتيبة : المصدر نفسه، ج2، ص665.

(3) بروكلمان (Brocklmann): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص128

معصية جديدة، وأحيطت العقيدة الشيعية بهذه الهالة من الألم والعذاب التي لم يعهدها الإسلام حتى تلك الحقبة من التاريخ[1].

وهذا التفسير هو الأكثر منطقية ويتفق مع حقيقة الأمر الذي حدث فيما بعد فأهمية الحسين برزت أكثر بعد مقتله وكان السبب الرئيسي في تكوين الحزب الشيعي والتي تمخضت منه بعد ذلك كل الفرق المذهبية الشيعية. [2].

يروي اليعقوبي أنه بعد مقتل الحسين ردَّ عبد الله بن عباس برسالة جوابية إلى يزيد بن معاوية إلى يزيد الذي كان قد شكره في رسالة سابقة لأنه لم يبايع عبد الله بن الزبير، وأوضح له أن عدم مبايعته لابن الزبير لا تعني تأييداً منه أو حباً لمعاوية ولا ليزيد فهما اللذان ارتكبا الأخطاء كلها في حق بني هاشم وقتلهم للحسين وإنما الأمر يعلمه الله في عدم مبايعته لعبد الله بن الزبير حيث قال: (ولكن الله بالذي أنوي عليم). وهذه الرسالة لم ترد في أي من المصادر الإسلامية التي وقعت في يدي ولم أجدها إلا عند اليعقوبي وهو شيعي وواضح جداً انحيازه لآل البيت فمثلاً يؤكد اليعقوبي : إن خروج الحسين من مكة بسبب كرههُ أن يكون هو الذي يستحل حرمة البيت وحرمة رسول الله! ولا أعتقد أن هذا صحيح لأن الحسين خرج بإيعاز من عبد الله بن الزبير وتحريضه وعندما جاءت إليه الكتب من الكوفة التي بلغت نحو 150 صحيفة[3] تستعجلهُ بالحضور إليهم وما إرساله لمسلم بن عقيل والذي ورد ذكره فيما مضى إلا دليل على رغبته في الخروج وتبين لنا الصراع الخفي بين أبناء الصحابة في منطقة الحجاز على السلطة والزعامة وقناعة كل واحدٍ فيهم بحقه الشرعي في ذلك، وأعتقد أن الشرعية التي اعتمد عليها الحسين في دعوته هي عدالة قضيته وقرابته من الرسول. واعتقاده أن قرابته هذه ستشفع عند الكوفيين وستثير فيهم الحماس للنهوض لمؤازرته والوقوف معه ضد بني أمية والذي يشد انتباهنا في هذا الموضوع النتائج التي ترتبت عليها موقعة كربلاء والتي كانت بعيدة المدى وهي تحول الحزب الشيعي من العمل السري إلى المعارضة المسلحة ولقد تبلور هذا الاتجاه في حركة التوابين التي كادت أن تقترب نتائجها كحركة إنتحارية من المأساة التي ثارت من

---

(1) كلود كاهن (C.kahen): تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص31

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 247.

(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص 248

أجلها فضلا عن كونها مقدمة غير مباشرة للانقلاب الشيعي الذي تولى السلطة في الكوفة بزعامة المختار بن أبي عبيد الثقفي. ومن الملاحظ أن الحزب الشيعي كان يعاني من نقص في البناء التنظيمي وسبب ذلك من حيث المبدأ غياب الزعامات التاريخية القادرة على توحيد مواقفه، التي كانت تعاني في الغالب من اضطراب. حيث اصطدمت جميع محاولاته الهادفة إلى استلام الحكم بالفشل. كما كانت المثالية السياسية المصدر نفسه لهذا الفشل[1]. ولم تقف مصائب المسلمين عند مقتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هي أشنع وأعنف وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول عليه السلام ومهبط الوحي وهي التي حرمها الرسول كما حرم إبراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما قتال ولا تنتهك فيهما حرمة. لقد كان أبناء الصحابة هم المعارضون وهم أول من طرح قضية الحكم الوراثي في عهد معاوية تحدياً له واستمر الأمر حتى عهد ابنه يزيد حيث رفض أبناء الصحابة مبايعته فكانت المدينة الشرارة الأولى في رفع لواء العصيان المسلح. فمنها خرجت ثورة الحسين التي انتهت نهاية مؤلمة. ومنها أيضاً انبثقت ثورة عبد الله بن الزبير الذي انتقل إلى مكة وجعلها قاعدته في محاربة بني أمية. وهكذا نجد «المدينة» محصلة لتراث من الغضب المكبوت ضد ممارسات بني أمية حيث بدأت الانتقادات الصريحة ضد الخليفة فوصلت إلى حد التجريح بشخصية يزيد والطعن بسلوكه تحت مسمع ومرأى ممثل السلطة المركزية في المدينة وحاكم المدينة الأموي عثمان بن محمد بن أبي سفيان، الذي وصف بأنه قليل التجربة في الحكم[2].

وجاء مقتل الحسين في كربلاء الشرارة التي ألهبت الموقف وفجرت مخزون الغضب المكبوت في النفوس حيث قام وفد من أشراف أهل المدينة بخلع يزيد وشتمه وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري لإدارة المدينة وقيادته للثورة المعلنة[3] بعد أن حاصر الثائرون من في المدينة من بني أمية في دار مروان كتب بنو أمية إلى يزيد يستغيثون به[4]. فجهز يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة إلى

(1) بيضون: التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص242.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص52.
(3) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص52- 53؛ المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص68-69.
(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص481.

جانب الحصين بن نمير السكوني حيث حاصروا المدينة في ذي الحجة سنة 63هـ واستطاع مسلم الانتصار على أهل المدينة في موقعة الحرة (63هـ/ 683م)حيث استباحها الجند ثلاثة أيام ينهبون المتاع والأموال ويبيحون المحرمات[1] مما أدى إلى إصابة المسلمين بالذهول وزاد من شدة نقمة المسلمين على بني أمية. وهنا نطرح عدة أسئلة لهذا الموقف الغريب لأهل المدينة وأول سؤال: ما هي الأسباب التي دفعتهم وحدهم لخلع يزيد مع أنهم كانوا يعرفون أنهم أقل قدرة من مواجهة يزيد وجيشه وهل يطلبون الانفصال عن بقية الأمصار الإسلامية ؟ أم أن لعبد الله ابن الزبير دوراً في ذلك وهل لها تأثير في بروز الفرق. وبنظرة عامة للأحداث نجد أن أحداث المدينة جاءت مباشرة بعد مقتل الحسين ويبدو أن الكبت العاطفي والروحي والنفسي الذي أحس به أهل المدينة وهي «الطيبة» التي التجأ إليها الرسول بعد تنكر أهله في قريش له فناصروه وساندوه، أحسوا بالذنب لتخليهم عن حفيد رسول الله. أضف إلى ذلك أن معظم الذين بقوا فيها من الأنصار الذين أيدوا علياً في حقه الشرعي بالخلافة منذ صراع السقيفة وكانوا يرون أنه أحق بها هو وأولاده من بعده. وكانت المدينة دائما الانطلاقة الأولى للمعارضة السياسية لأبناء الصحابة بعد انتقال الخلافة إلى الشام مع أنها بدأت تفقد قيمتها السياسية منذ مقتل عثمان وانتقال مركز السلطة السياسية إلى الكوفة. وبعد أن قمعت الثورة في المدينة، وبعد مقتل الحسين بن علي 61هـ/ 680م انتقلت الثورة إلى مكة، حيث واجه عبد الله بن الزبير الأمويين فيها[2] فتعرضت إلى انتهاك الحصين بن نمير الذي رماها بالمنجنيق، وهو أمر زاد في نقمة المسلمين على الحكم الأموي إلى الحد الذي جعل بعض الخوارج بزعامة نجدة بن عامر الحنفي يميلون إلى مؤازرة ابن الزبير في الدفاع عن مكة[3].

لقد زاد حصار الأمويين لمكة ورميها بالمنجنيق من نقمة المسلمين عليهم وأثناء هذا الحصار توفي يزيد بن معاوية في نهاية عام 683م وحدث نوع من الفوضى والاضطراب في من يتولى الخلافة بعد يزيد مما دفع بالحصين أن يطلب

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج2، ص418.

(2) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج2، ص10-11.

(3) الطبري: الكامل في التاريخ، ج4، ص52.

من عبد الله بن الزبير أن يرحل معه إلى الشام ويبايعه إلا أن عبد الله بن الزبير رفض[1] والذي دفع الحصين إلى ذلك هو غموض الموقف في دمشق ووجد أن ورقة التأثير الحجازي هي الورقة الرابحة في حلبة الصراع على الحكم خاصة بعد مقتل الحسين وانضمام الشيعة والخوارج إليه ويؤكد فلهوزن (أن خصومة ابن الزبير للأمويين لم تكن ترجع إلى صيغة دينية وإنما كانت ذات لون سياسي بل هي على التحديد خصومة سياسية هدفها إستعادة العاصمة القديمة للدولة وقد نهض بتحقيق هذا الهدف أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية من أبناء كبار الصحابة يؤيدهم الرأي العام وكثرة قريش والأنصار وإن أيّدوا وجهة نظرهم بمؤيدات تجلت في اتهام خصومهم بالمروق عن الدين)[2]. وهذا الرأي الذي يذكره فلهوزن صحيح إلى حد بعيد ولكنه نسي شيئاً مهماً وهو رغبة ابن الزبير في الحكم وممارسة السلطة باعتباره أحد أبناء الصحابة بدأت مع حركة أبيه الزبير بن العوام في مواجهة علي بن أبي طالب وتحريك الثورة ضد عثمان بن عفان حيث تدور تعاليم الحزب الزبيري حول مسألة الخلافة، فيرى الزبيريون أن الخلافة حق لقريش وحدها. وكان الزبيريون يرون أن قريشاً ليست كلها بكفء لتولي هذا الأمر وإنما يقصرونها على الأكفاء منهم، ويرون عبد الله بن الزبير أكفأ من معاوية ومن غيره من الأمويين لأن معاوية لم ينلها بطريق شرعي ولكن نالها بالسيف والمخادعة بالإضافة إلى رفضهم النظام الوراثي وكانوا يرون أن أتباع سنة الرسول أو الخلفاء الراشدين، هي الطريق الأصح في تنصيب الخليفة وليس هناك من شك في أن قيام نظرية الخلافة الزبيرية على أساس عنصري متمركز في قريش هو من أكثر العوامل التي أدت إلى ابتعاد العناصر غير العربية من المسلمين وبعض العرب من غير قريش عن الزبيريين ويسارعون إلى الارتماء في أحضان الحركات الأخرى مثل حركة الخوارج وحركة المختار وكانت سبباً في امتزاج السياسة بالصراع القبلي وأدت إلى ظهور فرق تقوم على أسس فكرية ودينية. وأعتقد أن الأهم من ذلك كله هو وقوعهم في نفس الخطأ الذي وقع فيه الأمويون وهو إيذاء آل البيت وجاء في مقدمة ذلك الأذى ترحيب عبد الله بن الزبير نفسه بخروج الحسين إلى كربلاء ودفعه إلى ذلك الفعل دفعاً ثم سجنه لمحمد بن الحنفية وأتباعه وسجن ابن

(1) كلود كاهن (C. Kahen): تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص31.

(2) فلهوزن (Flhowzen): الدولة العربية، ص661-162.

عباس وسفك دماء الشيعة في الكوفة مما أثار سخط المسلمين وعجل بسقوطه وبقائه وحيداً في مواجهة الحجاج الذي قتله ثم مثّل بجثته.

مات يزيد وانتقل الحكم إلى ابنه معاوية الثاني، حيث لم يمكث هذا الخليفة الأخير إلا أربعين يوماً حتى مات[1] ميتة مفاجئة تجعلنا نظن أن يكون وراءه سر خاص نستطيع أن نفترض أن المصادر التاريخية لم تهتم كثيراً بأخباره عدا عن ضعفه وحداثة سنه، فضلاً عن موقف له خاص له بشأن الخلافة الوراثية التي أنكرها والدعوة إلى «نظام الشورى القديم المتمثل في العصر الراشدي»[2].

وهذا الرأي القوي يجعلنا نشك في أن معاوية الثاني لم يجد التأييد الكافي من البيت الأموي نتيجة أفكاره بخصوص الحكم ولا يمكن في خضم هذا أن ننسى أطماع مروان بن الحكم الذي وعد بتولي الخلافة بعد يزيد بن معاوية وبموت أو قتل معاوية الثاني حيث تعرضت الخلافة لمأزق خطير كان المتضرر الأكبر فيها البيت السفياني حيث انتقلت الأمور من البيت السفياني إلى فرع آخر من بني أمية وهو البيت المرواني لاستكمال النظام الوراثي مع الاحتفاظ بالشكل العام لهيكلية حكم معاوية الأول بالاعتماد في ذلك على لعبة الصراع القبلي بين أقوى قبيلتين في الشام «قبيلة بني كلب اليمنية وقبيلة بني قيس»[3].

وبهذا أصبح في العالم الإسلامي خليفتان: خليفة أموي هو مروان في الشام تسانده القبائل اليمنية، وخليفة في الحجاز هو ابن الزبير الذي يسيطر على معظم الأمصار الإسلامية وتؤازره قبائل قيس. ونتيجة لتمسك كل من مروان وابن الزبير بما يدعيه حقه في الخلافة، أصبح لا مفر من تحكيم السيف بينهما وقد تلاقى الخصمان في ثلاثة ميادين هي: مصر والعراق والمدينة. ولقد نجح مروان في ضم مصر وتمكن من دحر أنصار ابن الزبير فيها وتولية ابنه عبد العزيز عليها سنة 65هـ ثم اتجه إلى العراق ولم يكن الأمر سهلا عليه، فهناك شيعة علي الذين يكرهون البيت الأموي ويرغبون في الانفصال أو نقل حاضرة الخلافة إلى الكوفة كما كانت عليه في عهد علي بن أبي طالب، بالإضافة إلى وجود حزب الخوارج،

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص503.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص64.
(3) المقريزي: النزاع والتخاصم، ص 38؛ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج1، ص160-161.

وهم أعداء ألدّاء لبني أمية، وقد وقفوا إلى جانب ابن الزبير خلال حصار مكة في عهد يزيد. لهذه الأسباب مجتمعة أحجم مروان على الاتجاه إلى العراق، وولى عبيد الله بن زياد على الكوفة وفي غضون ذلك ظهر التوابون[1] الذين ثاروا للأخذ بثأر الحسين، فاشتبك معهم في معركة (عين الوردة) وانتصر عليهم. ولم ينته الأمر لابن زياد بل واجهه عدو آخر، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي نجح في القضاء على ابن زياد[2]. كما وجّه مروان سنة 65هـ جيشاً إلى المدينة لاستعادتها من ولاة ابن الزبير، ولم يتحقق الانتصار وبقيت المدينة في يد ابن الزبير.

ثم مات مروان سنة 64-65هـ/ 684-684م وكان قد تولى سنة 684م ونفوذه محصور في بلاد الشام ومصر، بينما بلاد الحجاز والعراق في يد ابن الزبير ومع تولّي عبد الملك بن مروان بن الحكم سنة (65-86هـ/ 684-705م) في ظروف صعبة جعلته يواجه زعيم قبيلة قيس الضاربة في الفرات ويواجه مصعب بن الزبير في العراق، والبيزنطيين في الشمال إذ استمر في قتالهم سنتين كاملتين. وكان مصعب بن الزبير يواجه صعوبات في العراق كان من أهمها ثورة المختار الثقفي الذي تزعم ثورة العلويين. ويعد المختار من أقدم أنصار علي بن أبي طالب فأعلن عن عقيدة أو عن طموح أنه ضاق ذرعاً بتلك الحركات المترددة الخائبة التي ترغب في نصرة القضية العلوية وأن العمل والثأر إنما يقتضيان المزيد من العزم والتدبير[3] فكان أول زعيم حقيقي للعلويين في الكوفة، وانطلاقا من هذا التصميم خرج المختار بنتائج هي أشبه بإعلان الثورة على آل أمية.

وكان المختار يأمل أن يتولى ولاية العراق في حال نجاح عبد الله بن الزبير في تولّي الخلافة، ولكن ابن الزبير خيب ظنه لأنه هو نفسه يرفض حركة المختار والتوابين، ولم يقبل بهم إلا نتيجة الظروف السياسية كي يدعموه مؤقتاً ثم يلتفت إلى تصفيتهم عند فوزه في الحكم لكن المختار تنبه إلى هذه اللعبة فجمع حوله الشيعة وفلول جيش التوابين وموالى الكوفة وشكل منهم جيشه. ولقد تبين للمختار أنه لن يتسنى له القيام بحركة واسعة إن هو اقتصر على دعوة أعيان الكوفة

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص257.

(2) الطبري :المصدر نفسه، ج7، ص157.

(3) كلود كاهن (C.kahen): تارخ العرب والشعوب الإسلامية، ص33.

الطاعنين في السن ممن عرفوا بالتردد وتنافر الرأي[1]. في حين كان هو بحاجة إلى جيش منضبط مطيع، مخلص لزعيمه كل الإخلاص فوجد في الموالي بغيته حيث كانوا يعيشون في ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية سيئة هيأت للمختار فرصة إغرائهم بتحسين أوضاعهم المادية وزيادة أجورهم ومنحهم حقهم في الغنائم مما دفعهم إلى الدخول في الحركة الثورية التي يقودها المختار ويجب أن نلاحظ أن اندفاعهم لم يكن بسبب دافع عقائدي أو إيمان بقضية آل البيت بقدر ماهي رغبة لتحسين وضعهم وطمعاً في الوصول إلى السلطة، ولكي يعطيهم المختار الصورة الشرعية في حقه للمطالبة بدم الحسين فقد بدأ يدعو لأحد أبناء على الصغار. «محمد المعروف بابن الحنفية» نسبة إلى أمه وهو ليس من ولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها. وقد حاول المختار أن يوهم أتباعه بأنه بُعث أميناً من ابن الحنفية حيث يقول: «أما بعد: فإن المهدي الوصي، محمد بن علي «ابن الحنفية» بعثني إليكم أميناً، ووزيراً منتخباً وأميراً وأمرني بقتال الملحدين والطلب بدماء أهل بيته، والدفاع عن الضعفاء»[2]. وكانت هذه الخطبة التي وجهها المختار لفرقة «التوابين» طالباً منهم العدول عن السير مع سليمان بن صرد في عمليته الانتحارية تلك، داعياً إياهم إلى بيعته والتعاون معه لإعداد جيش قوي للثأر للحسين.

ومن هنا يتضح أن المختار أراد أن يستند على حق شرعي وديني في مطالبته بالخلافة إلى محمد بن الحنفية وقد استمال بعضا من التوابين بينما أصرت الأغلبية على متابعة سليمان بن صرد في مخططه الانتحاري تكفيراً للذنب الذي أصبح يثقل عليهم. وهكذا تواعد التوّابون في مكان خارج الكوفة يقال له النخيلة آخر سنة 65هـ والتقوا مع جيش الشام في «عين الوردة» حيث انتصر الجيش الأموي وقتلوا فرقة التوابين بكاملها تقريباً[3] وهكذا انضمت بقية الشيعة إلى المختار خصوصاً «السبئية»[4] تلك الفرقة المغالية والتي رفعت شعار المهدي المنتظر وفكرة الوصي وتأليه علي بن أبي طالب حيث وجدت الفرصة في الانتقام من

(1) كلود كاهن (C.kahen): المرجع نفسه، ص33.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص401.
(3) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج3، ص437.
(4) السبئية فرقة تنسب إلى مؤسسها عبد الله بن سبأ، الطبري : المصدر نفسه، ج4، ص326-331.

الزبيرين والأمويين، ولقد نجح المختار في تجهيز جيش قوامه 17 ألف جندي فوثب على عمال ابن الزبير في الكوفة وهزمهم واستتب له الأمر فيها سنة 66هـ وامتد ملكه الشيعي من أرمينيا وأذربيجان شرقا إلى الموصل وما حوله من الجبال شمالاً. وانتقم المختار من كل الذين شاركوا في قتل الحسين وكان على رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص قائد الفرقة العسكرية التي ارتكبت مذبحة كربلاء 10 محرم سنة 680 م وأرسل رأس ابنه حفص بن سعد ورأس عمر بن سعد إلى محمد بن الحنفية وكبار العلويين بالمدينة بالإضافة إلى قيام المختار بمساعدة محمد بن الحنفية وكبار العلويين الذين كان ابن الزبير قد حبسهم في شعب بمكة وحاصرهم فيه وهددهم بالقتل إن لم يبايعوا له بعدما رفضوا وتمكن المختار من إنقاذهم وإخراجهم من مكة وقتل مصعب بن الزبير والي البصرة ومن معه في سنة 67هـ. لقد اعتمد المختار في حركته على قضيتين متكاملتين تشكل كل واحدة منهما ثقلاً سياسياً: الأولى قضية الشيعة المتمثلة يومذاك في «الثأر للحسين» وأحقية محمد بن الحنفية الذي أُضفيت له ألقاب خاصة وبالخصوص لقب «الوصي» ولقب «المهدي»[1] اللذين أصبحا منذ ذلك الوقت ركنين رئيسين في نظرية الإمامة عند الشيعة. والقضية الثانية «هي قضية العبيد والموالي الذين كانوا في الغالب من شيعة علي واستطاع أن يجمع القضيتين في قضية واحدة لأن الفئتين ناقمتان على بني أمية وهم جميعاً يرفضون وضعيتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية»[2] ولكنه أخطأ في الجمع بينهما لأن أشراف العرب في الكوفة رفضوا أن يكون للموالي والعبيد حصة من الفيء مما جعلهم يثورون ضده وينضمون تحت لواء ابن الزبير بالإضافة إلى أن الكوفة لم تكن ذات مركز إستراتيجي هام يساعد على النصر أضف إلى افتقاره إلى القبيلة التي يحقق بها طموحه السياسي والتي كانت الأساس في الصراع السياسي في تلك الحقبة، وكل هذه العوامل ساهمت في القضاء على حركة المختار وإنهائها بسرعة. أما بالنسبة للخوارج ودورهم السياسي فلا يمكن تجاهل دورهم في مساعدة عبد الله بن الزبير، عندما تمت محاصرته في مكة من قبل الجيش الأموي خاصة بعد إعلانه

---

(1) البلاذري : أنساب الأشراف، ج1، ص140.

(2) الجابري : العقل السياسي العربي، رقم 3، ص276.

«التعبئة العامة» في مكة فانضم إليه الخوارج من الفرقة النجدية[1] والمختار الثقفي من الشيعة[2] ووجدوا في ابن الزبير حليفاً مرحلياً ضد عدو مشترك، ولما مات يزيد بن معاوية أثناء الحصار المضروب على ابن الزبير حاول أهل الشام مناصرته إلا أنه رفض السير معهم، فانصرفوا عنه، ودبّ الخلاف السياسي بين الخوارج وبين ابن الزبير[3]، وتبين لهم أنه ليس الرجل الذي اعتقدوا، فرحلوا عنه ومضى بعضهم إلى البصرة بينما مضى البعض الآخر إلى اليمامة[4].

بينما ذهب أبو طالوت، وابن الأسود، وأبو فديك وكلهم من بكر إلى اليمامة، فاستولوا عليها وعاد نافع بن الأزرق إلى البصرة ومعه عبد الله بن الصفار وعبد الله بن أباض، وحنظلة بن بيهس وعبيد الله والزبير أبناء الماجوز[5]. وتدل هذه الفرقة التي انقسمت إلى فريق اتجه إلى اليمامة وفريق أخر اتجه إلى البصرة نتيجة اختلافهم مع ابن الزبير، وكانت أخطر فرقة بالنسبة للزبير هي فرقة نجدة بن عامر التي أصبحت تعرف باسم فرقة النجدات نسبة إلى مؤسسها[6] حيث حدث إشتباك مسلح بينهما كاد فيه نجدة أن يبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها[7]. مستغلاً ضعف ابن الزبير، ولولا أن انشق عليه أصحابه إذ نقموا عليه أموراً أكفروه بسببها وقد قتل على يد «الفديكيين» نسبة إلى أبي فديك، الذي تولى فيما بعد قيادة الخوارج. وعند نهاية سنة 72هـ استطاع أبو فديك أن يهزم جيشاً من أهل البصرة - بقيادة أمية بن عبد الله - لبني أمية هزيمة منكرة. ولكنه هزم فيما بعد على يد عثمان بن عبيد الله بن معمر واضطر إلى التسليم بعد أن فقد نحو ستة آلاف من رجاله[8]. وهكذا سقطت دولة النجدات الخارجية في اليمامة والبحرين بعد أن استمرت سبع سنوات كادت أن تبسط فيها سلطانها على شبه الجزيرة العربية كلها.

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص14.
(2) البلاذري : أنساب الأشراف، ج1، ص140.
(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص69.
(4) ابن الأثير: المصدر نفسه، ص80.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ج5، ص568.
(6) النعمان القاضي : الفرق الإسلامية، ص173.
(7) ابن الأثير : المصدر نفسه، ج4، ص67.
(8) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص192.

أما فرقة الأزارقة فقد تقابلت مع جيوش الزبير في أكثر من موقعة كان نصيبها النصر في أغلبها للأزارقة مما زاد في فزع أهل البصرة إلى أن استطاع المهلب بن أبي صفرة القضاء عليهم وطردهم من ناحية نهر دجلة سنة 66هـ وانتصر المهلب انتصاراً حاسماً بعد أن ظل الموقف يتأرجح طويلاً بين الفريقين، وقد قتل في هذه المعركة قائد الأزارقة عبيد الله بن الماجوز[1].

ولم ينته أمر الخوارج عند هذا الحد بل استمرت خلال الدولة الأموية إلى أن تولى أمر الكوفة عامل الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي ومن المؤكد أن الخوارج هم أشد الفرق وأخطرها وأكثرها جرأة في تحدي النظام الأموي حيث ساهموا بدور كبير في إضعاف هذا النظام فمن التصدي المباشر في المشرق من خلال المواجهات المسلحة إلى دورهم التبشيري والتحريضي في المغرب العربي وما أسفر عن ذلك من ثورة البربر[2].

لقد كان الخوارج دائماً الحزب السياسي المناهض للأمويين بسبب أفكارهم الجريئة في نظام الحكم حيث يرفضون مبدأ الوصاية والإمامة ونظام الوراثة وهو أمر أدى بهم إلى ترك بصمات واضحة على المسار النضالي الثوري الذي استهدف بني أمية وأطاح بهم وقد لا يكون بعيداً عن التصور بأن ثورة الخوارج في الأهواز كانت مقدمة في الشكل والمضمون للثورة العباسية في خراسان[3] ومن المؤكد أن خوارج المشرق لم ينجحوا في إطار الطموح للوصول إلى السلطة والمطالبة بالتغيير إلا أنهم استطاعوا تعبئة النفوس ضد الأمويين وخاصة العناصر غير العربية من موالي وعبيد وعرب عانوا من القهر ومن الحرمان في ممارسة حقهم السياسي وفي ممارسة السلطة وهذه هي النقطة الأساسية التي استفاد منها العباسيون في تعبئة القاعدة الشعبية واستقطابها واستثمروها لصالحهم. وفي سنة 80هـ قامت في الأقاليم الشرقية ثورة تزعمها عبد الرحمن بن الأشعث، الذي تلقب «بناصر

---

(1) ابن الأثير: المصدر نفسه، ج4، ص167.

(2) البربر، هم قوم ينسب بعضهم إلى أصلهم إلى الكنعانيين وإلى القيسية وهذه النسبة تعني قبائل شرقية الأصل هاجرت إلى المغرب في ظروف تاريخية معينة فقد قال ابن الكلبي وابن قتيبة والجرجاني والطبري والمسعودي والبكري وابن الأثير : أن أصل البربر من الجزيرة والبعض يقول إنهم من اليمن والمهم أنهم جميعا أجمعوا على أنهم عرب : سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي، ص81، 82.

(3) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ص277.

المؤمنين» وتعتبر ثورته من أكبر الثورات العراقية وهي إمتداد لحركة المختار ومن المنطلق ذاته اعتمدت على الموالي وعلى الصراع الطبقي في العراق، ودكتاتورية واستبداد الحجاج.

انطلقت ثورة ابن الأشعث من منطقة فارسية حينما كان عامل الحجاج على سجستان حيث وجهه لمحاربة رتبيل ملك البلد إلا أن عبد الرحمن بن الأشعث رفض التوغل في رتبيل وطلب تأجيل الأمر إلى العام المقبل مما جعل الحجاج يتوعده ويتهدده فجمع جيشه البالغ عشرة آلاف والناس في سجستان وحرضهم على خلع الحجاج فخلعوه، وبايعوا له فلما اجتمعت الكلمة له قال لهم : نسير إلى العراق، وسار إلى العراق إلى أن بلغ الأهواز والتقى الجيشان فتقاتلا قتالاً شديداً إلى أن انهزم الحجاج ورجع إلى البصرة ولحقه ابن الأشعث إلى البصرة، فانهزم ابن الأشعث. فلما رأوا انهزامه إلى الكوفة أتوا عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي، فقالوا: تركنا ولحق بالكوفة، وخرج ابن الأشعث فنزل «دير الجماجم» وبلغ عدد الذين انضموا إليه مائة ألف مقاتل ومعهم مثلهم من الموالي[1] وقد عمقت ثورة ابن الأشعث الاتجاه الذي بدأته ثورة المختار فيما يتصل بالانقسام الاجتماعي والصراع الطبقي بين الفئات المسيطرة والفئات المسحوقة[2].

وهذا يفسر حماسة الموالي وجمهور القراء بخاصة لمساندة هذه الثورة وانخراطهم في صفوفها فتشجع عبد الرحمن بن الأشعث إلى الاستمرار في إعلان ثورته ومعارضته للحجاج وللدولة الأموية زد على ذلك دوافعه السياسية وحماسته الأرستقراطية العربية العريقة[3]. وانضمام الجيش بكامله معه حيث وصل عدده إلى أربعين ألف من العراقيين جرى اختيارهم مناصفة من البصرة والكوفة[4] وصارت الزعامات المعارضة موزعة بين القبائل «والقراء» وبقية القوى المؤثرة في العراق.

وعند تقييم الوضع نجد أن الحجاج رفض عودة الجيش وتأجيل القتال لفترة زمنية محددة لا تتجاوز العام جاءت بسبب رغبته الشديدة في التخلص من هذا

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص284.
(2) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص134-135.
(3) ابن قتيبة :الإمامة والسياسة، ص29.
(4) الطبري :تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص4.

الجيش الذي يضم أكثر المعارضين السياسيين لبني أمية بالإضافة إلى نسبة كبيرة من الشيعة والخوارج من منطقتي البصرة والكوفة ودفعه إلى حرب هو متأكد من أن الهزيمة ستكون من نصيبه وهي طريقة جيدة للتخلص من أعدائه بطريقة أكثر دبلوماسية وأكثر حنكة وخداع وهي مؤامرة جديدة ضدهم للحؤول دون عودتهم إلى العراق، بقتلهم جميعاً أو أكبر عدد منهم في حرب خاسرة أو إشغالهم على الأقل عن مقارعة النظام والمطالبة بشروط أفضل لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وبالتالي توافق رأي الجند مع قادتهم بزعامة عبد الرحمن بن الأشعث على إعلان الثورة فجاءت صيغة البيان الأخير للثورة في هذا الشأن «بخلع أئمة الضلال وجهاد المحليين»[1]. وهنا التقى الجيشان جيش عبد الرحمن ابن الأشعث وجيش الحجاج في أكثر من موقعة ولقد وقفت إلى جانب ابن الأشعث الكوفة لأنه كوفي المولد والمنشأ وبالتالي فإن قوته السياسية إنما هي في الكوفة حيث تسود القبائل اليمنية ومنها القبيلة الشهيرة «همدان» التي كانت سباقة إلى الاعتراف به[2]. بالإضافة إلى الحزب الشيعي الذي يحمل روح الثورة في وجدانه ورغبته في الانتقام وكان يعيش كالانفجار الموقوت. ونتيجة لهذه المعطيات تجاوبت الكوفة بكل طاقاتها لتكون مركز الثورة على النظام الأموي[3]، لقد كانت الثورة عنيفة إلى درجة أن عبد الملك بن مروان (65/ 86هـ - 685/ 705م)عقد اجتماعاً عاجلاً ناقش فيه الوضع في العراق وأسفر عن عدة مقترحات لإنهاء المشكلة العراقية وتخفيف الأزمة فاتجه وفد إلى «دير الجماجم» للتفاوض ومن أهم بنود الاتفاق المساواة في العطاء بين أهل الشام والعراق وعزل الحجاج ابن يوسف عن العراق وتعيين عبد الرحمن بن الأشعث على أية ولاية يختارها باستثناء العراق فتكون له طيلة حياته.

وهي محاولة من الخليفة لتطويق الانفجار الكبير الذي اجتاح العراق والحد من خطره. غير أن هذه المقترحات وجدت ترحيباً من عبد الرحمن بن الأشعث وسخطاً من الحجاج ورفضاً من الثوار لاعتقادهم أن ميزان المعركة لا يزال في مصلحتهم وكان على رأس المتشددين «القراء» وهكذا رفض الثوار هذه المقترحات رفضاً مطلقاً،

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ص8.

(2) الطبري: المصدر نفسه، ص12.

(3) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص227.

واستمروا في القتال حيث التقى الجمعان في دير الجماجم سنة 82هـ وانتصر الحجاج بجيشه النظامي وانهزم عبد الرحمن وجيشه إذ فرّت فلول جيشه إلى المشرق.

ورغم أن هذه المعركة لم تكن الأخيرة في تصفية جذور أكبر ثورة شعبية في تاريخ العراق الأموي، فإنها كانت معركة النهاية، وتحولت إلى بذور تمرد بدأت تنمو في أطراف سجستان بينما شهدت الكوفة محاكمات مثيرة أودت بحياة الكثير من الثوار بحيث تحول قصر الإمارة إلى مسرح دموي استهدف بشكل خاص الأسماء البارزة في المعارضة العراقية التي أراد الحجاج استئصالها والقضاء على أي أمل لها في التحرك[1] مما أدى إلى هجرة أعداد كبيرة إلى المناطق الشرقية البعيدة فأصبح تجمعهم في تلك الجهات أحد مصادر الخطر ضد الدولة الأموية وساهمت مساهمة كبيرة في بلورة أفكار الفرق الإسلامية بكافة أشكالها والتي وقفت إلى جانب عبد الرحمن وكان منها فرقة المرجئة والشيعة والخوارج والقراء[2].

ثم هدأت الأمور قليلا إلى أن انبثقت من جديد ثورة زيد بن علي في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/ 724-743م) وزيد هذا هو أحد أحفاد علي بن أبي طالب وكانت ثورته في حقيقة الأمر هي ثورة من ثورات الشيعة ضد الحكم الأموي إلا أنها عرفت بثورة وسط جمعت بين آراء الشيعة وآراء السنة ومزجت بين مبادئ الشيعة ومبادئ المعتزلة وهي ضد خلافة بني أمية وضد مظالمهم. لقد كان خروج زيد من أجل الثأر لجده الحسين ولأهل المدينة «يوم الحرة» ورميهم لبيت الله بحجر المنجنيق والنار[3]. لقد أصبحت فرقة الشيعة الزيدية أكثر الفرق اعتدالا حيث ترى جوازاً إمامة المفضول مع وجود الأفضل فعلى الرغم من أن علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلا أن بيعتهما صحيحة ويؤكد هذه النظرية الزيدية شاعرهم «الكميت» حيث وقف مع إمامه يدافع عن رأيه[4].

---

(1) بيضون : التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص265.

(2) الدينوري : الأخبار الطوال، ص322.

(3) البلاذري : فتوح البلدان، ص381.

(4) أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا عمرا
ولا أقول إذا لم يعطيا فدكا بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا
حسن طلعت : انظر الفرق الإسلامية، ص510

ويبدو أن اعتدال زيد بن علي وعدم رميه بنفسه في أحضان الفرس وعدم إستجابته لأطماعهم الشعوبية، كانت من عوامل تخلي الفرس عن تأييده، فلقي حتفه بسبب تخلي شيعته عنه وعدم موافقتهم على آرائه المحايدة في أبي بكر وعمر وعثمان ورفضه أن يتبرأ منها ولا يقول عنهم إلا خيراً : فنكثوا بيعته كما هي عادتهم دائماً وخرجت عنه فيما بعد فرقة عرفت باسم «الرافضة»[1] ولما شرع زيد بن علي في الخروج في سنة 122هـ لم ينضم إليه سوى مائتين وثمانية عشر رجلا حيث يقول ابن قتيبة : أن ابن هبيرة عامل هشام في الكوفة أمر بقتل زيد دون رأي هشام مما جعل هشام يقول: «إن هذا لهو البلاء المبين أن تقتل قريش دون مشورة» لقد كان لهذا نتيجة بعيدة المدى حيث خلقت ثورة زيد وراءها أحداثاً أدت إلى زوال الخلافة الأموية، فالدعوة العباسية نالت بموت زيد أكبر تعضيد إذ زال من طريقها منافس قوي وخصم عنيد[2].

كما أن حزب الشيعة فقد بمقتل زيد قوته، فأتاح ذلك الفرصة لانتصار هذه الدعوة، خاصة وأن ابنه يحيى سلك طريقاً غير طريق أبيه، فاتخذ خراسان قاعدة لحركته من أجل الأخذ بثأر أبيه، ولكن الأمويين ما لبثوا أن قضوا عليه سنة 125هـ. والأمر الذي يثير الدهشة فعلا تصميم آل البيت من آل علي رضي الله عنه على تصديق أهل الكوفة رغم يقينهم بأنهم سيخذلونهم ويتفرقون عنهم ساعة الوغى ومضى بعض آل البيت في هذا الطريق فكانت نهايتهم مأساوية كما هي العادة.

لقد كتب عبد الله بن الحسين إلى زيد: أما بعد فإن أهل الكوفة نفج العلانية حور السريرة هوج في الرد جزع في اللقاء تقدمهم ألسنتهم ولا تتابعهم قلوبهم. ومالهم إلا ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن أهملتم خضتم وإن خورتم خرتم وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم وإن أجبتم إلى مشأمة نكصتم"[3].

وهذا هو التحليل المنطقي لموقف أهل الكوفة المتناقض المتلائم مع تركيبتها الاجتماعية غير المتجانسة وهكذا خرج الأمر من أبناء علي بن أبي طالب وخاصة بعد مقتل زيد ونالت الدعوة العباسية فرصة أكبر.

---

(1) ابن قتيبة :الإمامة والسياسة، ص104.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص300-301.
(3) المقريزي : الخطط المقريزية، ج3، ص 339.

المبحث الرابع

مأزق الخلافة في العصر العباسي

من (132-334هـ/ 750-945م)

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين علي وبني العباس في استحقاقهم للخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من امتيازات سواء كان ذلك من حيث درجة القرابة بين علي والرسول أو زواجه من ابنته المفضلة فاطمة الزهراء رضي الله عنها أو من حيث أنه أحد المؤمنين بالدعوة وهو لا يزال طفلاً ومن الذين هاجروا مع الرسول تاركين وراءهم كل شيء في مكة ثم نظرة الشيعة الخاصة والتي تقول بأن علياً وصي الرسول وهو الإمام، ومن حقه وحده هو وأولاده أن يتولى الأمر.

ولكن بني العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم ابن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أولى بالأمر إلى محمد بن عبد الله ابن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي رضي الله عنهم لأن الأول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس إليهم سرا في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم القوي أبو مسلم الخراساني فتمّم لهم الأمر ورد إليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش (ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا من أهل البيت ولا يصرّح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الشيعة كان توجهها إلى علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلى بني العباس)[1] فلما تم له الأمر أعلن اسم عبد الله

(1) محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية"الدولة الأموية"، ص160، 161.

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. فبدأ الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم بني أمية. فقتلوا وشردوا كل شيعي لعلي، وخصوصاً شيعة زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس، وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافياً لإتلاف نفسه ومصادرة ماله. وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم.

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بني العباس كما كانوا يخرجون على بني أمية وكانت العاقبة القتل والتشريد ومن بقي منهم فر هارباً إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن استقر في المشرق سكت على ما في نفسه. حيث ذهب الفارون إلى أفريقيا بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولاً علوية كالدولة الفاطمية 296هـ ودولة الأدارسة (172/ م788). والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم في السر حتى كان شيء من ذلك سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية. فابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتار إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد[1].

هذا ما كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة، فالانتخاب مغيب عند أهل التنصيص على البيت العلوي لأنه كان منظوراً فيه إلى الوراثة إذ يقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقتها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسمّوا علياً ومن يليه الأئمة وكانوا اثني عشر إماماً آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى، وينتظرون عودته أخر الزمان. ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة. ولهذا تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية. وكان أول من رأى هذا الرأي هم الشيعة فهم يرون أن الخلافة أمر من أمور الدين، ثم جرّ هذا الموضوع المتكلمين إليه وصار لأمرها موضوع جدلي كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم[2] حتى أدى لأكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليهم من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلّما يخلو منها زمن، والتي وظفت فيه كل الوسائل

---

(1) الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص167.

(2) الخضري : المرجع نفسه، ص167.

لخدمة أغراضها وكان نصيب العباسيين من قتل الأئمة المعصومين حسب قول الشيعة أكثر من نصيب الأمويين، فقد عمل العباسيون على احتضان العلماء والخطباء والمحدثين المناوئين للشيعة والتشيع لاسيما الذين لم يهمهم مشروعية الحكم وشرعية الخلافة[1] وحولوهم إلى أبواق لهم لتأكيد شرعيتهم في الحكم والرد على أبواق الشيعة في حقهم في الإمامة والولاية متناسين قوله تعالى: **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾**[2] تلك الشورى التي أرساها الرسول ﷺ والتي كان فيها المسجد هو الإطار الرئيسي في عقد المشاورات والمناقشات بين المسلمين وعلى كافة انتماءاتهم واتجاهاتهم لا فرق بين عربي وأعجمي، واحتد الصراع بين العباسيين والعلويين إلى درجة أن كليهما حاول بشتى الطرق وعن طريق الوسائل المشروعة وغير المشروعة تثبيت هذا الحق ومن بين هذه الأشياء مثلا كثر الكلام والنقاش بين الناس في انتساب أبناء بنات الرجل إليه لأن أبناء بنات الرجل لا ينتسبون إليه، والمقصود بذلك الرسول عليه السلام وأنهم بمنزلة الأجانب والغرباء الأباعد واستشهدوا بشعر نسبوه إلى الخليفة عمر رضي الله عنه في هذا المعنى[3]. واستشهدوا بشعر مروان بن أبي حفصة[4].

يقول ابن قتيبة: إن محمد بن الحنفية تمت مبايعته من قبل الشيعة حيث عرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب على فرصته[5]، فقبل ذلك منهم وحرضهم على السر والكتمان، حتى يرى للقيام موضعاً فأقام محمد بن الحنفية إماماً للشيعة قابضاً لزكاتهم حتى مات وولى عبد الله ابنه من بعده، وأمره بطلب الخلافة أن وجد إلى ذلك سبيلاً إلا أن سليمان بن عبد الملك 96/ 99هـ دس له من قتله

(1) الأنصاري: مذاهب ابتدعتها السياسة في الإسلام، ص25.

(2) القرآن الكريم: سورة الشورى، الآية 38.

(3) بنونا بنو أبنائنا وبناتنا — بنوهن أبناء الرجال الأباعد.
الأنصاري: المرجع نفسه، ص326.

(4) يا بن الذي ورث النبي محمد — دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم — قطع الخصام فلات حين خصام
أعطى النساء مع الرجال فريضة — نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون ولا يكون ولم يكن — لبني البنات وراثة الأعمام
الأنصاري: المرجع نفسه، ص33.

(5) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص108-109.

بالسم في شربة لبن وهو في طريقه إليه عندها علم عبد الله أنه هالك لا محالة فاستدل على الطريق إلى الحميمة[1] وبها جماعة آل عباس، وقال لمن معه : إن مت ففي أهلي ثم توجه فنزل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر، وقال له : إليك الأمر، والطلب للخلافة بعدي، فولاه، واستشهد له من الشيعة رجلاً ثم مات[2]. واعتقد بأنها ثورة عربية إسلامية قام بها زعماء عرب وما استخدام العباسيين للموالي والشعوبيين في حركتهم إلا لكي يخدم أغراضهم وغايتهم وأفكارهم السياسية مستغلين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي وما كانوا إلا مطية امتطاها العباسيون لوصول القرآن للخلافة. وحتى استخدام خراسان نفسها كقاعدة كان من قبل جماعة من العرب ضد جماعة عربية أخرى تمركزت في الشام وبالفعل كانت عبقرية الدعاة العباسيين يتجسد في أنهم جندوا لتأييد الدعوة جماعات واتجاهات متباينة الأهداف خاصة بعد الاندماج الذي حدث بين سكان خراسان من العرب والفرس في القرن الثالث الهجري «خاصة وأن البصرة عثمانية، والكوفة لآل علي، والجزيرة حرورية مارقة والشام لطاعة الأمويين»[3].

وانبعث الدعاة في سرية وكتمان، ولكل داعية اثنا عشر نقيبا، لكل نقيب سبعون عاملا والعمال يشرفون على الخلايا السرية التي تندس بين الجماهير في جميع الأمصار. ومن أهم الشخصيات التي لعبت دوراً مهماً في خدمة الدعوة العباسية هي شخصية بكير بن ماهان داعي العباسيين بالكوفة. والذي كان واسع الثراء حيث أنفق ثراءه على الدعوة من أجل تدعيم أركانها.

توفي الإمام محمد بن علي بالحميمة سنة 125هـ وخلفه ابنه إبراهيم. كما توفي بكير بن ماهان بالكوفة وخلفه صهره أبو سلمة الخلال الذي لقب فيما بعد بوزير آل محمد[4] وقد ألف النقباء الاثنا عشر ما يشبه «مجلس الشورى» تحت رئاسة سليمان بن كثير الخزاعي ويظهر أن لقب «نقيب» إنما اتخذ مما ورد في القرآن الكريم عن بني إسرائيل ومجلس شوراهم **﴿لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل**

---

(1) الحميمة، بلدة صغيرة بالبلقاء وبالشام.

(2) ابن قتيبة : المصدر نفسه، ص109.

(3) حرورية يعني أنها تدين بالمذهب الخارجي نسبة إلى حروراء وهي بلدة بالقرب من الكوفة قد التجأ إليها بعض الخارجين على علي(رض).

(4) العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص23.

وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾[1]، إذًا التنظيم السياسي الذي استخدمه العباسيون مستغلين فيه شعار (الرضا من آل البيت) لحشد جموع الأنصار واستقطاب أكبر عدد من التابعين وللدلالة على الأثر الديني والعاطفي لهذا الشعار وقد تعرض الدعاة للتعذيب والتنكيل أكثر من مرة.

ففي (107/ 108هـ) نكل والي خراسان بالدعاة كما ظهر بعضهم سنة 113هـ فلقوا المصير نفسه، وكان معظم هؤلاء الدعاة من العرب وهذا هو جانب الفداء والإيمان في الدعوة، ومن جهة أخرى فقد كان أتباع الدعوة يدفعون الخُمس للإمام كي يقوم بواجبه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهذا هو جانب التنظيم المالي من الدعوة[2].

ولنعد إلى أبي سلمى الخلال الذي تولى رئاسة الدعوة سنة 127هـ، وأبو سلمى هو الذي خرج بالدعوة في دورها السري إلى طورها العلني، خاصة وأن العباسيين عملوا منذ البداية على إظهار غايتهم من قلب الحكم الأموي وأخفوا الثانية وهي السعي للخلافة لشخص معين ولم يظهروا للناس بثوب الطالب للملك ولكن بوشاح الثائر على الظلم، فأقام محمد بن عبد الله بن عباس على حماية الشيعة ودعوتهم له حتى مات، فلما حضرته الوفاة ولى محمد بن إبراهيم الأمر، فأقام وهو أمير الشيعة وصاحب الدعوة بعد أبيه.

والعباس هو عم النبي، وإليه ينتسب العباسيون. وقد جهروا بالخلافة لأنفسهم فهم أولى بها بحسب رأيهم لأنهم من أولي الأرحام، وقد اغتصبها حسب قولهم الخلفاء السابقون منهم، باستثناء علي بن أبي طالب ورغم ذلك حدثت مجادلات كلامية ما بين العباسيين والهاشميين حول من هو أحق بالخلافة : الأعمام أم البنات ؟ هذه الموضوعات التي خاض فيها من المعتزلة أبو عثمان الجاحظ (ت255هـ) وأبو جعفر الإسكافي(ت240هـ) وغيرهم كثيرون مما يدخل في دائرة الأهواء السياسية وإيجاد المبررات لحكم كل واحد منهم ولعب الشعراء دوراً مهمّاً في ذلك. ويعلل أحمد عُلبي تولي العباسيين للخلافة بقوله أن الفرقة الكيسانية، كانت تعول على اتباعها في العباسية، «والله ليتمن الله هذا الأمر،

(1) سورة المائدة، الآية 12.

(2) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص122.

حتى تخرج الرايات السود من قعر خراسان»[1].

ولكن ما هو الحق الشرعي الذي استند عليه محمد والعباسيون من بعده كأساس للمطالبة بالخلافة لقد أسلفنا القول في ذلك فالعباسيون يسوقون مقولات لها طابع قصصي هي أقرب إلى الأسطورة يفسرون بها هذا الحق الشرعي لخلافتهم وهو تنازل أبي هاشم لعلي بن عبد الله بن العباس بعد أن أحس أنه هالك لا محالة ولا عقب له فسلم زمام الدعوة الكيسانية له، وعلى أساس هذا التنازل ورث محمد بن علي العباسي جميع الخطط والدعاية السرية التي كانت للشيعة «الكيسانية» ورغم أن هناك ملاحظة مهمة يجب الإشارة إليها وهي أن الشيعة تنفي نفياً قاطعاً أن تكون فرقة الكيسانية من فرقهم أو أنها تمت لهم بصلة واعتبروا أن الغرض من تزوير حقيقة انتماء الكيسانية إلى الشيعة هو الإساءة إلى الشيعة والطعن في التشيع وأن مؤسسيها أشخاص موهومون[2].

وهكذا رفع العباسيون شعاراً باسم «الرضى من آل البيت أو آل محمد» وأعتقد أن ما تم عرضه يوضح بشكل كبير أن هذه القصة التي ارتكزت على قضية التنازل هي التي ساهمت في بلوغ العباسيين هدفهم والحق أننا نشك في صحة هذه الرواية رغم وجودها عند الطبري، وابن قتيبة واليعقوبي والمسعودي وابن الأثير إلا أنهم جميعاً لم يؤكدوا صدقها وصحتها رغم روايتهم لها. ونعتقد أن وقوف العباسيين إلى جانب الحزب العلوي ضد الحزب الأموي جاء بحكم قرابتهم للرسول(ص) عاش العلويون والعباسيون صراعاً مريراً مع الأمويين منذ الجاهلية الأولى. وبما أن الصراع العلوي مع الأمويين استمر فترة طويلة ابتداء من صراع علي رضي الله عنه ومعاوية واستمر إلى سقوط الخلافة الأموية (41-127هـ/ 661-750م) وقدم فيه العلويون زهرة شبابهم من الحسن والحسين إلى محمد بن الحنفية وأولاده إلى درجة أن الشيعة الذين تبنوا هذا الأمر عبر العصور بدوا في حالة من الضعف والوهن نتيجة الضربات المتكررة عليهم من قبل الأمويين خاصة بعد وفاة أبي هاشم آخر إمام للشيعة الكيسانية إلا أن العباسيين تنكروا لهم في النهاية. ومما يؤكد وجهة نظري أن العباسيين طيلة تلك الفترة

---

(1) أحمد علبي : العهد السري للدعوة العباسية، ص33.

(2) الأنصاري: مذاهب ابتدعتها الساسة في الإسلام، ص 38 وسنتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصل الفرق.

كانوا يقفون إلى جانب أبناء عمومتهم يساندونهم ويدفعونهم إلى الأمام ولم يطالبوا بأي حق بالخلافة ولكن حالة الضعف التي أصابت الحزبين الحزب العلوي والحزب الأموي وجد فيها العباسيون الفرصة مؤاتية للنهوض والمطالبة بحقهم الوراثي في الحكم وتكملة مسيرة العلويين خاصة وأن الأمر كان في البداية سرياً ولم تتضح الرؤية إلا بعد أن تم إعلانها فيما بعد، ولا ننسى أن العباسيين اعتمدوا على حق الوراثة عن طريق نظام الميراث الإسلامي الذي لا يعطي الحق لأبناء البيت، وأشاع العباسيون هذه النظرية في البلاد ووجدوا من يؤيد هذه الفكرة من الشعراء والأدباء. إذا فالدعوة العباسية بدأت شيعية في الأصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية[1].

وكيفما كان الأمر فإنه يبدو من سير الأحداث أن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس هو نفسه العباس الحقيقي الذي سعى لنيل الخلافة من مقره بالحميمة وأخذ ينظم الدعوة أو يدعو لها بشكل سري دقيق ويرسل الدعاة والنقباء إلى الجهات الملائمة لمثل هذه الدعوة مثل خراسان تحت شعارات غامضة أهمها الدفاع عن آل البيت الذين أصيبوا أمام القوة الأموية بعدد من النكبات والهزائم الدائمة.

كان اختيار خراسان بوصفها «بؤرة» لتنظيم الدعوة للعمل السياسي وهو من أهم العوامل التي ساهمت في نجاح الحركة العباسية. ولكن ثمة صورة خاطئة أضفاها بعض المؤرخين العباسيين من ذوي الأصل الفارسي[2] على الحركة العباسية وتناقلها عنهم المؤرخون فيما بعد ثم جاء المستشرقون من أمثال كلود كاهن وكارل بروكلمان و يوليوس فلهوزن فأعطوها فلسفتها العنصرية منذ أواخر القرن الماضي وتابعهم في ذلك عدد من الباحثين العرب المحدثين[3] «تلك الصورة التي تجعل الثورة العباسية على الأمويين حركة فارسية قام بها عجم خراسان»[4] على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الطبقة العربية الحاكمة أي أنها حركة عنصرية واجتماعية. وعلى هذا لم يكونوا يدعون لشخص معين ولكن (الرضا من آل محمد) أي كان هذا الذي يرضاه المسلمون من آل

(1) العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص22.
(2) مثل حمزة الأصفهاني ص 160
(3) مثل أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 30؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ص50.
(4) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص93.

البيت. (وقد جمعوا بهذا الشعار ما بين رأي الشيعة من جهة والمرجئة وبعض الخوارج من جهة أخرى) من أجل كسب كل القوى المعارضة وكثيراً ما أعلنوا أنهم ثاروا لدماء شهداء العلويين.

بينما أخفى غلاة الدعاة حقيقة عقائدهم عن المعتدلين، وتساهل البعض منهم في بعض العقائد الإسلامية، هم في حقيقة الأمر اعتمدوا على بعض العقائد العنيفة مثل عقائد مزدك أو الأفكار الزرادشتية[1].

وفي سنة 128هـ وبعد أن وقعت العصبية في خراسان (بين قيس ويمن) واضطربت الأمور طلب سليمان بن كثير رجلاً يقود الحركة العباسية، فوضع الإمام إبراهيم بن محمد شيوخ الدعوة في طاعة أبي مسلم الخراساني الذي اختلفت الروايات في أصله[2]. وأوصاه ألا يخالف الشيخ سليمان بن كثير وزوده بتعليماته.

ويقول الدينوري: قد استجاب لدعوته جميع أرض خراسان. ولقد حدثت العديد من المصادفات بين أبي مسلم ونصر بن سيار سنة 129هـ رفع خلالها أبو مسلم اللواء الأسود الظل أو الراية «السحاب» اللذين أرسلهما الإمام إليه[3] وهو يتلو الآية الكريمة التي كتبت على اللواء **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾**[4].

وقد وظفوا القرآن في خدمة أغراضهم السياسية. وكانوا يقصدون بشعار الظل «أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً فكذلك لا تخلو الأرض من خليفة هاشمي أبد الدهر»[5] أما لون السواد فيقال أن الروايات تؤكد أن العباسيين اتخذوه حداداً على شهداء آل البيت رغبة في كسب أكبر عدد من الشيعة. ومما يلفت النظر أيضاً أن من بين الشعارات التي رفعها العباسيون شعار (يا محمد يا منصور)[6] وهو شعار استخدمته الدعوة العباسية بذكاء لاجتذاب أكبر عدد من عرب خراسان وهو مبهم

---

(1) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج1، ص126.

(2) المسعودي : يرى أنه عربي بينما يذكر الفخري أنه ولد بأصفهان ونشأ بالكوفة ؛ويقول الدينوري ولد بما وراء البصرة مما يلي أصفهان؛ الدينوري: الإمامة والسياسة ج1-2، ص116.

(3) الدينوري :المصدر نفسه، ص127.

(4) القرآن الكريم : سورة الحج، الآية 39.

(5) العيون والحدائق : مؤلف مجهول (طبع دى غوية 1871)، ج3،ص186 نقلا عن شاكر مصطفى :دولة بني العباس، ص139.

(6) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص369.

وغير واضح وممكن أن يفسر على أكثر من معنى وإذا كانت كلمة محمد تشير إلى الرسول عليه السلام فهي في نفس الوقت تشير إلى محمد بن علي بن العباس الذي كان قد مات، أما صيحة يا منصور فهي صيحة ثورية معروفة رفعتها ثورات سابقة كثورة المختار الثقفي، وعبد الرحمن بن الأشعث، وزيد بن علي.

ومنذ أن تولى أبو مسلم أمر الدعوة العباسية عمل على التخلص من كل منافسيه في السيادة متخلصاً من كل عقبة في طريقه، ليصبح رئيس الدعوة الأوحد ولم يقف الأمر عند مقتل سليمان بن كثير زعيم الدعوة بل تعداها إلى مقتل عبد الله بن معاوية الجعفري رأس الفرقة الجناحية المتطرفة المغالية حيث ثار في الكوفة سنة 127هـ والتحق بثورته عدد من الشخصيات العباسية الهامة كأبي جعفر عبد الله بن محمد وأبي العباس عبد الله، وعيسى بن علي وهم رؤوس العباسيين فيما بعد[1]. معتقدين أنها ستحقق لهم النصر ضد الأمويين قبل ثورة أخيهم إبراهيم الإمام السرية، وعلى أي حال فقد فشلت ثورة عبد الله بن معاوية وهرب إلى خراسان حيث اعتقله أبو مسلم. وربما كان ذلك بتعليمات «الإمام» إبراهيم بن محمد ثم قتله سنة (130هـ/ 746م)[2] لأنه يشكل خطراً على العباسيين وهذا دليل على عنف الصراع السياسي الذي كان قائماً في ذلك الوقت حتى بين أبناء البيت الواحد.

وفي مَرْو بعد هذا النصر المبدئي، أخذ أبو مسلم البيعة على الجند الهاشمية خاصة كما جاء عند الطبري: «أبايعكم على كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله عليه السلام. .[3] » فالبيعة كانت إذاً على كتاب الله وسنته والطاعة لآل البيت مع الاحتفاظ بالكتمان والسرية التامة لاسم الإمام بمعنى أنه لم يكن بعد قد عرف.

وهكذا بدأ النضال بين القوى العباسية والقوى الأخرى بفتح مرو إذ ورد أمر الإمام بإعطاء قيادة الجيوش العباسية لقحطبة بن شبيب الطائي فكان أول ما فعله تصفية شيبان الخارجي لئلا يطعنه في ظهره فوجه أبا مسلم إلى شيبان الذي تحصن بسرخس، بعد سقوط مرو فطلب منه البيعة للإمام فلما أبى هاجمه وانتصر فقتله. وفرّ باقي

---

(1) الأنصاري : مذاهب ابتدعتها السياسة، ص194.

(2) الأصفهاني :الأغاني ج17، ص73؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج2، ص43؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج9، ص98.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص380.

الخوارج وأكثرهم من بكر، بينما كان أبو مسلم يدخل نيسابور ويجعلها مركزه. ولم ينس وهو في الطريق إليها أن يتخلص من منافسيه زعماء اليمن[1].

لقد أضحى الجناح الشرقي من الدولة كله تقريباً بيد العباسيين على أن الذي تغير خلال هذه المدة هو قيادة الدعوة فقد برز اسم ذلك الكوفي :حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمى الخلال حيث عرف على أنه من كبار دعاة الدعوة وتسمى «بوزير آل محمد» وعسكر بالجيش بحمام عين قرب الكوفة وفرق على قول الجهشياري «عمّاله على السهل والجبل وصارت الدواوين بحضرته، والكتب تنفذ منه، وترد عليه»[2] ويقول أنه أظهر الامامة الهاشمية ولم يسم الخليفة فقد خاف بعد مقتل ابراهيم الامام وانتقاض الأمر وفساده فشار بالبيعة لعلوي. حسب رأي المسعودي[3] والطبري[4] واليعقوبي[5] أما الجهشياري فيؤكد أن الخلال كتب إلى ثلاثة من العلويين ليعقد الأمر لأحدهم: جعفر الصادق حفيد الحسين، وعبد الله المحض بن الحسين، وعمر الأشرف بن علي زين العابدين ابن الحسين، فأحرق الأول الكتاب ورفض عمر، وقبل عبد الله[6]. وما من شك في أن حذر الزعماء العلويين وترددهم بجانب تعددهم وعدم اتفاقهم قد جعل فرصة الخلافة في هذه الفترة تفوتهم. وسمح للفرع العباسي بالبروز كمرشح ممكن ووحيد[7]. ولقد تمت مبايعة أبي العباس في ربيع الاول سنة (132-136هـ/ 750-754م)[8] وأضحى أبو العباس عبد الله بن محمد أول السلسلة الطويلة من خلفاء بني العباس التي استمرت بعد ذلك ولمدة تزيد على 500سنة ولقد ارتكزت مبادئ الدعوة على ثلاثة مبادئ[9]:

1) المبدأ الديني وهو جعل الكتاب والسنة قانون جميع المسلمين وبذلك

---

(1) الطبري، المصدر نفسه، ص423.
(2) الجهشياري :الوزراء والكتاب، ص86.
(3) المسعودي : مروج الذهب، ص253.
(4) الطبري :المصدر نفسه، ص423.
(5) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص349.
(6) الجهشياري: المصدر نفسه، ص86.
(7) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص150.
(8) المسعودي : المصدر نفسه، ص255.
(9) شاكر مصطفى: المرجع نفسه، ص151.

ألغوا رغبة الشيعة في إقامه خلافة علوية شيعية في المشرق.

2) المبدأ السياسي: وهو حق بني هاشم في الخلافة دون تحديد لأي فرع من الهاشميين وهذه حبكة سياسية قصد من خلالها العباسيون كسب جميع الأطراف.

3) المبدأ الاجتماعي والذي قصدوا به دمج العرب في مجتمع إسلامي واحد متساو.

فالدعوة العباسية لا تمثل نوعاً من الحركة القومية أو الشعوبية ضد العرب ولكنها تمثل اندحار الإسلام بجنس مسيطر واحد هو «العرب» ولكن سعت إلى جعل حركتها حركة إسلامية شاملة تضم عرباً وعجماً ولم تكن أبداً ثورتها ثورة الأعاجم والفرس ضد العرب كما أوحى بذلك طويلاً المستشرقون من أمثال كلود كاهن[1] واعتبروها حركة منطلقة من خراسان معادية للعرب.

لقد مشى عبد الله بن العباس في أربعين ألف رجل متشحين بالسواد حتى خيولهم حين التقى العباسيون بالجيش الأموي عند قرية الكشاف على نهر الزّاب الكبير في شمال العراق وكان مروان في 120 ألف مقاتل[2] وانتهت هذه المعركة التي عرفها التاريخ باسم «معركة الزاب في 11جمادى سنة 132هـ، 25 ديسمبر سنة 750م» بهزيمة الجند الأموي وبعد عشرة أيام من القتال وبانتهاء الخلافة الأموية، تولى عبد الله بن علي الذي لقب «بالسفاح» الخلافة عن جدارة بعد أن ارتكب مجزرة مرعبة في دمشق في 10 رمضان (132-136هـ/ 750-754م) في الأمويين بدأت في جوامعها وأسواقها وبيوتها واستمر القتل ونبش قبور الأمويين خمسة عشر يوما وتحول الأمر إلى مسألة صراع شخصي انتقامي مليء بالحقد والكراهية المترسبة عبر قرون من الزمن والتي تخلو من أي أخلاق إسلامية، وهو صراع غذته الصراعات المريرة على السلطة والوصول إلى الحكم بأي شكل.

لقد تسلم زمام الرئاسة العليا في العالم الإسلامي العباسيون ولمدة خمسة قرون (132-656هـ/ 570-1258م) والقرن الأول والثاني من (132/ 334هـ) هو موضوع دراستنا لأن هذين القرنين يمثلان حكم العباسيين (حكم عربي) بأنفسهم

---

(1) كلود كاهن (C.Kahen): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص50.

(2) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج1، ص209.

ثم سقط الحكم العباسي بين القادة الأتراك، أضف إلى ذلك أن هذين القرنين امتازا بكثرة الانتفاضات الشيعية على بني العباس وتطورت فيهما الفرق وغالت في أمورها حيث أضحت الخلافة العباسية لها طابع ديني فقط مقابل دولة حكامها الفعليين قادة الجيش من الأتراك سواء في الأقاليم أو في بغداد نفسها.

لقد أسس العباسيون دولتهم بسياسة ممزوجة بالدين فقد اتخذوا الصبغة الدينية شكلاً من اشكال دعوتهم حين ادّعوا أنهم يريدون إحياء السنة وحكم العدل وارجاع الخلافة الحقة وارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة وأحاطوا أنفسهم بالفقهاء ورفعوا شعار الدفاع عن الإسلام من الزنادقة وأصبح الخلفاء العباسيون يستمدون سلطتهم المقدسة من الله. خطب المنصور قائلا: «ياأيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه. . ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته. وأعطيه بإذنه فارغبوا إلى الله وسلوا أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم.. »[1].

ويذكر المسعودي من قولة عبد الله بن عمر بن عتبة يعزّي المهدي ويهنئه: (. . ولاعقبى أجل من خلافة الله على أولياء الله..)[2] فالخليفة إذن من حيث وجهة نظرهم هو خليفة الله وأن السلطة ستبقى في أيديهم إلى الأبد لا تخرج منهم حتى يسلمها إلى المهدي المنتظر.

ورغم الدعاية التي رفعوها للمساواة والعدل وتحقيق الكتاب والسنة نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه: هل حققت دولة بني العباس في عهدها الأول على الأقل آمال أولئك الذين أغرتهم وعود الدعوة «الرضا من آل محمد». لقد أجاب أحد المستشرقين فيقول: (إن ذلك المثل الأعلى للعدالة والمساواة قد ظل وهما من الأوهام ولم يكن جور النظام العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية، بأقل من النظام الأموي. .)[3] هذه الإجابة المبالغ فيها ستتأكد لنا صحتها أو خطأها من خلال موقف الدولة العباسية وسياستها تجاه رعاياها من المسلمين والفرق المناهضة لها التي ظهرت نتيجة انفجار الموقف السياسي بين الدولة العباسية وخصومها على شكل ثورات متأججة كان من أهمها:

---

(1) نقلاً عن شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص169

(2) المسعودي : مروج الذهب، ص315.

(3) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية، ص132.

ثورات آل البيت:

كان المنصور على يقين من أن لا خطر على عرشه من الأمويين وأن لا نصير لهم ولكن الخطر الذي كان يخاف منه المنصور وهو من «آل البيت» ومن أهله أنفسهم ومن عشيرته الأقربين بني العباس وأولاد عمه آل أبي طالب. وكانت أول مواجهة في بني العباس بين عبد الله بن علي وهو عم أبي العباس وقائده الذي هزم مروان بن محمد.

ويبدوا أن أبا العباس وعد من يقضي على مروان بولاية العهد فلم يتقدم لذلك سوى عبد الله[1]. ولكن عبد الله بن علي فوجئ حين وصله خبر البيعة لأبي جعفر المنصور مما دفعه إلى إعلان الثورة ضد شخص الخليفة وليس ضد الدولة العباسية بشكل عام. إذن فالصراع هو صراع بين أفراد الأسرة الواحدة على الحكم وهي أول مشكلة من مشاكل ولاية العهد في دولة بني العباس وهي امتداد لمشكلة ولاية العهد في بني أمية والتي انتهت بقتله سنة 147هـ في ظروف غامضة بعد أن أعطى الخليفة لعمه سليمان الأمان من أجل إظهار عبد الله[2].

ثورة محمد النفس الزكية:

كانت البيعة لأبي العباس مفاجأة غريبة وغير متوقعة بعد الشعارات السرية التي كانت ترفع ومنها شعار الدعوة «الرضا من آل البيت» وكان أكثر الشيعة يعتقدون بأن المقصود بهذا الأمر العلويون ولهذا كانت صدفة غير متوقعة للغلاة من العلويين، مما جعلهم يعتقدون أن ما فعله العباسيون خدعة اغتصبوا بها حق العلويين وقد حاول أبو العباس ترضية آل علي جميعا. وربما كان الدافع وراء ذلك شعوره بمرارة الخيبة التي منوا بها وامتصاصاً لغضبهم وحنقهم خاصة آل الحسن منهم، بالرغم من أن محمداً النفس الزكية رفض البيعة لأبي العباس.

ولعل سياسة التودد التي أبداها أبو العباس مع زعماء العلويين إنما كان سببها الشك الذي يحيط «بإرث الكيسانية» وبقصة الوصية من أبي هاشم أحمد لمحمد العباس لهذا سعى أبو العباس إلى رفض العنف مع العلويين وإشاعة صلة الرحم محل «شرعية الوصية» في سياسته مع العلويين والسبب ببساطة هو محاولة كسب

(1) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج1، ص209.
(2) أبو بكر الأزدي: تاريخ الموصل، ص167.

الشيعة إلى صفه بدل تحويلهم إلى أعداء لو تعاملوا مع العلويين بسياسة البطش ورغم ذلك لم تخمد حركات المتطرفين المغالين منهم. ولقد جاءت وفاة السفاح المفاجئة وتحول الخلافة إلى أبي جعفر المنصور لتثير المشكلة العلوية وتحرك آمال محمد النفس الزكية من جديد خاصة وأن الشيعة يشيعون عن أبيه بأنه «المهدي» الذي بشر به بالإضافة إلى حب أهل الحجاز له. وبموت العباس أصبح محمد بن عبد الله في حل من العهد الذي قطعه أبوه للخليفة الأول والذي ساعد محمد بن عبد الله في ثورته انضمام الطوائف الناقمة من بني أمية وأتباعهم بعد سحقهم على يد العباسيين، فأصبح ولاء هؤلاء إلى جانب العلويين عدا الشام. بالإضافة إلى أن فكرة المهدي، كانت وسيلة قوية جداً للجذب والإغراء وخاصة للمظلومين. ونجد أن العلويين استفادوا هذه المرة من الدروس السابقة التي عانوا منها واتبعوا منهج الكتمان والسرية والتمهيد بالدعاية، فاختفى عن الأعين وبث الدعاة في الأمصار وهي نفس فكرة بني العباس ومنهجهم وأرسل أولاده إلى معظم الأمصار، ابنه الحسن إلى اليمن، وعلياً إلى مصر وأخاه يحيى إلى الري وطبرستان وأخاه إدريس إلى المغرب، أما أخوه إبراهيم فكان ساعده الأول وقد قام بالدعوة في البصرة[1] وعلم المنصور بالأمر فعمل على تعقب محمد وأخيه إبراهيم بن عبد الله المحض لكنه فشل فقبض على أبيهم عبد الله المحض وسجنه لأنه أبى أن يدله على مقرهما، واستمرت مطاردة أبي جعفر لمحمد وإبراهيم بشكل ملح وعنيف، يذكر الطبري: أنهما خافا من المنصور عندما أخذ والدهما، فخرجا إلى عدن ثم السند ثم الكوفة وكان أبو جعفر يسأل حتى المنجمين ليجدهما[2]. لقد عذب آل علي على يد المنصور عذاباً شديداً وقتل منهم أيضاً أعدادا كبيرة في سنة (144هـ/ 762م)، ومات الباقون في السجن ولذا قرر محمد بن عبد الله في المدينة وأخوه إبراهيم في البصرة أن يعلنا الثورة بعد هذه الأحداث معتقدين أن كل الأمصار معهما. ولكن ظلم رباح بن عثمان والي المدينة لأهل محمد وإبراهيم جعله يسبق الموعد ويمشي إلى المسجد في المدينة في 250 رجلاً لإعلان الثورة بعد أن هاجم السجن وأطلق من فيه وهاجم دار الحكم فاعتقل رباحاً نفسه، أما أخوه إبراهيم فكان في نفس الوقت مصاباً بمرض

---

(1) المسعودي : مروج الذهب، ج3-4، ص296.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص622.

الجدري لا يطيق حراكاً في البصرة، وبالتالي فقد عنصراً مهماً في دعمه، ولقد خطب محمد فأوضح في خطبته أسباب ثورته: (. . كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين والأنصار..)[1] إذا من خلال هذه الخطبة يؤكد أحقيته في الخلافة هو وأبناء المهاجرين والأنصار جميعاً واتهامه لآل العباس بالغدر والطغيان.

ولقد تمت العديد من المراسلات بين المنصور ومحمد النفس الزكية والطبري يذكرها بنصوصها[2]. وملخص هذه المراسلات يقوم على تأكيد وجهة كل طرف من الأطراف المتنازعة على حقه بالخلافة على أن موقف محمد في المدينة لم يكن بالقوي لعدة أسباب ولهذا قتل في 14 رمضان (145هـ/ 762م) وحمل رأسه إلى أبي جعفر في العراق ليطوف به في أسواق الأقاليم[3].

أما إبراهيم بن عبد الله المحض فقد ثار في البصرة في رمضان سنة 145هـ بعد شهرين من إعلان أخيه محمد الثورة في المدينة لكن التوقيت لم يكن مناسباً لأن إبراهيم خرج قبل أسبوعين من مقتل أخيه ولقد شد أزره أهل البصرة الناقمون على بني العباس أكثر من تشيعهم لآل علي بالإضافة إلى الفقهاء والمعتزلة والزيدية إلا أن أبا جعفر استطاع أن ينتصر في معركة «باخمرى» جنوب الكوفة وهزم إبراهيم وقتل في 24من ذي القعدة سنة 145هـ بعد سبعين يوماً من مقتل أخيه وحين وصل رأسه إلى أبي جعفر تنفس الصعداء[4]. ورغم محاولات المهدي (158-169هـ / 775-785م) اتباع سياسة اللين مع العلويين إلا أنها فشلت بعد أن تولى زمام الأمور ابنه موسى الهادي (169-170هـ / 785-786م) الذي اتبع سياسة شديدة قاسية، فكان يقطع عليهم الأرزاق والصلات وغيّر بذلك سياسة أبيه المعاكسة له. وكان يأمر عماله بمراقبتهم والتضييق عليهم ولهذا انطلقت أول ثورة علوية ضد موسى الهادي سنة169هـ.

أما السبب المباشر للثورة فهو أن والي المدينة عمر بن عبد العزيز أمر بضرب الحسن بن محمد النفس الزكية مع بعض أصحابه لأنهم شربوا نبيذاً ثم أمر بهم،

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص280.
(2) الطبري، المصدر نفسه، ج، 7ص882.
(3) الطبري: المصدر نفسه، ج7، ص302.
(4) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص226.

فجعل في أعناقهم حبالاً، وطيف بهم في المدينة[1] هذه الحادثة أثارت غضب رئيس العلويين في ذلك الوقت وهو الحسن بن علي فقام بثورته واستولى على المدينة ثم اتجه إلى مكة في موسم الحج فانضم إليه بعض الحجاج والعبيد. وفي مكان يسمى «فخ» بين مكة والمدينة حيث تقابل العلويون مع الجيوش العباسية في معركة عامة سنة 169هـ هزم فيها العلويون وقتل قائدهم الحسن كما قتل الحسن بن محمد النفس الزكية الذي كان السبب المباشر في قيام هذه الثورة.

ومن أهم نتائج هذه الثورة هو فرار إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب من وقعة فخ إلى المغرب الأقصى حيث أسس هناك دولة علوية مستقلة وهي دولة الأدارسة (172هـ-788م).

أما العلوي الثاني فهو أخوه يحيى بن عبد الله الذي فر إلى بلاد طبرستان بالمشرق وظل هناك مختفيا إلى عهد الرشيد (170/ 193)هـ (786-809)م حيث أعلن العصيان إلاّ أن وزير الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي استطاع أن يصالحه ويعطيه الأمان مقابل ألا يغادر بغداد بتاتاً[2]. والغريب أن خلفاء بني العباس كانوا يتبعون سياسة تختلف عن سياسة الوراثة الأموية تتمثل في أنهم يأخذون البيعة من بني هاشم كي يستطيعوا أن يؤكدوا أحقيتهم في تولي أمر المسلمين وفقدان بني هاشم لهذا الأمر وحتى لا يطالبونه منهم بعد أخذ البيعة. وبمجرد وصول أي عباسي للخلافة يبدأ بسجن أعداد لا تحصى من الهاشميين بعدة تهم حقيقية أو ملفقة، ثم يأتي الذي بعده فيطلق سراحهم وهذا يؤكد رغبته في المصالحة مع أبناء عمومته. وكان بنو هاشم هم لعبة السياسة والورقة الرابحة أي سباق الخلافة فمثلاً عندما تولى محمد الأمين (193-198هـ/ 809-813م) أول عمل قام به أطلق سراح عبد الملك بن صالح الهاشمي من الحبس وولاه جميع ما كان إليه من الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور، ورد عليه أمواله وضياعه[3]. كما أخرج علي بن عيسى بن ماهان من الحبس، ورد عليه أمواله وولاه شرطته وقدمه وآثره[4].

أما المأمون (198-218هـ/ 813-833م) الذي تولى الأمر بعد اغتصابه المُلك

---

(1) العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص76.

(2) العبادي : المرجع نفسه، ص76.

(3) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص434.

(4) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص435.

من أخيه محمد بن هارون فقد استخدم كل وسيلة للوصول إلى غرضه بصرف النظر عن تلك الوسيلة من قتل ودعاية مغرضة في حق أخيه وأتباعه وفي حق أبناء عمومته حيث حالف العلويين حين احتاجهم، ثم لما أضحوا عبئاً عليه، عند انتقاله إلى بغداد بدأ يتخلص منهم فسمم[1] علياً الرضا أحد أئمة العلويين وهو في الطريق بعد أن كان جعل له ولاية العهد من قبل: وهي محاولة غريبة إذ حول لفترة قصيرة ولاية العهد إلى العلويين ممثلين في شخص «علي الرضا» العلوي الإمام الثامن للشيعة الاثني عشرية ولبس المأمون الخضرة بدل السواد وزوج ابنته للإمام في رمضان سنة 201 هـ والمسعودي يقول (أن المأمون أمر بجمع خواص الأولياء، وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم، فلم يجد في وقته أفضل ولا أحق بالأمر من علي بن موسى الرضا)[2]. وقد علل الطبري ذلك قائلاً (أنه رأى المأمون بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه)[3] وربما علل هذا الأمر نتيجة للمنشور الذي أصدره المأمون وذكرهُ المسعودي. ويبدو أن أهل خراسان و الفضل بن سهل هما اللذان انتهيا بالمأمون إلى هذا العمل.. . ويوافق الفخري واليعقوبي[4] والجهشياري على تدخل الفضل في الأمر حيث جعل المأمون يبايع بولاية العهد من بعده لعلي الرضا يوم الاثنين 6 من رمضان (201هـ / 818م) وألبس الناس الأخضر مكان السواد وأخذ البيعة للرضا ودعي له على المنابر وضربت الدنانير والدراهم باسمه[5]. ومن الملاحظ أن العلويين طوال تاريخ حياتهم وهم يسعون إلى السلطة وتولي زمام الأمور وقاموا بالعديد من الثورات والهبات ضد السلطات الحاكمة إلا أن هذه المرة نجد أن الرضا أجبر على ولاية العهد جبراً حيث يقول له المأمون: (لابد من قبولك ذلك، فلأني لا أجد محيصاً عنه)[6] وهذا يدل على اضطراره إلى اتخاذ هذه الخطوة سواء من قبل المأمون أو الرضا وأكثر المصادر الإسلامية (الطبري، ابن الأثير، المسعودي..) تؤكد أن حب الخراسانيين للرضا وتعظيمهم

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص647.
(2) المسعودي : مروج الذهب، ج3-4، ص441.
(3) الطبري :تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص603.
(4) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص448.
(5) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص603.
(6) الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص654.

واحتفائهم به وبسلطانه فيهم (ولعل ذلك إنما كان ليأسهم من بني العباس وبدء ميلهم إلى العلويين)[1] وأعتقد أن بدايات الأسباب الحقيقية لهذه المبايعة بدأت منذ تصفية البرامكة ومن قبلهم أبو مسلم الخراساني ثم الصراع العربي الفارسي في قصور بني العباس الذي بدا جلياً أثناء ولاية العهد بين الأمين والمأمون ثم تأتي الضربة القاضية والتي انتهت بمقتل محمد الأمين وتولي المأمون. وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الخراسانيين يفقدون ثقتهم في بني العباس خاصة بعد أن ينكل بهم عند ارتكاب أي خطأ رغم ما قدموه من خدمات جليلة للدولة العباسية ثم إن العرب أنفسهم بدوا يمقتون بني العباس خاصة بعد مقتل محمد الأمين الذي يمثل العنصر العربي[2] بشكل عام والحجاز بشكل خاص سواء من حيث نسبتهُ هو أو من حيث نسبة أمهِ زبيدة وبفقده فقد العرب مكانتهم في الحكم العباسي ثم إن الناس بدأت تحن إلى العودة إلى العلويين الذين يرون أنفسهم أحق بالخلافة واغتصبت منهم لفترتين من الحكم الفترة الأولى ممثلة في الأمويين ثم الفترة الثانية متمثلة في العباسيين بالتالي بدأ التشيع لآل البيت يظهر جلياً في عهد المأمون. لهذا أراد المأمون أن يكسب هؤلاء إلى جانبه ويوهم الناس أنه يرى أن العلويين لهم الحق في ولاية العهد وبالتالي يكسب تأييدهم سواء في خراسان أو في البلاد الأخرى أضف إلى أن المأمون لم تعد له ثقة في أن يمنح ولاية العهد لأحد من أبنائه خوفاً من أن يتكرر ما حدث بينه وبين أخيه كنوع من تأنيب الضمير. لم يصمت بنو العباس إزاء هذا التحول الخطير، بل ظهرت ردة فعلهم قوية وعنيفة جداً حيث سعوا إلى خلع المأمون بايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة وأسموه «إبراهيم المبارك»، ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي[3] ومن الأسباب التي يجب أن لا نتجاهلها أيضاً هو (الصلة الوثيقة ما بين الشيعة الزيدية وبين مذهب المعتزلة الذي يؤمن به المأمون من جهة أخرى خاصة وأن هناك العديد من الفقهاء المشهورين وأتباعهم قد عرفوا بميول علوية مثل مالك بن أنس، والإمام أبو حنيفة وسفيان الثوري. إلخ

خاصة وأن نظرية المعتزلة والزيدية في الإمامة متطابقة وهي تعطيها لأجدر

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص451.
(2) المسعودي :مروج الذهب، ج3، ص271.
(3) الطبري : المصدر نفسه، ج 8، ص 604 ـ 605.

الناس بها دون اعتبار الفرع النبوي الذي ينتسب إليه[1]، ربما نتيجة لوجود المأمون في موقف مضاد لبني العباس وانكماش العباسيين عنه جعله يثبت حقه في الخلافة عن طريق تبني الفكر الاعتزالي-الزيدي- الذي يبرر إقامته وأراد تأكيد ذلك بإعطاء ولاية العهد لأبرز أبناء البيت العلوي كبرهان على حق الإمامة للأفضل وعلى ضرورة توحيد الاتجاهات الإسلامية.

أعتقد أن اعتناق المأمون للفكر المعتزلي يأتي بسبب حبه للعلم وللمجالس الفكرية التي كان يعقدها فمال فكرهُ إلى المعتزلة وهذا أمر ليس فيه أي غرابة، أما بالنسبة لموضوع الزيدية وارتباطها بالمعتزلة في موضوع الإمامة فهذا يفند نفسه بنفسه لأن علياً الرضا كان جعفرياً ولم يكن زيدياً والحقيقة هي مناورة سياسية قام بها المأمون لكي يكسب العباسيين ويستنفرهم لنصرته والوقوف معه بعدما يهددهم بزوال ملكهم وانتقاله إلى الفرع العلوي وعندما ثار عليه أهل البيت وبايعوا إبراهيم ابن المهدي قرر المأمون أن ينهي هذه اللعبة السياسية التي تكاد أن تخلعهُ من ملكه فتخلص من الرضا بعد قليل بالسم[2] ثم تخلص من وزيره الفضل لأنه اكثر من يكرهه العباسيون ويحملونه مسؤولية ما حدث وهكذا انتهي الأمر بالمأمون أن يجعل ولاية العهد من بعده لأخيه محمد بن اسحق «المعتصم» بعد أن استمر خمس عشرة سنة في الحكم وبهذا فقد تجاوز ابنه العباس الذي يحبه الجند وترك المأمون لأخيه وصية يوصيه فيها بالعلويين وبحسن صحبتهم[3]. وكان المأمون علوياً في نزعته الفكرية النظرية[4] وبسبب من هذا رعى محمد الجواد ابن الإمام الرضا وكان عمره ست سنوات عند موت أبيه ثم زوجه ابنته. ولكن احتضر وهو في ريعان شبابه سنة 220 هـ ليخلفه ابنه الإمام الهادي علي بن محمد الذي عاصر الخلفاء حتى عهد المعتز.

إذاً الإمامية في العصر العباسي الأول لم تسجل أي نتائج سياسية هامة سوى بعض الثورات التي لم تنجح، ولم تخل من الصدام المسلح، ففي زمن المهدي

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص 647 ـ 650؛ شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج1، ص452.

(2) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج1، ص452.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص 651.

(4) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج2، ص661.

ظهرت بعض فرق الغلاة التي سميت بالحسينية أتباع الحسين بن أبي المنصور وتدعى هذه «الفرقة بالخناقين»، وقد أنشأها أبو المنصور العجلي في العهد الأموي وقتل بها[1]. وقد مزقها المهدي وقضى عليها وقبض على زعيمها فقتله. وفي عهد الرشيد خرج أحمد بن عيسى بن زيد الحسني الذي لم يظفر به الخليفة وخفي أمر أحمد بن عيسى ولم يعرف خبره بعد ذلك بعد أن قتل صاحبهُ ومدير أمره ويسمى حاضر.

وبعد مقتل الأمين والفوضى التي عمت في الدولة ظهر ثلاثة ثوار على الأقل: زيد بن موسى الكاظم في البصرة وأخوه إبراهيم في اليمن ومحمد الديباج في مكة وهي حركات محدودة العدد ومحدودة الأثر في وقت واحد.

ومن أهم الأحداث العلوية في العصر العباسي الأول انقسام الفرق الأمامية منذ عهد جعفر الصادق إلى طائفتين فرقة تسوق الإمامة لابنه الكبير إسماعيل (وهم الإسماعيلية) وهذه الفرقة ستعرف في المستقبل باسم الفاطمية والسبعية أيضاً[2]، وفرقة أخرى تسوق الإمامة لموسى الكاظم، الأخ الأصغر لإسماعيل وبعضهم يسوقها إلى الأخ الرابع عبد الله الملقب بالأبطح، وأنتجت هذه التفرعات مضاعفات كثيرة بظهور الفرق حول الإمامة التي أصبح فيما بعد اسمها الإمامة الاثنا عشرية. أما المضاعفات الخطيرة فقد ظهرت من الفرق الإسماعيلية السبعية حيث كانت أكثر خطراً وتعقيدا وأهم شيء فيها أنها اصطبغت بالمذهب الباطني وخرج منها فرقة بعد فرقة مثل القرمطية، الفاطمية، الحاكمية، الإسماعيلية، الصباحية ولقد لعبت هذه الفرق أكثر من دور خطير في تاريخ الإسلام، كما إن بعضها ما يزال قائماً إلى اليوم[3].

لقد تبلور المذهب الإمامي وتكون في العصر العباسي الأول، بسبب أن علاقات العباسيين كانت عدائية في الغالب بآل الحسن لكنها على الأقل لم تكن على عداء قوي مع آل الحسين والإمامية مما مَكن لهذه الفرقة أن تتكون بهدوء مستفيدة من علم الإمام جعفر من جهة ومن الأخطاء السياسية التي ترتكبها الفرق العلوية الأخرى. أما حركات آل الحسن الزيدية : فقد كانت علاقاتهم مع

(1) الجاحظ : الحيوان، ج2، ص264 –271.

(2) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص 308؛ شاكر مصطفى :دولة بني العباس ج1، ص.662

(3) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج 1،ص662.

العباسيين قد وصلت أسوأ أطوارها عقب هزيمة محمد النفس الزكية وما سبقها وما تلاها من المآسي كما ذكرناها فيما سبق، فالمنصور مثلاً قتل مع إبراهيم بن عبد الله أربعمائة وقتل خمسمائة رجل من الزيدية الشيعة[1]. وهرب بعض دعاة الزيدية إلى اليمن فأقاموا فيها أسس الحركات والدول وقد تنفس آل الحسن الصعداء عند موت أبي جعفر وتولي المهدي الذي أعلن عن سياسة اللين والرحمة مع العلويين إلا أن هذا الأمر لم يطل إذ تولى الهادي أمر الخلافة فجدّ في (طلب الطالبيين وأخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الأرزاق والأعطيات وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم..)[2] وكان ذلك بسبب تطرف الهادي وعنفه ضد العلويين فخرجوا ضده في المدينة، وتزعم الحركة الحسن بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب آخر سنة 169 هـ وكان أهم نتائجها موقعة فخ في سنة 787 م وقد تناولناها في موضع سابق ولم يظهر بعد ذلك للعلويين من أثر واضح زمن الأمين والفتنة.

أما المأمون فيتفق المؤرخون: كالطبري، واليعقوبي، والمسعودي على وصفه بالتشيع ويذكرون أنه أمر سنة 211هـ بأن يقال: (خير الخلق بعد النبي ﷺ علي بن أبي طالب) وأنه رد فدك إلى آل علي وأبناء فاطمة والباحثة تعتقد إن المأمون لم يكن شيعياً بالمعنى العام بقدر ما كان فيه ميل عاطفي ديني أراد أن يسترضي به أبناء عمومته وتشيعه كان على أساس المنطق الفكري الاعتزالي بتأثير الفضل بن سهل والظروف السياسية التي كان يعيشها في ذلك الوقت إلى درجة مبايعة (علي الرضا) لولاية العهد وقتله بعد ذلك بالسم بعد أن ثار عليه العباسيون وبعد أن وجد المأمون أن علي الرضا لم يعد له لزوم في سياسة ولا مكان لخططه. إن الاضطهاد الذي ذهب بعدد من كبار آل البيت سجناً وقتلاً في فجائع ذكرناها كانت له نتيجتان هامتان: هما ازدياد التطرف الشيعي والغلو من جهة وازدياد التحكم والباطنية والحركات السرية من جهة أخرى وقد دفع العباسيون والمسلمون ثمن هذه السياسة الدينية العباسية غالياً جداً لأن كثرة البطش دفعت العلويين في نوع من الانتقام والدفاع الذاتي إلى المغالاة في المذهب وإلى أن تصبح الثقة إحدى الأسس فيه وأن يتبع أسلوب الدعوة في السر.

---

(1) المسعودي : المصدر نفسه، ج3، ص 308.

(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص394.

ثورات الخوارج :

ترى هذه الفرقة المسلحة أن الخلافة حق عام لكل المسلمين وكان رأيها في البيت العباسي هو نفسه رأيها في البيت العلوي. فكلهم لا يصلح للخلافة مادام يخضع لشروط الحق والإرث ولم يختر اختيارا حراً صريحاً ولم يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام. وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم إن أمكن وقتلهم، الخوارج هم أساساً من العرب وخاصة البدو وانضم إليهم قبيل العهد العباسي بعض الإيرانيين في فارس وكرمان وسجستان وخراسان كانت قضيتهم قضية سياسية بحتة منذ البداية ثم تطورت فأصبحت قضيتهم سياسية واجتماعية واقتصادية وصار العدل الاجتماعي ورفض الظلم والدفاع عن المظلومين من عقائدهم المحركة[1]. ولم يكن قد مضى على أبي العباس في الخلافة سنة واحدة حتى تحرك عليه الخوارج :

أولاً: في عمان: خرج خوارج الإباضية[2] كما تحرك الخوارج الصفرية بزعامة شيبان بن عبد العزيز في جزيرة «ابن كاوان» في الخليج الذي أعلن أصحابه اختياره للإمامة أيضاً وسمع أبو العباس بذلك فأرسل إليه الجيش حيث هزمه وهرب شيبان إلى ساحل عمان حيث التقى بالجلندي فحدثت بينهما معركة أي بين الصفرية والإباضية انتصر فيها الصفرية على الإباضية الذين رفضوا مبايعة بني العباس وقاتلهم ثلاثة أيام كانت الحرب فيها سجالا حتى قام قائد الجيوش العباسية[3] بحرق بيوت الخوارج الخشبية فلما انشغل الجلندي وأصحابه بعيالهم وبالحريق[4] تمكن خازم القائد العباسي من الانتصار عليهم في معركة عرفت باسم معركة «جفار» وهذه وإن أنهت تمرد الخوارج في عمان إلا أنها لم تنه الوجود الخارجي فيها ولا ألغت الإمامة فقد ظل مذهب الإباضية هناك وتمتع الخوارج بنفوذ كبير في عمان وفي أفريقيا الشرقية بحكم المواصلات البحرية وربما في سواها من الأقطار[5].

---

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج 1، ص226.
(2) الإباضية، نسبة إلى عبد الله بن أباض وهم أتباعه.
(3) راجع التفاصيل عند ابن الأثير ج5، ص 451؛ عند الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص462-464.
(4) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص229.
(5) كلود كاهن (Kahen C.): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص59.

ثانياً: في الجزيرة: أول من تحرك من الخوارج في الجزيرة بريكه بن حميد الشيباني مع قبائل ربيعة وقد انضم إلى الثائرين بعض الأمراء الأمويين مثل محمد بن سعيد بن عبد العزيز في فترة كان يحكم الجزيرة أبو جعفر وكان والياً عليها حيث بعث إليهم ألف مقاتل بعد سنة من تولية أبي جعفر المنصور الخلافة حين خرج مُلبد بن حرملة الشيباني فسارت إليه روابط الجزيرة، وهم يومئذ فيما قيل لا يتجاوزون ألف مقاتل(1) فقاتلهم ملبد فهزمهم وبسط سيطرته على أذربيجان وأرمينيا وتكريت واحتل الموصل وأرسل أبو جعفر بعد هذه الانتصارات يزيد بن حاتم المهلبي فهزمه مُلبد بعد قتال شديد كان بينهما وكان في كل مرة ينتصر الخوارج على الجيوش العباسية إلى أن أرسل أبو جعفر خازم بن خزيمة في 8 آلاف مقاتل ولحق بالثائر الخارجي إلى ما وراء الموصل في الشمال فانتصر عليه وقتل المُلبد في مذبحة فقد فيها كل رجاله.

ثالثاً: خوارج اليمن: حيث ثاروا على أبي جعفر سنة 141هـ وكانوا من بقايا الجماعة التي قادها قبل عشر سنوات أبو حمزة الخارجي حتى وصل المدينة وقد سلط عليهم أبو جعفر 141هـ أحد قادته الأشداء معن بن زائدة الشيباني وكان يتصف بالقوة حيث قتل الكثيرين منهم حتى كسب عداء اليمانيين ضده(2). وعين أبو جعفر على البحرين واليمامة عقبة بن مسلم وكان يتصف بالقوة حيث قتل الكثير من قبائل ربيعة في مجزرة رهيبة ثأراً لليمانيين كل ذلك من أجل إثارة العصبية القبلية والثأر بينهما حتى لا يتفق الطرفان ولقد نجح العباسيون في ذلك وهي نفس السياسة التي اتبعتها الدولة الأموية من حيث إثارة القبائل العربية بعضها ضد بعض.

رابعاً: الخوارج في سجستان(3) : حيث ثاروا في أواخر عهد المنصور (136-158هـ) في أصقاع إيران الجنوبية حيث كسبت الدعوة هناك تأييد الموالي الذين وجدوا في الخوارج عنصر جذب تنفيساً لهم عن رغباتهم المكبوتة في المساواة والعدل وهذا هو الشعار الذي اعتمد عليه الخوارج في جذب مؤيدين لدعوتهم رغم أنها كانت في البداية تعتمد على العرب فقط ثم توسعت لتشمل الحركة

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص495.
(2) الطبري :المصدر نفسه، ص496.
(3) سجستان، منطقة يقع قسم منها في غرب أفغانستان الحالية وقسم في إيران.

عناصر أخرى غيرعربية. لقد استقر في إيران الجنوبية العديد من الجماعات العربية منذ الفتوحات الإسلامية وكان بعض تلك الجماعات عربياً مناهضاً للخلافة الأموية أولاً ثم العباسية ثانياً في العراق والجزيرة كما كان بعضهم من أهل الشام ومن بينهم الجماعات الخارجية التي وجدت فيها مقراً أميناً بعيدا عن مركز الخلافة بالإضافة إلى نقطة مهمة جداً وهي وجود أكثر من ديانة في هذه المنطقة بالذات منها الزرادشتية والبوذية والتي كان لها تأثير كبير في الفرق الدينية فيما بعد.

لقد انفجرت ثورة الخوارج في سجستان سنة 150هـ وكان المهدي (158-169هـ/ 775-785م) ولي العهد عاجزاً عن مقاومتهم مما دفعه للاستنجاد بأبيه المنصور مما دفع بالمنصور أن يبعث إلى معن بن زائدة الشيباني وهو على اليمن سنة 151هـ أن يقدم، وعند قدومه أرسله إلى مقاتلة الخوارج، حتى قتل منهم خلقاً عظيماً وأفناهم[1]. فلما رأى الخوارج أن لا طاقة لهم بمحاربة معن استعملوا الحيلة لقتله حتى استطاعوا الفتك به[2] وبعد مقتل معن تولى ابن أخيه يزيد بن مزيد الولاية حيث انتقم له منهم «وقتل خلقاً عظيماً حتى جرت دماؤهم كالنهر»[3]. ثم شخص إلى بغداد وأتبعه الشرارة، حتى وصل الجسر ببغداد فشدوا عليه ودارت بينه وبينهم معركة قتل فيها عدد كبير منهم وأصابوه هو أيضاً بضربات. وقد جعل المؤرخون ذلك ثأراً قبلياً انتقاما لما فعله معن في أهالي اليمن، ومؤرخون آخرون مثل البلاذري واليعقوبي والطبري[4] يجعلونها مؤامرة خارجية والاحتمال المرجح لدينا هو رغبة الخوارج في الانتقام من معن على ما فعله بسكان اليمن أولاً وما فعله بهم ثانياً فالأسباب مختلفة والنتيجة واحدة. ولم تنته ثورات الخوارج بل استمرت في عهد خلفاء بني العباس بل إن التحرك الخارجي استمر في زمن المهدي (158-169هـ/ 785-752م) والرشيد (170-193هـ/ 786-809م) وبدل ما كانت الحركة مقتصرة على العنصر العربي انتقلت إلى نطاق أوسع شملت الموالي سواء في المشرق أو في المغرب العربي. ولهذا

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص384.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص 347؛ اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص385.
(3) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص385.
(4) انظر : الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص347. ؛ اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص385.

نجدهم بعد المذابح التي تعرضوا لها في منطقة المشرق العربي في إيران وعمان واليمن وسجستان بحثوا لهم عن مراكز في المغرب العربي ونجحوا في القيام بأعنف الثورات وأطولها عمراً.

نهاية الخوارج في المشرق :

تنتهي في هذه الفترة (158 ـ 218)هـ (785-852)م قصة الخوارج بعد أن دامت قرناً ونصف القرن سجلت في عصر الرشيد أواخر انتفاضاتهم الدموية وتمشي عقيدتهم إلى التوطن والهدوء في بعض الأقطار النائية عن مركز الدولة أو الجبلية العسرة[1].

أما خوارج عمان أصحاب الجلندي فقد كانت الضربة التي أنزلها بهم أبو العباس قاسية بحيث بقوا بعدها أربعين سنة في فترة هدوء وإن لم يتخلوا عن المذهب الخارجي ثم أعلنوا الثورة الشعبية من جديد واقامو لأنفسهم (إماماً)[2] منهم ينافس خليفة بغداد. عجز الرشيد عن زحزحة هذا الإمام أو حربه بعد مبايعة الناس (وهكذا يكون محمد بن عفان هو الإمام الأول ثم تلاه سنة 185هـ إمام آخر هو الوارث بن كعب وثالث سنة 192هـ هو غسان بن عبد الله ونعم أئمة عمان بالاستقلال على هذا النحو ما يزيد على مائة سنة حتى فتك بهم العباسيون سنة 290هـ في عهد الخليفة المعتضد)[3] بالإضافة إلى العديد من الثورات الصغيرة والفاشلة هذه الثورات المختلفة تكشف عن تشابه كامل إذ تبدأ عنيفة قوية ثم تمتد إلى مناطق متعددة ثم تهزم ويقتل زعيمها وبالتالي تقتل الحركة نفسها بسبب السذاجة الثورية والإخلاص الديني العنيف اللذين ما انفكا يميزان سلوك الحركة الخارجية والذي رافق حركة الخوارج عبر التاريخ.

المعتزلة:

هذا المذهب الذي وجد صدىً كبيراً في عهد المأمون (198هـ ـ 218/ 813-833م) ثم في عهد المعتصم (218 ـ 227 هـ/ 833-852 م)[4] حيث تبع وصية أخيه المأمون بحرفيتها، وقد كان أقل تسامحاً من أخيه سواء مع العلويين أو مع

(1) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص394.
(2) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص676.
(3) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج1، ص677.
(4) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج9، ص5.

المعتزلة ولقد سمح لنفسه أن يضرب الإمام أحمد بن حنبل[1] ويسجنه لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن ويعتقد أنه كان يفعل ذلك تقليداً لأخيه لا عن قناعة خاصة وأنه كان لا يعرف القراءة والكتابة إلا قليلاً[2] كذلك الواثق الذي اتبع طريق أبيه وعمه في التعصب للاعتزال، وأراد أن يجعله المذهب الرسمي للدولة عن قناعة وتصميم، فلم يكتف بإقراره ولكن كتب إلى الآفاق يمتحن القضاة والناس فيه، ولا تقبل شهادة من لا يقول بالتوحيد وأمر على ما يذكر الطبري[3] واليعقوبي[4] بألا يقبل فداء أسير مسلم لدى الروم سنة (231 هـ/ 846م) قبل أن يقر بخلق القرآن وبأن الله لا يُرى في الآخرة مما أثار باقي المسلمين فدبروا مؤامرة بقيادة أحمد بن نصر الخزاعي في بغداد لخلعه[5] لكنها اكتشفت قبل أن تتحول إلى التنفيذ سنة 231هـ فقبض على زعيمها وبعض أنصاره وحملوا إلى سامراء وعقد الواثق (227-232هـ/ 842-847م) مجلساً عاماً للمحاكمة حضره قاضي قضاته أحمد بن داود وهو من المعتزلة وحكم على أحمد بن نصر بالكفر فقتله الواثق بيده ثم صلب وتتبع أصحابه ولكن أمر انتشار آراء المعتزلة لم يستمر بعد تولي الخلافة المتوكل على الله (232 ـ 247 هـ/ 847-861م) حيث اتبع سياسة دينية مخالفة لأبيه وعمه حيث كان بادي الحرص لإسلاميته وللمذهب السني خاصة[6] وبدأ عهده بأن أمر بترك الجدل، والاعتزال ـ والرجوع إلى التسليم والتقليد[7] وأمر الشيوخ بالتحدث وإظهار السنة والجماعة وأطلق سراح كل من كان مسجوناً بتهمة عدم قوله بخلق القرآن وأمر سنة 236 هـ بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من الدور، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، ومنع الناس من إتيانه، ومنع الناس من شتم أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وهدّدهم بالموت[8] وقرب بالمقابل جماعة

---

(1) المسعودي : مروج الذهب، ج9، ص52.

(2) الفخري : الأحكام السلطانية، ص190.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص142.

(4) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص482.

(5) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص135.

(6) الطبري : المصدر نفسه، ص155.

(7) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص484.

(8) الطبري :تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص 200.

اشتهروا ببغض آل علي فكانوا ـ على رأي ابن الأثير[1] ـ يخيفونه من العلويين ويشيرون بإبعادهم، فجلبت عليه هذه السياسة سخط الكثير من الناس لتعصبه الشديد للسنة واضطهاد العلويين.

وأراد المتوكل سنة (232 ـ 247 هـ/ 847-861م) أن ينهي مشكلة العلويين من كل الأمصار ووضعهم في مركز واحد وهو العراق حتى يكونوا تحت سطوته ومراقبته. فأمر بإخراج الطالبين من مصر إلى العراق ثم غير رأيه من العراق إلى المدينة المنورة فأمر بخروجهم إليها سنة (236هـ/ 851م) واستقدم إليه علي بن محمد لأنه سمع أنه ينادونه «بالإمام الهادي» أبقاه بجانبه في سامراء حتى مات فيها سنة(233 هـ / 848م).

ولم تنته ثورات العلويين بشكل نهائي حتى في العصر العباسي الثاني ولو أنها قامت بشكل فجائي وغير منظم كانت دوافعها في الغالب اقتصادية أكثر منها سياسية أو دينية مثل ثورة يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب في عهد الخليفة المستعين[2] (248 ـ 25هـ/ 862-866م) ثم خروج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب[3] وفي سنة 251 هـ خرج في الكوفة رجل من الطالبيين يقال له الحسين ابن محمد بن حمزة بن عبد الله بن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب وهذه الثورات كانت صغيرة وغير منظمة وليس لها هدف واضح. فأحياناً نراها تثور لأسباب سياسية سعياً وراء أحقيتهم في الخلافة وفي أحيان كثيرة وخاصة في عهد «المستعين» نلاحظ أن دافعها اقتصادي بحت بسبب نقص العطايا لهم فتثير تذمرهم، وعرفت هذه الثورات في بعض الأحيان بثورة الإقطاعيات[4].

ومع هذا فسرعان ما نجد هذه الانتفاضات تخبو بسرعة بنفس الدرجة التي قامت فيها. وفي سنة (256 هـ/ 869م) ظهر في فرات البصرة رجل زعم أنه عليّ ابن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج7، ص 55-56
(2) أنظر الفصل الثاني من البحث.
(3) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص138.
(4) الطبري: المصدر نفسه، ج9، ص156.

أبي طالب فجمع إليه الزنج الذين (كانوا يكسحون السباخ)[1]. واتفق الطبري[2] واليعقوبي[3] والمسعودي[4] على أنه ادعى النسب العلوي إدعاءً وقال إنه من آل البيت ويتفق الطبري والمسعودي على أنه من ساكني قرية من قرى الري يقال إنها (درزين بها مولده ومنشأه)، أما اليعقوبي فيقول : (وزحف الخارجي بالبصرة المدّعى إلى آل أبي طالب)، أما ابن الأثير فيرى[5] : إنه فارسي من الطالقان، أما دعوته فقد تلخصت في أنه مبعوث العناية الإلهية أرسلته لإنقاذ الزنوج وعبيد الأرض مما يعانون من ظلم وتعذيب فادعى العلم بالغيب وانتحل النبوة ليضفي على زعامته صفة التقديس والمهابة، ورغم زعمه أنه ينتسب إلى آل علي أي الشيعة إلا إنه لم يجهر بمبادئ الشيعة ونادى بمبادئ الخوارج التي تدعو إلى المساواة في الحكم والعدالة الاجتماعية مع أسباب ثورات الزنج وهذه المفارقة تؤكد حقيقة المدعي حيث يقول المسعودي :(من إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج، لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم[6] تدل على أنه كان خارجياً، وله خطبة يقول في أولها : (الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، ألا لا حكم إلا لله)، وكان يرى الذنوب كلها شركاً. وأحيانا كان يدعي إنه يحيي بن عمر أبو الحسين المقتول بناحية الكوفة[7] ويعلق المؤرخ (نولدكيه)[8] على آراء هذا الزعيم فيقول لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه، أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية، أكثر من مذهب الشيعة، وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة لما ينطوي عليه المذهب الشيعي من الثورية الذي لا يلائم عقول مواطنيه).

لقد استخدم هذا المدعي القرآن واستشهد به ونادى بأن ساعة نهاية الرق

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص706.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج9، ص206.
(3) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 507.
(4) المسعودي : مروج الذهب، ج4، ص108.
(5) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج7، ص72.
(6) المسعودي : المصدر نفسه، ج4، ص108.
(7) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص207.
(8) Sketches from easterni Hist p. 146 نقلا عن حسن الخربوطلي : 10ثورات في الإسلام، ص108.

والعبودية قد حانت فقال إن الله تعالى قال : **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون. . . . وذلك هو الفوز العظيم﴾**[1] وفسر هذه الآيات تفسيراً سياسياً كي يخدم أغراضه وأنشأ لهم مدينة سماها (المختارة) وكون جيشاً نظامياً كبيراً من هؤلاء الزنوج وحاول الخليفة المهدي (255 ـ 256 هـ/ 868-869م) إخماد ثورته ولكنه اخفق في ذلك، وأعاد الخليفة المعتمد (256-279 هـ/ 869-892م) المحاولة فانتصر صاحب الزنج. وبدأ الزنوج يتأهبون للاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية فأدركت الدولة العباسية خطورة الموقف واستنجد المعتمد (256 ـ 279 هـ/ 869-892م) بأخيه أحمد الموفق طلحة، وعهد إليه بقتال الزنج حيث نجح في القبض على محمد بن علي وقتله في أوائل سنة(270 هـ/ 888م) بعد محاصرة عاصمته (المختارة)[2].

كانت هذه الثورة نتيجة حتمية لضعف الدولة العباسية في عصرها الثاني حيث دامت الحرب بين جيوش العباسيين والزنج أكثر من أربع عشرة سنة (255-270هـ/ 255-868م) وقد قدر السيوطي (عدد القتلى في تلك المعارك بمليون ونصف مليون[3]) بينما قدرهم المؤرخ ابن طباطبا بمليونين[4] وعاش الخليفة في قلق مرعب من هذه الثورة حتى أتاه نبأ مصرع صاحب الزنج[5].

ومن خلال ما تم سرده نستطيع أن نقيّم هذه الثورة ونقول إنها أخفقت من الناحية السياسية والعقائدية بالرغم من نجاح علي بن محمد المعروف بصاحب الزنج في ميادين القتال أربعة عشر عاماً، وكان فشله ذريعاً حين ادعى النبوة[6] وادعى علم الغيب وكان يناقض نفسه فهو يذهب إلى أنه من نسل علي بن أبي طالب وفاطمة ثم ينادي بمبادئ الخوارج ونحن نعلم مدى العداء ما بين الخوارج والشيعة واعتماده على مبادئ الخوارج لأنه وجد فيها ما يحقق أهدافه وأطماعه ورغم ظهور القرامطة في وقت متقارب مع ثورة الزنج ورغم نقمتهما معاً على بني العباس إلا أنهما لم ينجحا في

---

(1) القرآن الكريم : سورة التوبة : الآية 110.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص111- 140؛ المسعودي : مروج الذهب، ص108.
(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص242.
(4) ابن طباطبا : الفخري، ص227.
(5) انظر الفصل الثاني من البحث..
(6) الجزري : تاريخ الجزري، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم 25.

تحقيق التعاون رغم التشابه في بعض المبادئ والأهداف الاجتماعية والاقتصادية في كل من الثورتين بسبب ـ على ما أعتقد ـ الاختلاف المذهبي، فالزنج يدينون بمبادئ الخوارج، بينما القرامطة يؤمنون بعقائد الشيعة الإسماعيلية. وبسبب هذه العوامل مجتمعة فشلت ثورة الزنج وسقط المدعي علي بن محمد الذي لم يؤمن أحد بأنه من نسل علي بن أبي طالب وقد أجمعت المصادر على كذبه وعدم صدقه في النسب.

كان ظهور القرامطة في(278هـ/ 891م) على يد رجل يُدعى قرمط في سواد الكوفة، دعا إلى إمام من أهل بيت الرسول عليه السلام وكان يزهد في الدنيا ويقول أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة حتى فشا ذلك عنه[1] ولقد اتصل قرمط بصاحب الزنج قبيل قتله واشترط عليه المناظرة فإن اقتنع بآراء صاحب الزنج ومذهبه فإنه سينضم إليه وإلا سينسحب ويقول قرمط : فناظرته إلى الظهر فتبين لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري، فانسللتُ فمضيت خارجاً من مدينته إلى سواد الكوفة[2].

-وهذه الروايات جميعها تؤكد موضوع الانتماء والدعوة إلى إمام مستتر من آل البيت لمنح دعوتهم المصداقية في قلوب العامة وكسب الشيعة إلى جانبهم ثانياً وكانوا قد اعتمدوا تنظيماً في تشكيل الدعاة والنقباء من أجل نشر أفكارهم ومعتقداتهم التي وضحوها في كتابهم الذي ورد عند الطبري[3]، كانت هذه الأفكار بعيدة كل البعد عن روح الدين الإسلامي متخذة من قصة عيسى عليه السلام وظهور المهدي المنتظر منقذ البشرية من الظلم والطغيان الوسيلة لجذب اهتمام أكبر عدد من الضعفاء والعبيد والأرقاء. أما الجانب الاقتصادي الذي اعتمد عليه القرامطة وسعوا لكسب الثروات وإباحة المحرمات بنفس الطريقة التي اتبعها الزنج في ثورتهم. ولا اعتقد أن عدم اتفاقهم يعود إلى اختلاف مذهبهم العقائدي بقدر ما يعود إلى الصراع على السلطة والنفوذ والسيطرة والرغبة لدى كل طرف بأن يكون هو السيد والمسيطر مما جعل مفاوضتهم تفشل رغم أن اتحادهم في ذلك الوقت ضد الدولة العباسية كان أمراً ضرورياً تفرضه الأوضاع السياسية إذ

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج10، ص344.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ص346.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ص345. انظر الفصل الثالث : أهم الفرق الإسلامية نشأة وتطوراً وتقسيماتها، ص 176 ـ 252.

كانوا فعلاً يريدون القضاء على الخلافة الظالمة من وجهة نظر كل منهم.

يروى أن زعيم القرامطة بسواد الكوفة أبا الفوارس كان قد ناظر الخليفة المعتضد (279-289هـ/ 892-902م) وقال له: (رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي، فهل طلب الخلافة، أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك.. فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها)[1]. فأمر الخليفة بتعذيبه بعد تقطيع يديه ورجليه وخلع عظامه وشنع به واستفحل أمر القرامطة بعد وفاة الخليفة المعتضد.

كانت الكوفة هي المركز الرئيسي لحركة القرامطة في مراحلها الأولى، حيث عرف عن هذه المدينة أنها كانت دائماً تأوي الحركات المناهضة للعباسين خصوصاً الشيعة[2].

وربما من العوامل المساهمة في نشوء هذه الحركة وانتشارها فيما بعد في الشام والإحساء والبحرين واليمن والعراق يعود فيه الفضل إلى ثورة الزنج (255-270)هـ التي شغلت الخلافة العباسية لفترة طويلة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً مما أتاحت لحركة القرامطة الفرصة لكسب الأنصار وتنظيمهم دون مضايقة ولما انتهت الخلافة العباسية من محاربة الزنج والقضاء على ثورتهم نشطت حركة القرامطة وأصبحت على درجة كبيرة من القوة.

ولم تنته الحركات الانفصالية أو الثورات عن الدولة العباسية سواء كانت شيعية أو خارجية أو غيرها حتى انتهى العصر الثاني بتولي المطيع لله أبو القاسم سنة (394هـ / 945م) وسيطرة بني بويه على الخلافة العباسية. وهو العصر الذي يتجاوز تاريخياً فترة الدراسة المحددة ساهمت هذه الثورات في بلورة الفكر العقائدي السياسي عند الفرق فيما بعد خاصة بعد أن تم إبعادها عن مراكز السلطة فتحولت إلى حركات باطنية اعتمدت الاغتيال مبدأ سياسياً في العصر العباسي الأول في منهجها مثل الخطّابية (الخناقين) وظهور فرقة الإسماعيلية التي اتخذت الكتمان والسرية في الدعوة لنفسها وغيرها من الفرق[3].

---

(1) سهيل زكار: الجامع في أخبار القرامطة، ص197.

(2) عاشور أبو شامة: موقف القرامطة في بلاد الشام (289-363هـ) رسالة ماجستير. جامعة القاهرة / كلية الآداب / قسم التاريخ

(3) انظر الفصل الثالث: أهم الفرق الإسلامية نشأة وتطوراً وتقسيماتها، ص176-252.

الفصل الثاني

التحولات الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في بروز فرق الغلاة

أ ـ المبحث الأول : تقسيم الثروة وإشكالياتها.

ب ـ المبحث الثاني : ظهور العصبية وأثرها في بنية المجتمع الإسلامي.

جـ ـ المبحث الثالث : الشعوبية والزندقة ودورها في ظهور الغلو وتياراته السياسية.



المبحث الأول

تقسيم الثروة وإشكالياتها

لقد كان من حصاد الفتوحات الكبرى ازدهار المستوى الاقتصادي للمسلمين وكان كل ما وصل إليه المسلمون في النصف الأول من القرن الأول (عهد عمر 13هـ-32هـ/ 634-644م) من الناحية السياسية والاقتصادية والعقائدية مدعاة لتأسيس دولة ولكي تستطيع الخلافة متابعة مشروع اتساع رقعة العروبة والإسلام رأى عمر ضرورة إنشاء جيش دائم مما نشأ عنه استحداث أول ديوان[1] في الإسلام وهو ديوان الجند وفرض العطاء سنة 20هـ/ 641م[2]. وقال :(كثرت الأموال وزادت تحت تأثير عائدات الفتوح من أموال الغنائم والخراج) وكان من واجبات هذا الديوان القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخراج، وإحصاء العسكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم[3].

فجاء ذلك مؤشراً للانتقال من القاعدة البسيطة في المعاملات القائمة على التوزيع المباشر للأموال إلى قاعدة متطورة في تنظيم الخلافة وتوزيعها حسب جداول وإحصاءات دقيقة بإشراف «صاحب بيت المال» الذي كان له سلطة واسعة. ولقد نظم ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب تبدأ من قرابة رسول الله ﷺ.

---

(1) الديوان : كلمة فارسية تعني السجل أو المكان الذي فيه الكتاب. ابن خلدون : المقدمة، ص192.

(2) المقريزي : الخطط ج1، ص 92؛ الماوردي :الأحكام السلطانية، ص189؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص151.

(3) ابن خلدون : المصدر نفسه، ج1، ص430.

أما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل(ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية)[1]، (فإن شئتم نكيل لكم كيلاً وإن شئتم نعد لكم عداً، وإن شئتم أن نزن لكم وزنا)[2].

وكان انهيال المال على المدينة واضحاً في عطاء عمر الذي اتّبع قاعدة الأسبقية في الإسلام[3] وذلك بتقديم بني هاشم على غيرهم من المسلمين[4]، حيث قال: إبدأوا برسول الله ثم الأقرب فالأقرب منه. ومن شهد بدراً من بني هاشم من مولى أو عربي لكل رجل منهم خمسة آلاف، وفرض للعباس بن عبد المطلب ثم فرض لمن شهد بدراً من بني أمية بن عبد شمس، وفرض للأنصار وفرض لأزواج النبي عليه السلام، وفرض لمهاجرة الحبشة. هذا التقسيم في توزيع الثروة أدى إلى ثراء مفاجئ في عاصمة الخلافة وصار أغلب الناس ينطوي على (الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة المتتابعة عليها)[5] مما خلق حالة من انعدام التوازن بحيث لم يعد ممكناً تفادي الانفجار بعد غياب الخليفة القوي، رغم اعتراف عمر في آخر سنينه (إني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس، فلم أفضل أحمر على أسود، ولا عربياً على أعجمي، وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر الصديق) وهذه المقولة وردت في المصادر الشيعية مثل اليعقوبي، وفي المصادر السنية عند الطبري، ولو كان بشكل مخالف نوعاً «ما» فالطبري روى أن عمر سيعيد النظر في توزيع الغنائم بين كل المسلمين دون موضوع السابقة في الإسلام، ولوسلمنا أن في الأمر دسيسة، فإن هذه الرواية لا تقلل من شأن عمر أو من عدله، بل على العكس من ذلك تدل على حَرصه وعدله، خاصة بعدما رأى أن الغنائم زادت بعد الفتوحات الإسلامية، مما أدت إلى نوع من الإثراء الفاحش عند بعض الصحابة، فقرر تعديل الأمر بما يخدم مصلحة

(1) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص432.
(2) فإن شئتم نكيل لكم كيلاً وإن شئتم نعد لكم عددنا، وإن شئتم أن نزن لكم وزناً، المقريزي ج1، ص92؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص16، 17.
(3) اليعقوبي: المصدر نفسه، ج2، ص151.
(4) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص83.
(5) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج8، ص 156؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص952.

المسلمين جميعاً، دون فرق. أما موضوع السابقة في الإسلام فهو أمر سينتهي حتماً مع مرور الوقت بعد وفاة أصحاب السابقة.

ولكن عمر انتقل إلى جوار ربه قبل أن يعدل الأمر(32هـ / 644م) وبقي هذا التوزيع غير المتكافىء سبباً مباشراً في حدوث ثورات الأمصار، وفي الحرب الأهلية التي اشتعلت في عهد عثمان بن عفان.

كانت مشكلة الأراضي المفتوحة عنوة في العراق والشام ومصر من المشاكل التي طرحت في حركة الفتوح ذلك أن التشريع الذي كان يجري به العمل يقضي بأن الأرض التي يسلم عليها أهلها بدون حرب تترك لأهلها، على أن يدفعوا الزكاة من غَلاتها ومقدارها العشر، وأما الأرض التي يصالح عليها أهلها بمقدار يتفق عليه، فالواجب فيها ذلك المقدار. وأما الأرض التي تفتح عنوة أي بعد قتال، فهي من الناحية المبدئية غنيمة يجب أن يُطبق عليها التشريع الخاص بالغنائم، وذلك بأن توزع هي وأهلها ودوابها وأشجارها وكل شيء فيها حسب قانون توزيع الغنائم: أربعة أخماس للمقاتلين وخمس لله والرسول.. الخ[1] كتب سعد بن أبي وقاص من العراق وأبو عبيدة بن الجراح من الشام وعَمرو بن العاص من مصر وهم قادة للجيش الإسلامي إلى عُمَر بن الخطاب يطلبون منه رأيه في الأرض المفتوحة عنوة، وكان الجند يلحون عليهم في قسمتها، يقول أبو يوسف: كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق عندما بعث إليه يسأله إذا كان في الإمكان أن يقسم الغنائم وما أفاء الله عليهم، لأن الجند سألوه ذلك، وأجابه عمر ﷺ أن يمنح العسكر ما أجلب عليه من كراع ومال وطلب منه أن يقسمه بين من حضر من المسلمين، وطلب منه ترك الأرضين والأنهار إلى أصحابها «عمالها» ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، وهذه حكمة عمر السياسية والاقتصادية وخوفه من أن لا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم[2].

---

(1) أبو يوسف : الخراج، ص25، الفيء والخراج ؛ الماوردي : الأحكام السلطانية، ص126.

(2) أنظر ابن رجب الحنبلي: الاستخراج لأحكام الخراج، ص68؛ أبو يوسف : كتاب الخراج، ص24؛ وفي معجم ياقوت الحموي "مادة السواد" أن عمر بن الخطاب وضع الخراج على السواد وذكروا أن سوادا العراق كان الخراج موضوعاً عليه قبل الإسلام زمن الملوك الفرس " السواد في التيمورية " مساحة أرض أهل العراق والسواد ما أخذه عنوة فهي فيء وأرض السواد كان فيها شجر عظيم جداً وإنما سمي سواداً لكثرة شجره ورؤيته من بُعد كالسواد وهي أرض النخيل والكرم وهي أرض خصبة: أنظر أبو يوسف" الخراج" ص26.

أما بالنسبة للجزية على الرؤوس[1] أو الرقاب، أي على الأفراد والخراج على الأرض فإن الجزية تسقط مبدئياً من الناحية الشرعية، بمجرد أن يعتنق الشخص الإسلام.

أما الخراج فيبقى قائماً على الأرض التي وضع عليها لأنها فتحت عنوة بقتال فهي غنيمة وكان جند الفتح يفترضون أن توزع عليهم، ولكن الخليفة عمر رضي الله عنه ارتأى الإبقاء عليها في أيدي أهلها الأصليين كنوع من الإجراء الوقائي حتى لا تكون إقطاعيات في أيدي البعض فقط، وعندما يأتي المسلمون ويتكاثرون (يجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الأباء وحيزت، وما هذا برأي)[2].

وقبل الفاتحون هذا الأمر وهذا التدبير، وكأنهم تنازلوا للخليفة أي للأمة جمعاء عن حقهم فيها وبذلك صارت ملكاً لدولة الخلافة، أما الخراج الموضوع عليها والذي يدفعه أصحابها فهو بمثابة كراء، وهكذا أصبح لبيت مال المسلمين موردان اقتصاديان ثابتان: بعد أن كانت تعتمد أساساً في ماليتها على ما يؤخذ من العدو حين الغزو، بدون قتال وهو الفيء أو بقتال وهو الغنيمة، ومن هنا صار اقتصاد «الغنيمة» يقوم على أساس ركنين اثنين: الخراج وضمنه الجزية من جهة، والعطاء من جهة أخرى، ولكن المشكلة التي واجهت الخليفة عمر (31-32هـ/ 634-644م) كانت في نظام توزيع العطاء حيث كان يقوم على «التفضيل وليس التسوية» لأن ترتيب الناس في العطاء حسب القرابة من الرسول والسابقة للإسلام مما أدى إلى تكديس الثروة في أيدي مجموعة معينة، وبالتالي ومن الطبيعي أن يورث فوارق كبيرة بين المسلمين في الثروة فوارق تتسع باتساع حجم الغنائم والخراج[3] حيث تكدست الثروة في أيدي بعض الصحابة: مثل عبد الله بن الزبير، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف.. الخ وغيرهم، هذا التمييز في المجتمع الإسلامي خلق طبقة مميزة تتمتع بالنفوذ والسيطرة وتتعالى على سواها، رغم محاولات عمر بن الخطاب العديدة للحد من تكدس الثروة واتخاذه

---

(1) الجزية أيضاً سقطت في عهد عمر بن الخطاب على الصبي والعجوز ويقوم بيت مال المسلمين بتأمين حاجته.

(2) يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف : كتاب الخراج، ص85.

(3) وقد أوضحنا ذلك في الفصل الأول.

لجملة من التدابير لمنع توظيف الثروة، حيث تذكر المصادر[1] : أنه حجز على الصحابة وأبناء الصحابة من المهاجرين الخروج من «المدينة» إلى «البلدان المفتوحة» إلا بإذن وأجل وسيكون هذا الأمر فيما بعد سبباً من أسباب الأزمة السياسية التي أطلق عليها المؤرخون الأوائل اسم «الفتنة» والتي أدت إلى اشتعال الحرب الأهلية والتي كانت دوافعها اجتماعية واقتصادية وسياسية، هذه الثورة جاءت كتعبير متلازم مع الثورة على السلطة دون التمييز في الدوافع أو الظروف حيث أدت إلى سلسلة من الاغتيالات ذهب ضحيتها عثمان بن عفان 35هـ/ 655م، وهذا أدى فيما بعد إلى نشوء عصبية الموالي من غير العرب والذين ساهموا بشكل كبير في خلق مايعرف بالفرق الإسلامية، وقد اتخذ هذا التمييز له مركزاً جلياً في عهد عثمان (23-35هـ/ 644-655م) وفي عصر بني أمية(41-132هـ/ 661-750م).

إن الثراء الذي انصبّ في عاصمة الخلافة أقلق عمر ﷺ وقد نوهنا إلى أنه حاول اتخاذ عدة إجراءات وقائية، وكان يمكن أن تحل المشكلة المطروحة خاصة بعد أن ضيّق الخناق على أصحاب الثروات والمترفين من الأرستقراطية العربية والقرشية حتى قيل (لم يمت عمر حتى ملته قريش)[2].

ولعل في اختيار عثمان بن عفان ماجعل تلك الفئة تطمئن على أوضاعها، خاصة وأن عثمان كان غنياً منذ أيام الجاهلية وساهم مساهمة كبيرة في النفقة «في سبيل الله» زمن الدعوة وكان معروفاً بلينه وكرمه ودماثة خلقه، ثم إنه من عائلة كبيرة من بني أمية وممثل لطبقة الارستقراطية القرشية وقد فضله أهل «الحل والعقد» وفي مقدمتهم أصحاب الأموال عن علي بن أبي طالب المتشدد الزاهد في المال والمعروف بانحيازه للفقراء والمساكين، وكان يرى أن «العقيدة» تتنافى مع الغنى الفاحش ومظاهر الترف والرفاهية التي كانت قد بدأت تنتشر رغم تدابير عمر بن الخطاب، ولهذا رجحت كفة عثمان حيث تولى عندما بدأت مظاهر الغنى في «الانفجار» ولانستطيع أن نتجاهل ما قاله عثمان أيام حكم عمر (أرى مالاً كثيراً يسع الناس)[3].

(1) الطبري ؛ المسعودي ؛ اليعقوبي.. الخ.

(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج2، ص452.

(3) قول منسوب لعثمان بن عفان قاله لعمر. الطبري :المصدر نفسه، ج4، ص23.

ولذا لم يقف عثمان ضد تزايد حجم المال المتدفق على مركز الخلافة «خاصة من الخراج» وإذا كان الفتح قد توقف بعد فتح خراسان وماوراء النهر وقبرص وأفريقية، فإن حجم غنائم هذه البلدان كان كبيراً جداً «كثر الخراج» على الخليفة عثمان وأتاه المال من كل وجه، واتخذ له الخزائن وأدار الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة، في كل بدرة أربعة آلاف أوقية[1].

وعثمان الذي تعود على الغنى والسخاء قبل أن يكون خليفة اتبع نفس السلوك وهو خليفة واتبع طريقة عمر في التوزيع بل تجاوزها وصار ينفق من «بيت المال» ليعطي أقاربه وغيرهم وكأنه يتصرف في ماله، من ذلك أنه منح للحكم بن العاص بن أمية «طريد رسول الله» خمس غنائم أفريقيا من الخمس المخصص له «ذوي القربى»[2] منطلقاً من الآية **﴿فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾**[3].

وكان هذا أسوأ استغلال للآية الكريمة إلى درجة أن السلطة الحاكمة اعتبرت صاحب بيت المال خازن لها ويتصرف على هذا الأساس، فقد روي أن والي الكوفة الوليد بن عتبة أخا عثمان لأمه، اقترض من بيت المال مبلغاً ولم يسدده، فتقدم إليه عبد الله بن مسعود عامل بيت المال يطلب سداده فماطل فاشتكاه إلى عثمان فأجابه الخليفة قائلاً: «إنما أنت خازن لنا فلا تتعرض للوليد فيما أخذ من مال»[4] فاستقال ابن مسعود وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأما إذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك.

ويذكر ابن رجب الحنبلي: أن عثمان أقطع من السواد لبعض أصحابه[5]، وخصص أُعطيات لمن لم يشارك في الفتح وهم أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ﷺ ثم لا يغزون ولا يذبون[6] بالإضافة إلى سماحه للصحابه بالخروج من المدينة

---

(1) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص131.
(2) ابن قتيبة : الامامة والسياسة، ج1، ص36.
(3) القرآن الكريم : سورة الانفال، الاية 41.
(4) البلاذري : أنساب الاشراف، ج5، ص31. معهد المخطوطات العربية / جامعة الدول العربية 1959م.
(5) ابن رجب : الاستخراج لأحكام الخراج، ص30.
(6) ابن قتيبة : الامامة والسياسة، ج1، ص35.

أولئك الذين منعهم عمر من المغادرة إلا بأمره ولأجل مسمى وهم من كبار الأغنياء ولكن عثمان سمح لهم دون قيد أو شرط.

وسمح بممارسة التجارة بطرق مختلفة، وكان الصحابة الأغنياء من أمثال طلحة بن عبيد الله، يشتري أسهم ونصيب من شهد القادسية 15هـ/ 636م والمدائن 16هـ/ 637م من أهل المدينة ممن أقام بها ولم يهاجر إلى العراق[1]. لقد كان الذين يبيعون أنصبتهم هم الضعفاء والذين يشترون هم الأغنياء، وكان من نتائج هذا التدبير أن تركزت ثروات طائلة في أيدي جماعة قليلة من الصحابة ورجالات قريش فاتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء وزاد في اتساعها توقف الفتح وتكاثر النسل وهجرة الأعراب إلى الأمصار وهكذا فقد تكونت هذه الطبقة وحقدت على قريش واعتبرتها مغتصبة لحقوقها وتمنت الخلاص من سيادتها وهذه الطبقة الأرستقراطية لم تكن مستقرة بل تتغير من عصر إلى آخر نتيجة للتحولات والانعطافات المعملية التاريخية حيث تعاظمت خلال الحقبة الممتدة ما بين منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الثالث الهجريين ثم ما بين القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجري، بعدها ثورات ذوت لتسود الإقطاعية وخاصة العسكرية سائر أقاليم العالم الإسلامي، وخاصة في المغرب العربي بعد الفتوحات الإسلامية[2].

كان هذا التعاظم بسبب اعتماد الخلافة الكلي على الخراج والفيء وقد جرى هذا الأمر بعد توقف حركة الفتوح وأدى إلى حالة الانفجار الذي حدث بعد ذلك بسبب الصراع الطبقي والاجتماعي وتكدس الثروة في يد طبقة معينة مثل الارستقراطية القرشية[3] وهؤلاء تركوا ثروات طائلة جداً يمكن معرفة قيمتها ومقدار ما تبلغ من خلال المصادر التاريخية[4]. خاصة وأن عثمان بن عفان ربط الغنيمة بـ «القبيلة» مما زاد

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص184.

(2) محمود اسماعيل: دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ص15.

(3) الارستقراطية القرشية: الزبير بن العوام، طلحة بن عبيد الله، سعد بن أبي وقاص، زيد بن ثابت، عبد الله بن مسعود، عمرو بن العاص، عبد الرحمن بن عوف وهؤلاء هم الذين ملكوا الثروات وأصبحوا أصحاب النفوذ نتيجة لنظام العطايا والافضلية في الإسلام. محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ، ص527؛ شاكر مصطفى: دولة بني العباس ص23؛ فاطمة جمعة: الاتجاهات الحزبية في الإسلام، ص92.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص392؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ص527؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص81.

في تعبئة الرأي العام ضد عثمان وأججت الثورة فكثرت الأصوات المعارضة في «مركز الخلافة وخارجها» حيث أخذت الثورة تتهيأ في الأطراف وقدم الثوار من الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة، وحوصر عثمان أربعين يوماً ثم انتهى الأمر بقتله بعد أن اجتمعت عدة أسباب سياسية واقتصادية المتمثلة في سوء التوزيع لثروة الامة، والتي خلفت نوعاً من التمايز الطبقي والاجتماعي بين أفراد الأمة الواحدة. ولم تأت هذه الثورة بسبب ما قيل عن رغبة زعماء الثورة في الأمصار في الاستيلاء على السلطة «الخلافة»[1]، لأن هذا الأمر لم يكن وارداً عند المعارضين في ذلك الوقت فهم طالبوا برفع الغبن والظلم والعدالة في توزيع الغنائم، لاسيما أنهم هم الطبقة المطحونة البائسة. أما الأغنياء فقد لعبوا دوراً مزدوجاً وذلك بكونهم هم السبب في إحساس الفقراء بالفارق الطبقي الكبير بين الفئتين مما ساعد في تغذية الغضب المكبوت لديهم، أما الدور الآخر فهو مساعدة الأغنياء من أمثال طلحة، والزبير للفقراء مما زاد هذا الامر في طول عمر عثمان بن عفان، وفي نفس الوقت سمح بتكوين جبهات ومؤيدين لطلحة والزبير، فكان هوى كل مجموعة مع واحد منهم فهوى أهل البصرة مثلاً كان مع طلحة، وهوى أهل الكوفة كان مع الزبير[2].

يذكر الطبري: أنه لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع الناس إليهم ولبثوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم[3] فاستطالوا عُمر عثمان وهذا يؤكد مشاركة أيديهم الخفية في الثورة ضد عثمان[4].

يتضح ذلك من موقف أنصار طلحة لما قدم الثوار إلى المدينة، فقد أحاطوا بمنزله وكان يدعو لنفسه ضد عثمان. وتجمع المصادر أنهما كانا المحركين المباشرين للثورة على عثمان، وأنهما كانا من وراء الرسالة التي أرسلت باسم الصحابة إلى الأمصار تدعو (المجاهدين) إلى القدوم إلى المدينة[5]، بل هم الذين

(1) ذكرناها في الفصل الأول "الصراع على السلطة ".
(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج2، ص652.
(3) الطبري :المصدر نفسه، ص679.
(4) ابن قتيبة : الامامة والسياسة، ج1، ص35.
(5) يوليوس فلهوزن (Flhowzen): تاريخ الدولة العربية، ص44.

آثروا أن يقذفوا النار في الأمصار، وفي الامصار كانت تتركز على كل حال القوة الحربية والمالية للدولة[1].

من خلال ذلك نجد أن أهالي الأمصار الذين قاموا بالثورة كان دافعهم الحقيقي هو الامتيازات الواسعة التي حصل عليها القرشيون والذي أثار القبائل من غير قريش خاصة بعد أن تحولت ملكية الاراضي الخصبة المعروفة بـ(الصوافي) من ملكية عامة تعود على بيت المال إلى ملكية خاصة[2] تخص الصحابة، وبذلك فقد بيت المال مورداً هاماً، أضف لذلك حالة الهجرة التي أدت إلى حدوث فراغ بشري أحدثه انتقال عشائر بكاملها إلى الأمصار، يقابله ثراء فاحش وتطور غير عادي في المستوى الحياتي.

ومن الواضح أن العائدات قد قلّت بعد توقف حركة الفتوح وبعدما آل إليه الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أشرنا إليه سابقاً وهو أمر ساعد في انفجار الوضع في المدينة وكانت النتيجة المؤلمة لهذا الانفجار هو قتل الخليفة عثمان بن عفان سنة (35هـ/ 655م) وكانت كارثة كبرى أدت إلى نتائج خطيرة شكلت التاريخ الإسلامي فيما بعد سياسياً وعقائدياً واجتماعياً، خاصة وأن عثمان تولى الأمور بعد عمر ذلك الرجل القوى والعادل في آن واحد والذي سيطر على أطماع ورغبات الصحابة والارستقراطية القرشية بمنعهم من الخروج إلى البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقام وقال قولته المشهورة : (ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة. وآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار)[3].

أما في عهد عثمان سنة 23 هـ / 644م فقد أثرى الصحابة بشكل كبير مما دفع المسعودي أن يعبر عنه بأنه (باب يتسع ذكره) وهكذا ظهرت العصبية وتعصب العرب كافة على قريش حسداً وحقداً عليهم لولاية الامر واستبدادهم بالسلطة واستئثارهم بالفيء حيث اعتبر سعيد بن العاص السواد بستان قريش مما جعل الاشتر يغضب ويرد بأن هذا الأمر فاءه الله عليهم بسيوفهم وليس بستانا له ولقومه من قريش[4].

---

(1) أبو يوسف : كتاب الخراج، ص63.
(2) فلهوزن (Flhowzen): المصدر نفسه، ص50.
(3) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج4، ص396.
(4) المسعودي : مروج الذهب، ج1، ص434.

لقد أثارت سياسة عثمان بن عفان في الأمور السياسية والإدارية والمالية غضب العامة، لأن هؤلاء هم الذين قاسوا من الفقر والظلم الاقتصادي والاجتماعي، حيث نجد أن عبد الله بن سعد قسا على أهل مصر في جباية الخراج وظلم الناس، ثم أظهر العصبية لقريش مما أثار غير قريش من العرب والمسلمين وأهل الذمة واستئثاره في غنائم المسلمين[1]، ولقد عارض عثمان بن عفان والأرستقراطية المتمثلة في بني أمية عبد الله بن مسعود مما جعلهم يأمرون بضربه حتى كسر أضلاعه[2] وعارضهم أبو ذر الغفاري الذي رفع شعار العدالة الاجتماعية «الاشتراكية» وكان يردد الاية الكريمة **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَايُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُمْ﴾**[3]. فما زال يردد ذلك حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الاغنياء، حتى شكا الاغنياء مايلقون من الناس[4]. فنفاه إلى الشام، ولكن معاوية خاف منه ومن مواعظه فرده إلى المدينة، ثم ينتهي به الامر إلى الربذة إلى أن مات فيها بعد أن منع من مغادرتها.

وهذه الامور كانت الوقود التي أشعلت نار الثورة في عهد عثمان بن عفان، بينما نجد أن علي بن أبي طالب (35هـ/ 655م) اتبع سياسة عمر رضي الله عنه واتخذ موقفاً صارماً من الثروات التي تكونت في أيام عثمان بأسباب غير مشروعة فقد صادر جميع ما اقتطعه عثمان من القطائع وما وهبه من أموال للارستقراطية القرشية، كما أعلن أنه يتبع مبدأ المساواة في العطاء، وقال : من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق[5] ويقول : المال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل منه لأحد على أحد[6].

وأعلن العودة إلى نظام التسوية في العطاء الذي كان يطبقه رسول الله وأبو بكر الصديق لعله يستطيع أن يقضي على التفاوت الاقتصادي والاجتماعي الذي

(1) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص269.
(2) ابن أبي الحديد : نهج البلاغة ج1، ص269.
(3) القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية 35.
(4) ابن أبي الحديد: المصدر نفسه، ص 269.
(5) الطبري :المصدر نفسه ج4، ص283.
(6) ابن أبي الحديد :المصدر نفسه، ص269.

كان قائماً زمن عثمان محاولاً إضعاف القوة القرشية الأرستقراطية، وانحاز إلى جانب المحرومين مما جعل لهذه السياسة أثرها السيء في نفوس الاغنياء وهو ماعبر عنه أبو جعفر: وكان هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام «ويقصد علياً» وأورثهم الضغن عليه وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية[1].

وذاك أمر دفعهم إلى الوقوف فيما بعد ضد علي كان نتيجته موقعة الجمل (36هـ/ 656م) بينما نجد أن موقعة صفين (37هـ/657م) كانت تمثل إتجاهاً للتكتلات النفعية في المجتمع الإسلامي والصراع بين المصالح والاطماع، وقد ورد ذلك في خطبة لعمار بن ياسر حيث قال لمعاوية : (لم تطلبوا دم عثمان ولكنكم أحببتم الدنيا وخدعتم الناس عندما قلتم إمامنا قُتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً) وهي مقولة تؤكد أن الصراع كان سياسياً وتغذيه قوة اقتصادية طمعاً في ملك الدنيا، أما الدين «الإسلام» فكان بعيداً جداً عن هذه الصراعات السياسية والاقتصادية[2].

وكان بروز الأحزاب والفرق التي برزت محصلة طبيعية لكل هذه التناقضات التي حدثت في المجتمع منذ صراع السقيفة، وبرزت العصبية والفرق الاجتماعية منذ عصر الفتوحات الإسلامية ثم برزت في الثورة ضد عثمان وفي موقعة الجمل وموقعة صفين واستطاع معاوية بدهائه السياسي من استغلال الموقف الذي فرض على علي وأدى إلى انقسام خصوم بني أمية قسمين جديدين: فهناك الخصومة السياسية التي ترفض المصالحة والتي بلغت أوجها في مذاهب الخوارج والمتطرفين، وهناك أيضاً الشيعة الذين يؤيدون علياً، بينما مثل الامويون القوى الاقتصادية المتمثلة في الارستقراطية القرشية وهم الذين أرادوا أن يحافظوا على القانون والنظام أمام الحروب التي كادت أن تبيد العراق ويحافظوا على قوتهم الاقتصادية، وانتهى الامر بعد مقتل علي رضي الله عنه سنة 40هـ / 661م.

وبذلك بدأ العهد الاموي (41هـ/ 661 م) بتطور النظام الناشىء عن حركة الفتح الإسلامي تطور سريعاً بسبب تغيير أساليب العيش ونماذج السكان حيث استكمل العهد الاموي ما تم من الفتوحات العربية خارج الجزيرة حيث حدثت

---

(1) ابن ابي الحديد: المصدر نفسه، ج1، ص37.

(2) لمزيد من التفاصيل أنظر، الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج4، ص513.

فتوحات في الشرق والغرب واتسعت الدولة الإسلامية ومن الواضح أن معاوية لم تكن له هواجسه الحجازية المقلقة بالمقارنة مع العراق الذي أحاطه باهتمام خاص انطلاقاً من العلاقة التنافسية بينه وبين الشام حيث انتقل الثقل البشري والاقتصادي إلى هذين الاقليمين، وذلك على حساب الحجاز المفرغ من هذه الشروط إلى حد كبير[1].

ولقد أثبتت الأحداث تكامل الفريقين القرشي والثقفي في الحجاز وقد أخذ هذا التكامل أبعاداً اقتصادية واجتماعية مختلفة بين المدينتين المتجاورتين، فالطائف قدمت لقريش الاراضي الزراعية التي كان لبعض السلع المنتجة فيها أهمية في الاقتصاد المكي[2]، ومكة بدورها بادلت ثقيفاً التسهيلات اللازمة، ففتحت أبوابها للمشتغلين بالتجارة ومختلف الأعمال، ومن ناحية أخرى فإن هذا التحالف الذي كان قوياً قبل الإسلام، استمر متماسكاً بعده، وتوثق عراه بالعلاقات الاجتماعية (المصاهرة) كنتيجة طبيعية للمصالح المشتركة بين الطرفين، خاصة بين ثقيف والبيت الأموي أقرب القرشيين اليها[3] وبذلك انعكست متغيرات الدولة السياسية والاقتصادية على مختلف ولاياتها بصورة متفاوتة. ففي الشام مركز الحكم المركزي عاشت القبائل في أجواء ملائمة وفي ظل امتيازات خاصة لاسيما قبائل (كلب، فهر، وجذام) التي شكلت معظم الفرق الشامية التي قامت بدور أساسي في حماية الخلافة الأموية وإنقاذها من حركات المعارضة[4]. وقد عمل معاوية على استصفاء الإقطاعيات لنفسه ولأهل بيته وخاصته[5]. ولم تكن العطايا متساوية بين الولايات في عهد الدولة الأموية (41هـ/ 132م) وكانت هذه السياسة واضحة المعالم تحديداً في العراق والحجاز وهما مركز الثقل الأكثر خطورة، فالعراق مزدحم بالسكان وغني بموارده الاقتصادية بينما فقدت الحجاز أهميتها هذه منذ الثورة على عثمان (23هـ/ 644م-35هـ/ 655م) ولم يبق للحجاز إلا تراثه الغابر يعيش به والمتمثل خاصة بتجمع أبناء الصحابة فيه، حيث شكل

---

(1) بيضون : الحجاز والدولة الإسلامية، ص228.
(2) ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج 4، ص9.
(3) بيضون : المرجع نفسه، ص 229.
(4) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص238.
(5) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص234.

مركزاً للمعارضة ضد الدولة الاموية وتحريك المعارضين في العراق بصورة أكثر خطورة في صورة تحالفية تضامنية نتيجة لمعاناة يعيشها الإقليمان معاً.

والمدينة أيضاً لم تكن في حال أحسن من الحجاز والعراق حيث الوضع الاقتصادي السيئ الذي كان يعانيه «الأنصار» مما جعلهم يرفضون استقبال معاوية عند قدومه لزيارتهم في المدينة[1] بسبب ضعف الحال، وهذه شكوى صريحة من أهل المدينة لمعاوية بن أبي سفيان (41هـ/ 661م) عن وضعهم الاقتصادي الرديء والفقر الذي يعانون منه وايثاره لغيرهم، والواضح من هذه الاوضاع التي تعيشها الامصار الإسلامية المعارضة لبني أمية هو نوع من العقاب والتهديد بقطع الارزاق عنهم لانهم كانوا يشكلون رموز المعارضة في الدولة الإسلامية بينما منح الموالين له ولسياسته الكثير من الامتيازات والتي خصها بالمقاطعات والصوافي والاموال فخلق نوعاً من التمايز الطبقي بين القبائل العربية نفسها ونوعاً من التمايز الطبقي والعرقي أيضاً بين العرب والاعاجم المسلمين.

ولهذا السبب كان العامل الاقتصادي هو العامل الفعال في الثورة ضد الامويين خاصة وأن معاوية كان أول من كانت له الصوافي في جميع الاقاليم العربية وهي الاموال التي كان يصطفيها لنفسه من جميع الولايات بعد استقطاع العطايا ومن هذه الأموال أو الصفايا كانت صلاته وجوائزه[2]. ولما كانت الدولة الاموية مبنية على أساس قبلي وبما أن القبائل العربية قد تفرقت في البلدان كجند للفتح، فإن مابقي منها في المدينة أو في الكوفة والبصرة كانوا إما مجندين أو متقاعدين في حكم الجندية، وكانوا جميعاً يعيشون على العطايا والخراج معتمدين في ذلك على الأمصار، وماتجلبهُ من خراج لخزينة الدولة. وقد استفاد من هذا الوضع أصحاب السلطة من قريش من ولاة وجباة وحرم منه باقي قطاعات المجتمع مما ساعد في تشكيل وظهور الفرق المغالية والمتطرفة لأن إيمانهم وانطلاقهم المبدئي ثابت في أن الإسلام جاء لينقذهم من الظلمات إلى النور وهو دين العدل والمساواة. إلا أن الامويين للاسف عرفوا كيف يستفيدوا من عنصر المصلحة المادية وبرعوا في استخدام «العطاء» في تغيير ميزان القوى حتى بين

---

(1) البلاذري : أنساب الاشراف، ج1، ص116، قال سعد بن عبادة لمعاوية منعنا من ذلك قلة الظهور وخفة ذات اليد بالحاح الزمان علينا وإيثارك بمعروفك غيرنا.

(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص234.

القبائل القيسية واليمانية لصالحهم : العطاء المادي كالهبات والعطاء السياسي كالوظائف المكسبة للجاه (والجاه مفيد للمال)[1] فالجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيلة والعصبية بمقدار غنائمهم وعصبيتهم وبمقدار مصالحة الدولة ومدى استفادتهم من أتباعهم، وهذا ما أكدته سياسة بني أمية في المشرق والمغرب العربي وأخيراً أدركت الدولة الوضع بعد فوات الاوان بعد أن اتجه العرب، وبخاصة عرب المدن واشراف القبائل إلى امتلاك الأرض، وتوسعوا في ذلك عن طريق الحصول على إقطاعيات من الخلفاء (أو الامراء) أو بشراء أو بإحياء الارض «الموات» وبوسائل أخرى، في حين أن عامة القبائل لم يكن لها الإدراك و الإمكانيات لامتلاك الأرض[2] وأدى ذلك بالتدريج مع الاستقرار إلى حصول فجوة بين الأشراف وبين عامة القبائل وإلى تضارب في المصالح، فكان الأشراف ميالين للتعاون مع السلطة حفاظاً على مصالحهم المادية ولنفوذهم، في حين أن العامة كانوا على استعداد للإنضمام لتجمعات المعارضة والمشاركة في الثورة.

ونشطت التجارة في المجال الدولي في هذه الفترة : إذ إن طرق التجارة الدولية بين الشرق و الغرب دخلت في أرض الخلافة قبيل نهاية القرن الأول الهجري هذا بالإضافة إلى المجالات الكبيرة للتجارة داخلياً في تموين المقاتلة وفي بيع الغنائم إضافة إلى تصريف الواردات النوعية للدولة[3]، وفي البداية اعتمد العرب على مواليهم وعبيدهم في الاعمال التجارية ثم بدأ العرب انفسهم يشاركون في الأعمال التجارية تزايد تدريجي خاصة بعد تحديد اعداد المقاتلة المسجلين في ديوان الجند، وبقاء أعداد كبيرة من العرب خارج الديوان (بدون عطاء)[4] والتجار عادةً يؤيدون الاستقرار وهؤلاء الفئة الطموحة هي التي ساهمت مساهمة كبيرة من ناحية الدعم المالي في نجاح الدولة العباسية القائمة على السرية و الكتمان، خاصة وأن الدولة الأموية قامت بعدة تجاوزات، واغتصبت الحقوق، كما اعتمد الأمويون على مجموعة مختارة من الجند العرب «الجند الشامي» فانعدمت بذلك

---

(1) ابن خلدون : المقدمة، ص 301.

(2) البلاذري : فتوح البلدان، ص 293، 386.

(3) الدوري : التكوين التاريخي للامة العربية، ص41.

(4) صالح أحمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ق1هـ، ص254، 255.

المساواة بينه وبين صفوف الجند العرب في الأمصار، كما انعدمت بين جماعات المسلمين من عرب وسواهم وأخذت عناصر المعارضة تنادي بالعدل ناقضة لأفكار الجبرية الأموية وسيعرف هؤلاء فيما بعد باسم القدرية أو أهل العدل وسنراهم مع آثارهم بشكل واضح في فرق الشيعة والمعتزلة.

وسعى الأمويون رغم ذلك إلى توظيف «العطاء» في تغيير القوى بين القيسية واليمانية كما أسلفنا، وكان من ثوابت السياسة الأموية استعمال العطاء في محاربة خصومهم وشلهم سواء كان هؤلاء الخصوم من الهاشميين أو من زعماء القبائل أو من الشعراء ورؤساء الموالي ويروي ابن طباطبا: (فإن عقيل بن ابي طالب لجأ إلى معاوية يطلب منه المال لكي يقضي دَينَه بعد أن رفض أخوه علي بن أبي طالب أن يمنح له أي مال من بيت مال المسلمين طالباً منه الانتظار حتى يخرج عطاءه هو ليدفعه له، ولكن عقيلاً قال له (بيت المال بيدك وانت تسوّفني بعطائك) فغادره وذهب إلى معاوية فأكرمه وقضى عنه دينه وزاده)[1].

ومن هنا نستشف طبيعة تلاعب معاوية بأموال الرعية وقدرته على استخدام الثروة في الضغط على خصومه وفي نفس الوقت كسب المؤيدين والمناصرين بمنح العطايا لهم حتى تمتص نقمتهم السياسية عليه وعلى بني أمية وتكون آلية ضغط ضد كل من يقف في وجهه ونحن نعلم ما للمال من قوة ونفوذ مؤثر لايستطيع الانسان أن يعيش بدونه.

ويقول ابن أبي الحديد: اعترض الحسين بن علي إبلا كانت تحمل مالاً من اليمن إلى معاوية فأخذ الحسين ماكانت تحمله وكتب بذلك إلى معاوية قائلاً: (أما بعد فإن عيراً مرت بنا من اليمن تحمل مالاً وحللاً وعنبراً وطيباً اليك لتودعها خزائن دمشق واني إحتجت إليها فأخذتها)[2]. فأجابه معاوية برسالة يؤنبه فيها على لجوئه إلى مثل هذا التصرف، رغم انه بعد ذلك قال لخازنه : (احمل إلى الحسين نصف ماتملك من فضة وذهب ودابة وأخبره اني شاطرته مالي)[3].

وهذا لا يدل على رحمة بني أمية وليس حباً في بني هاشم بقدر ما هو كسب

(1) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص761.

(2) ابن ابي الحديد :شرح نهج البلاغة، ج4، ص327.

(3) ابن ابي الحديد: المصدر نفسه، ج8، ص283.

لودهم وإتقاء لشرهم وإفسادا لأمرهم، حيث استعمل معاوية المال في إفساد أهل العراق على علي رضي الله عنه، واستعمل إبنه يزيد (60هـ/ 681م) نفس الوسيلة لحمل أهل العراق على خذلان الحسين بعد أن طلبوه كما أوضحنا سابقاً[1] واستعملها كذلك لكسب ولاء زعماء القبائل ووجهاء الناس وسار الخلفاء على ذلك فكان العطاء السياسي الوسيلة المفضلة لديهم لممارسة السياسة في القبيلة لإسكات خصومهم وشل معارضتهم[2].

وأحياناً نجد أنفسنا أمام سؤال ملح وهو : لماذا يأخذ بنو هاشم العطاء من بني أمية وهم أعداؤهم التاريخيون ؟

من خلال ما تم سرده نستنتج أن هؤلاء بحاجة إلى مثل هذا العطاء الشخصي حيث كان ضرورياً لهم للحفاظ على وجاهتهم ومكانتهم الاجتماعية واعتقادهم أن لهم الحق المطلق في مال المسلمين، بالإضافة إلى أن الواحد منهم يعيل مئات بل الآلاف من الإماء والعبيد والخدم فضلاً عن العطاء للاتباع وذوي القربى. كان لابد أن يعطي كل سائل من عامة الناس ما سأل أو أكثر والا فقد المطلوب منه وجاهته ومكانته.

وكان الأمويون يدركون هذا ويعرفون أن تلك المبالغ الطائلة التي كانوا يعطونها للأشراف والرؤساء والوجهاء كانت توزع على الناس، وان ذلك وسيلة من وسائل ضمان الاستقرار في البلاد ولم يكن الهاشميون هم وحدهم الذين كان يغدق عليهم الأمويون بهذه العطاءات السخية، بل لقد كانت تلك هي سياستهم مع رؤساء القبائل «أشراف العرب» والوجهاء، وهذه الفئات التي يمنح لها العطاء هي التي تقوم بمهمة حماية الدولة والخليفة من ثورات قبائلهم، أما الجيش فقد كان يكلف مبالغ طائلة نتيجة للفتوحات الكبرى التي كان يقوم بها وكان يستلزم مصروفات باهظة إلى درجة أن الدولة الاموية عرفت بدولة الفتوحات الكبرى برياً وبحرياً، أضف إلى أن معاوية اتبع سياسة زيادة العطايا للجند في حربه مع علي ابن أبي طالب بالاضافة إلى أعطيات لرجال قومه وعطاءات هؤلاء ونفقاتهم الخاصة ونفقات الحروب مع الثائرين الذين استمروا في مواجهة الدولة الأموية

---

(1) انظر الفصل الاول (الصراع على السلطة).

(2) الجابري : العقل السياسي العربي. نقد العقل العربي، ج3، ص255.

طيلة حكمها وهذه المصروفات الباهضة كانت كافية لانهاك ميزانية دولة العطاء «دولة بني أمية»، والسؤال هنا يقول من أين كانت تأتي هذه الاموال ؟

ولكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعود إلى صدر الإسلام حيث كانت الاموال تصب في خزينة الخلافة من الزكاة والغنائم[1] و الفيء[2] والخراج[3] والجزية[4] والعشور، وميراث من لاوارث له. وكانت الغنائم هي أكبر مصدر يدر الأموال على خزينة الدولة أثناء الفتوحات الإسلامية الكبرى وعندما تنقضي الغنائم أو تتوقف بتوقف الفتوحات، ينقص المورد المالي وبالتالي ينعكس ذلك على الخلافة فتصبح الزيادة في الخراج واللجوء إلى «الاستخراج» أمراً ضرورياً لتحقيق التوازن بين «الدخل و الخرج» وإلا فالأزمة الاقتصادية ستكون حتمية وبالتالي يحدث النقص النسبي أو المطلق في العطاء.

ومع انتصار الأمويين كان عليهم ان يبادروا إلى جمع المال وضبط موارده والتدقيق في جبايته، والا لما كانوا يستطيعون الصمود خاصة وان الدولة الراشدية والأموية تعتمد اعتماداً كلياً على «الغنيمة» رغم المصادر الاخرى كالزكاة والجزية والفيء لكن مواردها كانت قليلة في الغالب.

وهكذا كتب معاوية إلى عامله على الخراج في العراق أن «احمل إليّ من مالها ما استعين به»[5] وكتب إلى زياد عامله على البصرة يأمره أن يصطفي له «الصفراء والبيضاء». (الذهب والفضة) من غنائم الفتوحات في خراسان[6] ولقد اعتمد معاوية سياسة جديدة وهي الاستحواذ والاستيلاء على ما يتركه عماله من أموال وكان لايموت عامل من عماله إلا شاطر ورثته في تركته[7] فكان أول من

---

(1) الماوردي :الاحكام السلطانية ص125،الغنيمة :هي ماغلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة تتقسم إلى أربعة أسرى، وسبي، وأرض وأموال.

(2) الفيء ماصولحوا عليه : يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج، موسوعة الخراج ص17.

(3) الخراج :يوضع على كل الارض العنوة وفي لغة العرب اسم للكراء والغلة وهي كلمة فارسية اقتبسها الفرس من الكلمة الارامية هلاك، بطرس البستاني: دائرة المعارف الإسلامية، ص245.

(4) الجزية وهي تدفع من غير المسلمين مقابل الكف عنهم وحمايتهم، الماوردي : المصدر نفسه.

(5) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص218.

(6) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج3، ص216.

(7) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ص222.

استصفى مال عامل وكان يقول : هذه سُنّةٌ سنّها عمر بن الخطاب ولم يكن هذا التدبير سوى مورد إضافي استثنائي يصب في خزينة الخليفة لينفق منه عند الحاجة، أما المورد الاساسي لبيت مال المسلمين(خزينة الدولة) فكان يتألف من الغنائم والجزية والخراج.

ورغم أن الفتوحات كانت كبيرة شرقاً إلى بلاد السند وشمالاً إلى القسطنطينية غرباً في شمال افريقيا، فإن غنائم هذه الفتوحات لم تكن لتغطي نفقات الدولة من العطاء ونفقات الجند، ولهذا لجأ معاوية إلى ضبط الجباية والزيادة فكتب إلى عامله على مصر: (أن زِدْ على كل امرئ من القبط قيراطاً) وكذلك فعل في الولايات الاخرى[1].

وإذا كان الأمويون زمن معاوية وإلى عهد عبد الملك بن مروان (41هـ-661م/ 65هـ -684م) لم يزيدوا زيادة كبيرة في مبلغ الخراج رغم اهتمامهم به لكنهم «احدثوا بعض التعديل وقاموا بدور التنسيق»[2] ليحصلوا على اكبر حجم من واردات الخراج، مثلاً استخدموا الدهاقين من الفرس بدل الجباة من العرب الذين كانوا «يكسرون الخراج» لقد فعل ذلك عبيد الله بن زياد في العراق وبرر هذا التدبير بقوله : (كنت اذا استعملت العربي يكسر الخراج فإن أغرقت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم)[3] وبرر ذلك بقوله إن العرب يرفضون التنازل عن الخراج كله للخلافة بينما الدهاقين من وجهة نظر عبيد الله بن زياد أجدر بالجباية و أوفى بالأمانة و أوهن بالمطالبة منكم وهذا يتنافى مع حقيقة الأمر.

وبمثل هذا التدبير ضمن الأمويون دخلاً من الخراج كان يكفي لمصاريفهم وعطاءاتهم في العقود الأولى من عصرهم وقد ارتفع ليصل إلى 188 مليون درهم زمن الحجاج سنة 85هـ وبلغ خراج الشام 170مليون درهم[4]، عدا عن الولايات الأخرى.

غير أن «دولة العطاء» التي عرفت بها الدولة الأموية اعتمدت على إرضاء

---

(1) حسن ابراهيم : النظم السياسية، ص241.
(2) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص28.
(3) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج3، ص374.
(4) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج1، ص233. نقلا عن المقريزي، إغاثة الامة بكشف الغمة، طبعة زيادة والشيالي، القاهرة 1940، ص63.

البعض وإسكات البعض وتأجيل معارضة آخرين كما تطلب اللعبة السياسية، مثل بني هاشم وزعماء القبائل وغيرهم وهذا التدبير لم يستطع أن يضمن الاستقرار إلى الابد، وان سخط العامة وهم الضحية والطبقة المسحوقة الذي بدأ يتنامى جعلهم يؤلبون القبائل بعضها على بعض مثل قبائل القيسية واليمانية وهو أمر يولد الأحقاد ويثير الفتن كما أن العطاء نفسه يذكي الضغائن مما ساهم فيما بعد في إنشاء فرق الغُلاة والمضادة لحكم الامويين وسياستهم المالية كما حدث مع سكان المغرب العربي، والخوارج في المشرق والمغرب، وبعض ثورات الشيعة الذين رفضوا العطايا وطريقة توزيعها مما أدى إلى قيام ثورات مسلحة أو إشتعال نار حرب أهلية كأن شيئاً كان ممكنا في كل لحظة وعندما تواجه الدولة مثل هذه الثورات تجد نفسها مضطرة لاخمادها أو الدخول في حرب أهلية فانها سرعان ما تقع في أزمة مالية.

وما إن مات معاوية حتى قامت ثورات انهكت ميزانية الدولة. منها الثورة الزبيرية في الحجاز، وثورة المختار بن ابي عبيد في العراق، والخوارج في اليمامة ثم في فارس وفي المغرب العربي فكانت النتيجة قيام أزمة مالية لم تستطع الدولة مواجهتها إلا بالزيادة في الخراج واللجوء إلى إعادة النظر في نظام الجباية بأكمله، وهكذا أعادوا التنظيم في زمن عبد الملك بن مروان (65هـ/ 684م) حيث بعث الضحاك بن عبد الرحمن الاشعري من يحصي الجماجم، ثم جعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم، وحسب مايكسب العامل سنته كلها، ثم تطرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته، وتطرح أيام الاعياد في السنة كلها، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد اربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً[1].

وكانت أهم التدابير تلك التي اتخذها الحجاج حين قرر إعادة فرض الجزية على المسلمين الجدد وإعادة فرض الخراج على الارض التي كانت خراجية وتحولت إلى أراضي عشرية بانتقالها إلى العرب[2] فهذه التدابير ساعدت الدولة الاموية في مواجهة أزماتها المالية المتكررة في ذلك الوقت.

ولا يمكن تجاهل الازمة المالية التي مرت بالدولة الاموية في زمن عمر بن

---

(1) أبو يوسف: كتاب الخراج، ص23، 24.

(2) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص33.

عبد العزيز (99هـ/ 717م) الذي أراد الرجوع بالضرائب جزية وخراجا إلى الصورة التي كانت في عهد عمر بن الخطاب (13هـ/ 634م) خصوصاً قراره بإسقاط الجزية على من أسلم مما أدى إلى نقص في موارد الدولة على عكس ما اعتادت عليه خزينة بني أمية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فرض الخراج على الأرض سواء كان من يزرعها مسلم أم ذميٌّ مما أثار سخط «العرب» الذين كانوا يمتلكون الأراضي الواسعة بشرائها من أهل الذمة، ولقد حاول الخلفاء الذين جاءوا من بعده تعديل تلك التدابير ورجعوا إلى ما كانوا عليه قبل الأزمة التي أنشأتها تدابير عمر بن عبد العزيز.

توسع بنو أمية في توزيع الأراضي على مشاهير العرب، ومؤيدي سياستهم، وقد وجد العرب خلال الفتوح أشكالاً مختلفة للملكية (فهناك أرض الدولة، وأراضٍ يملكها أشرافها رقبةً، وانتفاعاً، وأراضي المشتركات القروية، وأخرى موقوفةً على الأديرة)[1].

لكن الأمويين غيروا من جوهر العلاقة القائمة بين الفلاح والمالك، وإذ بدأت مرحلة جديدة من تحرير العبيد والفلاحين بعد أن كانوا في بلاد فارس مرتبطين بالارض مجبرين على القيام بأعمال السخرة، وتحولت أراضي الوقف إلى (صوافي) يشرف عليها بيت المال ويتصرف الخليفة في تلك الاراضي كما يناسبه، كما أصبح الفلاح في بلاد فارس مسؤولاً بصورة مباشرة عن ضرائبه في الاراضي العائدة إلى أشراف الدولة[2].

وقد لقيت الاجراءات القاسية التي اتخذها الولاة الامويون في بلاد فارس والعراق بحق الفلاحين وأراضيهم، تعنتاً شديداً من قبل هؤلاء نتيجة إرهاقهم بالضرائب والاستبداد بملكية الأرض، وتسليط الدهاقين عليهم. وما خروج الموالي والعرب، مدعمين بالفقهاء مع أحد الخارجين على الحجاج بن يوسف وهو ابن الأشعث إلا دليل على النقمة من ذلك الاستبداد، يقول ابن عبد ربه[3] كان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديونهم ويفرق

(1) سعد «أحمد صادق» :تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، ص146.
(2) الدوري «عبد العزيز» : مقدمة في تاريخ العراق والاقتصاد، ص23.
(3) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج3، ص316.

جماعتهم حتى لا يتآلفوا أولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالي وقال(أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم،ففرقهم وفض جمعهم كيفما أحب)[1].

لقد كان الفلاحون في العصر الأموي ينوءون تحت وطأة الضرائب وجور الحكم تدل على ذلك الأبيات التي صاغها الشاعر كعب الاشعري[2].

وهذه الظروف التي عاشتها الدولة الاموية ساهمت في نقمة العديد من الفئات الاجتماعية على نظام حكمها وطريقة نظامها الاقتصادي وساهمت في قيام الثورات ضدها بالاضافة إلى تغلغل تنظيمات الدعوة العباسية في هذه الفترة حيث أدت إلى سقوط دولة بني أمية (132هـ/ 750م) وقيام دولة بني العباس(132هـ/ 257م) والتي اتبعت سياسة اقتصادية مخالفة للخلافة الراشدية والدولة الأموية رغم أن الأساس في البداية كان واحداً حيث اعتمدت على زيادة مواردها المالية، فاهتمت بالزراعة والتجارة والصناعة والحرف.

وكان هذا الاعتناء بسبب اتساع الدولة وتضخم أجهزتها وكثرة سكانها مما أدى إلى توسيع مصادر بيت المال (الخزينة العامة) فزاد الاهتمام بتوسيع وسائل الري نتيجة لاهتمامهم بالنظام الزراعي، وتنشيط نظم البستنة، وإنشاء الاسواق، منها سوق العطارين، والقصابين وسوق البزازين، وسوق الرياحين، وسوق الحدادين، وسوق النجارين.

وهذا يدل على مستوى التطور الاقتصادي وتنظيم المدن وتقسيم العمل، وقد نشطت الصناعة في عهد الدولة العباسية حيث بلغت دور الصناعة في بغداد أربعمائة رحى مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف لصنع الخزف[3].

وكان من مظاهر نشاط الحركة الاقتصادية في العصر العباسي تطور وسائل الانتاج، وتطور دور المحتسب[4] الذي كانت مهمته تتلخص في الامر بالمعروف

---

(1) المبرد : الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص96.

(2) كل يوم يحوي قتيبة نهبا ... ويزيد الاموال مالا جديدا
باهل قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغد بالكتائب حتى ... ترك الصغد بالعراء قعودا

(3) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام العصر العباسي الاول، ج2، ص309.

(4) نظام الحسبة أول من وضعه عمر بن الخطاب (13هـ/ 634م) وتولى هو وظيفة المحتسب، وكانت سلطة القاضي بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة =

والنهي عن المنكر في العهد الراشدي ثم تطور عمل المحتسب مع اتساع رقعة الدولة العربية والعباسية. بحيث أصبح يشرف على نظام الاسواق والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق الحركة ومضايقة الناس ثم الاشراف على الموازين والمكاييل حيث أصبح لها دار خاصة، فيطلب المحتسب الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة، ومعهم موازينهم وسيخهم ومكاييلهم فيعايرها، فان وجد فيها خللاً صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمر باصلاحها[1]، فضلاً عن أن المحتسب كان يقوم ببعض مهام شرطة الآداب وموظفي الدولة، وكلمة المحتسب لم تعرف كلفظ إلا في عهد الخليفة العباسي (58هـ/ 775م) المهدي محمد بن عبد الله.

لقد كان للصناعة نصيب كبير من عناية خلفاء العصر العباسي الاول (132-232هـ/ 750-842م) الذين اهتموا باستعمال موارد الثروة المعدنية، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان، وبالقرب من بيروت أيضا، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، وغيرها من المعادن من شمال فارس ومن بلاد الكرج[2].

كما وجه خلفاء العصر العباسي الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة، فنشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطير، وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية، وكان العباسيون يشرفون على إدارتها إشرافاً مباشراً، وعملوا على تحسين زراعتها وتنمية مواردها حتى أصبحت قوية الخصب تكثر بها المزارع والبساتين وكانت تعرف بأرض السواد لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضر.

وقد عني خلفاء العصر العباسي الأول (132-232هـ/ 750-847م) بالزراعة

= بالدين بوجه عام ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانا وكان القضاء والحساب يسندان في بعض الاحيان إلى رجل واحد، فعمل القاضي مبني على التحقيق في الأناة في الحكم، وأما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في العمل / الماوردي : الأحكام السلطانية ص61، 72.

(1) المقريزي : خطط ج1، ص463، 464. ولمزيد من التفاصيل انظر : ابن خلدون : المقدمة، ص196.

(2) حسن ابراهيم : العصر العباسي الاول، ج1، ص308.

وفلاحة البساتين التي قامت على أسس علمية وسار الخلفاء على سياسة اقتصادية حكيمة عكس سياسة الأمويين وكانوا يهدفون إلى عدم إرهاق الفلاحين بالضرائب، وعني بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لانواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الارض، وكانت طريقة المناوبة في الزراعة شائعة فكان الفلاح يزرع نصف الارض، ويترك نصفها الثاني دون زرع لوقت آخر أو للرعي.

وقد الغى أبوجعفر المنصور(136هـ- 185/ 754-775م) الضرائب النقدية المفروضة على بعض المنتجات الحقلية، وأحل محلها نظام المقاسمة وأقطع بعض أعيان دولته قطائع من الارض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة فعمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان، واصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل او الطائفة التي تسكنها: فترى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس، وقطيعة الربيع بن يونس[1] وبعد خلافة المنصور عمم ابنه المهدي النظام الذي أوجده أبوه وشمل به أقاليم أخرى غير العراق.

أما المأمون فقد زاد في ضريبة الارض في العراق وفارس والجزيرة، وصار يجني الخمسين بدل النصف وبهذا صارت الدولة تحصل على مبالغ طائلة[2] وازداد الامر سوءاً حين تولى الاتراك حكم الدولة العباسية حيث كانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال، عدا الهدايا وهو يمثل ما يعرف باسم نظام الاقطاع فالاقلية هي التي تسيطر و الاغلبية هي المعنية والمستعبدة حيث تحولوا إلى عبيد لهذه الاقطاعيات مما أدى إلى تفاوت في ملكية وسائل الانتاج الذي ازداد بانقضاء فترة الخلفاء الاوائل العباسيين في العصر العباسي الاول من (132-232هـ/ 750-847م) ورغم تمتع بعض أفراد «العامة» بنوع من الملكية الخاصة للأرض والماشية والحوانيت فإنهم ظلوا تابعين للملاك الكبار و أصحاب الأموال والوجهاء ممن تحكموا في إنتاجهم الصغير وكان ذلك التناقض يؤدي في كثير من الأحيان إالى التذمر في صفوف «العامة» نتيجة لتصرفات الوزراء والولاة وعمال الخراج، إذ إن هؤلاء تجاوزوا صلاحياتهم فراحوا يثقلون الفلاحين و الحرفيين بالضرائب، الشيء الذي يتنافى مع المبادئ

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج2، ص242، 254.

(2) حسن ابراهيم: العصر العباسي الاول، ج2، ص308.

التي قامت الدولة العباسية من أجلها[1].

وارتبط الوضع الاقتصادي في المنطقة بسياسة الدولة الخاصة إذ إن تصرفات الخلفاء العباسيين كانت تتفاوت بين خليفة وآخر وبين والٍ وآخر، ولقد عبر الشاعر أبو العتاهية عن ذلك في قصيدة إلى الخليفة يشكو له الغلاء ويستعطفه للفقراء والمحتاجين[2]، وغيره كثيرون.

ولم تقتصر عناية خلفاء بني العباس على الزراعة والصناعة بل اهتموا بالتجارة كذلك حيث شهدت نمواً كبيراً نظراً لأهمية الموقع الجغرافي الذي يمتاز به العراق، وقد سيطرت الدولة على معظم الطرق والبحار، وتعاملت مع البلاد المجاورة في التبادل، ويذكر الدوري: حجم الواردات التي كانت تصل إلى مدن الخلافة في فترة القرنين الثالث و الرابع للهجرة قائلاً : «فالذهب و الرقيق تجلب من شرق افريقيا، والرقيق و الفرو و الدروع و السيوف من أوربا الشرقية ومن الترك. . . . الخ»[3]، وقد تكونت طبقة من التجار بالبصرة تحكمت في تداول السلع وفي الأسعار وكان التعامل يتم بالمقايضة وبالنقد في آن واحد.

وهكذا كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب وقد بلغت في أيام الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول: «اذهبي حيث شئت يأتيني خراجك»[4].

إلا أن دخل الدولة العباسية أخذ ينقص شيئاً فشيئاً، حتى أصبح في ق4هـ (العاشر الميلادي) أقل مما كان عليه في عهد هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-

---

(1) الطالبي «محمد نجيب» : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص30.

(2) من مبلغ عني الامام ... نصائحاً متتاليه
إني أرى الأسعا ... ر أسعار الرعية غاليه
وأرى المكاسب نزرة ... وأرى الضرورة فاشيه
انظر: ضيف شوقي : العصر العباسي الاول ص252.

(3) الدوري (عبد العزيز) : مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص61.

(4) القلقشندي : صبح الاعشى، ج3، ص270.

809م) وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلاً ليس له مثيل، فثورة الزنج قامت سنة (249هـ/ 863م) كانت ثورة ضد النظم الاجتماعية والاقتصادية إلا أنها أنهكت قوة الدولة، وأضعفت الجانب العسكري والاقتصادي فيها.

ورغم الطابع السياسي الشيعي الذي حاولت أن تغلف به هذه الثورة انطلاقتها بانتمائها إلى البيت العلوي كسباً للمؤيدين، إلا أن أسبابها الحقيقية هي ثورة الفلاحين على نظم الاقطاع وعلى ملكية العناصر الأجنبية لإقطاعيات واسعة، حيث أصبحوا رقيق الارض وعبيدها، وقد حرم هؤلاء الإقطاعيون من الأتراك والفرس فلاحيهم من كل رعاية وسلبوهم حقوقهم الشرعية وابتعدوا عن مبادئ الإسلام السامية من حرية وإخاء ومساواة والتي نهت عن الاحتكار والاستغلال والإقطاع وكان من أسباب هذه الثورة النفوذ الأجنبي المتمثل في سيطرة الأتراك والفرس على النشاط الاقتصادي واحتكار الموارد الاقتصادية من ضيعات ورقيق، وتسيدوا النظام الطبقي وأشاعوه بين فئات الناس، والذي جاء بسبب ضعف الخلفاء الذين صاروا ألعوبة بيد الخدم. وكان من أسباب هذه الثورة أيضاً ظهور النظم الإقطاعية وما صحبه من مساوئ اقتصادية ومظالم اجتماعية، وانتشار نظام الرق، وظهور التفرقة العنصرية، وانتشار مبادئ الخوارج الديمقراطية الجمهورية، وظهور القرامطة في بلاد العراق.

وتحدث الماوردي عن الإقطاع والمتمثل في نوعين: إقطاع تمليك وإقطاع استغلال[1].

أما إقطاع التمليك: فتنقسم فيه الأرض المقطعة ثلاثة أقسام، أولها أرض الموات، ويقوم من حصل عليها بإحيائها، وثانيا الأرض العامرة، وثالثاً الارض التي يوجد بها المعادن. أما إقطاع الاستغلال: فيستغل صاحب الاقطاع الارض مقابل دفع العشر أو الخراج ولايجوز أن ترث ذريته حق الاستغلال، ويجوز أن يمنح بعض الموظفين وخاصة جباة الخراج إقطاعيات بدلاً من منحهم المرتبات.

وكان الخراج الذي يؤدى من الارض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الخلافة، ويبلغ العشر على ماقرره الفقهاء، وتعود هذه

(1) الماوردي : الاحكام السلطانية، ص181.

الارض المقطعة إلى الخلافة إذا أهملها القائمون بفلاحتها.

أدى ظهور نظام الاقطاع في عصر الدولة العباسية (132-334هـ / 750-945م) إلى ظهور طبقتين اجتماعيتين متميزتين أولهما : تشمل الخليفة ورجال الدولة وأهاليهم وأتباعهم، وهم عدد قليل، وكونوا طبقة أرستقراطية رأسمالية تملك رأس المال وتسيطر عليه، وثانيتهما: تشمل العلماء والادباء والتجار والصناع، وقد عاشت هذه الطبقة في كنف الطبقة الاولى مما دفع بالزنج إلى اعتناق مبادىء الخوارج، وأصبحت دستوراً لثورتهم سواء كانت المبادىء السياسية أوالدينية التي تدعو إلى العودة إلى مبادىء الإسلام الأولى التي تحث على الإخاء والمساواة وانعدم وجودها في العصر العباسي الثاني (232-334هـ/ 847-946م) ونادى الخوارج بالمساواة بين العرب والموالي والارقاء.

والملاحظ هنا أن الصراع العنيف الذي حدث في المجتمع نتيجة لتكدس مثل هذه الثروات النقدية الهائلة[1]، وامتلاك هذه الملكيات الواسعة قد تم على حساب فئات أخرى ونمت الروح الفردية داخل الطبقات الاجتماعية المهيمنة، فاهتزت القواعد الاجتماعية بولادة طبقات اجتماعية جديدة ذات نفوذ اقتصادي في حين تقهقر الانسان البدوي وهمش دوره الاجتماعي، ولم يستطع التكيف مع المحيط الجديد. ولم يحدث هذا الصراع بين العرب من بدو وحضر فحسب بل تجاوزهم إلى العناصر الإسلامية الأخرى حيث سيصبح الصراع الاقتصادي عاملاً مهماً جداً في تغذية الثورات السياسية والاقتصادية ودافعاً مهماً للانخراط في الفرق الإسلامية خاصة بعد أن زادت أهمية التجارة، ومع بداية العصر العباسي الثاني (233-334/ 847-946م) ضعف إشراف الدولة على حركة السلع وتوزيع الأراضي وعلى النشاط الاقتصادي بين الولايات وبين الريف والمدن أو بين المواطنين أنفسهم، ويذكر الصابي[2]. (إن خزينة الدولة في عهد الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) زادت عن خزانة المنصور بعشرة آلاف درهم) ولكن تلك الواردات لم تكن لتصرف في شؤون الدولة وخدماتها، أو في مصالح الناس، وقد ظهر ذلك بشكل

---

(1) محمد الجويلي : نحو دراسة في سوسيولوجية البخل «الصراع الاجتماعي في عصر الجاحظ»، ص28، 30.

(2) الصابى «ابو الحسن هلال»: رسوم دار الخلافة ص30 نقلا عن محمد نجيب ابو طالب :الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص42.

جلي في أواسط العصر العباسي حيث استفحل الترف في طبقة الحكام وكثرت مصاريفهم، بينما استفحل الفقر في صفوف الناس بسبب ارتفاع الضرائب والرسوم المفروضة عليهم، ولعل مقولة هارون الرشيد التي ذكرناها فيما سبق حين نظر إلى السحابة المارة قائلاً: (إذهبي حيث شئت يأتيني خراجك)[1] خير دليل على هيمنة الدولة من الناحية الاقتصادية في عصره.

إن ملكية الأراضي الكبيرة ارتبطت بالارستقراطية العربية ممثلة بوجهاء القبائل وأفراد الاسرة الحاكمة، كما ارتبطت في الجزء الشرقي من الخلافة بطبقة الدهاقين الذين مثلوا الارستقراطية العقارية الفارسية، والقادة والامراء الأتراك والبويهيين فيما بعد.

لقد ظهر في الدولة العباسية ما عرف بالاقطاع العسكري مابين القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس الهجريين ليسود سائر أقاليم العالم الإسلامي وخاصة في المغرب العربي بعد الفتوحات الإسلامية[2]، حيث بدأ بإعطاء الجند وقادتهم بالاخص الحق في التصرف في منتوجات الارض وماعليها وكان ذلك في منتصف القرن الثالث، حينما عمل الخلفاء على توزيع الأرض على العسكريين عند إفلاس خزينة الدولة. إن تلك الإجراءات التي اتبعها الخلفاء بفعل الخوف من خطر الجند عليهم، أدت إلى خراب الارض وضعف مردودها وهروب الفلاحين منها بعد اقتطاعها، تحت تأثير عبث الجند واستبداد قادتهم في فرض الضرائب[3].

وهكذا فقد تميزت المرحلة المدروسة بوجود حالتين رئيسيتين للارض، مرحلة تمتد من تأسيس الدولة العباسية (132هـ/ 750م) وبالتحديد منذ تولي المنصور الخلافة (136هـ/ 754م) وحتى نهاية فترة الرشيد (170هـ/ 786م) وتميزت باشراف الدولة المباشر على الأرض وعرفت ازدهاراً ملحوظاً في الزراعة، انعكس في وفرة الانتاج وكان هناك نظام ثابت لأنواع الخراج بحسب نوعية المحصول وطبيعة المناخ وعملت الدولة على تخفيض الضرائب على الفلاحين من حين لآخر.

(1) محمد نجيب ابو طالب : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص55.
(2) محمود اسماعيل : دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ص15.
(3) محمد نجيب ابو طالب : المرجع نفسه، ص55.

أما المرحلة الثانية فبدأت بغياب الرشيد وصراع الأمين(193-198هـ/ 809-813م) والمأمون (198-218هـ/ 813-833م) وهي مرحلة سيطر فيها الوزراء، وكانت بداية منعطف حاسم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حيث بدأ الصراع بين العرب والموالي (فرس -ترك) يحتد ويظهر في أشكال متعددة تتراوح بين الظهور والخفاء، وساهمت في تحويل اهتمام الدولة بالأرض إلى موارد أخرى احتلت فيها التجارة المرتبة الأولى، فظهر الإقطاع العشري، والإقطاع الإداري وسيطرت الطبقات الجديدة على موارد المال وسياسة الدولة فتضررت الميزانية وأهملت الأرض.

وشهد العصر العباسي الأول (132-232هـ/ 750-847م) ازدهارا اقتصاديا نتيجة لتكدس الثروة بسبب ثقل الضرائب وخصوصاً في العراق، إذ كانت مقسمة على النصف إلى أيام المأمون فأدرك هذا الخليفة العاقل ثقل هذا الخراج، ورأى الثروة فائضة في بيت ماله، والأموال متوفرة، فعمد إلى التخفيف عن الناس، فجعل خراج العراق خمسين[1].

أي أنه أنقصه عشرين في المائة، وهو إسقاط عظيم وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً، واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء، فأبطل الواثق (227هـ/ 842م)أعشار السفن[2]، وكلما جاء خليفة أسقط وخفض الضرائب فضعفت موارد الخراج عما كانت عليه في عصر الرشيد (170-193هـ/ 786-809م)، والمأمون (198-218هـ/ 813-833م) لكن ذلك كله لم يخفف من نقمة الأهالي على الحكم لأنّ هذه الضرائب خارجة عن الاسس الشرعية منذ العصر العباسي لأن الضرائب التي تنص عليها الشريعة هي الجزية والزكاة وخراج الأرض التي افتتحت عنوة، أما خراج الأرض التي يزرعها المسلمون والمكوس والأخماس وما إلى ذلك فكلها مستحدثة اجتهد الفقهاء في تأييدها بإسناد من الشرع تقرباً إلى أصحاب السلطان[3].

ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة اضطرار الأهالي

(1) الفخري ص198؛ ابن الاثير ص147؛ الطبري ج3، ص139.
(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج3، ص1363.
(3) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، ص 121.

إلى إسناد ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال إحتماءً بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض اولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه بإسمه، فلا يجرؤ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدوّن ذلك في دفاتر الدولة فتصبح تلك الضيعة بتوالى الأعوام ملكاً للملجوء اليه[1]. هذا فضلاً عن أن الضرائب كانت لاتطال أملاك أولئك الذين تستدعي سياسة الخليفة استرضاءهم خشية أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم لأن الخلافة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم من شعراء ووجهاء، وكان أول من فعل ذلك من الخلفاء معاوية بن ابي سفيان (41 -60هـ/ 661-671م) وسار الخلفاء من بعده على نفس خطواته وفرضوا الأعطية لرؤساء الأحزاب من بني هاشم و الطالبيين ونحوهم، وصار الخلفاء يهبون الأموال لمن يخافونهم على سلطانهم. وكان الوزراء يزدادون نفوذاً أو استئثاراً بالأموال كلما ازداد ضعف الخلفاء حتى صارت معظم الأموال اليهم وتكون مجتمع طبقي في عهد الدولة الأموية (31-132هـ/ 661-750م) ومجتمع طبقي إقطاعي في عهد الدولة العباسية (132هـ656/ 1257-754 م) منذ عصرها الثاني الذي عرف بالعصر التركي (232- 334هـ/ 847 ـ 946 م) والعصر الثالث أو العصر البويهي (334-447هـ/ 946ـ-1055م) إلى أن سقطت الخلافة العباسية (656هـ/ 1257م) وعندها تجزأت الدولة العربية وأصبحت حدودها غير حدود الإسلام[2].

كانت الدولة الأموية تعيش تطابقاً جغرافياً مع النفوذ السياسي والديني، وكانت الدولة العباسية تحكم بهذه الطريقة في عهدها الاول، غير أن العبث الذي مارسه الخلفاء والقادة والولاة في الشؤون الاقتصادية زاد في وجود تمايز في الوضع الاجتماعي و الاقتصادي مما جعل الفِرق السياسية تستغل هذا الأمر في إثارة الفوضى والاضطرابات، ثم السماح بتدخل الموالي في شؤون الحكم والقيام بمواجهات عسكرية ضد الخلافة رافعين شعار الدفاع عن حقوق الفلاحين والصناع والفقراء المهضومة بينما هم كانوا يهدفون إلى الانفصال و الاستقلال عن سلطة

---

(1) ابن خلدون : المقدمة، ج 1، ص 308.

(2) طيب تيزيني : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي، ص 183.

الخلافة المركزية، ومن أهم هذه الحركات حركة القرامطة، وحركة الزنج هذه الحركات التي ربما كانت لها أسبابها في النهوض مقبولة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا إنها استغلت حتى الحد الاقصى بعد ذلك و تحولت إلى حركة إقطاعية إنفصالية شعوبية[1] استغلت الدين وأنشأت فرقاً دينية مغالية تنادي بالمساواة والعدالة وهذا أدى إلى تغيير مستمر في الأسر الحاكمة في بغداد وإلى ضعفها ووقوعها في يد الأتراك (232- 334 هـ/ 847 -946 م) والبويهيين (334-443 هـ/ 946 -1055م) يتصرفون بها كيفما شاءوا إذ أصبح اسم الخلافة عربياً، فيما كان زمام الأمور في قبضة الأعاجم، وقد وجد أنصار حركتي الشعوبية والزندقة فرصة في هذه الأوضاع السياسية و الاقتصادية فأحسنوا استغلالها وأجادوا في زرع أولى بذرات الشعوبية والزندقة كما سيتضح بعد حين والعصبية العربية في بداياتها الأولى وستكون البذرة التي تولاها الشعوبيون بالرعاية لاستخدامها في الوقت المناسب كما سنرى فيما بعد. . . ؟

(1) طيب تيزيني :المرجع نفسه، ص189.

المبحث الثاني

ظهور العصبية وأثرها في بنية المجتمع الإسلامي

تعتبر الجزيرة العربية الموطن الأصلي للهجرات العربية التي انطلقت منها إلى بلاد الرافدين ووادي النيل وشمال أفريقيا ومنها نشأت في مواطنها الجديدة حضارة عربية مميزة تستمد أصولها من الخبرة الحضارية المتراكمة في موطنها الأول وبقيت لغات من خرج من الجزيرة ومن بقي فيها مماثلة الأصول متقاربة[1] وقد أشار المسعودي[2] «إلى وحدة الأصول و اللغة» حيث أكد أن أمة واحدة سكنت العراق والشام والجزيرة الفراتية والجزيرة العربية، وأن الشعوب الآشورية و البابلية والآرامية العربية هي فروع أمة واحدة (الكلدانية) وأن لسانها كان واحداً وأن اللغات تفرعت عنها وأن العربية من أقربها إلى الأصل.

وحين ينظر إلى تكوين الأمة العربية في التاريخ يلاحظ أن جل الشعوب التي تتكلم لغة «العرب» تعربت ودخلت في تكوين الأمة بصورة طبيعية وامتزج تراثها الحضاري ودخل في تكوين الحضارة العربية وهذا ما جعل الدوري : يطلق عليها «الشعوب العروبية»[3] وقد تأثر مناخ الجزيرة العربية وحياة أهلها بعدة مؤثرات في مقدمتها الأثر الجغرافي وموقع الجزيرة على طرق التجارة العالمية بين الشرق

---

(1) الدوري : التكوين التاريخي للامة العربية، ص16.

(2) المسعودي : التنبيه والإشراف. تحقيق دي غوية، ص75،76.

(3) الدوري : المصدر نفسه، ص10. انظر فصل المصطلحات خاصة بعد أن وردت كلمة عربي في القرآن الكريم نسبة إلى اللغة العربية في آيات عدة منها سورة الشعراء الآية 165، سورة النمل الآية 103، سورة طه الآية 113، سورة فصلت الآية 3، سورة يوسف الآية 8، سورة الأحقاف الآية 12.

الأقصى والبحر الأبيض المتوسط، وكانت المنطقة المستقرة هي في الأطراف الشمالية أو في الجنوب الغربي بسبب سقوط الأمطار، أما الوسط و الأقسام الداخلية في الجزيرة فهي مناطق قاحلة، تتخللها الوديان و الينابيع، حيث تعيش القبائل أو تنتقل في البوادي، ولكن الحياة البدوية أو شبه البدوية للرعاة أصحاب الماشية أو الجمال، فقد سادت في السهوب و البوادي، هذا بالإضافة إلى نشاط البعض في التجارة في بعض المدن و المراكز.

ومن هنا كانت القبيلة هي الوحدة الكبرى وهي وحدة اجتماعية سياسية، بينما كانت العشيرة هي الوحدة الطبيعية المتماسكة في البادية، وقد تدعو ظروف طبيعية (مثل الجفاف) إلى الغزو وتكوين تحالفات أكبر من عدة جماعات أو قبائل، وهكذا فالجزيرة كانت تسكنها وحدات قبلية تتجزأ أو تتحالف مع غيرها باستمرار وحسب الحاجة.

وتقوم القبائل على فكرة النسب المشترك، وهي محور التماسك القبلي والعصبية القبلية، وكان الشعور بأصول مشتركة لدى القبائل قائماً ولا تنفك أواصره إلا إذا وقع الصراع على الماء والمرعى وهكذا كانت القبيلة، وبصورة أدق العشيرة، هي الوحدة الاجتماعية والسياسية في المجتمعات البدوية ولها مجلسها القبلي وشيخ يأتي بالاختيار، ولها عصبية تشدها وتقوم على أساس من النسب و إذا كانت العصبية تحكم حياة المجتمع العربي في الجاهلية الأولى، فبقدر عراقة النسب كان يتحدد الوضع الاجتماعي للفرد. ومع بزوغ فجر الإسلام حدثت ثورة اجتماعية كبرى فإلى جانب أن الإسلام كان ثورة دينية عقائدية فقد أطاحت مبادِئه في المساواة بقيم المجتمع الجاهلي التقليدية ومن بينها التعصب للقبيلة أو العنصر، وحرر الفرد من قيود التبعية العمياء للقبيلة، كما حرر العبيد من وصاية أسيادهم، و أقام أسساً جديدة للمفاضلة بين المسلم والمسلم الآخر على أساس «التقوى» لا على أساس العرق و النسب كما كان سائداً من قبل. وقد حارب الرسول نزعات الجاهلية التي كانت تظهر بين الحين و الآخر في سلوك بعض الذين لم يتأصل الإسلام في قلوبهم ممن أسلموا بعد فتح مكة ومات عليه السلام وهو مطمئن إلى نجاحه في كبح جماح تلك النزعات وخير دليل على ذلك ما جاء في خطبة الوداع: «أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالأباء.. . » لكن تلك النخوة الجاهلية برزت من جديد على اثر وفاته (ص)

ممثلة في حركة الردة التي نجح أبو بكر الصديق في القضاء عليها ولم تظهر مرة أخرى إلا في خلافة عثمان بن عفان (23 ـ 644) ثم تدرج الأمر من عهد إلى عهد حتى أدى في نهاية الأمر إلى سقوط الخلافة العباسية. وأما موضوع العطايا الذي أثار زوبعة من الانتقادات من قبل المعارضين العرب على طريقة التقسيم، فإننا نجد أن هذا يرجع في جذوره إلى حروب الردة حيث منع أبو بكر الصديق القبائل المرتدة من المشاركة مع جيش المسلمين في عمليات الفتح بقصد، مما عمق النزعة القبلية حيث كان «الفاتحون» هم قريش أساساً، أما الباقي وهم «العرب» الآخرون فقد كانوا أقل مرتبة من قريش هذا المنع قصد منه الخليفة تأديب المرتدين عن الدين ولأنه لا يثق بعد في إيمانهم بعد هذه الردة. لقد خلقت هذه السياسة الأحقاد في نفوس «العرب» ضد قريش، وبقي الخليفة يتوجس خيفة من الغدر على «حكم قريش» في أية لحظة وهذا الموضوع يتناوله الذهبي بالتفصيل[1] لهذا ارتأى عمر بن الخطاب(13هـ/ 634م)بعد توليته الخلافة تجنيد جميع «العرب» من قريش أو غيرها على قدم المساواة وتوجيه الجميع لفتح فارس وإمبراطورية الروم حيث قال عمر : «لا ملك على عربي»[2] وهكذا ندب أهل الردة للفتح فأقبلوا مسرعين تكفيراً لهم عن ذنوبهم وخطاياهم لعل الله يقبل توبتهم وبذلك قتل فيهم عمر نزعة الحقد والقبلية التي في نفوسهم أثناء خلافة أبي بكر الصديق.

وهكذا حدث في موقعة القادسية (15هـ/ 636م)حيث جمع عمر بن الخطاب العرب في وحدة واحدة مقاتلة قائمة على نظام القبيلة حيث يتم إحصاء القبيلة المجندة ويتم ضم القبائل الصغيرة بعضها إلى بعض على أساس القرابة في النسب أو الحلف وبالتالي إنشاء مجموعات قبلية كبرى ويقسمها إلى قسمين قسم يبعث به إلى الشام وقسم إلى العراق. لقد تناست القبائل العربية عصبيتها وعداوتها أمام عدوها المشترك، ولكن ما كاد هذا العدو يتلاشى حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من عداء وتعصب.

لقد أثبتت هذه القبائل أن الإسلام على فرط ما حارب العصبية القبلية، فانه لم يقض عليها ولم يمحها من نفوس أصحابها، رغم دعوة الرسول عليه السلام

---

(1) الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام "عهد الخلفاء "، ص32.
(2) الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، ج2، ص 304 –305.

حيث قال: «من قاتل تحت راية عمية بغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل مثل قتلة جاهلية».

وقد برز هذا الأمر جلياً في إشكالية ديوان العطاء التي اتبعها عمر ظناً منه أنه العدل وهذا ما كان حقيقة في بادئ الأمر قبل أن تتسع الفتوحات وتزداد الثروات حيث لاحظ عمر بن الخطاب حدوث تفاوت في الثراء خاصة بعد أن خالف عمر سنة أبي بكر في التسوية في توزيع العطاء. وميز بين المسلمين بعضهم بعضاً وقد ندم في أواخر أيامه على ذلك بعد أن رأى أن ترتيب الناس في العطاء حسب القرابة من الرسول والسابقة في الإسلام فكان لابد من أن يؤدي إلى تكدس الثروة في أيدي مجموعة معينة وبالتالي سيؤدي إلى فوارق كبيرة بين المسلمين في الثروة، فوارق تتسع باتساع حجم الغنائم والخراج.

وقد نسب إلى عمر أنه قال في آخر سنيه: أني كنت تألفت الناس بما صنعت في تفضيل بعض على بعض، وإن عشت هذه السنة ساويت بين الناس وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر الصديق[1] وما قيامه فيما بعد بالحجر على سادة قريش وأشرافها مانعا لهم وحادا لأطماعهم و مطامحهم وكبح جماح بني جلدته[2] وبني عدي ووبخهم أنزلهم منزلتهم في ديوان العطاء بل قال: " ما أحد أحق بالمال إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم»[3].

إذن لم تكن للعصبية أدنى أثر في المفاضلة بين المسلمين في سياسة عمر وحاول قدر المستطاع أن يستدرك الأمر إلا أن وفاته (40ق. هـ-23هـ / 584-644م) سبقت تسوية الأمور فاستفحلت بذرة العصبية وعادت النعرة القبلية بشكل واضح عند تولي عثمان الخلافة وثبت قريش على السلطة واستأثرت بها[4].

فقد سيطرت فروعها «بطونها» المتنقلة على الوضع في الشام والعراق، اللذين سيصبحان طرفا التجاذب والصراع على السلطة منذ الثورة على عثمان حتى

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص107؛ الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص452.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ج4،ص210 ذكر الطبري أن عمر زجرهم بقوله: «بخ بخ بابني عدي أردتم الأكل على ظهري. . . ".

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج4، ص211.

(4) الدينوري : الإمامة والسياسة، ج1، ص44.

سقوط الدولة الاموية (127-132هـ/ 744-750م) وكان أكثر ما دان به عهد عثمان هو الارتهان لعشيرته الأموية وتعصبه لأهل قبيلته بمنحهم المناصب والولايات والاستئثار بالثروات دون باقي المسلمين[1]. ويبدو أن ما أثار الاشتر وجماعته، ليس مجرد احتجاج عفوي بل تسلط الاقلية القرشية على تلك القبائل الكبيرة التي استقرت في الكوفة حيث قال (ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا صار بستاناً لك ولقومك)[2] وهو إحتجاج شرعي، وفيه مخاوف من هيمنة بني أمية على الثروات التي تأتي بها سيوف الفاتحين ويقصد بذلك سعيد بن العاص الاموي عامل عثمان على الكوفة التي تعتبر أكبر تجمع للقبائل اليمنية في العراق[3]. وهكذا كانت انتفاضة الكوفة مجسدة للواقع الذي آلت إليه العلاقة بين «المدينة» ومراكز التجمعات القبلية الجديدة في الأمصار خاصة بعد إبطال القاعدة الإسلامية القائمة على المساواة والتكافؤ في الفرص التي التزم بها نسبياً جناح المهاجرين في عهدي ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وتبني القاعدة القبلية التي تحمس لها الجناح المكي الذي أعلن الإسلام بعد فتح مكة والذي وجد في الخليفة عثمان وعهده فرصة لإحياء هذه النزعة القبلية التي تبناها المفهوم الاموي وكان الصراع قوياً بين القبائل اليمنية والقحطانية منذ أيام الجاهلية الاولى وكان اليمنيون أقرب إلى بني هاشم إذ كان عدد من رجال بني هاشم قد تزوجوا من قبائل يمنية خاصة بعد الإسلام حيث تزوج النبي من أخت الأشعث بن قيس ومثل هذه المصاهرة لايمكن أن تكون خالية من خلفية سياسية بالإضافة إلى الأحلاف، فحلف الفضول الذي ترتب عن نجدة بني النجار من أهل يثرب لابن أختهم عبد المطلب بن هاشم في نزاعه مع عمه وأخيراً انضمام قبيلة خزاعة اليمنية إلى جانب النبي (ص) ضد بني بكر وحليفتهم قريش بموجب عقد صلح الحديبية[4]. كما أوضحت لنا بعض الأحداث التاريخية صدق هذا الإستنتاج فعندما أرسل النبي خالد بن الوليد في السنة العاشرة للهجرة إلى أهل اليمن يدعوهم للإسلام لم يستجيبوا معه[5] إلى

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج5، 93؛ المسعودي : مروج الذهب، ج2، ص337.
(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص173.
(3) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص147.
(4) الطبري : المصدر نفسه، ج2، ص197.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ج2، ص197.

شيء فبعث النبي ﷺ علي بن ابي طالب وأمره أن يقفل خالد ومن معه فلما انتهى علي إلى أوائل اليمن «بلغ القوم الخبر» فجمعوا له فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

ولنا هنا أن نتساءل عن سبب رفض أهل اليمن الإستجابة لإمامة خالد بن الوليد مدة ستة أشهر، بينما استجابوا بسرعة لعلي بن أبي طالب، ويبدو أن نسب خالد بن الوليد وانتسابه لبني مخزوم التي كانت تتزعم هي وبنو أمية قريشا في الجاهلية لا ترقى إلى نسب علي بن أبي طالب ﷺ فهو من بني هاشم الذين تربطهم باليمن علاقة الخؤولة زد على ذلك العلاقة الاقتصادية القوية هذا فضلاً عن قرابته للنبي ورفضهم لخالد بن الوليد معناه رفضهم لتبعيتهم لقريش والاستجابة لعلي معناه الانضمام إلى بني هاشم ضد بني أمية. وقد بقي أهل اليمن مع الهاشميين، سواء في اليمن ذاتها أو في الكوفة التي سكنتها كثير من القبائل اليمنية بعد فتح العراق. وما انتقال علي إلى الكوفة وجعلها عاصمة لخلافته وتركه «المدينة» مع أهميتها التاريخية والدينية إلا دليل حرصه على التقرب من القبائل الموالية له وقد أجاب عن رحيله إلى الكوفة بقوله: (إن الاموال والرجال بالعراق.)[1] حيث أنصاره وهم من اليمن في معظمهم. أما الواقعة الثانية فتتعلق بخروج الحسين من مكة إلى الكوفة بعد بيعة يزيد بن معاوية حيث نصحه عبد الله بن عباس قائلاً: (إن أبيت إلا محاربة هذا الجبار (يزيد) وكرهت المقام في مكة فأشخص إلى اليمن فإنها في عزلة ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبثَّ دعاتك)[2] نعتقد أن هذه العلاقة القوية بين بني هاشم واليمن كانت تربطها علاقة القبيلة في إطار العصبية. ولما بنيت المدن في الأمصار، كالبصرة، والفسطاط، والقيروان، ووضعت أسس العصبية في نفس الوقت الذي وضعت فيه أسس المدن الجديدة. وأصبح لكل قبيلة مكان خاص بها في المسجد وطغت الروح القبلية[3] وبذلك حرفت الحكمة التي أرادها الإسلام من وراء بناء المساجد، حيث يتساوى جميع المسلمين في الوقوف بين يدي خالقهم واصبح

---

(1) الدينوري :الاخبار الطوال، ص145.
(2) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص64.
(3) البلاذري :فتوح البلدان، ص289.

لكل من القيسية واليمنية جزء في كل مدينة[1]. وهكذا غلب طابع الحياة الجاهلية على الحياة في البصرة والكوفة وساعد على التمرد والعصيان، فلم يتم للعرب فيها اندماج تام بجعلهم ينسون حياة العصبية القديمة بل استمر سكانها يشعرون بانتمائهم القبلي وإن عاشوا في المدن وخدمهم الأعاجم[2]. وأصبحت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الطبيعية وتعصب كل قوم من الموالي للقبيلة التي حالفوها من العرب. كانت القبائل العربية ترى أنها دخلت في الإسلام كما دخلت قريش وهاجرت كما هاجرت، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة رغم أن أعباء الفتوح وقعت على عاتق القبائل الأخرى، وقد تغلب العنصر الأموي القرشي منذ عهد عثمان واستفحل أمر العصبية القبلية في الأمصار وبرزت بيوتات شرف أخرى لا تقل مجداً عن البيت الأموي، مثل بيت قيس وبيت تميم وبني شيبان وبني كندة[3].

وضاقت الرعية ذرعاً من طاعة قريش واتهموها بالظلم وطالبوا بالمساواة بين جميع القبائل. وبعد أن كانت العصبية القبلية في عهد عثمان بين قريش والقبائل العربية الاخرى وخاصة فرع بني أمية أصبحت هذه العصبية فيما بعد في عهد علي بن ابي طالب بين فرعي قريش الكبيرين بني هاشم وبني أمية وانقسمت القبائل بين مؤيد لأحد هذين الفرعين ومعارض. فقد ثار معاوية على علي بن ابي طالب متظاهراً بطلب الثأر لعثمان رأس البيت الاموي، وهو في حقيقة الامر يريد أن يحتفظ بالسلطة والخلافة في البيت الأموي، بينما يعتقد علي بن ابي طالب أن الخلافة من حق بني هاشم وهم آل الرسول وأحق بها. وقد تمثلت العصبية في صورة حقيقية لها في واقعة صفين سنة 37هـ / 657م حيث يروي الطبري أن علياً كان يسأل عن أسماء قبائل العراق ثم يضع كل قبيلة في مواجهة قبيلتها من قبائل الشام «وأمر كل قبيلة من أهل العراق أن تكفيه أختها من أهل الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها إلى قبيلة أخرى بالشام ليس منها بالعراق أحد»[4].

(1) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب، ص167.

(2) البلاذري :فتوح البلدان، ص289.

(3) الاصفهاني : الاغاني، ج17، ص105.

(4) الطبري : تاريخ الطبري، ج6، ص8.

العصبية العربية في خلافة بني أمية وخلافة بني العباس

لقد بدأت موجة قوية من العصبية القبلية في أوائل العصر الاموي، فكانت تولية معاوية بن سفيان الخلافة انتصاراً لبني أمية على بني هاشم فثارت العصبية من جديد واعتمد معاوية على اليمنيين، دون المضريين فتزوج من قبيلة كلب اليمنية في الشام وانجب منها يزيد ولهذا ارتفع شأن كلب في خلافة يزيد (60هـ/ 681م) مما أثار الغيرة والحقد في قلوب قيس وهي من مضر. كذلك اشتد الخلاف بين بني قيس و تغلب فقد كانت تغلب تدين بالولاء لمروان بن الحكم بينما وقفت قيس دائماً موقف المعارض لبني أمية. وإلى جانب العصبية القبلية كانت هناك عصبية المدن، فكان عرب كل مدينة ومواليها يتعصبون لمدينتهم بما تحفل به مدينتهم من خيرات، وبمن يقيم فيها من الصحابة والعلماء والفقهاء[1]. وبدأت عصبية المدن تبرز منذ تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط وكان الصراع منذ عهد عمر بن الخطاب (13هـ/ 634م) حول الفتوح والفيء والخراج ثم العصبية والاقليمية، فقد تعصب كل إقليم عربي على الاخر ففي عهد معاوية كانت الحجاز سنية وترفض الخضوع السياسي للدولة الاموية ولجأ إليها كل أقطاب المعارضة أبناء الصحابة، بينما كانت الجزيرة خارجية المذهب وترفض شرعية حكم بني أمية بينما الشام كانت سنية أموية الولاء سياسياً. وهذا الامر نستطيع أن نعلله بقولنا إن المرحلة التي كانت تعيشها الامة الإسلامية بسبب الصراع على السلطة هو الذي فرض هذه التقسيمات القبلية وزاد من حدة العصبية[2] حفاظاً على سلطتهم وحكمهم، وكما قال ابن خلدون: (فلايزال الملك ملجأ في الامة إلا أن تنكسر ثورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها.)[3] وهذا ما حدث في الدولة الاموية فعلاً(41-132هـ/ 661-750م) حيث اتسعت رقعة الدولة العربية الإسلامية ولم يكن ذلك لينسجم مع جوهر السياسة الاموية القائمة على الرابطة القبلية، وفي سنة 67هـ عانت الدولة العربية الإسلامية من صراع قوى مبني على العصبية ألهبت نيرانها وفاة يزيد بن معاوية سنة 64هـ وتنازل ابنه معاوية الثاني عن الخلافة، التي لم يمكث فيها سوى أربعين يوماً تاركاً الامر «شورى بين الناس» معتبراً بني أمية مغتصبين لحق

---

(1) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص198.

(2) ابن خلدون : المقدمة، ص230.

(3) العصبية : انظر فصل المصطلحات، ص278.

آل هاشم مما أدى إلى نهايته، واضطرب أمر بني أمية، وتفكك التحالف القبلي الذي قام عليه ملكهم فمالت قيس إلى عبدالله بن الزبير الذي كان قد ثار على يزيد في مكة سنة 63هـ مستندا إلى عصبية الحجازيين من قريش ضد الامويين، وانقسمت اليمانية خاصة بني كلب: فريق يرشح خالد بن يزيد وكان شاباً، وفريق يدعو إلى مروان بن الحكم، وقد حسم الخلاف في نهاية الامر لصالح مروان في مؤتمر «الجابية» الذي اجتمع فيه بنو أمية وأنصارهم واتفقوا على مبايعة مروان سنة 64هـ/ 684م، ولم تكن العصبية في منطقة الشام وحدها بل إن عصبية الحجازيين وقفت ضد عصبية أهل الشام بقيادة الزبير بن العوام.

كان من أشهر المتنافسين على السلطة في العراق المختار الثقفي وهو من كبار أشراف العرب وحفيد مسعود الثقفي عظيم الطائف في الجاهلية، وثقيف حليفة قريش وهي من هوازن أقوى قبائل قيس، وقد اعتمد في مطالبته بدعوى أنه من «أنصار آل البيت» وأنه جاء من أجل نصرة المظلومين والضعفاء، فاعتمد في جيشه على الموالي والضعفاء من العرب الامر الذي جعل أشراف العرب القاطنين بالكوفة من غير الشيعة يرفضون ذلك ويعتبرون مساواتهم مع الموالي إهانة لهم فاستنجدوا بمصعب بن الزبير الذي كان والياً على البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير إذ دخل معه في معارك كان نتيجتها مقتل المختار سنة 67هـ/ 686م[1].

لقد أعادت معركة «مرج راهط»[2] في ذي القعدة سنة (64هـ/ 684م) بين القيسية بزعامة الضحاك[3] وبين الامويين بقيادة مروان بن الحكم للصراعات العربية الضغائن والعصبية. حتى إن العداء بين القيسية واليمنية قد أذكاه بعض خلفاء بني أمية اللاحقين واستمر إلى سقوطها، ففي عهد عبد الملك بن مروان (65-86هـ/ 685-705م) كان الشام يغلي بالعصبية من جراء موقعة «مرج راهط» وزادها تأججاً قصائد الشعراء، فكان اليمانية يفاخرون بانتصارهم فيها[4] والقيسية يبكون على قتلاهم[5].

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج3، ص437.

(2) عن مرج راهط، انظر معجم البلدان، ج3، ص217.

(3) المسعودي : مروج الذهب ج3، ص95 الضحاك هو زعيم المضرية النزارية وتعرف أيضاً بالقيسية، انظر الصراع عند الطبري ج7، ص37.

(4) المسعودي : التنبيه والاشراف، ص301.

(5) الاصفهاني: الاغاني ج18، ص112. انظر قول زفر بن الحارث:

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ويترك قتلى راهط هي ما هيا

بدأت القيسية بالهجوم على القبائل اليمانية في البوادي والحواضر على السواء[1] ولم تكن هذه المعارك من أجل تولية خليفة كما حدث في مرج راهط وانما كانت حرب انتقام وثأر[2]، ولقد حاول عبد الملك التخفيف من حدة العصبية بين اليمانية وقيس رغم أنه في أول خلافته قد حارب القيسية بكلب، ورمى قرقيسيا-مركز تجمعهم بالمجانيق[3] وبعد ذلك صالح زفر بن الحارث- زعيم القيسية حيث قربه هو وأبناءه واصبحت القيسية قسماً في جيشه[4]. وبذل لهم العطاء ولم يستمر هذا الامر طويلاً فما أن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة سنة (101-105هـ/ 721-724م)[5]. حتى سار في سياسته الداخلية في إثارة روح العصبية بين اليمانية والمضرية مما جعلها تنخر في عظام الخلافة الاموية إلى أن قضيت عليها. والحق أنه منذ أن صالح عبد الملك المضرية زاد نفوذها، ولاسيما أن الحجاج مضري وكان يسيطر على الدولة في عهدي عبد الملك، والوليد ولكن قوة الخليفتين جعلتهما يمسكان العصا من وسطها ولما جاء سليمان حافظ على اتّباع سياسة التوازن بين القبيلتين ولكن يزيد الذي كان متزوجاً ببنت أخي الحجاج[6] حيث أعلن انضمامه صراحة للمضرية وجعلها تستأثر بعطف الخلافة الاموية على حساب باقي القبائل العربية وأنقص يزيد عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية مما أدى إلى حدوث اضطراب في الشام نفسها[7]. ثارت قضاعة القبيلة اليمنية لاول مرة ضد الحكم الاموي حيث كانوا وقتئذ أكثر جند الشام بسبب كرههم للوليد بن يزيد (125-126هـ/ 743م) وحرضوا ابن عمه يزيد ابن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه[8] حيث تم ذبحه (126/ 744م) ولكن اعتماد يزيد على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد فتنة القيسية في أماكن

---

(1) البلاذري : أنساب الاشراف، ج5، ص178.
(2) الاصفهاني : الاغاني، ج17، ص112.
(3) البلاذري : المصدر نفسه، ج5، ص314.
(4) البلاذري : المصدر نفسه، ج5، ص314.
(5) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص157.
(6) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص66.
(7) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج2، ص14، 18.
(8) البلاذري : الكامل في التاريخ، ج4، ص265.

متعددة في الشام، خاصة وأن أهل حمص من القيسية لم يرضوا ببيعة يزيد بعد مقتل الوليد مما جعله يطاردهم ويحاربهم ويهزمهم ويأخذ البيعة منهم عنوة. عندما تولى مروان بن محمد بن مروان (127-144هـ/ 132-750م) الخلافة وحبس يزيد ولكنه هرب مع عدد كبير من اليمانية بيد أن مروان قابل هذا الجيش عند عين الجرة «بعنجر» بين بعلبك ودمشق وهزمه في معركة قاسية دامت أياماً، فهرب سليمان، وعدد كبير من اليمانية إلى دمشق[1]. بعد هذه الهزيمة أسرعت اليمانية بقتل ولدي الوليد «الحكم وعثمان»[2] ولكن مروان دخل دمشق وأخمد فتنتها وبايع أهل دمشق لمروان بالخلافة (127هـ/ 744م) ورغم ذلك لم يأمن على نفسه الاقامة في دمشق لكثرة اليمانية، فانتقل إلى حران قصبة ديار مصر[3] وقد لازم التطاحن على منصب الخلافة صراع شديد بين المضرية واليمانية، وبخاصة أن هذه الأخيرة رأت في تولية مروان للخلافة انتصاراً للمضرية عليها، هذا الصراع امتد حيث توجد المضرية واليمانية في جميع أجزاء الخلافة العربية بجناحيها الشرقي والغربي. ففي الشام نفسها، ثارت الكلبية في حمص وما يجاورها بعد انتقال مروان إلى حران فأرسل مروان جيشاً إلى الغوطة لقتل يزيد بن خالد الذي ثار بها، وأرسل جيشاً آخر إلى فلسطين أنهى فتنتها[4] كذلك كان العراق نفسه يتأرجح بالعصبية والفتن، فلما بويع ليزيد بن الوليد تحرك أحد العلويين يدعو لنفسه وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب والذي كان جده عند معاوية عندما ولد فطلب منه الخليفة معاوية أن يسميه باسمه[5] منتهزاً اضطراب أحوال البيت الاموي، وداعياً أهل الكوفة إلى بيعته في سنة (127هـ/ 744م) فاجتمع إليه نفر منهم وإن اعتزله أغلبهم لكثرة من قتل منهم في الفتنة فأرسل إليه مروان جيشاً قوياً اضطره للهرب إلى خراسان، طمعاً في تأييد شخص اسمه أبو مسلم كان يدعو إلى الرضا من آل محمد : ثم ظهر في الجزيرة «الشراة» الذين تزعمهم الضحاك بن قيس الشيباني[6] إذ زحف بأنصاره إلى العراق في

---

(1) البلاذري : المصدر نفسه، ج4، ص383 عن عين الجرة انظر معجم البلدان، ج6، ص254.
(2) الطبري : المصدر نفسه، ج2، ص879.
(3) عن حران، انظر معجم البلدان، ج3، ص241، 242.
(4) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين، ص118.
(5) البلاذري : الكامل في التاريخ، ج4، ص287، 288.
(6) البلاذري : المصدر نفسه، ج4، ص285.

(127هـ/ 745م) واستطاع الاستيلاء على الكوفة، ومد نفوذه حتى أطراف الجزيرة في الموصل التي سقطت في يديه، وطرد عامل مروان منها[1] ولكن مروان أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة الازدي بعد أن عينه والياً على العراق (178هـ/ 746م)[2] فحارب عامل مروان الجديد خوارج الضحاك بن قيس بالكوفة وهزمهم، ثم اجتمع الخوارج في البصرة فهزمهم أيضاً.

أما في الجزيرة فقد التقى مروان بالضحاك في نصيبين وقتله في (128هـ/ 747م)[3] وجاء الخوارج بابن الخيبري خلفاً له في زعامتهم وتمكن من هزيمة جند مروان إلى أن قتل على غرة حسب قول البلاذري، فتزعم بعده شيبان الحروري، فقاتله مروان وهزمه فهرب إلى بلاد فارس ثم عمان حتى قتل هناك في (134هـ/ 751م)[4].

وفي خراسان وقعت العصبية بين المضرية واليمانية، وخصوصاً أنها كانت بلاداً ثغرية أتتها قبائل عربية عديدة، مثل: اليمانية، من الازد التي انتقلت من عمان على يد المهلب وابنه يزيد[5] وقبائل مضر وربيعة من الجزيرة وكان الصراع بينهم قوياً بسبب تحيز الخلفاء والقادة لقبيلة دون الاخرى وبخاصة تعصبهم ضد اليمانية مما جعل اليمانية تقرر أن يكون السيف وحده بينها وبين المضرية التي انضمت إلى نصر بن سيار وهو قائد الثغور مما جعل الكرماني زعيم اليمانية واسمه جديع بن علي الازدي يرسل اليه كتاباً يناديه بالقتال فنادى مضر في جنوده، فعسكر في ناحية من الصحراء وحفر خندقا وفعل الكرماني ذلك وخندق، وسمي المكان لذلك بالخندقين فمكثوا عشرين شهرا ينهض بعضهم إلى بعض كل يوم يتقاتلون[6] إلى أن دهمها أنصار الدولة العباسية.

والحق أن التعصب القومي في العصر الأموي جعل العروبة محل تقديس وتفوق في أذهان الناس، ويبدو أن هذا الانتماء كان ضرورياً من أجل توطيد

---

(1) البلاذري: المصدر نفسه، ج4، ص295.
(2) ابن خلكان : الوفيات، ج2، ص412.
(3) البلاذري : المصدر نفسه، ج4، ص296.
(4) البلاذري: المصدر نفسه، ص298، 299.
(5) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج2، ص291.
(6) الدينوري : الاخبار الطوال، ص337.

العقيدة والثقافة الإسلامية خاصة بعد اتساع الدولة ودخول العديد من العناصر غير العربية إلى الإسلام والتي كانت جديدة في انتمائها وفهمها للعقيدة ولكن مع استمرار الخلافة الأموية كان يفترض أن تقرب بعض العناصر غير العربية والمعروفة بنقاء عقيدتها وسماع رأيها ومنحها بعض المسؤوليات القيادية والإدارية دون أن يفقد العرب سلطاتهم المهمة، وكان لابد من إحداث نوع من التوازن وعدم الاعتماد على العرب كلياً، لاسيما وأن العصبية القبلية كانت كثيرة الظهور بينهم كما شهدنا في صراع أكبر قبيلتين عربيتين هما القبائل اليمانية والمضرية اللتان استأثرتا بالسلطة فكانتا سبباً حقيقياً ودافعاً قوياً لسقوط الدولة الأموية وهذه العصبية لعبت دورها سلباً وإيجابا، دفع الأمويون ثمناً غالياً لهذه العصبية[1] بعدما ثارت ضدهم كل الشرائح الاجتماعية المهمشة والرافضة من الفرق المغالية من الشيعة والخوارج والموالي والعبيد والذين رفع قدرهم الإسلام والخلفاء الراشدون وفقدوا هذا الامتياز في عهد الدولة الأموية.

وبانتقال الحكم إلى العباسيين برزت مراكز قوى جديدة وبدأت العصبية العربية في التضاؤل شيئاً فشيئا ولم يعد العرب سادة مطلقين بعدما دفعوا ثمن أخطاء الحكم الأموي عندما قضوا على العصبية نهائيا في حكمهم واستعانوا كليا بغير العرب كما سنرى فيما بعد، ولكن قبل ذلك سنتحدث عن الموالي ودورهم في نقل الخلافة العربية من الأمويين إلى العباسيين وموقفهم من العصبية العربية.

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص290.

الموالي في عهد الدولة الأموية (٤١-١٣٢ هـ/٦٦١-٧٥٠م)

أطلق مصطلح «الموالي» في زمن الدولة الأموية على جميع الذين أسلموا من غير العرب منهم[1] ويضمن التشريع الإسلامي مساواتهم مع العرب بشكل تام.

والموالي في الشريعة الإسلامية نوعان: موالي العتاقة: وهو الرقيق الذي أعتقه صاحبه. ومولى الموالاة: وهو الحليف، ويسمى أحياناً مولى اصطناع أو مولى عقد وذلك كأن يقول الرجل للآخر: ليس لي عشيرة ولا ناصر، وإني أنضم إلى عشيرتك، وتنصرني وتدفع عنّي نوائبي، وإن مت كان ميراثي لك، فيعقد بينهما عقد الولاة[2]، وقد اعترف الإسلام بهذا النوع من الولاء، فقال الرسول عليه السلام (إن موالي القوم منهم وحليفهم منهم) والمراد بالحليف موالي الموالاة لأنهم كانوا يؤكدون الموالاة بالحلف[3].

وتكاثر الموالي في الدولة العربية الإسلامية: بموالاة الفتح، وتكاثر الرقيق بالأسر والإهداء، وكان العمال يوزعون هؤلاء الرقيق على خاصتهم وقادتهم وهؤلاء يفرقونهم فيمن حولهم، أو يبيعونهم، فينتقل الرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم[4]، فمن أنجب من هؤلاء الأرقاء، أو عتق لسبب من الأسباب صار مولى غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد أو غيره، وكان العرب يطلقون اسم «الهجين» على من كان أبوه عربياً وأمه أعجمية، ويطلقون لفظ «المذرع» على من كانت أمه عربية[5]، وكان معظم الموالي في الدولة العربية الإسلامية، وخاصة موالي العراق من أصل فارسي ويتحدثون اللغة الفارسية[6]. وقد استطاع الموالي الفرس أن يحتفظوا ببعض صفاتهم وخصائصهم.

دخل الموالي ضمن التنظيم القبلي، وتأثروا بالعصبية القبلية، فكان موالي كل قبيلة ينتسبون إليها، ويحاربون في صفوفها، وكانت حالتهم تتأثر بظهور هذه العصبية أو اختفائها وكلما جدّت تلك العصبية ساءت حالة الموالي وانحدرت

---

(1) انظر فصل المصطلحات في معنى كلمة مولى.
(2) علي حسني : الحضارة العربية الإسلامية، ص101.
(3) ابن خلدون : المقدمة، ص96.
(4) الدينوري : الأخبار الطوال، ص301.
(5) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج6، ص129.
(6) البلاذري : أنساب الاشراف، ج5، ص254.

منزلتهم، حتى إذا ما اختفت تنفس الموالي الصعداء[1]. ولقد تعددت الآراء حول عوامل تعصب العرب على الموالي، ولقد اعتقد الطبري أن بوادر هذا التعصب بدأت في الظهور منذ مقتل عمر بن الخطاب ﷺ على يد أبي لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة بن شعبة، فأثار هذا الحادث عصبية العرب نحو الأعاجم سواء من أسلم منهم أو من بقي على دينه، بعد أن كان عمر يأمر بمعاملة الموالي برفق، بينما زادت في عهد عثمان بن عفان حدة العصبية ضد الموالي[2] بينما يعتبر سيديو الموالي مسؤولين عن تعصب العرب ضدهم فقد عاملوهم كما كانوا يعاملون أكاسرة الفرس مما أدى إلى غرور العرب[3]. فأبعدوهم نتيجة ذلك عن المناصب السياسية والإدارية، وفرضوا عليهم من الضرائب أكثر مما فرضوه على العرب، وكانوا يخافون وثبتهم على العرب والسلطان بسبب دسائسهم المستمرة فكانت العصبية تبدأ للبيت الأموي ثم للقبيلة ثم تتوسع أخيرا فتكون للأمة العربية[4]. وتجلت عصبية السلطة متمثلة في خلفاء بني أمية ضد الموالي في كثير من المظاهر حيث قال معاوية بن أبي سفيان وهو أول خليفة أموي (41-60هـ/ 661-671م): إني رأيت هذه الحمراء[5] يقصد الفئات غير العربية في الدولة، قد كثرت وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق[6].

وقد اعتبروا تزاوج الموالي والعرب جريمة لا تغتفر، وجعلوا الموالي أدنى منزلة منهم، ولو نظرنا بشيء من الدقة والتمحيص لوجدنا أن خلفاء بني أمية كانوا يخشون من الموالي ومن أطماعهم في السلطة للاستيلاء عليها والقضاء على حكم

---

(1) الطيب النمار : الموالي في العصر الأموي، ص28.

(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص63.

(3) سيديو : تاريخ العرب العام، ص173.

(4) الدوري : مقدمة في تاريخ الاقتصاد العام، ص17.

(5) ابن منظور :لسان العرب، ص714 الحمراء العجم لبياضهم ولأن الشقر أغلب الألوان عليهم وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على الوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم لهم الحمراء، حيث قال له سراة من أصحابه العرب: غلبتنا عليك هذه الحمراء فقال: ليضربنكم على الدين عودا كما ضربتموهم عليه بدءا. والعرب تسمي الموالي الحمراء، والاحامرة قوم من العجم.

(6) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص60.

العرب بصفة عامة ورؤية معاوية لهذا الأمر لم تكن اعتباطاً بقدر ما كان نتيجة للمؤامرات التي اكتشفها والدسائس التي قام بها الموالي من أجل القضاء على العرب، والدليل على ذلك اشتراكهم في الثورات والهبات التي قامت ضد السلطة الأموية مثل ثورة المختار الثقفي في معركته ضد الأمويين، وهذا ما دفع بخلفاء بني أمية إلى جعل الموالي يمتهنون أعمال المهن والحرف و أبعدوهم عن السياسة والحرب واعتبروها مهنة العرب فحسب وهو أمر دفع الموالي للسيطرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ودواوين الحكومة حيث سيطر الدهاقين الفرس من إقطاعيي الأرض وكبار الملاك على شؤون الخراج وصاروا عيون السلطة الأموية على الفلاحين والمزارعين، وكدسوا الأموال الباهضة، وحالوا دون إصلاح الأحوال المتردية، بل هم من ساهم في ترديها، لأن هذا الإصلاح يلحق الضرر بخزائنهم فكانوا سببا غير مباشر في حالة التردي والفقر التي عاناها ضعفاء من العرب والموالي على السواء، وتحول المجتمع بسببها إلى طبقات وزادت الهوة بينهم وبين الخلفاء.

كان أشراف العرب يكرهون أن يقاسمهم الموالي العطاء لأن مهمتهم كما قال عربي: (يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحركون ثيابنا)[1] وثاروا في وجه الوليد بن عقبة في خلافة عثمان لأنه أعطى العبيد والموالي نصيبهم من العطاء[2]، على أن الموالي ما لبثوا أن ثاروا في عهد عبد الله بن الزبير لانقطاع العطاء عنهم[3]، والذي زاد الأمر سوءاً هو فرض الجزية على الموالي رغم اعتناقهم الإسلام، وهو أمر أصلحه الخليفة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/ 717-720م) لاحقاً إذ أمر عماله بأن يضعوا الجزية عمن أسلم قائلاً عبارته المشهورة: (إن الله بعث محمد هادياً ولم يبعثه جابيا)، وهنا حدث تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية في الدولة وانتهى الأمر بفشلها بعد موت عمر بن عبد العزيز 101هـ-720م سببت إصلاحات عمر بن عبد العزيز أزمة في بيت المال وأدت إلى تدهور الأحوال الاقتصادية، لكنها هدّأت معارضة الموالي والمستضعفين العرب

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج3، ص414.
(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج5، ص62.
(3) البلاذري : أنساب الاشراف، ج5، ص188.

وأيقظت فيهم آمالاً لم تستطع السلطات التالية أن تنفذها[1] وهذه التفرقة لم يكن مصدرها الإسلام لأن الإسلام لم يفرق بين العناصر والأجناس بل ينص صراحة على أن المسلمين إخوة في الدين ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وكانت تلك سياسة عمر بن الخطاب حين أحدث ديوان العطاء وجعل للموالي مثلما للعرب على السواء[2] وعندما بلغه عمر أن أحد عماله أعطى العرب وترك الموالي كتب إليه : (أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، والسلام)[3] وكان الرسول أسوة حسنة في ذلك.

أما سياسة التفرقة التي انتهت بها الدولة الأموية ووجد فيها المستشرقون الذريعة لاتهام المسلمين والخلافة الإسلامية بالتقصير في حق الموالي وانهم أدنى درجة من العرب[4] فهذه هي طريقة بعض المستشرقين في اتهام العرب بالعنصرية متجاهلين أن وراء هذه السياسة أحياناً دواعي أمنية واقتصادية تخص الدولة بعد اتساع رقعتها وزيادة الفتوحات الإسلامية، ولو سلمنا بما ادّعوه بأن الدولة الأموية اعتمدت على القومية العربية الواحدة. فما هو ردهم يا تري على سياسة الدولة العباسية التي رفعت شعار تعدد القوميات وماذا كانت النتيجة ؟ ألم يكن نشاط الحركة الشعوبية والزندقة وحقد بعض الفرس على العرب يتنامى مهما كانت وجهة الدولة السياسية وظلت طموحاتهم ترمي إلى تقويض العروبة وإعادة أمجاده الساسانية ؟ نحن لانذهب إلى الوجهة التي ذهب إليها المستشرقون[5] ونزعم أن الموالي لم يدخلوا إلى الإسلام هروبا من أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل الدولتين البيزنطية والفارسية فحسب بل نعتقد أن معظمهم دخل إلى الإسلام حباً فيه واعتناقا لمبادئه وقيمه العادلة، أضف إلى أن الموالي لم تسلب كل حقوقهم في الدولة الأموية بل تمتع الموالي في العصر الاموي من

---

(1) فان فولتن (van volten): السيادة العربية، ص58.

(2) البلاذري : فتوح البلدان، ص437.

(3) البلاذري : المصدر نفسه، ص944.

(4) كريمر (kremer): الحضارة الإسلامية، ص 74؛ ويمومين، النظم الإسلامية ص 164؛ دورزي: نظرات في تاريخ الإسلام، ص391 حيث أجمعوا أن الموالي دخلوا الإسلام هروباً من الجزية واحتفظوا في قرارة أنفسهم بدياناتهم السابقة وعاداتهم وهذا غير صحيح لأن معظمهم دخلوا الإسلام حباً فيه وأخلصوا لدينهم الجديد ولعروبتهم الجديدة.

(5) دورزي (Dorze) نظرات في تاريخ الإسلام، ص391.

جانب آخر بنظام اجتماعي أفضل من مثيله حيث كان النظام الفارسي إقطاعيا يقوم على طبقتين اجتماعيتين أولهما الطبقة الأرستقراطية وتشمل الدهاقين الذين كانوا يملكون الأرض ويستأثرون بالخير ويكونون حلقة الاتصال بين الأكاسرة والأهالي[1]، وثانيهما طبقة الشعب وتتألف بدورها من طبقات متحاجزة. وكانت حالتهم أسوأ بكثير جدا من وضعهم في الدولة الأموية، فالثروة كانت مركزة في أيدي الفرس فضلا عن الإدارة التي حرصوا على بقائها في أيديهم[2] أما رفض العرب تزويج الموالي من بناتهم فاعتقدوا أن هذا الأمر لا يقلل من شأن الموالي أنفسهم ولكن هذا الأمر يخضع للعرف الاجتماعي الذي كان سائداً في ذلك الوقت وله علاقة بالجانب النفسي والروحي ورغبة العرب في المحافظة على صفاء دمهم ونقائه العربي واحتفاظهم ببناتهم داخل مجتمعاتهم. أما تصدي العصبية العربية للتغلغل الفارسي «الموالي» فله دافعه القوى في المحافظة على الدولة العربية المستحدثة والتي لا يمكن التفريط فيها وتركها بيد من دخل حديثاً إلى الإسلام، ولهذا تحول الموالي إلى مناصرة كل خارج عن السلطة الأموية وإثارة الفتن. هذا التصادم أدى إلى ظهور بوادر الشعوبية في الدولة الأموية التي اتخذت من شعار المساواة بالعرب حتى شعاراً لها أصبحوا يعرفون بأهل التسوية[3]، ثم تطورت هذه الحركة في العصر العباسي، فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب وظهرت الشعوبية والزندقة وكان تفكير الموالي دائماً ينصب في مناصرة كل من يعلن الثورة على الدولة الأموية والكيد لها بكل الوسائل. وانضم كثير منهم إلى جماعات الخوارج حينما نادوا بنظريتهم الديمقراطية في الخلافة وتبنوا شعارهم في أن الخلافة حق شائع بين جميع المسلمين الأكفاء. وانضم الموالي إلى جميع ثورات الشيعة في بلاد العراق وخراسان رغبة في الانتقام من بني أمية، و اعتبروا أنفسهم أحق الناس في مساندة آل علي بن ابي طالب خاصة بعد أن تزوج الحسين بن علي إحدى بنات يزدجر آخر الاكاسرة الساسانية[4] وانضم الموالي إلى كل ثائر ضد الدولة الأموية، فانضموا إلى عبد الله بن الزبير ثم إلى

---

(1) كريمر (kremer): الحضارة الإسلامية، ص78.
(2) ارنولد (Arnold): الدعوة إلى الإسلام، ص171.
(3) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج3، ص403.
(4) ارنولد (Arnold): المرجع نفسه، ص172.

المختار الثقفي ثم إلى عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد بن المهلب وهما من غير الشيعة، بل انضموا إلى الخوارج وهم أعداء الشيعة الألداء حيث يشترك جميعهم في معارضتهم الدولة الأموية، ولهذا وجد الأمويون أمام صيحة الموالي المعارضة حجة قوية لضربهم واستخدام السيف بسبب مؤامراتهم ودسائسهم تساند بني أمية في ذلك العصبية العربية التي لا تزال قوية وعميقة في نفوس العرب الذين كانوا يفخرون دائما على الموالي بأنهم أخرجوهم من الشرك إلى دين الهداية فكان لسان حالهم يقول: (لو لم يكن هناك على الموالي عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا لهم من الكفر، وإخراجنا لهم من دار الشرك إلى دار الايمان. .)[1]. وقد قامت بعض العناصر العربية في خراسان بحركات ثورية[2] ضد الحكم الأموي كان أهمها قيام الدولة العباسية على أثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن حيث قام بإشعالها أبو مسلم الخرساني، وقد ضمت هذه الحركة إلى صفوفها كل العناصر المعادية للأمويين بما فيهم الموالي وسنرى مصير العصبية العربية بعد سقوط دولة بني أمية 132هـ/ 750م خاصة وأن الدولة العباسية اعتبرت في نظر بعض المؤرخين حركة فارسية ضد العرب وتم تفسيرها على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الطبقة العربية الحاكمة، ومن المؤيدين لهذا الرأي حمزة الأصفهاني وهو مؤرخ وأديب فارسي[3] أضف إلى أن البعض الاخر[4] يقول أن ابا مسلم بعد أن تم له إسقاط الدولة الأموية صار يملك من القوة والنفوذ ما يمكنه من تحقيق أطماعه في الخلافة ذاتها، ولكن الشرعية في الحكم كانت تنقصه لتحقيق مأربه. وعند دراسة الدولة العباسية دراسة مستفيضة مع التركيز على كل الجوانب سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم دينية سيلاحظ أن خلافة بني العباس قامت بتخطيط عربي من قبل أشخاص عرب هم بنو العباس. صحيح أنهم استغلوا الموالي بسبب حبهم لآل البيت ورغبتهم الشديدة في نقل الخلافة من الدولة الأموية إلى آل البيت «العلويين» وأقبل الموالي على تأييد هذه الدعوة دون

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج3، ص412.
(2) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية، ص60، 63.
(3) الاصفهاني : تاريخ سني ملوك الارض ص160 حيث يقرأ (. . . لما كان الذين قاموا بنقل الدولة إليهم وإلى العباسية من بني أمية عجم خراسان باخفائهم ضدهم من العرب والاعراب.).
(4) أحمد مختار العبادي :تاريخ بني العباس والاندلس، ص74.

أن يفكروا أنهم ينصرون آل العباس الذين سيضطهدون العلويين ويلاحقونهم في كل مكان كما فعل الأمويون من قبل، واعتقد الموالي اعتقاداً راسخاً أنهم يدافعون عن حق مغصوب لآل البيت، وأنه لابد من إرجاع هذا الحق إلى أصحابه ولاشك أن الدعوة العباسية واتخاذها خراسان مركزا لها، وضم الموالي والفرس إلى صفوفها، كان من أجل خدمة مصالحها السياسية وكسب الطبقات المغلوبة إلى جانبها وهذا لا يعني بأي حال انهيار العصبية العربية في الدولة العباسية ولكن يعني احتواء كل العصبيات الاخرى إلى جانب العصبية العربية وخاصة في العصر العباسي الاول (132-232هـ/ 750-847م) وأعتقد أن ما قاله فان فلوتن[1] (. . أسندت اليهم المناصب الهامة في قصر الخليفة وفي الجيش والمالية كما أسندت إليهم امارة الولايات الإسلامية حتى حسدهم العرب وقد أصبحوا أقل شأنا منهم مغاير للحقيقة ولايتفق مع الواقع، فالعباسيون قد قربوا العناصر الفارسية في مرحلة الدعوة الاولى مع ملاحظة أن الارستقراطية منذ البداية في تعاطفها مع العباسيين كانت لها أهداف سياسية واضحة لعبت دورها في حركة الشعوبيين فيما بعد.

وليس صحيحا أن بني العباس انحازوا للفرس دون العرب ولم ينته هذا الانحياز إلا في عهد المهدي لأن الخلفاء الاوائل من بني العباس تيقظوا للخطر الفارسي، فقام الخليفة المنصور (136-185هـ/ 754-775م)بقتل ابي مسلم الخراساني، وتبعه الرشيد 170هـ/ 786م في القضاء على البرامكة ثم المأمون (198-218هـ/ 813-833م) الذي قضى على آل سهل وهذا يدل على اكتشاف الخلفاء العباسيين في وقت مبكر المخططات الفارسية الخطيرة.

أما المهدي (158-169هـ/ 775-785م) فقد حاول أن يحافظ على التوازن العربي والفارسي معا، بينما ما ترويه المصادر التاريخية[2] عن قصة مقتل ابي مسلم الخراساني القائد الذي ساهم مساهمة كبيرة في قيام دولة بني العباس والتي تقول: إن السبب هو إدعاؤه أنه من نسب عربي ومن بني العباس وهذه تهمة رأى فيها أبو العباس إهانة لعصبيته العربية وانتمائه عندما قال له موجها اليه هذه التهمة

---

(1) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية، ص34.

(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك ؛ البلاذري : فتوح البلدان ؛ المسعودي : مروج الذهب.

الخطيرة بقوله: (وتزعم انك من ولد سليط بن عبد الله بن العباس) وفي هذا إشارة إلى أنه اصطنع نسبا عربيا بالإضافة إلى محاولاته التطاول على أسياده من بني العباس لأن ادعاءه هذا النسب ليس تشريفا فقط بقدر ما هو محاولة منه لمنح نفسه شرف الانتماء إلى آل البيت وبالتالي التمهيد للدعوة لإقامة خلافة علوية يتزعمها هو، وخدمة لمخططاته الفارسية وهذا ما جعل بني العباس يقفون ضده وضد طموحاته وادعائه النسب العربي ومحاولته مساواة نفسه بهم وهو أحد مواليهم فما كان عندهم إلا أن قتلوه حفاظا على سلطاتهم وافتخارا بنسبهم العربي الشريف، أما اتباع خلفاء بني العباس لبعض عادات أكاسرة الفرس مثل الاحتجاب عن الرعية والظهور في وسط الاتباع، ونشأة وظيفة الحجابة وغيرها من الامور لاينفي كونهم عرباً، ففي لحظات الإحساس بالخطر ترجع عصبيتهم العربية التي طالما افتخروا بها وبانتمائهم لبيت النبي وللعرب[1] وحتى الثورة العباسية في بداياتها كان للعرب فيها دور كبير جداً متمثل في قيادتها وفي مجلس نقبائها وفي جندها.. لتؤكد بذلك طابعها العربي او على الاقل تخفف من المبالغات التي تلغي دور العرب كما ذكرنا سابقاً[2] فلقد جمع العباسيون في شعارهم الرئيسي «شعار الدعوة للرضا من آل محمد» وبين المضمون السياسي للشرعية القرشية «الائمة من قريش» اضافة إلى توظيفهم لشعار «العمل بالكتاب والسنّة» وكان الخلفاء العباسيون عرباً هاشميين وكانوا يفخرون بذلك قد حفظوا للفرس صنيعهم بسبب مساعدتهم لهم في الوصول إلى السلطة ورغم ذلك لم ينسوا عروبتهم وكان الخلفاء العباسيون إذا شعروا بطغيان الفرس على نفوذهم وضعوا حداً لاستبدادهم بل ونكلوا بهم. كما فعل أبو العباس بأبي سلمة الخلال، والمنصور بأبي مسلم الخراساني، والمهدي بيعقوب بن داود، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل.

اتبعت الدولة العباسية سياسة ترمي إلى حفظ التوازن بين العرب والفرس. ويرى الدوري[3] أن العباسيين أتموا تطورات كانت قد بدأت في العصر الأموي

---

(1) ووقفت في برد النبي مذكراً ... لله تنذر تارة وتبشر

(2) حسين عطوان : الدعوة العباسية، مبادىء وأساليب، ينظر الفصل الاخير :عمان، مكتبة المحتسب.

(3) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص 29.

حين ضربت المفاهيم والتنظيمات القبلية بقوة، وحين أعادت تنظيم الإدارة والجيش على أسس جديدة، لم تكن تقصد ضرب العرب بل سرعان ما أكدت أن السلطان لايزال في أساسه عربيـاً، وسار الخليفة هارون الرشيد على نهج أبيه المهدي في سياسة حفظ التوازن بين الفرس والعرب، وكان من أثر هذه السياسة حدوث الصراع بين الجناح الفارسي الذي تزعمه جعفر البرمكي وأسرة البرامكة، والجناح العربي الذي تزعمه الفضل بن الربيع وتأييد السيدة زبيدة زوجة الرشيد، وكان الجناح العربي يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك، فلما ماتت الخيزران ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره من الامور التي كانت في يد جعفر البرمكي 184 هـ.

وكان الصراع القائم بين الامين والمأمون[1] هو في الحقيقة صراع بين العرب والفرس. بسبب الخؤولة فأم الامين عربية وأم المأمون فارسية وقف الجناح العربي وراء الامين وأيد الجناح الفارسي المأمون، حيث عهد الرشيد سنة (170-193 هـ/ 786-809م) إلى ابنه الامين بولاية العهد من بعده (193-198هـ/ 809-813م) حيث تمت البيعة له في وقت مبكر عندما كان الامين صغيراً في الخامسة من عمره مما يدل على أنها كانت تحمل دلالة خاصة في ضمان الخلافة للعصبية العربية وهذا لم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة فأخذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون (198-218هـ/ 813-833م) ولاية المشرق بعد وفاته. بمعنى أن خلافة الامين بعد وفاة والده تصبح على بلاد المشرق خلافة صورية وهو تقسيم لم يحدث من قبل في الدولة الإسلامية إلا أنه يؤكد عمق الصراع الخفي بين عصبيتين منفصلتين (العربية والفارسية).

فالعرب ضمنوا الخلافة للعربي النسب، والعجم بزعامة البرامكة ضمنوا الشرق للمأمون، فالعصبية العنصرية ظاهرة في هذا الإجراء السياسي الغريب والذي يحدث لأول مرة في التاريخ الإسلامي، ولقد انتقد المؤرخون العرب هذه السياسة واستغربوا من هذا الاجراء، فابن الأثير يتساءل: كيف أن الرشيد لم يتعلم الدرس من أهل بيته في موضوع الخلافة، إذ أنه قد رأى ما صنع أبوه المهدي

---

(1) انظر التفصيل في الجهشياري :الوزراء والكتاب ص 168؛ الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج8. ص 334 ـ. 384

وجده المنصور بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد وما صنع أخوه الهادي معه ليخلع نفسه من ولاية العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه[1].

وعند العودة إلى التاريخ نجد أن سبب نكبة البرامكة يرجع إلى حد كبير إلى ذلك الصراع الخفي الذي كان قائماً بين جناحي العرب والعجم والذي ظل مستمراً بعد ذلك أيام الأمين والمأمون وهو صراع عنيف بين قوميتين كلاً تحاول أن تفرض وجودها وأحقيتها بالسلطة والخلافة على الاخرى، فالفكرة العربية تتمثل في أن الخلفاء يجب أن ينتموا إلى العروبة بالنسب واللغة والهوية، بينما القومية الفارسية تريد أن تسيطر على مقاليد الامور بالجاه وكانوا يريدون تحقيق ذلك من خلال خلفاء عرب من ناحية الأبوة وفرس من ناحية الأم كما هو الحال بين الامين والمأمون وكان انتصار المأمون بمثابة انتصار للعناصر الفارسية.

اتخذ المأمون مرو بخراسان حاضرة له طوال الفترة الاولى من خلافته، ثم أدرك خطورة الانحياز التام لأهل خراسان إذ قامت ثورات عباسية وعربية مختلفة[2] فآثر المأمون العودة إلى بغداد. خاصة بعد ثورة نصر بن شبت وهو من بني عقيل إذ كان عربياً شريفاً شهماً ويسكن في يكسوم شمال حلب، وآمن هذا العربي بحماية الخلافة العربية من الفرس حيث رأى في مقتل الامين امتهانا للعصبية العربية. فأعلن الثورة أواخر سنة 198هـ / 814م واستولى على سميساط بأعالي العراق[3]. واجتمعت إليه قوات عربية كثيرة تشد أزره، وتساعده على رسالته. وقد عبر نصر الفرات إلى الجانب الشرقي استعداداً لإنقاذ العراق من براثن أعداء العروبة الذين تسللوا إليها وسيطروا على مقاليد الأمور فيها عن طريق المأمون، وقد حارب نصر بن شبت الفرس ونفوذهم ولم تكن حربه ضد بني العباس أنفسهم لانهم عرب وقد صرح بذلك عندما قال: (إنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم)[4]. وفي سنة 204هـ / 819م[5] استطاع المأمون أن يدخل بغداد بعد أن دبر مقتل الفضل بن سهل ذلك الفارسي الذي قاد حركة الشعوبية ضد العرب ويستعيد

(1) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج6، 65.
(2) الطبري: ثورة ابراهيم بن المهدي وثورة نصر بن شبت، ج10، ص226 ـ227.
(3) ثورة نصر بن شبت، الطبري، ج10، ص226 ـ227.
(4) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج10، ص227.
(5) الطبري، المصدر نفسه، ج10، ص 228.

عرشه بها، إيذانا بانتصار العرب على الفرس فحكم العرب لم ينته في عهد العباسيين وإن كان بعض العرب قد سلبوا السلطان والمجد. ولكن الامتيازات التي كانت لعامة العرب على العناصر الأخرى في الدولة قد زالت، وانتهى العصر العربي الخالص بانتهاء دولة بني أمية فكانت دولة العباسيين (إسلامية) أممية، ليس العرب أكثر من عنصر كبير وأساسي وحاكم من عناصرها.

ويمكن القول إن الدولة الإسلامية، تحولت في العهد العباسي إلى دولة قوميات متعددة بعد أن كانت في العصر الأموي أحادية القومية بمعنى إنها عربية فقط (أما في عهد العباسيين فتحول الحكم تدريجياً إلى حكم قوميات متعددة (فارسية، وتركية) جمع بينها الإسلام، اختفى فيها التمايز بين العرب والموالي وإن بقيت أشكاله الخارجية ومظاهره)، وكان هذا شعار الخلافة العباسية. أما الموالي في عهد خلافة بني العباس فقد تولوا حتى مناصب الولاة بسبب اتصالهم بالخليفة وبآل البيت العباسي وبالولاء الذي تميزوا به، قد انتقلوا إلى الطبقات الأرستقراطية ومحو الأصول الوضيعة التي جاءوا منها، وبرز في النظام السياسي ما يعرف «ولاء الاصطناع» الذي كان يريده العباسيون فهم بحاجة إلى ولاء لهم وللنظام العباسي فوق كل ولاء قومي أو ديني أو اجتماعي أو إقليمي، وتكون في الوقت نفسه أدوات طيعة ومتواضعة في أيدي الخلفاء.

ويروي الطبري: أن عتاباً جرى بين ابن علي والمهدي بسبب تقريب المهدي للموالي حتى ولاهم أموره كلها فرد المهدي بأن الموالي يستحقون ذلك بسبب طاعتهم العمياء له وللخلافة[1]. وقد أخذ الموالي العباسيون، مكانة سياسية خاصة رأوا فيها أنفسهم في دولة بني العباس أرفع منزلة من العرب والعجم معاً[2] وقد عبر الجاحظ عن ذلك وعن لسانهم بقوله: (الولاء لحمة كلحمة النسب وحليف القوم منهم لأن السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة. قلنا النسب الذي يصوبه العربي ولنا الأصل الذي يفتخر به الاعجمي. فقد شاركنا العربي في فخره، والخراساني في مجده والنوبي في فضله ثم تفردنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا اليه. لأن شرف الموالي راجع إلينا.)[3].

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج8، ص 175.
(2) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص554.
(3) رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة في رسائل الجاحظ، ص27، 29.

ويذكر المؤرخون المسلمون الأوائل[1] أن المنصور كان أول من اصطنع مواليه وعهد إليهم بالإدارة والقيادة، ويذكر المسعودي أنه فضلهم على العرب وقد اعتمد المنصور على مواليه لا على الموالي الفرس عامة. غير أن هؤلاء الموالي ما لبثوا أن وجدوا طريقهم إلى الجيش وصار بعضهم يقود الحملات ويقال له: «مولى أمير المؤمنين»[2] ويظهر ذلك منذ عهد المهدي حيث أرسل العباس بن محمد إلى أنقرة 159هـ وعلى مقدمته الحسن الوصيف من الموالي.. . وقد تكاثر عدد الموالي بشكل واسع في عهد الدولة العباسية وتشكيل فرقة عباسية منهم كان منها القادة الذين خلدهم التاريخ أمثال هرثمة بن أعين وغيره ودخلوا إلى العسكرية بأعداد كبيرة وجندوا إخلاصهم لمصلحة الخلافة والخلفاء. ولقد اهتم العباسيون اهتماماً واضحاً بخلق نوع من التوازن في الجيش حيث قسم الجيش العباسي زمن العباسيين الأوائل على أساسين: عنصري و إقليمي ففي زمن المنصور كانت هناك فرقة خراسانية واحدة على أساس الإقليم الجغرافي وثلاث عربية (على أساس القوم) ولما كانت الكتلة العربية ضخمة فقد انتظم الجنود العرب على أساس انتمائهم القبلي كما كان في عهد بني امية : مضر وربيعة واليمن وظهرت فرقة جند أهل الشام. وجند الموصل وجند اهل الكوفة والمغاربة وجند مصر وجند الثغور. ووجدت فرق صغيرة للعناصر الاخرى من الزنج والخزر والصقالبة. . . وغيرهم. وكان أكثر قادة الجيش من العرب في اوائل العصر العباسي وكان منهم زعماء قبليون من امثال (معن بن زائدة الشيباني وابن بيهس الكلابي) غير أن هذا النوع القبلي سرعان ما انقرض وحل محله الجيش النظامي واختلط فيه القادة ما بين عرب وفرس وترك وموالي الخلفاء وهؤلاء جميعاً لعبوا أسوأ الادوار في انهيار الدولة العباسية.

ولا ننس أن بعض خلفاء بني العباس قد أثاروا العصبية العربية في بعض الاقاليم التي قد تناست عصبيتها القبلية وحولوها إلى عصبية اقليمية مثل خراسان، فالخليفة المنصور تجاوز على الحلف القديم القائم بين ربيعة وأهل اليمن واطلق يد معن بن زائدة الشيباني (القيسي) فيهم عندما كان والياً هناك وارتكب المجازر مما دعا عقبة بن سلم الهنائي اليمني والي اليمامة و البحرين أن يأخذ الثأر هناك

(1) كاليعقوبي والجاحظ والمسعودي.

(2) شاكر مصطفى : تاريخ دولة بني العباس، ص626.

من ربيعة (قبيلة الشيباني)[1] وارتاح المنصور إلى النتيجة التي تمنع قوى الطرفين من أن يكون لهما ولاء غير الولاء العباسي.

بدأ العصر العباسي وكتلة الجيش فيه عربية ذات تنظيم قبلي تطوعي، لكن هذا العصر انتهى وللدولة فيه جيش نظامي دائم محترف يشمل عناصر غير عربية أيضاً أصبحت فيما بعد هي العناصر المسيطرة فيه مثل العناصر التركية. ولهذا كان ذلك العصر في الغالب عصر (أممية إسلامية) والإسلام دين لجميع الشعوب والأمم، وأخذ الموالي و الفرس حقهم في الدولة العباسية بعدما أعلنوا أنهم مظلومي الدولة الأموية التي لم تعطهم حقهم فواجهوها ووقفوا إلى جانب السلطة العباسية ولهذا نستطيع ان نقول إن الدعوة العباسية لم تكن فارسية أو عربية بمقدار ما كانت إسلامية في قرارها.

ولقد جندت الدعوة العباسية الأعاجم إلى جانبها بذكاء ومنحتهم الكثير من الحقوق سواء كان ذلك في الجيش أم الإدارة أم في المجال الثقافي أم الاقتصادي أم في مشاركتهم في تسيير شؤون الخلافة خاصة في عهد هارون الرشيد(170 ـ193هـ/ 786-809م) ثم في عهد المأمون (198ـ 218 هـ/ 813-833م) ورغم ذلك فلم تنته حركة من ادّعى أن دولة بني أمية هي دولة عربية ودولة بني العباس هي دولة فارسية وأعجمية بل إنهم رغم كل ذلك قاموا بحركات اكثر حقداً وكرهاً للعرب تمثلت في حركة الشعوبية والزندقة التي كانت من الأسباب المهمة في تشويه تاريخنا العربي الإسلامي وحتى عندما وليَ المعتصم الخلافة (218-227هـ/ 833-852م) رأى ان دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى فأكثر من الأتراك، لأن أمهُ كانت تركية فولاهم حراسة قصره واسند إليهم أعلى المناصب وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء مما زاد في حدة الصراع بين ثلاث قوميات، عربية وفارسية وتركية مما جعل العرب يغروا العباس بن المأمون بالمطالبة بالخلافة ودبروا المكايد للتخلص من المعتصم، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس وكان من أثر هذه المؤامرة أن قضى على القادة من العرب و الفرس تدريجياً، ومحا أسماءهم من ديوان العطاء وزاد اعتماده على الأتراك.

---

(1) تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الاول «الصراع على السلطة».

من هنا نرى أن العصبية لم تقتصر على العصبية القبلية العربية بين اليمنية والمضرية، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التي قامت بين العرب و الفرس ثم بين العرب و الترك، تلك العصبية التي دفعت بالأتراك إلى إقصاء العرب نهائياً من مكان الصدارة في الدولة حيث أصبح الأتراك لهم الأمر و النهي وأدى ظهور العنصر التركي إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حيناً وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين.

ويجب أن نشير إلى أن العروبة[1] أصبحت انتماءاً ثقافياً قبل أن تكون عرقياً منذ أن عرفت الدولة العربية الإسلامية قوتها، وضعف مفهوم العصبية العربية مع دولة بني العباس وبخاصة بعد ردة الفعل التي جاءت بسبب ظهور حركة الشعوبية والزندقة التي لم يكن دافعها العصبية العربية كما كما يزعم بعض المستشرقين ولكن لها أسباب أخرى أعمق وأقوى سنوضحها فيما بعد.

---

(1) انظر : فصل تحديد المصطلحات، ص 266.

المبحث الثالث

الشعوبية والزندقة ودورهما في ظهور الغلو وتياراته السياسية

أولاً : الشعوبية[1]

ترتب على قيام العرب بحركة الفتوح الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي ظهور عاملين متداخلين : أحدهما واضح الحدود، اتخذته العروبة وطنا لها، والآخر مترامي الأطراف اشتمل إلى جانب العالم العربي الجهات التي استقر فيها الإسلام من إيران والهند والصين، وغربا إلى أسبانيا، وشمالا إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وبلاد الأناضول وأرض روسيا، وجنوبا إلى قلب إفريقيا وسواحلها الشرقية والغربية.

وعاش العالمان العربي والإسلامي كجسد واحد. والواقع أن الإسلام لم يفرق بين الأجناس، ودعا إلى التآخي بين سائر الشعوب، وتدل الآيات والاحاديث المتواترة على ذلك. ألم ينزل القرآن الكريم وفيه هذه الآية الكريمة : **﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**[2]، ألم يصرح الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام (ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى)[3] وقوله عليه السلام (بعثت إلى الاحمر والاسود)[4]. ومن ثم صار لهذا الاقتران بين اللغة

---

(1) تعريف الشعوبية : انظر فصل تحديد المصطلحات، ص 268.

(2) القرآن الكريم :سورة الحجرات، الآية 13.

(3) الجاحظ : البيان والتبيان ج2، ص27؛ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج2، ص346مع استبدال لفظة (فضل بفخر).

(4) الجاحظ : المصدر نفسه، ص71.

العربية والدين الإسلامي أثر كبير في بناء العالم العربي وتحديد معالمه وسط العالم الإسلامي. فكل من تعلم العربية صار عضوا في تلك الامة العربية الفتية، ووجد في لسانه العربي الإسلامي الجديد نسبا يعوضه أصهاره القدامى، على نحو ماعبر عنه الرسول العربي الكريم حين قال: (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي)[1] هناك عاملان ساعدا على تطور الأمة العربية الجديدة والمحافظة على العروبة : الأول يتمثل بحماسة الخلفاء الأوائل وسهرهم على حماية العروبة والإعلاء من شأنها، ويتجسد الثاني: بطبيعة العروبة نفسها التي اتسمت بالتسامح وابتعادها عن مظاهر التعصب المدمر كنوع من العنصرية واحتفاظهم بعصبيتهم العربية كنوع من الدفاع عن عروبتهم وانتمائهم، ولا يعني هذا تعصباً أو حقداً أو كرهاً لباقي الشعوب غير العربية حيث تجلى ذلك في حركة تعريب الدواوين التي كانت لغتها بلغة البلاد المفتوحة من الفرس أو اليونان على عهد الدولة الأموية ولهذا عمل الخلفاء العرب على المحافظة على العربية والاعتزاز بها والعمل على ما يكفل لها الازدهار.

تبنى حركة التعريب الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد من بعده (86-96هـ/ 707-714م)[2] وفي (83هـ/ 702م) عهد إلى صالح بن عبد الرحمن بنقل لغة الديوان عن الفارسية إلى العربية[3] وفي خلافة الوليد بن عبد الملك أتم ابن يربوع الغراري (87هـ/ 706م) تعريب ديوان مصر[4] على حين أشرف موسى بن نصير الذي تم على يديه تدعيم الفتوح العربية بشمال أفريقيا على نقل ديوان المغرب الذي كان يكتب باللاتينية إلى العربية[5] ويعتبر هذا العمل الجليل الحجر الاساسي في المحافظة على العروبة ونشر اللغة العربية، فاجتهد العمال في سائر دواوين الدولة على تعلم اللغة العربية ليحتفظوا بمراكزهم كما صار الطريق مفتوحا أمام المجد منهم والمجتهد للوصول إلى أعلى مراتب الدولة لافرق بينه وبين عربي آخر قدم من بلاد العرب نفسها. وفي وسط هذا البناء العربي الجديد انزوت

---

(1) انظر العروبة: فصل تحديد المصطلحات، ص 267.
(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 40؛البلاذري : فتوح البلدان ص201.
(3) المقريزي: الخطط، ج2، ص158.
(4) المقريزي: المصدر نفسه، ص158.
(5) المقريزي: المصدر نفسه، ص158.

القوميات القديمة، وظهرت القومية العربية الواحدة، ولامجال فيها للذكريات القديمة التي تثير الأحقاد والمنازعات، وانما أصبحت القومية العربية والإسلام هي قومية كل الامم الذين دخلوا تحت لوائها وانجبت هذه الامة الجديدة قادة عظام من أمثال طارق بن زياد[1] وسجلوا أسماءهم في ميدان العروبة إلى جانب ابطال العرب من أمثال خالد بن الوليد وغيره لافرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وفي الوقت الذي كانت الامة العربية في مرحلة الانصهار والتطور بدأت حركات التسلل تهاجمها، مستهدفة هدم قواعدها، وحرمانها من هذا الانصهار والاختلاط، واستهل الشعوبيون المرحلة الاولى بالتسلل تحت ستار التعاليم الإسلامية نفسها، ذلك أنهم وجدوا أن تفوق العرب وتمتعهم بمركز الصدارة والسلطان في المجتمع الجديد يرجع إلى أنهم أصحاب الرسالة والامناء عليها وعلى انتشارها، ومن ثم أخذ الشعوبيون ينادون بأن الإسلام يدعو إلى المساواة وأحاديث الرسول كلها تدعو إلى المساواة والعمل الصالح وهي أساس التقوى لكل مؤمن، وهكذا اتخذ أبناء هذه الشعوب ومفكروهم من مثل هذه الآيات والاحاديث شعاراً لهم، وسلاحاً يذودون به عن أنفسهم، ومازالوا يتداولونها فيما بينهم حتى قامت تلك الحركة التي تعرف في التاريخ الإسلامي «بالشعوبية» وهي فرقة تتعصب على العرب وتحتقرهم[2] وأن أساسها العصبية التي (لا تبقي دينا إلا أفسدته ولادنيا إلا أهلكتها، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشعوبية وما قد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب)[3].

بدأ الشعوبيون يزحفون في حذر شديد في تلك السبل لمهاجمة العرب خفية والتنفيس عن حقدهم وأكثروا من الايات القرآنية والاحاديث النبوية التي تساعدهم على نشر آرائهم ودعوتهم[4]. واستهدف الشعوبيون بترديد هذه التعاليم الإسلامية منازعة العرب وقد اعتمدوا في ذلك على عاملين أساسيين هما:

---

(1) طارق بن زياد من أهل المغرب الذين اعتنقوا الدين الإسلامي.

(2) المقريزي : النزاع والتخاصم ص3؛ الحصري، زهر الاداب ج2، ص282، لسان العرب (فصل الشين –حرف الباء، تاج العروس (فصل الشين على باب الباء).

(3) المقريزي : النزاع والتخاصم ص101.

(4) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ص53.

الأول اعتماد الشعوبيين على طائفة من علمائهم وشعرائهم ممن أجادوا اللغة العربية لتسريب سمومهم ومفاسدهم وبعض عاداتهم السيئة التي تتنافى مع الإسلام.

والثاني هو تأثر نفر من الاتقياء العرب أنفسهم بأساليب الشعوبيين البراقة وإظهارهم التعاطف مع قضاياها، خاصة بعد اتهامهم للدولة الاموية بهضم حقوقهم دون أن يدركوا أنهم وقعوا فريسة دعوة شيطانية شعوبية. ولجأ الشعوبيون في هذا الدور إلى المغالطة وتزييف التاريخ، ثم مساندة كل المواقف والآراء التي من شأنها الدعوة إلى تفرقة الصف العربي كما فعلوا مع الفرق الإسلامية، خاصة وأنهم أدركوا أنهم لم ينتصروا على العرب بالحرب، فلجأوا إلى تفتيت وحدتهم وتمزيق شملهم وزرع الفرقة والشقاق بينهم، ثم اندفع الشعوبيون في تسللهم للنيل من الدين الإسلامي نفسه حيث تسلل الملحدون ودعاة الباطل، وعمدوا إلى تشويه تعاليم الإسلام أو تفسيرها على ضوء دياناتهم الوثنية القديمة، كما حدث مع بعض غلاة الفرق الإسلامية «الباطنية».

وكان من شأن ذلك أن يبث الريبة، ويضعف الايمان في نفوس أبناء الامة العربية، وقامت هذه الثورات العنيفة التي تستر دعاتها بالدين أو بالمطالب السياسية كما سنعرف فيما بعد معلنين بذلك صراحة عن حقدهم الدفين وما امتلأت به صدورهم من بغضاء على العرب، ذلك أن الآراء الزائفة والاباطيل التي أشاعها الشعوبيون مهدت الطريق أمام تلك الثورات وجعلتها في بعض الاحيان شديدة الخطورة على الامة العربية، ولاسيما بعد اعتناق نفر من أبناء تلك الامة أراء الشعوبيين على أنها دعوة إصلاحية اجتماعية، رغم أن قادة الفتن كانوا من المقربين إلى السلطات العربية (مثل الاسرة البرمكية وغيرها) وكان أولُو الامر في الدولة العربية منحوهم ثقتهم، وأتاحوا لهم الوصول إلى أرقى المناصب جريا على سياسة العروبة التي لا تعرف العصبية بالمعنى العنصري ورغم كل ذلك خان قادة الفكر الشعوبي الأمانة، وقادوا حركات الحقد والحسد وزرعوا بذور الفتن والزندقة في المجتمع العربي الإسلامي، وأعتقد أن الشعوبية فكرة سياسية أدبية اتخذت الدين ستارا لها ونشأت عنها حركات بعضها أدبي، وبعضها ديني،

---

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص191.

وبعضها ثوري، وأخطر جانب من الحركة الشعوبية هو الجانب الديني والذي عرف بالزندقة والتي عملت في محاولة منها على هدم الدين الإسلامي[1]، اختصت بالتحرك في الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية وهو موقف ممتد بين الحسد والنقمة والحقد إلى الوراء الصامت أو النشاط الفعال.

بدأت طلائع الحركة الشعوبية في العهد الأموي وقد حملت شعار «التسوية» بين العرب وغيرهم لأنها لا تجرؤ على أن تطلب أكثر من ذلك وهذه التسمية عن أصحاب هذه الحركة أنفسهم[2].

والواقع أن بعض المؤرخين[3] اعتبروا أن السبب في هذه الحركة تعصب الأمويين للعروبة ورفضهم لأي عنصر آخر، حيث أخذ الموالي يتحينون الفرص ويتربصون بهم الدوائر، وباءت محاولاتهم في البداية بالإخفاق، حتى اجتمعت لهم العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية فاشتركوا في الثورة العباسية التي مهدت الطريق لبلوغهم أعلى مناصب الدولة، وأسمى مراتب السلطان.

والحقيقة أن هذه الفكرة فيها إجحاف وظلم بحق الأمويين، لأن تعصب الأمويين للقومية العربية تعصباً عنصرياً أو جنسياً بأي نوع من الأنواع وإنما هو حق طبيعي لحماية الدين والإسلام والعروبة من تيارات دينية وسياسية وثقافية من الشعوب الاخرى فيها من الحقد والحسد ما وجدناه في بعض كتاباتهم الموجودة إلى الآن مثل كليلة ودمنة لابن المقفع وغيره من الكتاب والشعراء.

والشعوبية هي حركة تصادم ما بين الموروث لدى الشعوب الداخلة في الإسلام وبين الإسلام ومفاهيمه الجديدة وبين من حمل لواءه وهم العرب الذين اعتبرهم الفرس ومنذ الجاهلية بأنهم أقل منهم وليست هناك[4] أي علاقة متكافئة بل هي علاقة يراها الفرس مثل علاقة الفقير بالغني والضعيف بالقوي وعلاقة السيد بالمسود وعلاقة شعب يزهو بمجده ونفوذه وسلطانه بشعب لايملك من هذا

(1) زاهية قدورة : الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي، ص21.

(2) جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص15، 8؛ شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ص 91؛ زاهية قدورة، الشعوبية، ص24.

(3) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ص18.

(4) المسعودي : مروج الذهب، ص 294؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد، ص166، 174.

كله شيئاً، وكانت تلك إشكالية كثير من المتزمتين الفرس في علاقتهم مع العرب، تلك الإشكالية التي لم تنته بدخول الفرس إلى الإسلام.

ويقول الشهرستاني[1] عنهم أنهم كانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم وكانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء ويظهر أن لفظة عبد أو عبيد كان يستعملها الفرس للعرب كثيراً[2].

حتى أن كسرى ابرويز اطلقها على الرسول ﷺ عندما أرسل له كتاباً يدعوه إلى الإسلام فقال: (يكتب إليّ هذا وهو عبدي)[3].

ويتضح لنا إذن أن الفرس كانوا يعتقدون أنهم أسمى منزلة، وأرفع مجداً من العرب وكانوا يجهرون بشعورهم هذا، وكان العرب يعرفون ما يتمتع به الفرس من بسطة السلطان، ورفعة الشأن ومع ذلك فإن العرب لم يخففوا من اعتدادهم بأنفسهم، ولم يقللوا من استمساكهم بعصبيتهم، والافتخار بفضائلهم وهذا منذ أيام الجاهلية وبعد أن بزغ فجر الإسلام وقضى على التعصب والحزبية القبلية صارت الافكار تتجه إلى أن تكون الرابطة التي تربط بين بني البشر جميعا هي الإسلام، قد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: (تآخوا في الله أخوين أخوين)[4] (المسلم أخُو المسلم لا يظلمهُ ولا يخذله ولا يحقره)[5] وغيرها من الاحاديث والآيات القرآنية[6] التي تؤكد على مبدأ الأخوّة وترفض العصبية. وعمل الرسول على رفع المخلصين من الموالي وتقريبهم إلى أعز مكان، وقربهم منه، وساوى بينهم وبين أشراف العرب مساواة تامة. وهذا بلال الحبشي كان من خاصة المقربين اليه وجعله أول مؤذن للمسلمين وكذلك سلمان الفارسي كان من خاصته وصاحب فكرة الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب.

ورغم هذا لا نستطيع أن نلغي أن هناك صراعاً قوياً قبل الإسلام بين العرب و الفرس وتعتبر «ذي قار»[7] نقطة تحول في تاريخ العلاقات بين العرب و الفرس وقد

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص115.
(2) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ص176.
(3) الاصفهاني: الاغاني، ج2، ص30.
(4) ابن هشام : السيرة النبوية، ج2، ص 150.
(5) احمد بن حنبل : المسند، ج 2، ص311.
(6) القرآن الكريم : سورة الحجرات، الايه 13.
(7) سجلت هذه الموقعة انتصار العرب على العجم وقد نشبت حين أبى النعمان أحد ملوك الحيرة =

اعتبرها الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك إذ قال عندما سمع بنصر العرب: (هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا)[1].

ويقول اليعقوبي: (وكانت وقعة ذي قار فمزقت العرب العجم وكان أول يوم ظفرت فيه العرب بالعجم)[2] وقد اعتبرت هذه الواقعة البداية الحقيقية لحركة الشعوبية، أو هي النواة الاولى لحركة الشعوبية قبل الإسلام، وعلى كل حال عندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم (570/ 632م) خلف وراءه منهجاً قوياً من العدل والاخاء و المساواة فسار عليه خلفاؤه من بعده، وحافظوا على الأمانة التي تركها في أعناقهم.

لقد بدأ فتح فارس زمن عمر بن الخطاب (13/ 23هـ)(634/ 644م)ولم تكن الغزوات التي قام بها العرب حاسمة أو منظمة حتى كانت موقعة القادسية 15 هـ وقيل 16 هـ وقد قال فيها بعض العرب: «حملنا على الأعاجم يوم القادسية حملة رجل واحد فهزمهم الله»[3]، وتبع انتصار «القادسية» سقوط «المدائن» عاصمة الامبراطورية الفارسية سنة 16هـ[4] وبعدها (جلولاء) وكانت معركة نهاوند سنة 19هـ وقيل 20 أو 23 هـ انتصاراً عظيماً للعرب حتى سموها «فتح الفتوح»[5] وتعاقب سقوط البلاد بعد هذه الموقعة واحدة بعد أخرى ولم يصمد الفرس في وجه العرب طويلاً.

وهكذا انتصر العرب على الفرس في صدر الإسلام انتصاراً حربياً وسياسياً وانقلبت الامور فأصبح العرب أسياداً على الفرس واتسمت العلاقات الدينية والاجتماعية بينهما بالعدل والمساواة في زمن الخلفاء الراشدين. وقد اقتبس عمر ابن الخطاب بعض النظم السياسية والادارية التي كان يسير عليها الفرس والبيزنطيون كنظام النقد، والنظام الاداري في تقسيمه للولايات، وقد ساد بين

= تزويج ابنته لكسرى ابرويز ملك الفرس واعتبرها كسرى امتهاناً له «راجع الاغاني للأصفهاني» ج 2، ص 29ـ 31؛ المسعودي: التنبيه والاشراف ص 407؛ الطبري، ج2، ص 148؛ ابن الاثير، ص 289.

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص 176؛ المسعودي: التنبيه والاشراف، ص 208.

(2) اليعقوبي: المصدر نفسه، ج1، ص176.

(3) الطبري: تاريخ الامم و الملوك، ص 135.

(4) البلاذري: فتوح البلدان، ص271، 273؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص123.

(5) البلاذري: المصدر نفسه، ص310، 314.

العرب و الفرس نوع من الهدوء حتى كان مصرع عمر بن الخطاب على يد فارسي هو أبو لؤلؤة ولم يكن الدافع شخصياً بسبب رفض عمر تخفيض خراج أبي لؤلؤة كان وراء ذلك أيضاً دافع سياسي يتمثل في ظهور أولى علامات الحقد السياسي الفارسي على العرب. ونذكر هنا قول عمر رضي الله عنه بعد موقعة (جلولاء) وماكان فيها من كثرة السبى إذ قال: (اللهم اني أعوذ بك من أولاد سبايا الجلوليات)[1] وكأن عمر يستشعر بما سيحدث من قبل الفرس من حقد وحسد وكراهية للعرب وقد قال أول ماعلم أن يداً فارسية هي التي قتلته (وماكانت العرب لتقتلني)[2] وغيرها من الاقوال التي تؤكد رفض عمر لهؤلاء العلوج[3]، زد على ذلك فان عمر كان دائماً يوصى بالأعراب خيرا لأنهم أصل العرب ومادة الإسلام وهذا ليس دليل تعصب ولكن حفاظاً منه على النسل العربي الذي بدأ يختلط في الحواضر مع بقية الاجناس الاخرى، وكان مقتل الخليفة عمر هو سبب حقد الشعوبيين من الفرس عليه بسبب فتحه لبلاد فارس، وقهره لرجالهم واسقاط ملوكهم وكان ذلك الفعل باعثاً فقط من بواعث الحركة الشعوبية إلا أنه ليس السبب الأوحد لظهور هذه الحركة لأنها كانت جنيناً في صدر الإسلام وبدأت بطابعها العنصري في العصر الإسلامي وقد أدى التنافر بين العرب والفرس في العصر الاموي إلى ظهور بوادر الشعوبية التي بدأت تنادي بمساواة العرب بالموالي خاصة بعد أن الصقت تهمة العصبية القبلية بالدولة الاموية.

اعتبر الرعية خلافة الامويين الوراثية تطاول على الإسلام، فكثر الأعداء من علويين وخوارج وزبيريين وغيرهم من العرب المسلمين، ومن غير العرب الموالي، وكانوا يؤلفون طائفة لايستهان بها من الامة الإسلامية، ووجدوا في أخطاء الخلفاء وأخطاء العصر فرصة كافية لبث حقدهم وكراهيتهم، واجتمع في قلوب تلك الفرق بغض الدولة الاموية والتآمر عليها، وانتهاز الفرصة للوقيعة بها.

ولهذا نجد الامويين لم يأمنوا جانب الموالي قط باستثناء عمر بن عبد العزيز.

---

(1) الدينوري : الاخبار الطوال، ص123.
(2) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة، ج12، ص144.
(3) ابن ابي الحديد : المصدر نفسه، ج12، ص145.

وقد عبر معاوية عن هذا الخوف ابلغ تعبير عندما دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب[1] فقال: (اني رأيت هذه الحمراء قد كثرت «أي الموالي» وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن اقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون) ولكن الأحنف اعترض بحجة أنهم تشاركوا في النسب، بينما وافق سمرة بن جندب على ذلك. ولكن معاوية نزل عند رأي الاحنف واقتنع به. وكان معظم العرب لايحسنون الكتابة والحساب فاعتمدوا على الموالي في وظائف الدولة[2] ومن ثم شعر الموالي بأهميتهم وعلو شأنهم وأدركوا حاجة الدولة الاموية اليهم في الحرب، كما شعروا بفضلهم على الأدب والعلم والدين، وعلى تقدم الزراعة والصناعة والتجارة[3].

وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى تفكير الموالي دائماً في إعلان الثورة على الدولة الاموية، والكيد لها بكل الوسائل، وكانت الشعوبية والزندقة من هذه الوسائل، فانضموا إلى جماعات الخوارج حينما نادوا بنظريتهم الديمقراطية في الخلافة إذ أعلنوا أن حق الخلافة شائع بين جميع المسلمين الاكفاء. وانضم الموالي إلى جميع ثورات الشيعة في بلاد العراق وخراسان، وكان معظمهم يؤمن بأن علي بن ابي طالب وأولاده من بعده أحق بالخلافة من بني أمية وخاصة الحسين بن علي الذي تزوج من احدى بنات يزدجرد آخر الأكاسرة الساسانيين. وانضم الموالي إلى كل ثائر ضد الدولة الاموية، فانضموا إلى عبد الله بن الزبير، ثم إلى المختار الثقفي، ثم إلى عبد الرحمن بن الاشعث، ويزيد بن المهلب وهما من غير الشيعة، بل انضموا إلى الخوارج وهم أعداء الشيعة الالداء، ولكنهم جميعاً يشتركون في معارضتهم للدولة الاموية.

كثر إقبال غير المسلمين على الإسلام فرفعت بذلك الجزية عن رؤوسهم. وقد دخل كثير من الموالي الإسلام ليتخلصوا من الجزية وتركوا قراهم وهرعوا إلى المدن ورغبوا في الالتحاق بالجيش لكي تكتب أسماؤهم في سجل العطاء

---

(1) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج2، ص261.

(2) ابن خلدون : المقدمة، ص136.

(3) سميرة الليثي : الزندقة والشعوبية، ص41.

ويضمنوا مرتباً ثابتاً مدى الحياة ولهذا أهملت الأراضي أو أجرت بإيجار أقل من إيجارها الأصلي. فنقصت من جراء ذلك الأموال المجتباة لخزانة الدولة. ولما هال الحجاج هذا النقص في خزانة الدولة وحدوث أزمة مالية في زمنه فرض الجزية على المسلمين الجدد «الموالي» والزمهم بالعودة إلى قراهم قائلاً لهم: (إنما الموالي علوج وإنما أتى بهم من القرى فقراهم أولى بهم)[1].

كما أعاد وضع الخراج على الأراضي التي أسلم أصحابها كما كان قبل الإسلام[2] وقد قيل عن الحجاج أنه (قهر العجم بالدهاء والزكانة)[3] ولم يلتفت التوحيدي إلى أن سياسة الحجاج الدالة على الدهاء بل على العكس من ذلك زعم أن هذه السياسة كانت سبباً من الاسباب القوية التي أدت إلى إثارة الموالي والعجم ضد بني أمية وكانت دافعاً قوياً لاثارة الثورات والشغب ومن العوامل التي أدت إلى ظهور بذور الزندقة والشعوبية في العصر الاموي، سياسة التعريب وموقف الفرس منها حيث اتبع الامويون سياسة التعريب في أجهزة الدولة فأثاروا بذلك سخط الموالي الفرس إذ اعتبروا هذه السياسة بمثابة المسمار الاخير في نعش القومية الفارسية.

فقد قام الخليفة عبد الملك بن مروان (65 -86هـ/ 684-705م) وواليه بالعراق الحجاج بن يوسف بتعريب الدواوين وسك عملة عربية جديدة وكان ديوان خراج السواد وسائر دواوين العراق مصبوغتين بالصبغة الفارسية حتى ولي الحجاج حكم العراق امر بتعريبها وإعطائها صبغة عربية خالصة[4] وكان لهذا التعريب اسوأ الاثر في نفوس الموالي حيث قضى هذا الامر على آخر مظهر من مظاهر الاعاجم، حيث قال مرداشاه بن زادن لصالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج (قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت الفارسية)[5].

ولم تكن سياسة بني أمية نحو الموالي في العطاء (اعطيات الجيوش) بأفضل من سياستهم في الجزية وإن نالهم شيء فهو النزر اليسير ويشهد على استياء

(1) المبرد: الكامل، ج1، ص 197؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، ص262.
(2) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج8، ص35.
(3) التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، ج1، ص47.
(4) الجهشياري: الكتاب والوزراء، ص38.
(5) البلاذري: فتوح البلدان، ص 301؛ الماوردي: الاحكام السلطانية، ص179.

العرب من المختار وعدم التفافهم حوله والتفاف الموالي حوله حيث وجدوا فيه الزعيم المنشود فتخلوا عن ابن الزبير، لأنهم رأوا في دعوة المختار بن أبي عبيد الثقفي (66هـ/ 685 م) فرصة للوقيعة بالعرب[1].

ورأى المختار في الموالي والفرس وسيلة لتحقيق أماله ومطامحه في السلطة والنفوذ فولاهم المناصب وأشركهم مع العرب في العطاء. وكانوا يسمون بالحمراء حتى أنه لم يكن في جيشه كلمة عربية واحدة[2] وزعم المختار أن جبريل يأتيه بالوحي من السماء[3] وأن له قرآناً خاصاً به[4] وأن الملائكة تحارب معه وكان يمسح على رأس ابنته ثم يقول: صلى الله على عيسى بن مريم، وكان يزعم (ان المسيح سيتزوجها)[5].

ويفسر البغدادي سر هذه المبادىء الغريبة بأن السبئية الغلاة قد خدعت المختار وحملته على ادعاء النبوة[6]، بينما يفسرها بروكلمان بأن المختار أراد أن يعوض ماكان يشعر به من نقص، حيث لم يكن له حق في الخلافة[7].

ومن خلال ما تم طرحه نعتقد أن المختار رفع هذه الشعارات الدينية المغالية لانها تتناسب مع أفكار موالي العراق والفرس الذين عرفوا المبادىء الزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها بدليل رضاهم عنه وتصديقهم له بأنه خرج للمطالبة بثأر الحسين في حين أنه أراد أن يرضى طموحه بتولّي منصب سياسي معين.

وكان من نتائج تلك الثورات ظهور بعض الاراء التي تتعارض مع منهج الإسلام وتميل إلى الشعوبية والزندقة وانضم الموالي بعد ذلك إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث الذي سمى نفسه «ناصر المؤمنين»[8] وكانت حركته حركة انفصالية تزعم بها موالي العراق من الفرس ضد خلافة بني أمية لأسباب شخصية وكان دافع كل

---

(1) المظفري : تاريخ الشيعة، ص36.
(2) الدينوري : الاخبار الطوال، ص200.
(3) ابن العماد : شذرات الذهب، ص84.
(4) ابن نوان : الحور العين، ص163.
(5) البلاذري : انساب الاشراف، ج5، ص236.
(6) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص31.
(7) بروكلمان (Brocklmann:carl) : تاريخ الشعوب الإسلامية، ج1، ص159.
(8) المسعودي : التنبيه والاشراف، ص272.

من اشترك فيها وانضم تحت لوائها كراهية الحجاج[1]. ثم انضم الموالي الفرس إلى يزيد بن المهلب الذي ثار على الخليفة يزيد بن عبد الملك (101هـ/ 721م) وقد عبر ابن المهلب عما في نفوسهم من كراهيته للشام وبني أمية، فكان لايترك مناسبة إلا شتمهم فيها بينما امتدح دائماً أهل العراق[2] ثم انضم الموالي إلى ثورة زيد بن علي الذي كان يفخر بأنه ابن أمه[3]. ثم أيدوا الحارث بن شريح[4] ودعوة الحارث دعوة عربية رفعت شعار «المرجئة»[5] تلك الفرقة التي كانت تقر المساواة بين المسلمين وتكفر أية حكومة تميز بين المسلم العربي وغير العربي وتدعو إلى محاربتها، وكانت تنشد العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الإسلامية، وهو المبدأ الذي اعترف به الإسلام، رفع الموالي شعار المساواة ضد دولة بني أمية بالرغم من أن دولة بني أمية اعتمدت على الموالي في الادارة، وكان يتولى رئاسة الشؤون المالية في العراق على عهد زياد بن ابيه (زادان فروخ) وهي وظيفة تعتبر من أولى مناصب الدولة وأخطرها. ولما خلف زياد ابنه عبيد الله على البصرة (55هـ / 675م) استعمل الدهاقين- وهم كبار ملاك الاراضي المحليين - في جباية الخراج لانهم (أبصر بالجباية وأوفى بالامانة)[6] ولم يتخل أحد من الحكام العرب طوال العصر الاموي عن سياسة الاعتماد على الموالي في الادارة، وفي نفس الوقت تمتع الموالي بمركز عظيم في الشؤون السياسية، وكانت لهم الحرية المطلقة في التعبير عن آرائهم وانتقاء من يرونه جديراً بالانتقاء من رجال الدولة الأموية، ومن أولئك الموالي رجاء بن حيوة، والحسن البصري الذي عاش كالزعيم في البصرة[7]، إذ لم يجرؤ أحد من الحكام العرب أن يمسه بسوء على الرغم من ظهور بعض معالم الحقد الشعوبي في تصرفاته. وبلغ من ثقة العرب بالموالي أن قتيبة بن مسلم الباهلي حين اتجه إلى فتح بلاد ماوراء النهر، اتخذ من الموالي في خراسان هيئة استشارية كهيئة أركان الحرب، منهم الفضل بن يسام

(1) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج8، ص15.
(2) المسعودي :مروج الذهب، ج3، ص315.
(3) المسعودي :المصدر نفسه، ج3، ص140.
(4) الطبري :المصدر نفسه، ج9، ص67.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص223.
(6) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص29.
(7) أحمد أمين :ضحى الإسلام، ص29.

البحتري بن مجاهد، وعبد الله بن أبي عبيد الله[1].

غير أن الموالي لم يتخلوا عن شعوبيتهم على الرغم مما قدمه العرب لهم من آيات المودة والإخلاص، فقد دخل الموالي في الإسلام، وتعلم كثير منهم العربية حتى ظهر من بينهم من يتكلم بها كأحد أبنائها، ولكن دون أن يصبحوا كالعرب في عقيدتهم أو في تقاليدهم ونزعاتهم، وفي نفس الوقت حرص كثير من أولئك الشعوبيين على صبغ الإسلام بصبغتهم الفارسية حيث لم يتجرد البعض منهم من عقائد دينهم القديم، وبدأوا يتمادون في تأويل التعاليم الإسلامية ويمزجونها بما يستطيعون مزجه من تعاليم الوثنية القديمة، وكرس بعض العلماء من الشعوبيين ما أوتوا من مقدرة على نشر الاباطيل بين العرب[2] ولاسيما تحت شعار النهضات الادبية والعلمية التي أخذت تسود مجتمع أهل العراق المجاور لهم. وأسس العرب بالعراق بعد أن استتب لهم أمر مدينتين صار لهما أثر كبير في التيارات السياسية التي القى بها الشعوبيون ضد الامة العربية. ذلك أن هاتين المدينتين وهما البصرة والكوفة خططتا على وفق النظام القبلي ومستلزماته[3] بحيث عاشت كل قبيلة في جهة من جهاتها، واتخذت لنفسها مساكن خاصة بها وببطونها وافخاذها، فسكنت قبائل الجنوب في الكوفة مثلا في القسم الشرقي وبلغ عددهم اثني عشر الفاً على حين سكنت قبائل الشمال من النزاريين القسم الغربي، وكان عددهم ثمانية آلاف واتاحت هذه التفرقة في السكنى للشعوبيين التسلل ضد الاحياء العربية تحت ستار الموالاة وكان يبلغ عدد الفرس في العراق 50 ألفاً[4] عدا الموالي المسلمين منهم. وكان من بينهم الاساورة وهم قوم من فرسان الفرس نزلوا البصرة، وانضموا إلى تميم أقوى القبائل العربية هناك[5] وساعد توزيع الموالي على انطلاق الشعوبين بين الصفوف العربية، ولاسيما انهم اشتغلوا بالكثير من الحرف فسيطروا على العمود الفقرى للحياة الاقتصادية في كل من البصرة والكوفة، وقد لعبت الكوفة منذ تكوينها واتخاذها منذ صدر حياتها عاصمة

---

(1) الريس : الخراج في الدولة الإسلامية، ص253.

(2) عبد الرحمن بدوي : الالحاد في الإسلام، ص24-25.

(3) انظر المبحث الثاني من التحولات الاقتصادية والاجتماعية.

(4) البلاذري : فتوح البلدان ص 372؛ أحمد امين : فجر الإسلام ص180-181

(5) البلاذري : المصدر نفسه، ص372.

لخلافة علي بن ابي طالب. مركزا ثقافيا هاماً أتاح للشعوبيين نشر سمومهم الدينية واباطيلهم الاجتماعية.

أثر الشعوبية في الصراع بين فرق الغلاة

وجد الشعوبيون الثغرة المواتية للهجوم على الأمة العربية حين وقع الخلاف بين أبنائها عقب قتل الخليفة عثمان بن عفان (23-35هـ/ 644-655م) وما تلاه من قيام صراع قوي وعنيف بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان خاصة وان تلك الاحداث قسمت الامة العربية شيعاً متنافرة، اتخذت كلٌ منها لنفسها مبادئ سياسية وأراء دينية وكان أهمها فرقة الخوارج، وفرقة الشيعة وفرقة المرجئة وتنازعت كل فيما بينها بحيث أتاحت السبيل أمام الشعوبيين للتسلل إلى كل منها ونشر سمومها بين أفرادها وتوسيع شقة الخلاف بينهم بما يحقق مآربهم ونزعاتهم المعادية للعرب وقد سعت كل فرقة منهم إلى استمالة الموالي الفرس وممالئتهم في أرائهم وعقائدهم، وكانت أولى الفرق الدينية التي تسلل عن طريقها الشعوبيون ضد العرب هي فرقة الخوارج فقد ضمت هذه الفرقة الموالي إلى صفوفها منذ خروج أصحابها عن علي بن أبي طالب في موقعة النهروان38هـ/ 658م[1] خاصة بعد اتخاذ الخوارج مبدأ سياسياً جاء ملائماً تماماً لمطامع الشعوبيين وهو يقول بأن الخلافة يجب ألا تقتصر على قريش أو على العرب انفسهم، وانما يصلح لهذا المنصب كل شخص عربي كان أم غير عربي، بل ذهبوا إلى أن عبداً حبشياً لايقل أهلية للخلافة واستعداداً عن سليل أعظم القبائل حسباً ونسباً[2].

وأبدى الموالي اعجابهم بمبادئ الخوارج «الديمقراطية» وتمسك الخوارج بالدين واتصفوا بالزهد والتقوى والصلاح وكان لهروب الخوارج من أمام الجيوش الاموية واتجاههم نحو مقاطعات فارس، ولاسيما في الجهات الغنية منها مثل سجستان وخراسان وكرمان، وهناك التف الموالي حول اولئك القادة الذين أسسوا لأنفسهم جماعات تنافست في وضع المبادئ التي تشجع أولئك الانصار الجدد على التفانى في القتال معهم.

---

(1) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص159.

(2) جولد تسيهر (Gold ziher : lgnaz): العقيدة والشريعة في الإسلام، ص170، 171.

وكانت اخطر تلك الجماعات من الخوارج فرقة الازارقة التي اتخذت من الاهواز مقراً لها ومركزاً لعملياتها الحربية[1] كما أقبل الفرس على اعتناق مبادئ الشيعة، مما أدى إلى تطوير عقائد وآراء الشيعة حتى تناسب عقول ونفوس وأهواء هؤلاء الموالي ووجد الشعوبيون عُشهم الامين، والمجال الخصب لتسللهم في فرقة الشيعة التي عارضت الخوارج في مذهبهم السياسي و الديني و التي برزت في عهد علي بن ابي طالب ثم في عهد المختار الثقفي وكان موطنهم الكوفة وسوادها، وكان معظمهم من الموالي وان كان عبد الله بن سبأ يهودياً في الاصل ويؤمنون بما ذهب اليه مؤسسهم ابن سبأ من الرجعة أي رجعة الارواح في أجساد مختلفة، ثم تأتي فرقة الكيسانية وهي فرقة مغالية شيعية حيث ألفها محمد ابن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية[2] بعد مصرع اخويه الحسن و الحسين، وكان لهذه الفرقة أثر كبير في تمهيد السبل أمام التسلل الشعوبي ضد العرب، ونادت الكيسانية بمبادئ خطيرة من شأنها إضعاف الإيمان في النفوس فقالوا :(إن لكل ظاهر باطناً، ولكل شخص روحاً، ولكل تنزيل تأويلاً ولكل مثل في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم. وهذا العلم الذي استأثر علي رضي الله عنه به ابنه محمد بن الحنفية، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا)[3] وساعد هذا القول بالتأويل إلى تسرب الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة، والنيل من العرب في شخص دينهم خاصة وأن الكيسانية نادت بتناسخ الارواح، وبالرجعة، اي رجعة الامام بعد موته وساعدت هذه الآراء على ظهور عدد من الشعوبيين اختلقوا الكثير من البدع والاباطيل للنيل من الدين الإسلامي.

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص63.

(2) كان محمد بن الحنفية أخاً للحسن والحسين، ولكن من أم غير فاطمة الزهراء وصار بعد وفاة أخويه محط آمال الشعوبية من أعداء الامة العربية وقد تبرأ محمد بن الحنفية من الآراء التي نادى بها الكيسانية وما امتلئت به من أباطيل، الشهرستاني : الملل والنحل ص196.

(3) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص198.

الدعاة العباسيون ومدى ارتباطهم بمفهوم الزندقة والشعوبية

بالرغم من أن معظم قادة الدعوة الإسلامية كانوا عرباً، وقلة منهم كانوا موالياً، فإننا لا نستطيع أن نلغي الدور الذي قام به الفرس والذي كان سبباً في إذكاء التيار المعادي للإسلام والعروبة وكان له أثره في ظهور حركات الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الاول(132هـ/ 842م) وقد أساء بعض العرب من دعاة الدولة العباسية إلى العروبة، وأجادوا في الرفع من شأن الفرس لكي يكسبهم إلى جانبهم حيث قال الطبري: (يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الاولين وكانوا يقصرون على عدوهم لعدلهم، وحسن سيرتهم، حتى بدلوا وظلموا فسخط الله عليهم فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة كانت في الارض عندهم) «يقصد العرب»[1].

ومن الدعاة الذين تم اتهامهم بالزندقة، خداش، وهو من اوائل الدعاة العباسيين ومن أقدمهم عهداً بهذه الدعوة وقام بمجهود لنشر الدعوة في خراسان 118هـ/ 737م وهي السنة التي قتل فيها.

ويقول فلهوزن عن خداش: (إن الخميرة، أو الطعم الذي رمى به بين مبادئ حزب الشيعة هو مذهب الخرمية)[2] والخرمية نزعة إباحية عامة، ويقول أن الخرمية، والراوندية قد نادت بالدعوة إلى الشيوعية في النساء وهي الشيوعية التي كان مزدك قد دعى اليها من قبل.

وهكذا هم يصلون مذهبهم بالديانة الوثنية التي كانت في بلاد العجم من قبل، واعتقد ان ما جاء في كتاب فلهوزن[3] من ارتباط الدعوة العباسية بالزنادقة بقوله «إن العباسيين في ذلك الوقت جمعوا الزنادقة حولهم وهم لم ينبذوهم إلا فيما بعد ولم يظهروا بمظهر المتمسكين بمذهب الجماعة وأهل السنة الآ بعد أن

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ص106. يشكك شاكر مصطفى في مصداقية هذه الوصية التي وردت عند الطبري بدون إسناد وترد عند ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة بشكل مرتبك وخاصة فيما يخص رواياته عن العباسيين، ولاذكر لها عند اليعقوبي، والمسعودي، والدينوري ويؤكد شاكر مصطفى أن أهل خراسان هم عرب وهم الذين اعتمد عليهم إبراهيم الامام في دعوته. انظر شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص130-131.

(2) فلهوزن (Flhowzen) : الدولة العربية، ص487.

(3) فلهوزن :(Flhowzen): الدولة العربية، ص487.

وصلوا إلى غايتهم». وهذا الأمر بعيد كل البعد عن الصحة فالعباسيون استغلوا الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للموالي لكي يضمنوا انضمامهم حولهم من أجل نصرة دعوتهم لكنهم أبداً لم يشجعوا الزنادقة الذين استغلوا الدين وافتروا عليه وحاولوا أن يمزجوه بشعائرهم الوثنية الأعجمية، فالعباسيون هم قبل كل شيء أبناء عم الرسول عليه السلام وهم عرب أولاً وأخيراً ولن يفعلوا ذلك بقصد حتى لو حدث في عهدهم، ليس هذا الكلام للعباسيين تنزيهاً ولكن لأن الأخبار التي وردت عند بعض المستشرقين من أمثال فلهوزن، فان فلوتن، شككوا بمقتضاها في مصداقية الدعوة العباسية باعتبارها دعوة عربية وإسلامية وصدق نصر ابن سيار في شعره حين أحسّ بالخطر الذي تواجهه العروبة والعرب[1]. ولانستطيع ان ننكر ان للدعوة العباسية أثرها في بعث الوعي القومي عند الفرس، وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية الفارسية، وخاصة الزرادشتية والخرمية والمانوية والمزدكية ومن المتعذر الفصل بين النشاط الديني والسياسي، فالحركات الزرادشتية الجديدة كحركة (بيها فريد 132هـ/ 750م) وحركة (استاذ سيس 50هـ)[2] حاولت تجديد الزرادشتية بتطعيمها ببعض الآراء الإسلامية وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشر دعاتها في فارس وكان هدفها ضرب الإسلام واعادة السلطان إلى الفرس وقد حاولت الخرمية الاستتار باتخاذها من بعض مبادىء الغلو سبيلاً للظهور بمظهر إسلامي.

ورغم الضربات القوية التي تعرضت لها الدولة الإسلامية العباسية من الزنادقة نتيجة ازدياد النفوذ الفارسي إلا أن العروبة ظلت كامنة في الحضارة العربية الإسلامية وكان أساس احتفاظ العرب بعروبتهم هو الدين الإسلامي وظلت اللغة العربية لغة الإسلام، ونستطيع ان نقول ان الفرس انتصروا من الناحية السياسية والادارية في بعض الاوقات لكنهم فشلوا دينياً ولغوياً، فالنصر كان للعرب

---

(1) ليسوا إلى عرب منا، فتعرفهم ... ولاصميم الموالى، إن هم نسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به ... عن الرسول ولاجاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تقتل العرب
الدينوري : الاخبار الطوال ص343.

(2) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص41؛ أحمد العدوي :المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص100.

وحركات الزندقة التي كانوا ينفثونها من حين لآخر أخمدت في قوة، وإن تركت بعض أثارها في ثقافة المسلمين وفي بعض نشاطاتهم العقائدية المتمثلة في الفرق المغالية.

أثر الزندقة في تسلل الديانات الوثنية القديمة إلى فرق الغُلاة :

لقد سعى الناقمون على السلطة بشكل عام سواء كان ذلك في عهد بني أمية (41-127هـ / 661-750م)او في عهد بني العباس (132-334 هـ/ 750-945م) إلى إحياء الديانات الوثنية القديمة، وإشاعة ما فيها من تعاليم فاسدة مليئة بالاغراء والداعية إلى ارتكاب المحرمات والانغماس في أساليب الضلال ونشر الريبة والشك في نفوس الضعاف، مستهدفين تحطيم ذلك السياج الديني في خراسان ايام تولي أبي مسلم مسؤولية نشر الدعوة فيها للعباسيين سراً واستهل طلائع التسلل الديني، والعمل على إحياء الديانات المجوسية القديمة خاصة بعد ظهور «بيها فريد» في خراسان أيام أبي مسلم وقد قدم هذا الرجل بعد إقامة الصين التي استمرت سبع سنوات حاملا معه كتب الديانات الصينية الوثنية، والتي استغلها حيث زعم انه قدم من السماء حيث شاهد فيها الجنة والنار وان الله قد منحه هذا القميص العجيب الذي يمكن طيه ووضعه في قبضة اليد وبعث به من السماء ليهدي الناس إلى الصواب[1].

وقد جدت هذه المزاعم قبولا من بين اصحاب العقائد الوثنية، نشر بينهم فكرة الحلول أي أن روح الله تحل في شخص ثم تنتقل منه إلى آخر وهكذا، بحيث تمنح صاحبها الخلود وبث فكرة «الرجعة» أي أن الانسان الذي سبق أن حل فيه روح الاله، يرجع بعد موته إلى الدنيا ويتابع رسالته[2].

وظلت تعاليم «بيها فريد» تنتشر في خراسان حتى وجدت متنفسا لها ضد العرب بعد مقتل ابي مسلم الخراساني خاصة وأن أحد معتنقيها هو سنباذ المجوسي وقد كان أحد أصدقاء ابي مسلم وأحد المقربين في جيشه وحين علم بمقتل ابي مسلم أعلن الثورة 127هـ / 755م، ودعا الناس إلى الانتقام لمقتل ابي

(1) ابن النديم : الفهرست، ص344.

(2) Browne: lit Hist of persia p309-310 نقلا عن سميرة مختار الليثي : الزندقة والشعوبية، ص113.

مسلم[1] واستغل في دعوته تعاليم «بيها فريد» حيث ادّعى أن ابا مسلم لم يقتل لأن الخليفة ابا جعفر المنصور 136/ 754م حين هدد الزعيم الخراساني بالموت دعا اسم الله العظيم، وحوّل نفسه إلى حمامة بيضاء وهرب[2].

وقد آمن كثير من الناس بهذه الترهات، وازداد عدد أنصار سنباذ حتى بلغوا مائة الف ثائر، يحملون جميعاً السلاح، وامتدت الثورة في نيسابور إلى قومس، والري، واستفاد سنباذ من الاموال الكثيرة التي حوتها خزائن ابي مسلم والتي سلمها ابو مسلم له قبل رحيله للقاء الخليفة[3] ولم تكن هذه الحركة من أجل الثأر لمقتل أبي مسلم أو الانتقام من الخليفة العباسي فقط، بل كانت موجهة ضد الإسلام وتحمل طابع الإلحاد والزندقة، خاصة بعد تهديده بزحف إلى بلاد الحجاز وهدم الكعبة وسائر الأماكن المقدسة. وقد أدرك الخليفة ابو جعفر المنصور خطورة هذه الحركة الهدامة فقضى عليها بقيادة «جهور بن قرار العجلي» وقد قتل سنباذ نفسه من طبرستان وقومس ولم تعش هذه الحركة إلا سبعين يوماً[4].

ثم ظهرت حركة اخرى عرفت بحركة ابي اسحاق التركي ورد اسحاق في بلاد ما وراء النهر فردد آراء الفرس الدينية القديمة التي ترى ان قادتهم امنع من أن يصيبهم أحد بسوء، وأنهم لم يموتوا وذكر أن ابا مسلم لم يمت وانه سيعود مرة أخرى ليقود أتباعه ولم تنجح هذه الحركة وقضى عليها في فترة لم تتجاوز سبعين يوما مثل سابقتها.

أما الراوندية وهي من أبرز فرق الغلاة الذين اعتقدوا بحلول جزء الهي فيه وأنه الامام ويقصدون أبا مسلم الخراساني وشاركهم في ذلك «المسلمية» الذين اعتقدوا بأنه لم يمت وسيعود ليملأ الارض عدلاً ويعيد السلطة اليها. وقد بدأت هذه الدعوة تظهر وتنتشر في اواخر العصر الاموي إبان اشتداد التذمّر بين الفرس على العرب فقد ظهر رجل أبرص يدعى «الأبلق» ودعا الناس إلى تعاليم فاسدة (فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن ابي طالب ثم

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج9، ص169.
(2) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص169.
(3) الطبري :المصدر نفسه، ج9، ص169.
(4) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص106.

في الائمة واحداً بعد واحد إلى ابراهيم بن محمد (سبط العباس عم النبي) وانهم آلهة[1] وهكذا دعا الابلق إلى نظرية الحلول وتناسخ الارواح، كما دعا إلى ان الايمان بذلك هو الدين، ولاداعى إلى التمسك بفرائض الإسلام، كما أباح المحرمات والملذات ليشجعهم على الانضواء اليه فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة، منهم إلى منزله، فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم المحرمات[2].

ظهرت هذه التعاليم في أواخر العصر الاموي في عهد الوالي الاموي أسد بن عبد الله القسري حيث قبض على كثير من الراوندية وقتلهم وصلبهم ثم تطورت هذه الحركة عندما زعموا أن روح آدم قد حلت في عثمان بن نهيك، رئيس حرس الخليفة المنصور الخاص وأن الخليفة المنصور هو ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم[3] وقد كان ذلك بدافع الحقد على الخليفة المنصور 136-185هـ/ 754-785م للاساءة إليه لإقدامه على قتل ابي مسلم الخراساني وهذه الفكرة تتلاءم مع عقلية الفرس الذين كانوا يؤمنون بنظرية الحق الملكي المقدس، وكان العباسيون يرون أن الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله لامن الشعب، وكان المنصور نفسه يقول: (انما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله أقسمه بإرادته.)[4].

وقامت جماعة من الراوندية بالطواف حول قصر المنصور في الهاشمية ويقولون (هذا قصر ربنا)[5] مما دفع بالمنصور أن يتخذ موقفاً حازماً إذ أدرك خطورة تعاليمهم على الدين الإسلامي وعلى سلطة العباسيين انفسهم فسجن مائتين من رؤساء الراوندية[6] كما أصدر أمرا بألا يتجمع الراوندية عند قصره أو يطوفون حوله وعندئذ نادى الراوندية بأنه يحل لهم قتل المنصور لانه رفض أن يكون إلهاً لهم، وفعلاً اعلنوا الثورة ضد المنصور حيث ثاروا ضده ودخلوا السجن عنوة فأخرجوا أصحابهم واشتبكوا مع حراس القصر في معركة قادها

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج9، ص147.
(2) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص147.
(3) الطبري : المصدر نفسه، ج9، ص147.
(4) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص263.
(5) الطبري :تاريخ الامم والملوك، ج8، ص147.
(6) العدوي : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص106.

الخليفة بنفسه وبمعاونة معن بن زائدة القائد العربي الأموي واستطاعا الانتصار عليهم[1]، مما جعل الخليفة يكافئ معناً بعشرة ألاف درهم وولاه على اليمن[2].

و كان من نصيب عهد الخليفة المهدي (158-169هـ/ 775-785م) ظهور حلقة جديدة من حلقات الزنادقة وهي حركة (المقنع الخراساني) التي واجهت العصر العباسي الاول خاصة وأن المهدي كان من أكثر الخلفاء العباسيين تديناً وتمسكاً بتعاليم الإسلام مما دفعه للوقوف بقوة وحزم ضد هذه الحركة[3].

وظهرت حركة المقنع سنة 161هـ في خراسان وفاقت الروانديه في دقة التنظيم، والمقدرة على إحياء التعاليم المجوسية الفاسدة والتف حولها ضعيفي الايمان، وصارت مصدر خطر على السلطات العربية زهاء أربعة عشر عاماً[4].

وتزعم هذه الحركة رجل يدعى حكيم المقنع، وينتسب إلى قرية من قرى مرو بخراسان، وكان قبيح الوجه، أعوراً، قصيراً وسمي بالمقنع، لأنه أدرك قبح وجهه واستاء من نفور الناس منه فأراد أن يخفي وجهه فصنع قناعاً من الذهب على صورة وجه انسان وركبه على وجهه واحتجب عن الناس ببرقع من حرير[5] ولم يفض المقنع إلى اتباعه بسر اتخاذ هذا القناع الذهبي وزعم انه يشع من وجهه نور ساطع يبهر الانظار وقد تحرق من يقع عليه.

كان المقنع في بداية دعوته يعتنق مذهب «الرازمية» وهم فرع من فروع حزب الشيعة الذي ساق الإمامة إلى محمد بن علي بن ابي طالب المعروف باسم «ابن الحنفية» ثم إلى ابنه ابي هاشم، ثم علي بن عبد الله بن العباس أول الخلفاء العباسيين ثم انتقلت الامامة إلى ابي مسلم الخراساني داعية العباسيين الأول وقد ذكرهم الشهرستاني بقوله (أن الرازمية ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم وقالوا عن حلول روح الاله فيه)[6]، ولهذا أيده على بني أمية، حتى قتلهم عن بكرة أبيهم، واصطلمهم أي «استأصلهم».

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج6، ص149.

(2) الفخري : المصدر نفسه، ص143.

(3) يقول ابن طباطبا في الفخري، ص161 (كان المهدي شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد والزندقة لاتأخذه في إهلاكهم لومة لائم).

(4) العدوي : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص110.

(5) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص243.

(6) الشهرستاني :الملل والنحل، ج1، ص137.

ويرى الشهرستاني أيضاً أن الرازمية صنف من الخرمية نادوا بترك الفرائض وقالوا (الدين أمران، معرفة الامام وأداء الامانة، ومن حصل له الامران فقد وصل إلى الكمال وارتفع عنه التكليف) ونادى المقنع بالمعتقد الذي يؤمن به وهو «تناسخ الأرواح»[1] كما ادعى الالوهية، ونظر المقنعية إلى ابي مسلم نظرة تقديس وهم ينكرون موته ويقولون الذي مات هو شيطان تمثل على صورة ابي مسلم[2] واعتبروه افضل من جبريل وسائر الملائكة[3] ثم بادر المقنع بالهجوم على البلاد العربية بعد أن استكمل خططه الدينية والحربية، فعمد إلى نشر دعوته في بلاد ما وراء النهر كذلك جمع ما فيها من عناصر دينية كارهة لسلطان العرب[4] خاصة وأن تلك البلاد سادت فيها المعتقدات الفاسدة عرف الضار منها باسم «المبيضة» ولم يعترفوا بأي سلطان للدولة العباسية عليهم واقامت غالبية المبيضة في منطقة الصغد التي سبق أن أعلن أهلها العصيان على الامويين، بانضمامهم إلى ثورة الحارث بن شريح، فقبلت تلك الفرقة محالفة المقنع، وجمعوا اليه ايضا الكثير من القبائل الوثنية[5].

والبغدادي: يعتبر المبيضة هم المقنعية ويصف زعيمهم بنفس صفات المقنع وكان يتقن شيئاً من الهندسة والحيل[6]، وكانت المجوسية لاتزال منتشرة في الاطراف الشرقية من الدولة العباسية فهي دين متوارث عن الاباء والاجداد، ورمز للقومية الفارسية والمجد التليد المفقود وقد تحالف المقنع مع كثير من القبائل التركية الوثنية، فاجتمع له آلاف من الاتباع، ثم بدأ يهاجم منازل العرب في الجهات المجاورة له، ويقتل الكثيرين منهم ويستولي على منازلهم ومتاعهم[7].

شعر المهدي بخطورة المقنع وخطورة حركته التي تهدم أركان الإسلام،

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج6، ص367.
(2) النوبختي : فرق الشيعة، ص24.
(3) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص205.
(4) ابن خلكان : الملل والنحل، ج1، ص205، 207؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص341، 342.
(5) العدوي : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص112.
(6) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص341، 343
(7) الطبري : المصدر نفسه، ص376؛ ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج9، ص4.

لاسيما وأنها تجد أبا مسلم الخراساني الذي تخلصت الدولة العباسية منه مازال حياً، وأن روح الإله فيه وازدادوا إمعاناً في نشر مبادىء مزدك الفوضوية التي تهدد سلامة المجتمع الإسلامي ونظم الدولة الإسلامية. لهذا أعد المهدي جيشاً هائلاً في سنة 161هـ/ 778م لتدمير قلاع المقنع والقاء القبض عليه، وقد استطاع هذا الجيش العربي الاستيلاء على كثير من قلاع المقنعية، حتى اضطر كثير منهم إلى الهرب إلى القلعة التي يقيم فيها المقنع نفسه في منطقة «كش» وحاصر الجيش العباسي هذه القلعة طويلا، ورغم توافر التموين في القلعة إلا أن كثيراً من أنصار المقنع ضاقوا بالحصار الطويل، وخرجوا من القلعة يسلمون أنفسهم إلى قائد المهدي، وبقي المقنع في قليل من أنصاره[1].

وعندما علم بقرب نهايته وخوفاً على نفسه من أن يقع في أيدي العباسيين فينزلوا به العقاب، فضل أن يشعل النيران في القلعة وأحرق كل مافيها من دواب وثياب ومتاع، وأذاب النحاس والسكر في التنور وجمع نساءه وأولاده وطلب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم في النار ليرتفعوا في السماء. وعندما رفض أتباعه أن يستجيبوا إلى طلبه، إما لحبهم للحياة أو لاكتشافهم احتياله وخداعه مما جعل المقنع يتبع وسيلة أخرى وهي أن يشرب شراباً مسموماً وطلب من أتباعه أن يشربوا منه دون أن يعلموا مابه وقال لهم: أنا صاعد إلى السماء، وشرب أتباعه فماتوا والقى المقنع بجثثهم وبجثث نسائه وأطفاله في النيران، ثم ألقى نفسه أخيراً في النار، وحتى لايظفر العباسيون بجثته وجثث أسرته وأتباعه[2].

وهكذا قضى على المقنع وكثير من أتباعه ولكن تعاليمه الفاسدة ظلت على الحياة، فيقول البغدادي[3]. (وأحرق المقنع نفسه في تنور في حصنه.. وافتتن به أصحابه بعد ذلك لما لم يجدوا له جثة ولارماداً وزعموا أنه صعد إلى السماء، وأتباعه اليوم في جبل العراق الآن، ولهم في كل قرية من قراهم مسجد لا يصلون فيه، ولكن يكترون مؤذناً يؤذن فيه وهم يستحلون الميتة والخنزير، وكل واحد

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج6، ص376.

(2) الطبري المصدر نفسه، ص334؛ الفخري، ص162.

(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص259 ومبادىء هذه الفرقة موجودة الآن في العراق وتعرف بعبدة الشيطان :جريدة اخبار الادب / عدد خاص العدد 188 الاحد 8 شوال 1417هـ الموافق 16 فبراير 1997م جمهورية مصر العربية.

منهم يستمتع بامرأة غيره وإن ظفروا بمسلم لم يره المؤذن في مسجدهم قتلوه وأخفوه، غير أنهم مقهورون بعامة المسلمين في ناحيتهم.

ونتيجة لهذه الحركات الزندقية رأى المهدي (158هـ/ 775م) أن تيارات الزندقة لم يقتصر ظهورها على شكل الثورة المسلحة التي قادها المقنع الخراساني بل قد امتدت إلى مدينة بغداد وكثير من مدن بلاد العراق وقد تزندق عدد من عامة الناس فضلا عن بعض وجوه القوم والشعراء والادباء كما ذكرنا فيما سبق في حركة الشعوبية مما جعل المهدي يدرك الخطر الذي يهدد كيان الامة الإسلامية التي قامت على أساس ديني، ولذا أنشأ المهدي ديوان الزنادقة، واجتهد في «طلب الزنادقة» والبحث عنهم في الافاق وقتلهم[1].

وأصبح رئيس هذا الديوان يطلق عليه اسم «صاحب الزندقة» وعهد المهدي اليه بتتبع الزنادقة وقتلهم والعمل على محو تعاليمهم وقد وصف ابن طباطبا (كره المهدي للزنادقة بقوله وكان المهدي شديداً على أهل الالحاد والزنادقة لايزال يتطلع عليهم ويفتك بهم)[2] كما قال السيوطي: (وجدّ المهدي في تتبع الزنادقة وإبادتهم والبحث عنهم في الافاق والقتل على التهمة)[3] ونظرت الدولة العباسية إلى هؤلاء الزنادقة ايضاً على انهم أعداء سياسيّون يريدون هدم الدولة العباسية وإقامة دولة فارسية أحياناً أو خلافة علوية أحياناً أخرى. وكان المحتسب أو صاحب الشرطة يتولى من قبل حماية الدين والآداب العامة وتتبع المفسدين والمضللين وقد يكون في الامر أحياناً بعض التجاوزات التي قام بها بعض الولاة وأصحاب النفوذ الذين استغلوا هذه الأوضاع ورموا كل معارض لهم بتهمة الزندقة لكي يتخلصوا من معارضيهم، وقد أطلق على رئيس الديوان اسم صاحب الزنادقة وكان أول من قبض عليه هو يزيد بن الفيض كاتب الخليفة المنصور الذي اعترف بزندقته، فأمر صاحب الزنادقة بسجنه وقد أشرف الخليفة المهدي بنفسه على تتبع الزنادقة يتضح هذا من خلال رحلته التي قام بها إلى بلاد الشام، ففي مدينة حلب علم المهدي بوجود جماعة من زنادقة العراق قد خرجوا إلى حلب ناجين بأنفسهم، فأمر المهدي بالقبض عليهم ومحاكمتهم، حتى إذا ثبت عليهم الاتهام

(1) الطبري : المصدر نفسه، ص289.
(2) ابن طباطبا : الفخري، ص165.
(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص273.

بالزندقة أمر باعدامهم[1].

وتبدو خطورة حركات الزنادقة في الميدان الديني، في محاولات الزنادقة الترويج لتعاليم ماني بين طبقة الصوفية والزهاد حتى أنهم شوهوا آراء الطبقة الصالحة وجهادها[2].

ولعل أخطر فئات الزنادقة هم الفئة التي تظاهرت باعتناق الإسلام وأخفت نواياها الهدامة وقد قال السيد المرتضى عن هذه الفئة: (إنها جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ويحقن باظهار شعاره والدخول في جملة أهله، دمه وماله، زنادقة وملحدون، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ لأنهم يوغلون في الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأي جامع. .)[3].

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعداه إلى تزييف وتزوير الاحاديث النبوية الشريفة فقد وضعوا الاحاديث الكثيرة في فضل الفرس وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين مثل ما روي أن الاعاجم ذكرت عند الرسول ﷺ فقال (لأنها بهم أوثق مني بكم).

وفي حديث (لاتسبوا فارسياً فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلا) وغيرها من الأحاديث ومن أشهر المحدثين الذين أسرفوا في اختراع الأحاديث ووضع المكذوب منها، عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي عرف باتصالاته بالحسن البصري، وجعفر الصادق، ويقول البغدادي عنه أنه كان مانوياً يؤمن بالتناسخ ويميل إلى مذهب الرافضة ويقول بالقدر[4]، ويتخذ من شرح سيرة مانى وسيلة للدعوة وتشكيك الناس في عقائدهم، ويتحدث في التعديل والتجديد.

وقد شكك الاصفهاني في صدق أحاديثهم فقال: (قال له عمر بن عبيد، قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزلّه وتدخله في دينك)[5] وكما أقدم الفرس على وضع الاحاديث النبوية لابراز فضلهم على العرب، لجأ العرب أيضاً إلى وضع الاحاديث الشريفة لتفضيل العرب، مثل (من غش العرب لم

---

(1) الاصفهاني : الاغاني، ج6، ص67.
(2) العدوي : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص189
(3) امالي السيد المرتضى، ج1، ص127، 128.
(4) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص349.
(5) الاصفهاني : الاغاني، ج3، ص147.

يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي) وقيل (أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي)[1].

وامتدت أيدي الزنادقة العابثة إلى كتب الفقه، ففسرت مابها من أحكام ودست الاحكام الزائفة، التي تثير القلق والبلبلة وتناولت معاملات الناس، وإثارة الجدل والمجادلات، مستهدفة التفرقة بين الكبيرة منها والصغيرة، حتى يصبح أمام ضعاف النفوس ثغرة ينفذون منها إلى ارتكابها.

وبلغت موجة الالحاد أوجها بإنكار الاديان كلها بما فيها الإسلام بعدما فشلوا في إحياء الاديان المجوسية القديمة محاولين بذلك إرباك العقائد وتشويه المفاهيم الإسلامية كما دعت إلى المجون واللهو وتحريم الخمر وتحليل النبيذ والدعوة إلى الاباحية والخلاعة والى التعرض للدين والسخرية منه كما قال شاعر الزنادقة ابي نواس[2]، كما اشتهر بشار بن برد بشعره الذي يحث على الفسوق وكثرة الكلام حول زندقته، وكانت لبشار نزعة مانوية واضحة، وخاصة إذا لاحظنا أن شعره وقصائده كان يتغنى بها في دوائر أتباع ماني وتستعمل في الصلوات[3].

وقد انتقل الزنادقة من الدعوة إلى المجون والخلاعة إلى مرحلة أخرى أكثر خطورة وهي اغتيال معارضيهم ومناوئيهم من أهل التقوى والورع وعرف غلاة الزنادقة والشعوبين باسم الخناقين وظهرت فرقة في الكوفة مثل المغيرية، والمنصورية، وظهر نشاطها واضحاً.

ويقول النوبختي عن ابي منصور رئيس المنصورية (أنه كان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم بقتلهم بالاغتيال، ويقول من خالفهم فهو مشرك، فاقتلوه فإن هذا جهاد خفي)[4].

ويقول البغدادي عن طائفة المنصورية :(وكفرت هذه الطائفة بالقيامة والجنة والنار، وتأولوا الجنة على نعيم الدنيا والنار على محن الناس في الدنيا، واستحلوا

---

(1) أنظر أمثلة تلك الاحاديث المدسوسة في لسان العرب، ج2، ص478.

(2) ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر.
انظر ديوان ابي نواس، ص108.

(3) عبد الرحمن بدوي: الالحاد في الإسلام، ص 37؛ انظر حديث الاربعاء :طه حسين، ص192.

(4) النوبختي : فرق الشيعة، ص35.

مع هذه الضلالة خنق مخالفيهم)[1] وذكرهم الطبري ووصفهم بأنهم شديدي الأذى، وقد أظهروا الفسق، وقطعوا الطريق وأخذوا الغلمان والنساء في الطريق)[2] كما وصفهم الجاحظ[3] والدوري[4].

وكان لتيارات الزندقة المتعددة أثره في ظهور تيارات مضادة لها تتمثل في تيارات الزهد والتصوف وظهور جماعات من صلحاء المسلمين لحماية ديار الإسلام. كما نجد أن المهدي تتبع هذه الحركة الخطيرة وأوصى إبنه الهادي (169-170هـ/ 785-786م) بمتابعة هذا العمل ففي السنة التي تولى فيها الخلافة بدأ في تتبع الزنادقة وبدأ بقتل يزدان بن باذان، وكان كاتبا ليقطين أحد رجال المنصور وبلغ الهادي عنه أنه يسيء إلى الإسلام، وروى الطبري[5]: أن يزدان هذا اصبح، فرأى الحجاج يهرولون أثناء طوافهم فقال ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر[6]. فأمر الهادي بقتله وصلب جثته.

واستمر نشاط ديوان الزنادقة في عصر الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) وقد بدأ الرشيد عهده بأن أمن من كان هارباً أو مستخفياً، غير نفر من الزنادقة منهم يونس بن فروة، ويزيد بن الفيضي[7] وتتبع ديوان الزنادقة كل من يقرأ كتب الزندقة، مثل أولاد الشاعر مطيع بن إياس، الذي اعترفت ابنته أمام الرشيد أن أباها لقنها تعاليم الزنادقة وأنها قرأت كتب المانوية[8].

وكان من أثر سياسة الرشيد بهذا الخصوص إناطة صاحب الزنادقة مسؤولية إمتحان كل من يتهم بالزندقة والبحث عن حقيقته ومعاقبته إن ثبتت عليه التهمة، وقد ذهب البعض[9] إلى أن البرامكة اتهموا في عهد الرشيد بالخروج عن دين

---

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص245.
(2) الطبري :تاريخ الامم والملوك، ج8، ص210.
(3) الجاحظ :الحيوان، ج2، ص264.
(4) الدوري :الجذور التاريخية للشعوبية، ص117.
(5) الطبري :المصدر نفسه، ج6، ص408.
(6) بيدر الطعام :كومته والبيدر: موضعه الذي يداس فيه.
(7) الطبري :المصدر نفسه، ج6، ص445.
(8) الطبري :المصدر نفسه، ص446.
(9) بطرس البستاني : دائرة المعارف الإسلامية، ص455.

الدولة. بينما نظر المسعودي[1] إلى نكبتهم نظرة سياسية، بينما نظر ابن العربي إلى أنها دينية وأكد محمد رشيد رضا[2] أن البرامكة كانوا من رؤساء جمعيات المجوس السرية التي تحاول هدم الإسلام وسلطة العرب وإعادة الملك للمجوس.

ورغم كل ماقيل عن البرامكة فاننا لانستطيع أن ننفي أن العباسيين تخلصوا منهم بعد ماأصبح نفوذهم قوياً وكاد أن يطغى على نفوذ بني العباس، مما جعلهم يتخلصون منهم بعد أن جمعوا لهم العديد من التهم لاثبات إدانتهم.

ولقد تابع المأمون (198هـ/ 813م) سياسة أسلافه في مكافحة الزنادقة، فعقد المحاكمات للزنادقة الذين يقدمهم له صاحب ديوان الزنادقة، كما أنه كان يناظرهم بنفسه. قال ابن النديم: (قرأت بخط أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب في ذلك)[3] أما المسعودي (ذكر ثمامة بن اشرس قال: بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة ممن يذهبون إلى قول ماني ويقولون بالنور والظلمة من أهل البصرة فأمر بحملهم اليه بعد أن سموا واحداً واحداً، فلما وصلوا بغداد وأُدخلوا على المأمون، .. فيسألهم عن مذهبهم فيخبروه الإسلام فيمتحنهم ويدعوهم إلى البراءة من ماني ويظهر صورته ويأمره أن يبصق عليها فيأبون، فينزل بهم عقاب القتل)[4].

أما عصر المعتصم (218-227هـ / 833-852م) فقد واجهته أخطر حركات الزنادقة التي شهدها العصر العباسي الاول، إذ عاشت هذه الحركة عشرين عاماً اقلقت مضاجع العباسيين وغذت تيارات الشعوبية بين العرب والفرس، مما هدد وحدة المجتمع العباسي وانعشت العقائد المجوسية والتعاليم الاباحية وزاد من خطورة هذه الحركة تحالفها مع الدولة البيزنطية، التي وقفت دائماً موقف العداء من الدولة العباسية كما شغلت هذه الحركة خليفتين عباسيين هما المأمون والمعتصم.

وقد قامت هذه الحركة على أساسين: أولهما إحياء تعاليم المزدكية التي تنتسب إلى مزدك الذي ظهر في القرن الخامس الميلادي حوالى سنة 487م ودعا

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص 377.

(2) محمد رضا: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص86.

(3) ابن النديم: الفهرست، ص487 يقصد ابن النديم ان من كتب ذلك من أهل المذهب فقد كذب.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص9، 10.

الناس إلى شيوعية فوضوية وكان يقول : بالنور والظلمة، ولكن كسرى انوشروان أدرك خطورة هذه التعاليم الهدامة، فقتل مزدك ومعظم أتباعه ومثل بهم[1] وبعد مقتل مزدك، استمرت زوجته «حزما» في نشر تعاليم زوجها في حماسة شديدة، وكأنها تريد الثار لزوجها وأصبح أتباعها يعرفون باسم «الحزمية» نسبة اليها وبقيت في فارس حتى ظهر «بابك» فعمل على إعادة تنظيم صفوفهم من أجل القضاء على خلافة العرب ونقل السلطان إلى الفرس، أما الاساس الثاني : فهي شخصية بابك وآرائه ومراميه حيث يعزى في نسبه إلى سلالة ابي مسلم الخراساني وأن هدفه من حركته هو الثأر لأبي مسلم من العباسيين، وأن حركته امتداد لحركة الرواندية والمقنعية[2].

أما المسعودي[3] وابن خلدون[4] فيذكران أن بابك رجل فارسي مجوسي الاصل، وتسمى بالحسين أو الحسن وحدثته نفسه الخبيثة بأن يسترجع ملك فارس ودينها، وقد بدأ بابك يمارس زعامته لطائفة الحزمية، ونجح بابك في بلورة تعاليم مزدك وأدخل عليها بعض الآراء الجديدة مما يتناسب مع تطور الاحداث السياسية والدينية في العصر العباسي الاول (132-232هـ/ 754-861م).

وقد استغل الفرس قتل ابي مسلم الخراساني وجعلوا منه الرمز لظلم العباسيين واتخذوا من أفكار الحزب العلوي الذي يرى أن علي بن ابي طالب أحق بالخلافة بعد الرسول من جميع العرب غطاءً يتسترون فيه بحثاً عن إعادة مجد فارس، ذلك أن الشيعة رأت أن الخلافة من أركان الدين هي من المصالح العامة التي لاتفوض إلى نظر الناس، وأنه بناء على وصية الرسول بالخلافة إلى علي يوم غدير خم يعتبر علي «ولي الله» وأجدر من يتولاها[5] وتلك فكرة اخذها غُلاة الشيعة منهجاً دينياً وسياسياً، فالامامة عندهم ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الامة، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه،

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص266.
(2) الدينوري : الاخبار الطوال، ص397(طبعة لندن).
(3-4) ابن خلدون : العبر، ج1، ص135.
(5) أحمد أمين : فجر الإسلام، ص276.

بنصوص ينقلونها ويأوّلونها[1].

وتقبل الفرس هذه المبادىء، واتفق هذا الرأى مع طبيعة الموالي والآثار الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي سبق أن عاشوا في ظلها وخاصة وأن الفرس يؤمنون ويفهمون جيداً الحق الالهي للملوك، حيث كانوا يعترفون بهذا الحق للأكاسرة، ولم يكن في استطاعتهم تصور قيام خليفة بالشورى، لان هذه الفكرة غريبة عنهم والمبدأ الوحيد الذي يمكنهم فهمه هو مبدأ الوراثة[2] ومن ثم احتضن الشعوبيون فرقة الشيعة التي تحولت إلى فرقة فارسية في حقيقتها وجوهرها، وساعدت الاحداث التاريخية وأهمها الصراعات الدامية على السلطة، الشعوبيين على تحقيق مأربهم عن طريق الشيعة، ومن ثم وجد الشعوبيون في تحويل الخلافة إلى سلالة علي بن ابي طالب سبيلاً إلى التسلل ضد العرب وانتزاع السلطان منهم تحت ستار أن أبناء الحسين يجمعون بين أشرف دم عربي وأشرف دم فارسي[3]. وقد أضاف التسلل الشعوبي إلى فرقة الشيعة ما امتلأ به الخيال الفارسي من حقد على العرب ونوازع شريرة وتجلى ذلك في آراء غلاة الشيعة التي جاءت صورة للنظريات الفارسية القديمة في الحكم والدين، ومن ذلك أن أحد الموالي وهو كيسان قام يدعو إلى التفاف الشيعة حول محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية[4] بعد مصرع أخويه الحسن والحسين، والف فرقة من غلاة الشيعة نسبت اليه وعرفت باسم الكيسانية[5] كان لها أثر كبير في تمهيد السبل أمام التسلل الشعوبي ضد العرب، وأحدث كثيراً من الفوضى والاضطرابات في دولتهم، ولاسيما في أواخر العصر الاموي[6]. حيث تطورت أراء الشيعة إلى عدة فرق أشهرها السبئية والامامية والكيسانية والزيدية.

وأخيراً لم تنج الفرقة الثالثة التي ظهرت أثناء الصراع بين علي بن ابي طالب

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ص 16؛ المظفر: تاريخ الشيعة، ص14.

(2) الريس : النظريات السياسية، ص57.

(3) ابراهيم العدوي : المجتمع العربي ومناهضته الشعوبية، ص25.

(4) كان محمد بن الحنفية أخا للحسن والحسين ولكن من أم غير امهما وصار بعد وفاة أخويه محط آمال الشعوبيين من أعداء الامة العربية وقد تبرأ محمد بن الحنفية من الاراء التي نادى بها كيسان امتلأت بالأباطيل به الاباطيل. كما اوضحنا فيما سبق

(5) الشهرستاني : الملل والنحل، ج2، ص126.

(6) الشهرستاني : المصدر نفسه، ج2، 234.

ومعاوية بن ابي سفيان وهي فرقة المرجئة من تسلل الشعوبيين على الرغم من اعتدال قادة تلك الفرقة في أرائهم السياسية والدينية، ذلك أن المرجئة نشأت كرد فعل لمغالاة الخوارج في عقائدهم السياسية والدينية، كما اتخذت موقفاً محايداً من دعاوى الشيعة وغلاتهم وسموا بالمرجئة من الارجاء وهو التأخير، لانهم يرجئون الحكم على مرتكب الآثام إلى يوم الدين ويفوضون أمره إلى الله[1].

وتجلى هذا التسلل الشعوبي لفرقة المرجئة في أراء قادتهم الذين قاموا في بلاد فارس، فيعزى إلى أحدهم وهو: جهم بن صفوان[2] القول بأن الايمان عقد بالقلب، وأن الانسان مادام مؤمناً بقلبه فلا يضره أن يعلن غير ما يبطن.

ولانستطيع أن ننفي عصبية الامويين ضد الموالي خاصة بعد أن عرفوا مدى حقدهم على العرب وعدم اخلاصهم للإسلام، رغم عدم استطاعتهم الارتداد عنه، لان عقاب ذلك القتل، فالتمسوا سعادتهم الروحية بعيداً عن الإسلام وعقائده، وقد وجدت العقائد البابلية القديمة وغيرها الطريق إلى نفوس هؤلاء ولجأت عامة الموالي إلى تأويل الإسلام حسب أهوائها وكانت الطريقة الفذة التي لجأوا اليها هي التأويل الذي وضع اساسه الائمة العلويون، وهذا ماساعد جميع الساخطين والمتذمرين من الغلاة المتطرفين إلى الانضمام إلى الشيعة في الدعوة إلى آل البيت[3] كما نادت الشيعة بفكرة الوراثة القديمة الخاصة بالملكية الالهية وهي التي ترضي مفاهيم الفرس ومن أبرز ثورات الشيعة في أواخر العصر الاموي المدعومة بالتشجيع الفارسي الشعوبي ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر بن ابي طالب، وامتدت الثورة من العراق إلى المدائن والماهين وهمذان وأصفهان والري وفارس، ويتهم الاصفهاني[4] ابن معاوية بالزندقة وسوء معاملة الناس.

وفي أواخر العصر الاموي ازداد نشاط الغلاة، وكان هؤلاء يتمسكون بتراثهم

---

(1) الريس : النظريات السياسية، ص 70؛ أحمد أمين : فجر الإسلام، ص279.

(2) كان جهم بن صفوان من الفرس، وأقام بالكوفة حيث اعتنق آراء المرجئة، ولكنه فيما بعد نادى بآراء جديدة جعلته صاحب فرقة خاصة تنسب اليه وتعرف بالجهمية وقد انضم اليه الحارث بن سريج أحد الذين ثاروا على السلطات الاموية وصار كاتباً له، الطبري، ج9، ص72.

(3) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية، ص87، 89.

(4) الاصفهاني : الاغاني، ج11، ص91.

الديني المجوسي، ويتسترون باسم الإسلام ولايكشفون إلا طرفا من أرائهم المغالية في الامامة.

ولكن بعضهم أخذ يكشف عن نواياه الشعوبية وأغراضه مثل المغيرية والمنصورية بل وأخذ يرتكب بعض أعمال العنف[1].

وهكذا تكاثفت هذه العوامل على ظهور روح الشعوبية وبوادر الزندقة في العصر الاموي وما لبثت أن استفحلت هذه الشعوبية، وتلك الزندقة بعد قيام الدولة العباسية.

الشعوبية في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي

ظهرت تيارات الشعوبية وما صاحبها من تعاليم الزندقة في أواخر العصر الاموي وقد اختلفت أحوال الموالي الفرس في عهد الخلفاء الامويين المتأخرين تبعاً لأهواء الخلفاء والولاة، فلم تكن هناك سياسة ثابتة تتبع نحوهم، وساد الدولة الاضطراب والفوضى، وتأرجحت سياسة الولاة الامويين نحو الموالي بين الإنصاف والاجحاف واختفت تيارات الشعوبية في العصر الاموي وراء ستار المناداة بتحقيق المساواة كما أمر بها الإسلام مستندين إلى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة[2].

ومن أشهر الشعوبيين في العصر الاموي الشاعر إسماعيل بن يسار وقد تقرب إلى العرب في أول الامر وإلى الزبيريين حين ثاروا على الامويين، ثم تقرب إلى الامويين، وأخفى شعوبيته وراء ستار شعره ونظم كثيراً من القصائد في مديح الفرس ويقول عنه الاصفهاني :(وكان ابن يسار مبتلى بالعصبية للعجم و الفخر بهم فكان لا يزال مضروباً محروماً مطرودا)[3] وإذا حملت الدعوة الشعوبية بداية ظهورها شعار «التسوية» بين العرب وغيرهم لانها لا تجرؤ على أن تطلب اكثر من ذلك، حاولت أن تبث سمومها بالاستتار تحت الغطاء الديني وظهر عدد من

(1) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص35.

(2) ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ سورة الحجرات، الاية 13، والحديث الشريف (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

(3) الاصفهاني : الاغاني، ج4، ص89.

الاشخاص الذين أظهروا الجدل والتناظر الديني منهم معبد الجهني المتوفى سنة 80 هـ الذي كان من أبرز معارضي الفكر الإسلامي للجدل الديني ثم غيلان الدمشقي الذي تكلم في القدر فأدى هذا إلى قتله ورفض المسلمون في تلك الفترات هذا الجدل خاصة وأن الإسلام في عهد الدولة الاموية 41-132هـ/ 661-750م) كان يتبلور ويأخذ ملامحه الخاصةبوصفه نظاماً ومجتمعاً وثقافة، ورغم كل ما قيل من أقوال مأثورة عن الصحابة بمنع الجدل فإن المناقشة الدينية قد ظهرت وتوسعت منذ أواخر القرن الاول الهجري، بل يعدون عمر بن عبد العزيز 99هـ/ 717م أول المتكلمين من السنة[1].

وهكذا كان القدرية والجبرية على السواء والمجوس وأصحاب الفكر الحلولي يتهمون بالزندقة في أواخر العهد الأموي لكنهم لم يكافحوا كجماعة بل حوربوا كأفراد ولم ينظر النظام الاموي اليهم كحركة منظمة خطرة على النظام وإن كان قد قتل بعضهم بسبب سياسي ولم يكن هناك اهتمام رسمي باتخاذ موقف سياسي محدد من هذا التيار[2].

وقد ورث العباسيون، فيما ورثوا عن بني امية، تيار الشعوبية والزندقة وإذا كانت الانظار متجهة زمن الأمويين إلى الشام وزنادقته فانها اتجهت في ظل العباسيين إلى العراق الذي اجتمعت فيه أنماط مختلفة من البشر والعقائد وكان مزيج لكل نشاط فكري في الدولة والذي نراه ونلمسه بوضوح هو اصطدام العصبية العربية بالعصبية الفارسية فنشأت عن هذا الاصطدام الحركة المعروفة في تاريخ الحضارة الإسلامية «بالشعوبية» بشكل سافر.

وفي العصر العباسي الأول 132هـ/ 847م استعاد الموالي نفوذهم بعد أن فاز العباسيون بالخلافة وصار الفرس يتولون المناصب الكبرى في الدولة الجديدة[3] كما حل محل الأرستقراطية العربية طبقة من كافة الأجناس التي دانت لسلطان الخلافة واختلط الموالي بالعرب وانتقل مركز العالم الإسلامي من الشام إلى العراق وأصبحت الخلافة العباسية خلافة إسلامية أممية، فقد حدث امتزاج بين الحضارات جعل البعض يذكرون أن الأمة الإسلامية لم تعد أمة عربية لغتها

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص363.

(2) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج2، ص201.

(3) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص169.

واحدة، ودينها واحد، كما كان الشأن في عصر الرسول (بل كانت الأمة الإسلامية جملة أمم وجملة نزعات وجملة لغات تتحارب، وكانت الحروب سجالا، فقد ينتصر العرب أو تنتصر العناصر الاخرى)[1].

ولاشك أن شعور الفرس بأهميتهم ومنزلتهم في الدولة العباسية أثار فيهم روح الشعوبية، والتعصب لجنسهم وتراثهم وأديانهم القديمة، بل إن عامة الفرس وغوغاءهم رفعوا رؤوسهم وبالغوا في شعوبيتهم، فكانوا أكثر عداء للعروبة من أشراف الفرس، على رأي ابن قتيبة[2] (ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة، ولاأشد نصباً للعرب من السفلة، والحشوة، وأوباش النبط.. . فأما أشراف العجم، وذوو الاخطار منهم، وأهل الديانة، فيعرفون مالهم وماعليهم، ويرون الشرف نسباً ثابتاً).

اتخذت الشعوبية اشكالا وصوراً مختلفة، سياسية واجتماعية وثقافية، وقد سلك الشعوبيون طريقين متتابعين : أولهما طريق سلبي اتخذ طابع الجدال والنقاش، ووضع الكتب والأشعار في أمجاد الفرس ومحاولات تزييف الأحاديث النبوية وتفسير القرآن بالمعنى الباطن والظاهر ليتلاعبوا بمعناه بما يتوافق وشعوبيتهم وتزوير الشعر العربي وغير ذلك من الأمور.

أما الطريق الثاني، فهو طريق إيجابي واضح و اتخذ أحياناً طابع الثورة المسلحة فكانت حركات الزنادقة التي أصبحت سلسلة متصلة الحلقات شهدناها طوال العصر العباسي الأول (132هـ/ 842م).

وكان الشعوبيون في كل من الطريقين يلجؤون إلى السلاح الديني، فنراهم أولا يستترون وراء تعاليم الإسلام الذي يحث على المساواة، وهم يريدون أن يحضوا من شأن العرب الذين كانوا ينادون بأنهم القوامون على العقيدة الإسلامية والرافعون لواءها.

وهم في نفس الوقت أيضاً يجحدون فضل العرب في نشر الإسلام وينادون بأن جميع الأمم سواء في الفضل والحضارة، وأن العرب ليسوا خير أمة وأنهم لا يخلون من النقائص والمثالب وهم في هذه المرحلة الاولى يعتمدون على القلم

---

(1) أحمد أمين : فجر الإسلام، ص114.

(2) ابن قتيبة : كتاب العرب من رسائل البلغاء، ص270.

واللسان. فحمل لواء الشعوبية في تلك الفترة العلماء والأدباء والشعراء.

ثم تبدأ المرحلة الثانية، التي جهر الشعوبيون فيها بشعوبيتهم وكراهيتهم للعرب، ورأوا أن الإسلام هو خير سلاح يحاربون به العروبة، فحاولوا أن ينالوا من دين العرب، فظهرت تعاليم الزندقة التي تحاول تشويه تعاليم الإسلام وتدخل عليه العقائد المجوسية القديمة، مما يسيء إلى روح الإسلام وقيمه الروحية ومثله العليا.

وربط الفرس العروبة بالإسلام، ارتباطاً كلياً حتى أن البعض يعتبر المسلم من غير العرب عربياً. ويؤكد الجاحظ: (الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة، فالشعوبي يتخذ الإسلام وسيلة لمحاربة العربي إذ كانت العرب التي جاءت به وكانوا السلف)[1]، وقد سلكت الشعوبية في العصر العباسي سبلاً عديدة، بين ظاهر ومستور كان لها أثر واضح وخطير حيث حاولت أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم الإسلامية لتزعزع قاعدة المجتمع وأساسه وقد ارتبطت الشعوبية والزندقة في العصر العباسي الاول (132هـ/ 847م) ارتباطاً وثيقاً فأصبحت الواحدة متممة للاخرى ومرادفة لها وقد جاء في الاغاني[2] عن رجل أنه من «زنادقة الشعوبية» وهذا ماذهب اليه بدوي[3] حيث قال إن كلتا الحركتين ترتبطان كل الارتباط إذ يرجع حركة الزندقة كلها أو معظمها إلى الشعوبية وقد سبقه أيضاً إلى ذلك الجاحظ والمقريزي[4]، فقال: إن العصبية هي أساس الشعوبية انها لاتبقي ديناً إلا أفسدته ولادنيا إلا أهلكتها وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشعوبية.

وبنظرة شاملة إلى العلاقة بين العرب والشعوب الأخرى في إطار الخلافة العباسية تظهر كثرة الثورات في بلاد فارس في العصر العباسي الاول (132-232هـ/ 754-861م) ونشاط الشعوبية والزندقة في العراق مقر الخلافة ثم في بلاد فارس وتشهد بصورة عامة صراعاً بين العرب والفرس أولاً ثم بين المجوسية والإسلام ثانياً وهو صراع يسير في هذين الخطين المتوازيين.

وقد دخل الصراع في بعض الاحيان في شكل ثورات مسلحة بين فترتي

---

(1) الجاحظ : البيان والتبيين، ج3، ص14.
(2) الاصفهاني : كتاب الاغاني، ج6، ص39.
(3) عبد الرحمن بدوي : الالحاد في الإسلام، ص23، 24.
(4) المقريزي : النزاع والتخاصم، ص101؛ رسالة الجاحظ في بني أمية، ص299.

المنصور (136185هـ/ 754-775م) والمعتصم (218-227هـ/ 833-852م) وبعضه سلمياً فكرياً ونلاحظ أن الثورات التي قامت في بلاد فارس في هذه الفترة كانت ثورات غير إسلامية مهما تستر أصحابها ومهما صبغوا دعوتهم بالصبغة الدينية في المبادئ والأهداف مثل الخرمية أو الزرادشتية التي انتشرت في المناطق التي تكثر فيها الجماعات غير المسلمة، وكانت مراكزها على أطراف بلاد فارس، في خراسان وماوراء النهر[1] وأذربيجان[2] ورغم قلة المعلومات المتوافرة لدي عن أطر هذه الثورات فإننا نلاحظ أن قادتها كانوا من العامة وقليل من الدهاقين وجل أنصارها من الفلاحين[3].

تهدف هذه الثورات إلى إزالة السلطان العربي وإحياء مجد الفرس، وكانت دينية في دعوتها إلى المجوسية والديانات الفارسية القديمة وفي محاربتها للإسلام[4] واقتصادية في دعوتها لاوضاع أفضل ولذلك تسموا أهل التسوية ودعوا إلى المساواة مع العرب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ومن المتعذر فصل الجانب الاقتصادي عن السياسي في برامجها.

ونحن نعرف أن تاريخ الوزراء في العصر العباسي الاول(132-232هـ/ 754-861م) كان سلسلة احتكاك وتصادم بين الخلافة وبين الوزراء ولم يكن الوزراء جميعاً من الفرس، فيما كان الخلفاء يمثلون الثقافة العربية الإسلامية الشاملة، وكانوا يمثلون السلطة العربية الإسلامية بنظر غير العرب، وهم رمز للكيان القائم فإننا نجد من بين الوزراء من اتخذ وجهة فارسية من أمثال الاسرة البرمكية وأسرة آل سهل ومنهم من كان يحلم باعادة السلطة إلى الفرس، وتظهر هذه الناحية واضحة في الصراع السياسي الخفي بين العرب والفرس على السلطة في بغداد وهذا هو الامر الذي أثار السياسة الثنائية التي تبناها العباسيون وهي سياسة قلقة ومتوترة، ولعل وضع الوزراء من الفرس ودورهم في الحياة العامة بدا واضحاً في

(1) مثل ثورات سنباذ اسحاق الترك المقنع.

(2) مثل ثورة بابك الخرمى، أنظر الدوري: العصر العباسي الاول، ص86، 88، ص115، 119.

(3) يقول المسعودي عن اتباع سنباذ (وأكثر هؤلاء في القرى والضياع): مروج الذهب، ج3، ص 220؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص244؛ الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج10، ص353.

(4) المقريزي : الخطط، ج4، ص190؛ ابن الجوزي، ج5، ص110؛ الفهرست لابن النديم، ص482.

عهد الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) وفي عهد المأمون (198-218هـ/ 813-833م) فقد حاولوا تقريب الفرس في الإدارة لحد كبير حتى امتد نفوذهم بشكل كبير وخطير مما أدى إلى ردة فعل عربية ضدهم خاصة نفوذ البرامكة حيث تم تقريب يحي البرمكي وتقريب ابن سهل وهم من أصل مجوسي آنئذ وقد عهد إليه ليكون خليفته في الوزارة، وجهد البرامكة في إشعال الفرقة والفتنة بين العلويين وأبناء عمومتهم العباسيين، وقد اكتشف الرشيد خيانة جعفر البرمكي حين أطلق سراح أحد العلويين[1] ممن سبق أن قام بثورة خطيرة على الدولة دون أن يراعي مصالح الدولة وعندما حقق الرشيد في ذلك مع جعفر البرمكي وهو غاضب قال لخاصته: «قتلني الله إن لم أقتلك»[2] وأعقب ذلك نكبة البرامكة التي ترتّب عليها تقويض النفوذ الفارسي مؤقتاً وسد السبيل أمام تسللهم ضد البيت العباسي.

وقد يتساءل سائل عن سبب تقريب الخلفاء العباسيين الاوائل للفرس، وتكمن الإجابة في المساعدة التي قدمها الفرس للعباسيين في بداية الدعوة ومساهمتهم في إسقاط الخلافة الاموية وتوليتهم أمور الادارة والوزارة وقد برعوا في ذلك. ولكن هذا لايعني أن العباسيين منحوا الثقة الكاملة للفرس، بل إنهم كانوا كلما أحسوا بالخطر منهم قاموا بتصفيتهم والقضاء عليهم.

ومن الأخطاء التي ارتكبها هارون الرشيد (193هـ/ 809م) تقسيم الدولة الإسلامية بن أبنائه الثلاثة، وبذلك قسم وحدة الصف العربي، فحين اختص المأمون بالشطر الشرقي منها حيث خراسان، وجعل مقره في عاصمتها مرو[3] كان الفضل بن سهل صاحب الحركة الثانية الخطيرة في ميدان التسلسل السياسي ضد الامة العربية قد قوي ساعده وصار في مركز خطير يساعده على القيام بحركة رد فعل لما حدث للبرامكة، وكان الفضل بن سهل من سلالة ملوك الفرس حيث ظل أبوه يدين بالمجوسية إلى أن أسلم زمن هارون الرشيد سنة (170هـ/ 786م) ثم أوصاه هارون بالبقاء إلى جانب المأمون في إدارته للقسم الشرقي من الدولة، مما جعل المسرح مهيئاً لدسائسه المقبلة في عقر داره خراسان حيث يحيك المؤامرات ضد النفوذ العربي الذي علا شأنه بعد نكبة البرامكة ويعدّ العدة لاسترجاع ملك

(1) ابن طباطبا: الفخري، ص176، 177.
(2) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ص10، 81.
(3) الطبري: المصدر نفسه، ج10، ص72.

الفرس المفقود والانتقام لهم من العرب بايعاز من قوميته الفارسية التي ظل متعلقاً بمظاهرها وتقاليدها[1] خاصة وأنه كان متهماً بتوسيع شقة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وتحويله إلى صراع فارسي وعربي ولاننفي التهمة عن هارون أيضاً لأنه السبب الحقيقي فيما حدث بتقسيم الدولة بينهما كما اشرنا من قبل وهذا ما جعل الفضل والفرس والحركة الشعوبية يقومون باستغلال الموقف والتسرب من خلاله لاقصاء العرب عن السلطان وتحويله اليهم بعد أن عمد إلى جعل خراسان مقراً دائماً للمأمون بحيث إذا انتصر تصبح مرو هي العاصمة الدائمة بدلاً[2] من بغداد ويصبح الخليفة بعد ذلك محجوراً لديهم وخاضع لمشيئة الفرس، ويتحركون كيفما شاءوا ويتسترون وراءه حتى يحققوا مآربهم الشعوبية ولكن الامر لم يطل بالمأمون حتى صمم المأمون على العودة إلى بغداد وترك في نفس الوقت الفضل بن سهل في مرو ليخلو له الجو ويحقق ماعزم عليه بهدوء وسرية في الوقت الذي كان يعتقد فيه الوزير الفارسي الفضل بن سهل أن حركته التسللية الشعوبية ضد الامة العربية كادت أن تؤتى ثمارها حتى جاءه القتل غيلة من قبل خدم الخليفة المخلصين[3].

وفي سنة (204هـ/ 819م) استطاع المأمون أن يدخل بغداد[4] ويستعيد خلافته بها إيذاناً بانتهاء الحركة التسللية السياسية الشعوبية الثانية التي استهدف بها الفرس سلب العرب سلطانهم ومجدهم.

وفي «سامراء» نرى مثلاً آخر لشعوبية الاشراف الفرس، فهذا الافشين يرتفع في المناصب العسكرية زمن المعتصم (218هـ/ 833م) حتى يصبح قائد قواته المسلحة، وقد لعب دوراً غامضاً في ثورة بابك الخرمى[5] وكان رغم ادعائه الإسلام يحتفظ بكتبه الدينية القديمة ولايختتن، ويحتفظ ببعض الطقوس المجوسية[6] وكان الافشين واسع الطموح، وتشعرك وقائع محكمته أنه كان يحلم

(1) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص316، 317
(2) العدوي : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص85.
(3) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج10، ص250.
(4) الطبري : المصدر نفسه، ج10، ص254، 255.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ج10، ص349 وسنتناولها ضمن حركات الزندقة فيما بعد.
(6) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص44.

بإعادة المجد الفارسي بعد ضرب الأتراك والعرب الذين كان أبنائهم قوام جيش المعتصم ويسعى إلى تكوين إمارة في منطقة ما وراء النهر، وهو الأمر الذي يؤكد رغبة الفرس وهي النيل من الخلافة العربية العباسية بعد أن احتضنتهم ولكن شعوبيتهم ونزعتهم الفارسية جعلتهم يحاولون استغلال السلطان العربي الإسلامي لضرب هذا السلطان والعمل على إحياء الكيان الفارسي.

المظاهر التي ركزت عليها الشعوبية في صراعها مع العرب

لقد كان هناك العديد من الشعراء والادباء من الموالي والفرس الذين حملوا لواء الشعوبية واعلنوا هذا الاتجاه وكان العصر العباسي في مطلعه الاول (132-232هـ/ 754-861م) فترة رفع فيها الغطاء من الميول والاتجاهات الشعوبية التي كانت متسترة ومكبوتة لتندفع بعنف وتطرف ووجدت الحركة الشعوبية فرصتها عندما انهارت الدولة الاموية (132هـ/ 750م) والتي كانت تعني في نظرهم انتهاء الصرح العربي تحت ضربات القوات الاعجمية من الخراسانيين بالدرجة الاولى معتبرين أنفسهم أصحاب الحق والفضل في قيام الخلافة العباسية التي أعلنت المساواة والعدل من الناحية السياسية والاجتماعية بين شعوب الخلافة، وهذا مما شجع الشعوبيين لإظهار نشاطهم الفكري وسلوكهم الاجتماعي.

ويبدو أن الشعوبية باشكالها وجدت لدى العامة «من الفرس» تأييداً بانضمامهم الواسع إلى حركات الغلو وفي مشاركتهم لكثير من الحركات ضد العرب ويقول ابن قتيبة : (ولم أر في الشعوبية أرسخ عداوة ولاأشد نصباً للعرب من السفلة..)[1] ويتهم مجموعة من الكتاب بانضمامهم إلى العامة وإيغالهم في العصبية وفي بغض العرب ومهاجمتهم وقد ظهر ذلك واضحاً في محاولة تأكيد التراث القديم والتنكر للتراث العربي. وبذل الكتاب والادباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة وفي مظاهر الخلافة وتعمدهم المستمر لتقليل قيمة الثقافة العربية الإسلامية والاستهانة بها كنوع من العصبية الفارسية ورداً على العصبية العربية التي اعتقدوا أنها كانت تصبغ

---

(1) ابن قتيبة : رسائل البلغاء، ص345.

الخلافة الاموية ويرفضون أن تعود من جديد في الخلافة العباسية وهو تعبير عن الحقد والحسد الشعوبي الموغل في صدورهم ضد العرب[1].

واتخذ نشاط الشعراء والأدباء سبلاً مختلفة ومن أهمها سعيهم القوي في حركة الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بالتراث الفارسي والذات الفارسية وهي حركة مستقلة عن حركة الترجمة التي نقلها ورعاها الخلفاء والتي كانت تخدم الثقافة بشكل عام وكان العرب يرحبون بها لانها تثري الثقافة العربية والتراث العربي، أما الترجمة التي تبناها الفرس فهي للطعن ولنشر معتقداتهم القديمة الدينية وتراث ملوكهم ومن أمثلة هذه الترجمات «خداينامه» أو سير الملوك «ملوك الفرس» وهو كتاب ينطوي على كثير من التقاليد الساسانية، وكتاب مزدك وهو يتضمن مُثلاً أخلاقية مجوسية لا تتآلف مع المفاهيم الإسلامية وكان هذا الكتاب من أهم الكتب التي ساهمت في نشر أفكار بعض الفرق المغالية وفرق الزندقة أضف إلى ذلك كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع الذي ترجم (باب برزويه) للترويج للمانوية،[2] كما وضعوا كتب المثالب[3] التي من شأنها أن تظهر مواضع العيوب في تاريخ القبائل العربية ونسبها، كما ترجمت الكتب الدينية الفارسية وخاصة الكتب المانوية[4].

ومن الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في هذه الحركة ابن المقفع، وسهل بن هارون، وابو عبيد الله وعبد الحميد وغيلان، وغيرهم مما اوجد بالمقابل كتاباً عرباً للرد على هؤلاء وعلى حركتهم الشعوبية المتطرفة مثل ابن قتيبة، و الجاحظ وهما من اصل فارسي والزمخشري[5] وابن دريد الذي عاب في مقدمة كتابه «الاشتقاق» على الشعوبيين[6] وهاجم فيه بني جلدته من الشعوبيين

---

(1) الجاحظ : البيان والتبيان، ج2، ص29، 30.

(2) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص51.

(3) من الذين اشتهروا في وضع كتاب المثالب ابو البختري، وابو عبيدة معمر بن المُثنّى، انظر كتاب العرب والرد على الشعوبية رسائل البلغاء لابن قتيبة، ص271، وانظر الفهرست : لابن النديم، ص145.

(4) المسعودي : مروج الذهب، ج8، ص 392؛ابن الاثير :الفهرست، ص177؛ ابن خلكان، ج1، ص413.

(5) الزمخشري : المفصل في علم العربية، ص2، 9.

(6) ابن دريد :الاشتقاق، ص3.

وبيّن فضل العرب واللغة العربية، كما اورد الجاحظ مقولة «الشعوبية»: من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف القريب والغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ «كتاب كاروند»[1] ويعطي الجاحظ صورة حية لموقف الكتاب من الثقافة الفارسية واعتزازهم بها والترويج لها، والتصغير لشأن الثقافة العربية والإسلامية والتشكيك بالنصوص الإسلامية وبحكم القرآن المنسوخ ونفي ما لا يدرك بالعيان[2] وهو أسلوب اتبعه الشعوبيون للتشكيك في العقائد وزعزتها وليربكوا المفاهيم وهذا موقف يشعرك بتصغير شأن العرب وثقافتهم حتى في الإسلام، ولم يسلم منهم حتى القرآن و الحديث.

لقد رعى البرامكة الناطقون بلسان الشعوبية أفراداً من أمثال علان الشعوبي الفارسي والذي كان راوية عارفاً بالانساب والمثالب وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد (170هـ/ 786م) والمأمون (198هـ / 813م) كما عمل كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها[3] وممن كان يمعن في شعوبيته سهل بن هارون أحد صنائع البرامكة وهو فارسي الاصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وكان يخدم المأمون وصاحب خزانة الحكمة له[4].

بالاضافة إلى أن عدداً كبيراً من الكتاب والشعراء والمغنّين الذين نظموا وتغنوا بالقصائد الكثيرة الغراء في مدح البرامكة والثقافة الفارسية من امثال: كلثوم بن عمر والقبابي[5] وبشار بن برد[6] وأبي قابوس عمر بن سليمان الحيري[7] وغيرهم وكان الشعراء قد بذلوا مجهوداً كبيراً لطبع الادارة العباسية وثقافة أصحابها بطابع أعجمي، كل ذلك في ظل دولة عربية إسلامية.

---

(1) الزمخشري: المصدر نفسه، ص4.
(2) الجاحظ : البيان والتبيان، ج3، ص14.
(3) الاصفهاني : الاغاني، ج6، ص81.
(4) ابن النديم : الفهرست، ص133.
(5) الاصفهاني : الاغاني، ج12 ص8، 9.
(6) مدح الشاعر بشار بن برد خالد بن برمك، فقال :

لعمري قد أجدى عليّ ابن برمك ... وما كل من كان الفتى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه فدرّتا ... سماحا كما درّ السحاب مع الرعد
اذا جئتهُ للحمد اشرق وجهه ... اليك وأعطاك الكرامة بالحمد

البغدادي : تاريخ بغداد ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان، ص225، 262.
(7) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص179.

وهنا نطرح سؤالاً مهماً هل استطاعت الحركة الشعوبية أن تطمس الثقافة العربية ؟ وما دور الثقافة العربية في مواجهة الشعوبية ؟

استطاعت الثقافة العربية أن تتصدى للثقافة الفارسية وحدث نوع من التصادم الثقافي بين ثقافتين قويتين بين القديم والحديث مما أثرى الحوار والفكر والجدل وساهم في بروز مفكرين عرب من مدارس مختلفة مثل المعتزلة للرد على الشعوبيين وفي بعض الاحيان كان يحدث نوع من المناظرات الفكرية كما حدث في عهد المأمون (198هـ/ 813م) مما ساهم في نضوج الثقافة العربية وإثرائها ولانستطيع أن ننكر فضل بعض الفرس الذين ا نتموا إلى الإسلام قلباً وقالباً فكانوا من غير المدافعين عنه واعتبروا أنفسهم عرباً لانهم يتكلمون بلسان العربية وعاشوا وولدوا في بلاد العرب مثل الجاحظ و الزمخشري وغيرهم كثير.

ظهور الزنادقة و الزندقة

كان ظهور الزندقة كرد فعل لعدم نجاح الحركة الشعوبية في المنطقة وانتصار الإسلام والعروبة والمؤكد أن ظاهرة الزندقة وما تبعها كان نوعاً من الرد والدفاع عن ما عجزوا عن تحقيقه في حركتهم الشعوبية فكانت الزندقة وليدة لهذه الحركة الشعوبية واحدى وسائلها وقد ترددت ألفاظ (زندقة) و(زنديق) و(زنادقة) كثيراً على الألسنة في العصر العباسي الاول (132-232هـ / 754-861م)وكانت مداراً لكثير من المجالس الاجتماعية و الحوارات الثقافية فضلاً عن انشغال الخلفاء العباسيين بالقضاء على حركات وثورات الزندقة ورغم اختفاء وضياع معظم كتب الزنادقة إذ عمد الخلفاء و العلماء و المسلمون الاتقياء إلى إتلاف مثل هذه الكتب لانها تتنافى في مبادئها مع تعاليم الإسلام الحنيف، وربما تتنافى حتى مع سياسة الدولة خاصة بعد أن أصبحت مهمة الزندقة التعاون مع كل معارض سياسي لنظام الخلافة.

أهداف الزندقة وارتباطها بالشعوبية

في البداية يجب أن نوضح أن الشعوبية والزندقة حركتان متلازمتان الأولى اختصت بضرب الإرث الفكري والثقافي والاجتماعي للعرب في حين اختصت الزندقة بتقويض دعائم الدين الإسلامي.

ولعله من الضروري ان ننبه إلى أن خلفاء بني العباس اعتبروها خطرة على الحكم العباسي وليس فقط على الدين الإسلامي واعتبروا الزنادقة خارجين على طاعة الدولة، ومتمردين سياسيين فقد عملوا على إحياء الدولة الفارسية المجوسية البائدة والقضاء على الخلافة العباسية الإسلامية وكانوا يرفضون الخضوع لدستورالإسلام، وهو القرآن الكريم، وهو دستور الخلافة ومصدر قوانينها ونظمها وتقاليدها(1).

ويقول شاكر مصطفى: لا علاقة للثورة العباسية الاولى بالعملية الشعوبية ومقاومتها ولا بالزندقة ومكافحتها إلا أن الظلال البعيدة المتصلة بمن لحق بتلك الثورة يوم كانت تعد دعوة سرية في خراسان من أصحاب العقائد المختلفة. وقد كانت دعوة العباسيين سياسية بصورة أساسية لا تهتم في كثير أو قليل بالجدل الديني(2).

فقد ورث العباسيون تركة ثقيلة من الدولة الاموية نتيجة الصراع الطويل والعنيف بين العصبية العربية والعصبية الفارسية، ذلك الصراع الذي وقف ضده الامويون موقفاً حاسماً فاعتزوا بعروبتهم وقوميتهم وتصدوا لشعار التسوية الذي رفعته الحركة الشعوبية لعلمها انها لا تجرؤ على أن تطلب اكثر من ذلك، محوّلة عصبيتها الفارسية إلى لون من ألوان الشعوبية تفجرت مع بداية العصر العباسي الاول 132هـ/ 842م كما اسلفنا.

وقد تستر الموالي في عهد الدولة الأموية بستار المطالبة بمساواة الموالي بالعرب، وانضموا إلى كل ثائر عليها، و استترت عصبيتهم وشعوبيتهم وراء ستار المساواة، وقد انتعش الفرس «الموالي» في عهد الدولة العباسية وحازوا على المناصب السياسية والادارية واصطبغ العصر العباسي الاول بالصبغة الفارسية ولقد كانت طوائف الزنادقة تنقسم إلى قسمين هما الشعوبيون، والمجوس فالزندقة هي سلاح من أسلحة الشعوبيين موجهة ضد العرب وعقيدتهم، وهي محاولة لاحياء العقائد المجوسية التي كانوا لايجرؤون في العصر الاموي على أن يظهروها.

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس،ج1، ص 185.

(2) شاكر مصطفى : المرجع نفسه،ج1، ص 197.

فقد كان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً، وكانت دعوتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة[1] لا للدين و الزندقة حتى إذا نجح الموالي الفرس في معاونة العباسيين في القضاء على الدولة الاموية اعتبروا الدولة العباسية دولتهم وظهرت الديانات القديمة وبدأت حركات الزندقة.

ويقول ابن حزم : إن الفرس كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم[2] أما ابن قتيبة فيقول: إن الشعوبية كانت تدفع اصحابها إلى الغلو في القول، وإلى الأسراف في الذم، وانها تكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف[3].

أما التظاهر بالظُرف، أو الاقبال على الملذات والمحرمات والجهر بالمجون والخلاعة فهي وسائل اتبعها الشعوبيون للكيد للإسلام وقد ناصرهم في ذلك واتبع سبيلهم ايضاً بعض العرب ضعيفي الأيمان، وقد كانت الزندقة تدعو إلى الابتعاد عن تعاليم الإسلام وعقائده وتبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للانهيار.

فضلاًعن وضعهم الكتب في مثالب العرب وإحياء التراث الفارسي، وهكذا كانت الشعوبية و الزندقة حركة شاملة، يصفها الدوري: «بأنها حركة يتضح فيها العداء للعروبة حيناً وللإسلام حيناً»[4].

والشعوبيون بطبيعة الحال ينتمون إلى شعوب مختلفة، فارسية أو تركية أو أجناس من شعوب الاطراف الشرقية للدولة العباسية وإن كان الفرس يمثلون الغالبية العظمى من الشعوبيين وأخطر فرع من فروع الشعوبية هم الزنادقة : الفرع الذي يضم المجوس الذين تظاهروا بالإسلام للنجاة بأنفسهم وقد تحدث الجاحظ[5] عنهم فوصفهم بأنهم قوم «ممن ينتحل الإسلام» فهم يتظاهرون بالإسلام يخلعونه متى خلوا إلى أهلهم و أنفسهم وإذا أمكنتهم الفرصة كادوا

---

(1) كما لاحظنا في الفصل الاول في (الصراع على السلطة).
(2) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء، ج2، ص115.
(3) ابن قتيبة : رسائل البلغاء، ص344.
(4) الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص120.
(5) الجاحظ: البيان والتبيان، ص14.

للإسلام والعرب، ودعوا للشعوبية و المذاهب المجوسية[1].

وقد نبّه الخليفة المهدي ابنه وولي عهده الهادي، فقد أوصاه قائلاً: «يابني اذا صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحزبا ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات و البنات و الاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور»[2].

وهكذا أحس الشعوبيون أن العرب قضوا على استقلال الدولة العباسية وشخصيتها وهم الارقى حضارة وثقافة كما كانوا يعتقدون، ونظروا إلى الحكم العربي الإسلامي الجديد على أنه حكم أجنبي رغم انصهار الموالي الفرس في الدولة الإسلامية إلا أنهم احتفظوا ببعض مميزاتهم وخصائصهم الفارسية وقد ساعدهم في ذلك وجود الدهاقين، أي كبار ملاك الاراضي من الفرس مما حافظ على الاوضاع الاجتماعية القائمة[3].

ونرى أن سياسة الأمويين نحو الدهاقين كانت من عوامل تغذية القومية الفارسية فقد كانت حالتهم حسنة إلى حد كبير وربما حالهم أحسن من حال الكثير من العرب حيث كان لهم نفوذ كبير على الرعايا من صغار الفلاحين ثم أسندت إليهم المناصب الإدارية العامة وجباية أموال الدولة فكانوا حلقة الوصل بين الخليفة الأموي ورعاياه وعملت هذه الطبقة الأرستقراطية على إحياء بقايا النفوذ الفارسي[4].

وهكذا تميزت الفترة الأخيرة من العصر الأموي بصراع الأحزاب السياسية والفرق الدينية وظهرت روح الزندقة واضحة بين ثنايا وآراء وعقائد هذه الأحزاب والفرق فكانت هناك جماعات الخوارج والمرجئة والشيعة إلى جانب العباسيين[5].

---

(1) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج1، ص162.
(2) الطبري :تاريخ الامم والملوك ج6، ص388.
(3) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص79.
(4) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص63.
(5) البغدادي : المصدر نفسه، ص264، 265.

روح الزندقة في آراء الفرق

لقد أرهق الخوارج، خلفاء بني أمية المتأخرين وشغلوهم عن الوقوف بوجه أعدائهم من الدعاة العباسيين الذين انتهزوا كل فرصة لنشر دعوتهم، ومثلت اضطرابات الخوارج حاجزاً عن الدعوات السرية للعباسيين في خراسان وقد كانت محاربة الامويين للخوارج قوية وعنيفة نتيجة للعقائد والتعاليم المجوسية التي تسللت إلى عقائد الخوارج وخاصة فرقة الازارقة المغالية التي اتخذت من الاهواز مركزاً لنشاطها السياسي والحربي، مما جعلها تنادي ببعض تعاليم المجوسية لتجتذب اليها الفرس وظهر هذا واضحاً في آراء ميمون بن عمران، والضحاك، حيث أباح ميمون لأتباعه زواج بنات البنات، وبنات البنين، وهو مما تبيحه التعاليم المجوسية ومما يتعارض تماماً مع تعاليم الإسلام[1] بينما تمادى الضحاك في الضلال بأن أجاز للمسلمات أن يتزوجن سراً من بني قومهم من الكفار، وهو أمر يتنافى تماماً مع التعاليم الإسلامية التي تحرم زواج المسلمة بالمشرك[2].

أما جماعة المرجئة، فرغم اعتدالها في مبادئها السياسية والدينية، فإن الشعوبيين والزنادقة، نجحوا في التسلل إلى صفوفها واستتر هؤلاء المتسللين وراء ستار اعتدال المرجئة حتى لايتهموا بما اتهم به غلاة الشيعة والخوارج، ونتيجة ترديد الشعارات والاقوال التي تنادي بأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، حيث نصب أولئك التقاة من أنفسهم حماة للضعفاء والموالي، وقد وقع بعض قادة المرجئة فريسة لسموم الشعوبيين الدينية كذلك[3].

وتجلى هذا التطور الخطير في آراء المرجئة عند قادتهم الذين أقاموا في بلاد فارس فيعزى إلى جهم بن صفوان[4] القول: بأن الايمان عقد القلب، وأن الانسان مادام مؤمناً بقلبه، فلا يضره أن يعلن غير مايبطن أمام ما شابه ذلك، ثم ذهب إلى أن الإسلام الصحيح والايمان على نحو ما شرحه من قبل شيء واحد[5].

---

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص63.

(2) البغدادي : المصدر نفسه، ص264، 265.

(3) العدوى : المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية، ص27.

(4-5) الشهرستاني : الملل والنحل، ص47كان جهم بن صفوان من الفرس، وأقام بالكوفة حيث اعتنق آراء المرجئة ولكنه فيما بعد نادى بآراء جديدة جعلته صاحب فرقة خاصة تنسب اليه وتعرف =

أي إن هذا الداعية الديني أباح للشخص غير المسلم أن يدّعي الإسلام سراً ويعلن اعتناقه أي مذهب آخر من المذاهب الوثنية، وأن ذلك لايضره شيئاً مادام مسلما بقلبه وإيمانه.

وانتشرت هذه التعاليم التي يمكن وصفها بالزندقة في خراسان وفارس، وجعلت بعض أهلها يتحللون من الفرائض كالصلاة و الصوم والزكاة وغيرها مكتفين أن يكون إيمانهم بقلوبهم[1].

أما الشيعة التي أعلنت عداءها وبغضها للدولة الاموية فقد وجد الشعوبيون فيها الملاذ الامين والمجال الخصب للتسلل إلى الفرق الإسلامية، لا سيما وإن فرقة الشيعة كانت تنادي بأن علي بن ابي طالب وأولاده من بعده هم أحق بالخلافة ذلك أن الشيعة رأت أن الإمامة من أركان الدين والمصالح العامة التي لا تفوض إلى الناس ولذلك أوصى بها النبي لعلي بن أبي طالب، وإنه بناء على هذه الوصية يعتبر «ولي الله» وأجدر من يتولاها[2] واتفق هذا الرأي مع طبيعة الموالي والآثار الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي سبق أن عاشوا في ظلها.

فالفارسي تربى على الإيمان بالحق الإلهي للملوك حيث يعترف بهذا الحق للأكاسرة ولم يكن في استطاعتهم تصور قيام خليفة بالشورى لأن هذه الفكرة غريبة عليه، والمبدأ الوحيد الذي يؤمن به هو مبدأ الوراثة[3].

وقد تفرعت الشيعة إلى فرقتين كبيرتين، فرقة معتدلة لا تختلف عن سائر المسلمين إلا في المبدأ السياسي القائل بأن الخلافة يجب ان تكون في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وفرقة متطرفة لها مذهبها الخاص في العقائد وهو مذهب غريب عن الإسلام، وقد سمي الشيعة الغلاة بأسماء مختلفة، ولكنها لاتدل إلا على فوارق قليلة الشأن[4].

وكان من أهم فرق الشيعة الغُلاة في أول الأمر وأكثرها غلواً فرقة (السبئية)

= بالجهمية ونادى في مذهبه الجديد بأن الانسان مجبور، لا اختيار له ولاقدرة.. الخ وقد انضم اليه الحارث بن سريح أحد الذين ثاروا على السلطات الاموية وصار كاتبا له.

(1) الشهرستاني : المصدر نفسه ص40.

(2) أحمد أمين :فجر الإسلام، ص 276.

(3) الريس: النظريات السياسية، ص 57.

(4) انظر الفصل الاخير : الفرق المغالية.

وظهرت خطورة هذه الفرقة في عهد المختار الثقفي، وان كانوا من قبل ذلك وكان موطنهم الكوفة وسوادها، وكان معظمهم من الموالي ويؤمنون بما ذهب اليه ابن سبأ من الرجعة أي رجعة الأرواح في أجساد مختلفة. كذلك فرقة الكيسانية التي نادت بتناسخ الارواح وبالرجعة، أي رجعة الامام بعد موته وساعدت هذه الآراء على ظهور عدد من الشعوبيين اختلقوا الكثير من البدع والأباطيل للنيل من الدين الإسلامي وقاموا بحركات عسكرية وسياسية خطيرة كان من أخطرها حركة بابك الخرمي التي هددت كيان الدولة العباسية وكانت مصدر خطر سياسي واجتماعي وديني حيث رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر، ونادوا بإباحة المحرمات و الشيوعية في النساء وكلها تنبع من تعاليم مزدك وقد استغلوا آل البيت لنشر دعوتهم التي ترمي إلى هدم العقائد الإسلامية[1].

ولم يسلم المجتمع من شر أعمالهم حيث دعت إلى إباحية وفوضى أخلاقية واجتماعية هددت القيم الروحية و المثل العليا للمجتمع العربي والإسلامي وقد استباحوا جميع المحرمات وأقدموا على قتل كل من خالفهم من المسلمين وبثوا بذلك الرعب في القلوب[2].

وتحدث فلوتن عن هذه الجماعة فقال: لايعرفون دنيا غير اللذة[3]، أما من الناحية السياسية فقد أرادت الخرمية تحويل السلطان من العرب إلى الفرس واتّخذت الزندقة والإلحاد سبيلاً إلى ذلك، يقول المقدسي: فإن الخرمية احتالوا في إزالة الملك إلى العجم فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ودعوا إليها في السر ومحصول أمرهم التعطيل والالحاد[4] واتخذوا من أسماء آل البيت ستاراً لتحويل مشاعر الناس عن العباسيين لذا أصبح من واجب الدولة العباسية من أجل المحافظة على دينها وتقاليدها وكيانها السياسي والاجتماعي أن تقضي على حركة بابك الخرمي.

واستمر النضال بين الفريقين طوال عهدي الخليفتين المأمون والمعتصم حتى

---

(1) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام، ج2، ص 99، 100.

(2) البغدادي : الفرق بين الفرق ص 167.

(3) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية، ص99، 100.

(4) المقدسي : البدء والتاريخ ج5، ص 134.

أسدل الستار على هذه الحركة الهدامة المضللة. ولما تولى المعتصم (218-227 هـ/ 833-852م) دخل الصراع بين العباسيين وحركة بابك الخرمي مرحلة جديدة حيث تفرغ المعتصم لقتال الخرمية في 210هـ فأعد جيشاً كبيراً ونصب عليه القائد أبا سعيد بن يوسف وأمره بالتوجه إلى أردبيل وبناء الحصون فيها[1] ودار قتال مرير بين الجيش العباسي وجيش بابك حيث نجح العباسيون في تطهير المنطقة بين أرجان واردبيل وتحقق النصر للعباسيين وتوجوا نصرهم بالقبض على «طرجان» الساعد الأيمن لبابك، وقتله[2].

ولقد تحالف بابك الخرمي وأتباعه مع الروم لشن هجوم مشترك على الاطراف الشمالية لبلاد الشام و العراق صيفاً وشتاءً ورأى الخليفة المعتصم (218هـ/ 833م) أن يوجه ضربة قوية لبابك الخرمى فعمد إلى (الافشين) وهو قائد قد اصطفاه المعتصم وقربه اليه وقد نجح الأفشين في القبض على بابك هو وأتباعه، بعد أن سلمه سهل بن سنباط اليه وقد كفاه الأفشين واسقط عنه الخراج[3] وخرج هارون بن المعتصم وكبار العباسيين ورجالات الدولة لاستقبال الأفشين وحملوا معهم هدايا للأفشين[4] وقد تناول المسعودي[5] المحاورة والمجادلة التي قامت بين المعتصم والأفشين بشيء من الدقة وقد انتهت هذه المجادله بقتله.

والقضاء على الحركة الخرمية لا يعني القضاء على الحلقة الاخيرة في سلسلة حركات الزنادقة في العصر العباسي الاول (132-232هـ/ 750-847م) والتي كانت منها حركة المازيار والأفشين وهي حركات عملت على إحياء تعاليم مزدك المجوسية الشيوعية الفوضوية التي بدأت في عهد كسرى قباذ، وأنعشها بابك الخرمي، وتولاها بعده المازيار وأيدها الأفشين وقد سعى الثلاثة للتخلص من بني العباس وإرجاع السلطة إلى الفرس وهي حركة شعوبية دينية سياسية، تعمل على الحط من شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم[6] ورغم السرية التي عمل بها الزنادقة

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج6 ص227.
(2) الطبري : المصدر نفسه ج7 ص227، 228.
(3) المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص56.
(4) الطبري : المصدر نفسه ج7، ص260.
(5) انظر تفاصيل المحاكمة في مروج الذهب ج4 ص56.
(6) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج2 ص101.

فقد تمكن المعتصم من كشف أمورهم وشن عليهم حرباً شعواء وكانت عيون المعتصم تراقب الزنادقة في كل مكان، وقد استطاعت هذه العيون ان تكشف المازيار وخيانته واتصاله السري ببابك الخرمي ورئاسته لجماعة دينية تعتنق التعاليم المزدكية[1] وخيانة الأفشين وتواطئه معهم حيث استطاع القبض عليه، وبدأ التحقيق معه في شأن الكتب التي توارد إرسالها بين المازيار والأفشين حيث شجعه على الثورة ويظهر له أمله في استعادة دين المجوسية القديم، وإحلاله بدلاً من الدين الإسلامي. واعترف المازيار بوجود هذه الكتب لديه ولهذا أمر المعتصم بإلقاء القبض على الأفشين مباشرة وإيداعه السجن رهن التحقيق[2] وعقدت محاكمة للأفشين في قصر الخلافة بتهمة تآمره ضد السلطات العربية واتصاله بجماعة المازيار.

ومن بين التهم التي وجهت إلى الافشين تهمة ضرب مؤذن وإمام أحد المساجد في اشروسنه، أما التهمة الثانية وهي احتفاظ الأفشين في بيته بكتب وثنية فيها من الكفر بالله الكثير، أما التهمة الثالثة فهي تمسك الأفشين بالعادات الوثنية مثل أكل المخنوقة واخيراً مواجهته بالرسائل والكتب التي أرسلها إلى المازيار يدعوه إلى الثورة على العرب والعمل على تحويل السلطان منهم إلى الفرس، وقد أصدرت المحكمة حكماً بإدانته وانتهى الامر بإعدام المازيار وصلب جثته.

أما الأفشين فبعد ان مات في سجنه أحرقت جثته مع الاصنام التي وجدت في منزله[3]

وأعتقد أن قضية الأفشين في حقيقتها قضية سياسية، ولكنها أُلبست الثوب الديني ورغم كل الاتهامات التي وجهت إليه فهي في حقيقتها شكوك حتى اقنعت المعتصم بخيانة قائده الاعظم[4].

وهكذا أسدل الستار على حياة الأفشين واسدل الستار عن آخر حركات الزنادقة في العصر العباسي الاول (132هـ / 847م) وقد نتج عن هذه الحركات

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 269.
(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج 10، ص 363.
(3) الطبري : المصدر نفسه، ج 10، ص364 -367.
(4) الدينوري : الاخبار الطوال، ص 405، يروى حقد ابن أبي دواد على الافشين وايعازه للمعتصم بالقضاء عليه وهذا يؤكد وجهة نظرنا في أن قضية الافشين قضية سياسية.

تيارات فكرية وثقافية مختلفة في العصر العباسي الثاني (232هـ/ 946م) ومهما يكن من أمر فالاتهام بالزندقة كان شركاً من الشراك التي تنصب من أجل خصومة سياسية أو دينية أو أدبية، والحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء في ذلك الشعراء أوالعلماء أو الامراء أوالخلفاء[1] فقد اتُّهم الشاعر ابو العتاهية بها حيث كان يذكر الموت ولايذكر الجنة والنار فيقولون: «إنه زنديق» حتى إن المأمون نفسه لم ينج من التهمة مع إنه وقف بنفسه واصحابه المعتزلة في حرب الزنادقة، وكذلك بالنسبة لخالد بن عبد الله القسري، فقد اتهم بالزندقة بالرغم من شدته على الزنادقة.

لقد اتخذت بعض الفِرق الإسلامية أفكاراً ومعتقدات تَمُتُّ إلى الزندقة بصلة سواء بوعي منها أو بلا وعي.

وهكذا اتخذت الإسلام غطاءً لاستدراج العامة وإبعادهم عن الإسلام، وبذلك لعبت دوراً مهماً في إفساد عقيدة كثير من الناس وسلوكهم. وكان النشاط الإيجابي في مواجهة هذه الأفكار الهدامة يتمثل بأفكار المعتزلة الذين وقفوا أنفسهم سداً منيعا أمام أفكار الزنادقة يقارعونهم الحجة بالحجة، ويبطلون شبههم ويجلون أفكار الإسلام.

وصفوة القول فإن أراء الزنادقة كانت قد شغلت علماء المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن ويظهر ذلك لنا جلياً من خلال الموروث الذي وصل إلينا عن تلك الفترة[2].

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج 1، ص15.

(2) انظر الفصل الاخير «الفرق الغلاة».

الفصل الثالث

أهم الفرق الإسلامية نشأة وتطوراً وتقسيماتها في المفهوم السياسي العقائدي

أ ـ المبحث الأول : غُلاة فرق الشيعة.

ب ـ المبحث الثاني : غلاة فرق الخوارج.

جـ ـ المبحث الثالث : غلاة فرق المرجئة.

د ـ المبحث الرابع : غلاة فرق المعتزلة.



المبحث الأول

غُلاة فرق الشيعة

أولاً : العلويون

إن ظهور فرقتي الشيعة والخوارج بعد معركة صفين 37 هـ / 657 م كان نتيجة لأسباب سياسية.

والأصل أن معنى الشيعة (أنصار) وقد أطلق هذا المسمى أول الأمر على أتباع علي بن أبي طالب ولكن بعد وفاته 40 هـ / 661 م.

بينما الأشعري يقول : إن كل من شايع علياً وناصره وقدمه على سائر الصحابة وآمن بحقه الشرعي في وراثة الرسول وفي خلافة المسلمين[1].

بينما يرى آل كاشف الغطاء: (إن شيعة علي يجب أن تكون لديهم خصوصية زائدة ينفردون بها في حبهم لعلي بن أبي طالب وآل البيت وهي الإقتداء والمتابعة له بل ومع الالتزام بالمتابعة أيضاً)[2].

والمبدأ الذي يرتكز عليه التشيع هو نص النبي على استخلاف علي ﷺ كما ادّعى الشيعة ذلك من بعده، كان ذلك قبل أن يهاجر الرسول من مكة إلى المدينة "622م" وذلك حينما أوحي إليه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[3] وجاء في حملة الروايات[4] إن النبي صلى الله عليه وسلم جمع

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج 1، ص30.
(2) محمد حسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص84.
(3) القرآن الكريم :سورة الشعراء، الاية 214.
(4) انظر العلامة الحلي: كشف الحق ونهج الصدق، ص 101؛ تاريخ الطبري ؛ تاريخ ابي الفداء؛ تاريخ اليعقوبي.

عشيرته الأقربين ودعاهم لمؤازرته والإيمان بدعوته المباركة وكانوا نحو ثلاثين رجلاً، وكان علي بن أبي طالب أول المتقدمين لمساندة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أورد ذلك أحمد بن حنبل في مسنده[1].

لقد بنى الشيعة شرعية مطالبهم على كثير من الأحاديث التي يستندون إليها وأكثرها مروي في الصحيحين مثل قوله عليه السلام: (علي مني بمنزلة هارون من موسى)[2] وغيرها من الأحاديث التي زخرت بها مؤلفاتهم وخاصة الإمامية منها[3] وربما كان الاهتمام بعلي وحده دون أهل بيته من قبل الرسول ﷺ ساعد على تأكيد المعنى الذي فهمه الشيعة من نصوص الحديث في قضية الاستخلاف تلك الحظوة التي كانت له عند الرسول ﷺ والتي نعرف جيداً ان سببها القرابة :

فعلي تربى في بيت رسول الله وهو ابن عمه أبي طالب الذي قام هو نفسه بتربيته وتعهد برعايته وحمايته. وكان علي أكبر مناصر للإسلام وللمسلمين منذ طفولته، ونتيجة لذلك كله كان الرأي العام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ﷺ متجهاً نحو علي بن أبي طالب ﷺ، ولم يكن التسابق الذي حصل بين المهاجرين والأنصار على الخلافة بمجرد أن أعلن نبأ وفاته إلا لسد الباب في وجه الأكثرية التي لا تعدل بعلي رضي الله عنه أحداً من الناس، ولذا أصيب الناس بما يشبه الدهشة لهذا التسابق والتزاحم بين الانصار من جهة وبعض المهاجرين من جهة أخرى.

ونتيجة لتطور الأحداث بشكل سلبي ولاسيما بعد ظهور الردة واتساعها بين عرب البادية والتي اجتاحت تباشيرها المدن والقرى، وخوف علي بن أبي طالب من أن يستغل أعداء الإسلام هذه الظروف لصالحهم ويهددون الإسلام في عقر داره، ويحاولون تفرقة المسلمين ونشر بذور الفتنة، وبعد أن وجد ذلك وعرف أن موقفه السلبي من بيعة أبي بكر ربما يؤدي إلى نزاع مسلح يستغله المرتدون والمنافقون الذين أظهروا الايمان وأبطنوا الكفر والنفاق لهذه الاسباب مجتمعة آثر أن يكون مع جماعة المسلمين يداً واحدة حرصاً على المصلحة العامة، مصلحة وحدة الأمة الإسلامية ومضى هو وأتباعه إلى مسجد الرسول (مقر الخلافة

---

(1) أحمد بن حنبل : المسند، ص 490.

(2) صحيح مسلم باب فضائل علي، ج 2، ص 324.

(3) فقد ألف حامد حسين الاكتاهوري، كتاباً أسماه عقبات الانوار يزيد على عشرة مجلدات.

والشورى) وأعلن للمسلمين بأنه منذ نشأته وهو جندي مخلص في خدمة الإسلام، ولايزال مخلصاً وفياً مضحياً في سبيل الإسلام ومبادئه، ومع أن المصلحة العليا قد فرضت عليه مسايرة الأوضاع الحاضرة والتغاضي عن حقه السليب كما يزعم الشيعة[1].

وحين رأى أن الخليفة الأول والثاني بذلا أقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد والمحافظة على الخلافة الإسلامية وتجهيز الجيوش وتوسيع حركة الفتوح لم يستأثر أو لم يستبد، فبايع وسالم وبقي شيعته منضوين تحت جناحه ومستنيرين بمصباحه، ولم يكن للشيعة والتشيع يومئذ مجال للظهور، لأن الإسلام كان يجري على مناهجه الأصلية القائمة على العدل والحق والمساواة والحرية إلى أن امتنع معاوية عن البيعة لعلي بعد مقتل عثمان 35 هـ / 655م وحاربه في صفين 37 هـ / 657م وانضم بقية الصحابة إلى علي حتى قتل أكثرهم تحت رايته.

ذهب غودفر، وبروكلمان : إلى أن التشيع حدث بعد مقتل عثمان بن عفان كما نوهنا سنة 35هـ/ 655م[2]، ويذهب محمد أبو زهرة : بأن التشيع ظهر بعد وقعة صفين 37هـ / 657م لاسيما بعد انتشار الموالي الذين دخلوا الإسلام من الفرس وغيرهم[3].

بينما يرى أحمد أمين: (إن القول بالوصاية أول من أحدثه عبد الله بن سبأ اليهودي)[4]، بالرغم من أن الشيعة يرفضونه حيث يقول آل كاشف الغطاء: (إنه شخصية خرافية وهو ألعن من أن يذكر)[5] وربما لخطورة هذه الشخصية بما تحمل من أفكار هدامة وخطيرة جعلت المسلمين يقفون ضدها وهو السبب الذي دفع بالشيعة ليتبرّأوا منها، ويعتبرونه شخصية أسطورية رغم انها ذكرت في كل المصادر الإسلامية[6] ومهما كان الحال فقد كانت مشكلة الخلافة الإسلامية أولى

---

(1) هاشم معروف الحسني: الشيعة والأشاعرة والمعتزلة، ص 28.

(2) غودفر المستشرق الفرنسي نقلاً عن بروكلمان (Brocklmann) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص40؛ أحمد أمين : فجر الإسلام، ص 269.

(3) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 28، حيث يقول (وفي ظل هذه الفتنة نبت المذهب الشيعي)

(4) أحمد أمين :الفجر الجديد، ص 269، محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص 35.

(5) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص 78.

(6) الطبري، الشهرستاني، ابن حزم، ابن قتيبة. الخ.

المشاكل التي اصطدم بها الصف الإسلامي ونتيجة لذلك انقسم المسلمون إلى فئتين فئة وقفت إلى جانب علي(رضي الله عنه) معتمدة على النصوص التي وردت في الأحاديث. وفئة رأت أن النبي ﷺ فارق الدينا وترك للمسلمين حق اختيار الحاكم الذي يرونه صالحاً لهم، هاتان الفئتان هما مصدر الفرق الإسلامية والنزاع القائم بين المسلمين طيلة هذه القرون المتوالية، وقد اتخذ بعد الفترة الأولى من تاريخه طابعاً سياسياً أدى إلى النزاع المسلح أريقت فيه دماء المسلمين، وتطور الجدل بينهم في موضوع (الخلافة والإمامة) بالإستناد إلى قواعد علم الكلام إلا أنها لم تخرج بجوهرها عن النزاع الذي نشأ فيها منذ اليوم الأول لوفاته عليه السلام 11هـ/ 632م.

وقد طرحت العديد من الأسئلة حول الخلافة ومنها هل يجب أن تكون بنص من الله يقوم الرسول بتنفيذه، أم تكون بإختيار الأمة ؟ وهل يستمد الخليفة سلطته من الله سبحانه، أم يستمدها من المؤمنين ؟ إلى غير ذلك من النواحي التي برزت في أبحاثهم ومناظراتهم، وكما يقول الشهرستاني : (ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة في كل زمان)[1].

وقد أورد ابن خلدون رأي الشيعة في الإمامة حيث يقول : (إن الإمامة ليست من مصالح العامة بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر)[2].

ويتفق الشيعة على أن علي بن أبي طالب هو «الخليفة المختار» من النبي ﷺ وأنه أفضل الصحابة، وقد ذكر «ابن أبي الحديد» أن من الصحابة الذين فضلوا علياً على كل الصحابة (عمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، وابن الزبير كان من القائلين به في بدء الأمر، ثم رجع عنه)[3] وقد غالى جماعات من الشيعة في تقدير علي وبنيه إلى

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 24، ج 1.
(2) ابن خلدون : المقدمة، الفصل 27، ص 248.
(3) ابن أبي الحديد : نهج البلاغة، ص 15.

درجة التقديس التي يعلو بها على البشر، ورغم أن بعض كتب الشيعة المعاصرة[1] ترفض هؤلاء المغالين موضحة ذلك بأنه إذا كان المقصود ما يسمونهم «غلاة الشيعة» كالخطابية والغرابية والعلياوية والمخمسية واليزيغية وأشباههم من الفرق الهالكة المنقرضة التي تمت نسبتها إلى الشيعة فانه من الظلم الفاحش. وهنا نطرح تساؤلاً مهماً جداً هل فعلاً هذه الفرق انقرضت وانتهت أم ماتزال بعض أفكارها ومعتقداتها تتغلغل هنا وهناك ؟.

وعليه يعتبر «الشيعة» من أقدم الفرق السياسية الإسلامية التي صارعت من أجل السلطة والخلافة، ويرجعون بدايات ظهورها في آخر عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان 23هـ - 643م / 35هـ -656م، وقد نمتْ وترعرت في عهد علي رضي الله عنه 35ـ 40 هـ/ 655ـ761م من غير أن يعمل على تنميتها، ولما قبضُه الله تعالى، تكونت الفكرة الشيعية ففرق منها ما كان فيه اعتدال وفيها من كان مغالياً جداً وهي في كلتا حاليها قد اتسمت بالتعصب الشديد لآل البيت النبوي.

كانت الأحداث السياسية في العصر الأموي (41هـ ـ 132هـ / 661م ـ 750م) التي تميزت في أغلب الاوقات بالعنف وسفك الدماء محرضاً أساسياً على المغالاة في تقدير علي رضي الله عنه لأن معاوية سن سنة لم تكن معروفة أو موجودة في شرائع الإسلام في عهده وفي عهد من خلفه حتى عهد «عمر بن عبدالعزيز (99ـ101هـ / 717ـ 720م) وتلك السنة هي «لعن علي بن أبي طالب» عقب تمام الخطبة، ولقد استنكر الصحابة ذلك، ونهوا معاوية وولاته عن ذلك حتى لقد كتبت أم سلمة، زوج الرسول عليه السلام كتاباً تنهاهُ. وتقول فيه (إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، ذلك إنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه وأشهد أن رسول الله أحبه)[2].

ثم جاء مقتل الحسين بن علي في عهد يزيد، وأخذت بنات الحسين وبنات علي سبايا إلى يزيد بن معاوية وهن بنات أبنة النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى الناس ذلك سنة وشيعة ولم يستطيعوا تغييراً ولا تحويلاً إلا أنه أمر دفع الشيعة إلى كتم غيظهم وكرههم لبني أمية وإلى اتباع طريق المغالاة والاندفاع في تقدير أولئك

---

(1) آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها، ص76.

(2) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص32

الذين غالى الأمويون في إيذائهم وأصبح العراق مهد الشيعة، لعدة أسباب، فعلي بن أبي طالب أقام به مدة خلافته، وفيه التقى بالناس عرفهم وعرفوه عن قرب فتعاطفوا معه، ورفضوا خلافة معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-671م) مما دفعه إلى تعيين زياد بن أبيه والياً على العراق وهو أشد الولاة وأقساهم على «آل البيت العلويين» وقضى على كل صوت معارض ضد بني أمية، مما زاد في شدة المذهب الشيعي في نفوس معتنقيه كلما اشتد قمع بني أمية لهم خاصة بعد مقتل الحسين وقمع الحجاج بن يوسف للعلويين.

وكانت العراق الأرضية التي نبتت فيها أكثر الفرق الإسلامية خصوصاً فرق الشيعة حيث كانت مزيجاً من الحضارات القديمة وانصهرت فيها الفلسفة اليونانية أو الهندية ولذلك امتزجت بالشيعة أراء فلسفية تتلاءم مع بيئة العراق الفكرية[1]. ولعل ذلك ساعد على تسرب أفكار الفلسفة القديمة إلى بعض فرق الشيعة الباطنية.

ولاشك أن الشيعة فرقة إسلامية اذا استبعدنا منها «السبئية» التي ألّهت «علياً» وكل الفرق المتشعبة منها والغلاة جداً، ورغم ادعائها بنصوص قرآنية أو أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ فإنها في حقيقة الأمر استمدت آراءها من مذاهب فلسفية ودينية سابقة على الإسلام موغلة في بعض معتقداتها في الوثنية، والتي انتهت بظهور الإسلام.

وبعض المؤرخين المستشرقين من أمثال «دوزي» يرجعون أصل المذهب الشيعي إلى نزعة فارسية إذ إن العرب ترفض التبعية والملكية في الحكم بينما الفرس معتادين على حكم الملك ويدينون بنظام الوراثة في البيت المالك[2].

كما يرى فان فلوتن، وفلهاوزن «أن الشيعة أخذت من اليهودية أكثر من الفارسية» مستدلين بذلك على أن عبد الله بن سبأ أول من أظهر التقديس لعلي وقال بالوصاية، وإن علياً لم يمت ولكنه رفع إلى السماء وهذه المعتقدات هي أقرب لليهودية وللمسيحية منها للفارسية، رغم أنهم يعترفون أيضاً أن المذهب الشيعي لم يخل أيضاً من مبادئ العقائد البوذية والزرادشتية وغيرها[3].

---

(1) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج1، ص15

(2) دوزي نقلاعن فان فولتن (Van volten)): السيادة العربية، ص16.

(3) فان فولتن (Van volten)) : المرجع نفسه، ص16.

ولعل هذا القول من قبل بعض المستشرقين قد استنبطوه من كتاب «الفصل بين الملل والنحل» عندما يرجع معتقدات عبدالله بن سبأ إلى معتقدات اليهود القائلين: «بأن إلياس عليه السلام[1] وفنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم» وسلك هذا السبيل بعض الصوفيين وغيرهم من الفرق الإسلامية الذين استمدوا فكرة البقاء من هذه المعتقدات.

والحق إن هذا الأمر مبالغ فيه وقد استغله المستشرقون لزيادة الفُرقة وغرس الشقاق بين أخوة الإسلام. والشيعة المعاصرون وأكثر المعتدلين ينكرون أن يكون منهم عبدالله بن سبأ ويعتبرونه لايمت للمسلمين أو الإسلام بصلة، فكيف يكون شيعياً ويقولون: هو «ألعن من أن يذكر[2] » وإن كان هذا لا ينفي وجوده دون المبالغة في الدور الفعال الذي أنيط به.

فرق الغلاة في المذهب الشيعي

وتمتد جذور غلوهم إلى كونهم رفعوا «علياً» إلى مرتبة الالوهية ومنهم من رفعه إلى مرتبة النبوة وجعلوه في منزلة أعلى من النبي ﷺوقد تعددت فرق الغلاة والمتطرفين من الشيعة في العصر الأموي وكانت أهم منابتهم في البصرة والكوفة، فمنهم الجعد بن درهم، وأصحاب بيان بن سمعان، وأصحاب المغيرة بن سعيد العجلي، ومنهم الخناقون، والرافضة والجناحية، والبشيرية، والخطابية، والعميرية والبزيغية، والمفضلية، والمعمرية، والسبئية، والبيانية، والحربية، والمنصورية، ويصل عددهم إلى سبع وعشرين فرقة[3] بينما نجدهم في مخطوط الكرماني:[4] يبلغون الاثنتين والعشرين فرقة، يكفر بعضهم بعضاً وأصولهم ثلاث فرق: غلاة[5] وفريدية وإمامية، أما الغلاة فهم ثماني عشرة فرقة.

---

(1) ابن حزم : الفصل بين الملل والنحل، ص180.

(2) آل كاشف الغطاء: اصل الشيعة واصولها، ص78.

(3) اسماعيل العربي : معجم الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية، ص 18.

(4) تحقيق سليمة عبدالرسول : مخطوط الفرق الإسلامية، ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني، ص33.

(5) الغُلاة : انظر فصل تحديد المصطلحات، ص 274.

وقد تباينت الفرق غلواً وتطرفاً رغم تبرؤ آل البيت منهم، ونفقت بعض الفرق على الناس لاستئثارها بالزهد أو ببعض النظريات الفكرية أو بتفسير بعض آيات القرآن على نحو خاص.

ونتيجة لكل ذلك جاء الغلاة بأراء غريبة عن الإسلام حيث كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في بلاد فارس وانتشرت في العراق قبل الإسلام، كما أن بعضها يعدّ امتداداً للآراء الدينية القديمة من مجوسية، وبوذية، ومزدكية، ومانوية، جاء بها أناس أسلموا لأغراض مختلفة فكسوا آراءهم الحقيقية، الثوب الإسلامي وهي تمثل سخط[1] الطبقات الدنيا المثقلة اجتماعياً واقتصادياً من جهة، ورد فعل الديانات القديمة التي انكمشت أمام المد الإسلامي ومن أهمّ تلك الفرق وأولها:

السبئية :

وهم أصحاب «عبد الله بن سبأ» الذي قال لعلي : أنت الإله حقاً، فنفاه إلى المدائن[2]، وقيل إنه كان يهودياً فأسلم، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون[3] وصي موسى عليه السلام، مثل ما قال في علي وهو أول من «أظهر القول بوجوب إمامة علي، ومنه تشعبت أصناف الغلاة، ولما قتل علي، زعم ابن سبأ أنه لم يمت، وفيه الجزء الإلهي»[4].

وإن ابن ملجم «إنما قتل شيطاناً تصور بصورة علي، وإنه في السحاب، وإن الرعد صوته والبرق سوطه، وإنه ينزل إلى الأرض بعد هذا فيملأها عدلاً، وهذه الطائفة إذا سمعوا صوت الرعد، قالوا عليك السلام يا أمير المؤمنين»[5] وأول ما قامت عقيدة السبئية على مذهب الوصاية الذي اقتبسه ابن سبأ من اليهودية، دينه

---

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص13.

(2) ابن سبأ : كان يدّعي النبوة زعم ان علي بن ابي طالب هو الله تعالى وذكروا عنه إنه قال لعلي «أنت، أنت» وطلب منه ان يتوب فأبى، فحبسه ثلاثة ايام، فلم يتب فأحرق اتباعه، ونفاه خارج المدينة. انظر المقالات و الفرق ص15 الشهرستاني، ص289.

(3) يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل بعثه الله نبياً إلى بني اسرائيل، ابن الاثير : الكامل،ج1، ص156.

(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص289.

(5) الشريف الجرجاني في التعريفات ص79 نقلاً عن مقالات الإسلاميين للاشعري، ص86.

القديم بمعنى أن علياً هو وصي محمد صلى الله عليه وسلم وإنه خاتم الانبياء بعده، ثم تطورت الفكرة في السبئية إلى القول بفكرة تجسد الالوهية.

فهم يزعمون أن جزءاً إلهياً حلّ في علي وهذا الجزء الإلهي يتناسخ في الائمة من بعده وهي من أخطر هذه الأفكار وأشدها مناقضة للإسلام حيث سيطرت أساطير ابن سبأ على العقول الضعيفة بعد ما امتزجت بعقائد الهنود التي تقول بتناسخ الارواح والمسخ والحلول.

وبهذه الأفكار وغيرها تغذت فرق غلاة الشيعة واتخذتها محوراً لعقائدها ودعاوى دينية وسياسية ما أنزل الله بها سلطان، وقد لا نجهل الدور الذي لعبهُ والدور الخطير الذي شارك فيه عملياً في المؤامرة التي كان من نتائجها قتل الخليفه عثمان بن عفان(35 هـ/ 655)[1].

وقد كان موطن نشوء السبئية في الكوفة وما حولها وأكثر من آمن بها هم من الموالي وقليلهم من العرب وأول ماظهرت أهميتهم السياسية في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي 64 هـ/ 684م. إذ استمال الموالي والسبئية وعرف بعض مبادئها، ولم تمت الحركة بانهيار ثورته بل بقيت في الطبقات الدنيا.

ونتيجة حركة المختار ظهرت الكيسانية (أنصار كيسان وهو مولى علي بن أبي طالب)، وكان كيسان هو الذي دل المختار بن أبي عبيد الثقفي على قتلة الحسين، فانتقم منهم المختار وقتلهم شر قتلة وهناك من يقول إن الكيسانية سميت بهذا الإسم نسبة إلى المختار الثقفي، فقد قيل إنه كان يسمى كيسان[2] والكيسانية من الشيعة الغلاة.

يقول الاشعري: «إن الكيسانية قالوا: في علي قولاً عظيماً شنيعاً.. . »[3] وكانوا يقولون بإمامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، وزعموا «أن علياً بن أبي طالب نص على إمامة ابنه محمد بن الحنفية لأنه دفع إليه الراية بالبصرة»[4] وقالوا بالتناسخ (ويزعمون أن الإمامة جرت في علي ثم في الحسن ثم في الحسين ثم في ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت في النبي، وروح النبي في

---

(1) المقريزي : خطط المقريزي، ج2، ص355.
(2) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص169.
(3) الاشعري : مقالات الإسلاميين، ج1، ص23.
(4) الاشعري :المصدر نفسه، ص90.

علي، وروح علي في الحسن، وروح الحسن في الحسين، وروح الحسين صارت في محمد بن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت في ابنه أبي هاشم..)[1].

وقالت فرقة من الكيسانية: «إن محمد بن الحنفية هو المهدي سماه أبوه علي مهدياً، ولا يجوز أن يكون مهديان: مهدي في أيام ابن الحنفية، ومهدي بعد ذلك. وقالوا : إن ابن الحنفية «غاب فلا يدرى أين هو وسيرجع ويملك الأرض، ولا إمام بعد غيبته إلا رجوعه.. »[2]

وقد ورد ذلك عند شعراء العرب الذين آمنوا بفكرة وجود محمد بن الحنفية حياً في جبل رضوى[3]. وقد رد عليهم شعراء السنة أيضاً[4].

وقد مهد الكيسانية لخروج الإمامة لا من ولد فاطمة حسب بل من ولد علي كافة، فظهر جماعة منهم «يتسمون المعاوية»[5] ويزعمون أن الارواح تتناسخ وأن روح الله صارت في محمد، ثم في علي، ثم في محمد بن الحنفية، ثم في ابنه أبي هاشم، ثم في (عبدالله بن معاوية)[6]، وقد توفى عبد الله بن معاوية في سجن أبي مسلم في خرسان 130 هـ / 748م بعد فشل ثورته التي سبق أن قام بها ضد الأمويين.

ولذا أخرجت (المعاوية)[7] الإمامة من ولد علي إلى شخص غير علوي من ذرية جعفر بن أبي طالب وتوسعت قضية إخراج الإمامة، على يد فرقة الكيسانية،

---

(1) الاشعري :المصدر نفسه، ص226.
(2) الاشعري :المصدر نفسه، ص27.
(3) يقول كثير عزة :

إلا إن الائمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه	هم الاسباط ليس بهم خفاء

ويقول :

تغيب لا يرى فيهم زمانا	برضوى عنده عسل وماء

انظر شعر النوبختي : فرق الشيعة، ص 51؛
حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسي، ص146.
(4) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص 182.
(5) نسبة إلى عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب.
(6) الاشعري : المصدر نفسه، ص42.
(7) تعريف الامامة : انظر فصل تحديد المصطلحات، ص 263.

ولم تعد تلك الإمامة مقتصرة على آل أبي طالب بل إن دائرتها توسعت فشملت بني هاشم.

ومن الكيسانية تفرعت فرقة الروانديه وهؤلاء الغلاة (يقولون إن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس هو الإمام وهو الله وهو العالم بكل شيء، فمن عرفه فليصنع ما يشاء)[1].

وقد استفاد العباسيون من تقليدها لبني العباس كما استفادوا من الغلو ووجهوا تذمر الغلاة الذين كان جلهم من الموالي في عصر الأمويين (41 هـ-132هـ/ 661م-750م) لمصلحتهم فاستعملوه للتشهير ببني أمية أولاً ثم في إسقاط حكمهم في الوقت المناسب ثانياً[2].

وادّعت الكيسانية إن محمد بن الحنفية هوالمهدي[3] وللكيسانية فرق متعددة منها: الكرنبية أصحاب ابن كرنب الضرير، والهاشمية أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية وقالوا بموته وهم يقولون :إن أباهاشم مامات حتى أوصى بالخلافة إلى محمد بن علي بن عبد الله العباس الذي كان في الحميمة ودعاته يجمعون الانصار في خراسان.

ويقول الرازي: «إنهم ادّعوا أن الإمام بعد الحسن محمد بن الحنفية، ثم زعم المختار أنه نائب محمد بن الحنفية»[4] ويقصد بذلك الصنف الاخر من الكيسانية أتباع المختار الثقفي.

تلك هي أهم أصناف الكيسانية، كما وردت في مصادر أصحاب المقالات والفرق، وذكر الشهرستاني:[5] إنهم يجمعهم القول بأن الدين يكون في طاعة رجل واحد، حملهم هذا على تأويل وتفسير الأركان الشرعية من صوم وزكاة وصلاة وحج.

أما اعتقادات الكيسانية في الرجعة فتقول إن النبي وجميع النبيين سيرجعون، كذلك يرجع علي بن أبي طالب فيقتل معاوية بن أبي سفيان وآله جميعاً، ويهدم

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص137.
(2) القمّي: المقالات والفرق، ص26.
(3) المقدسي: البدء والتاريخ، ج5، ص128.
(4) الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص62.
(5) الشهرستاني: المصدر نفسه، ج1 ص196.

دمشق عاصمته ويغرق البصرة «وهم يجوزون البداء على الله تعالى»[1] وللبداء معان فمثلاً يذكر الشهرستاني : إن البداء في العلم وفي الإرادة، والبدء في الأمر وكان ذلك مذهب المختار[2]. ويفسر البغدادي البداء بقوله : «إن المختار كان يعد جيشه بالنصر وحينما التقى الجيشان بالمدائن وانهزم أصحاب المختار، وقتل أميرهم، فرجع فلولهم إلى المختار وقالوا: لماذا تعدنا بالنصر على عدونا؟ فقال: إن الله تعالى كان قد وعدني ولكنه بدا له[3] واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾[4] فكان ذلك سبب قول الكيسانية بالبداء.

ويعني البداء عندهم إن الله سبحانه وتعالى يغير ما يريده تبعاً لتغيير علمه، وإنه يأمر بالشيء ثم يأمر بخلافه. وقد قال الشهرستاني[5] في هذا : إنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعي لأصحابه علمه بالاشياء من خلال وحي يوحى إليه أو من خلال رساله يمنحها الإمام لهُ فإذا صادف وقوعه جعله دليلاً على دعواه وإن لم يوافق ما أخبرهم به قال: «قد بدا لربكم، وإن ذلك بلا شك ضلال مبين، وفساد في الاعتقاد»[6].

ويعتقدون أيضاً بالتناسخ والحلول وهي تناسخ الارواح وخروجها من جسد وحلولها في جسد آخر، وهذا الرأي منتشر في الفلسفة الهندية والديانات الوثنية البوذية[7]، وكانوا يقولون :

«إن لكل شيء ظاهراً وباطناً، وإن لكل شخص روحاً ولكل تنزيل تأويلاً»[8] ويظنون أن أسرار العلم مجتمعة في الشخص الإنساني الذي أثر به علي بن أبي طالب وكل من اجتمع عنده هذا العلم هو الامام حقاً ويعتقدون أنه محاط بالعلوم كلها[9].

---

(1) النوبختي: فرق الشيعة، ص62.
(2) الشهرستاني: المصدر نفسه، ص 146.
(3) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص36.
(4) القران الكريم: سورة الرعد، الاية 40.
(5) الشهرستاني: الملل والنحل، ص146.
(6) الشهرستاني: المصدر نفسه، ص147.
(7) الشهرستاني: المصدر نفسه، ص145.
(8) محمد ابوزهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص40.
(9) الشهرستاني : الملل والنحل، ص145.

ويذكر القمي : «إنهم زعموا إن الله حلّ في أجسام الأئمة، وإنه حل في محمد بن الحنفية ثم انتقل فتحول في عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب»[1] وهذه من أهم معتقداتهم التي ذكرها مؤلفو المصادر القديمة[2]، وهذه الفرقة تشعبت إلى أصناف وفرق متفرقة، ويقال إنها انقرضت نتيجة لضعف معتقداتها ومقالاتها ويقول أبو زهرة في ذلك : «لم يكن للكيسانية أتباع يذكرون في الأقاليم الإسلامية»[3]. وقد رفض الشيعة الكيسانية واعتبروها دسيسة عليهم وإنها تشوه معتقداتهم. وقد ذكر الانصاري: «إن الكيسانية من حيث مصدرها وتكوينها لا علاقة لها بالتشيع ولاصلة لها بالشيعة»[4] فالكيسانية حسب رأيه: قد افتعلها العباسيون مذهباً سياسياً لتحقيق أغراضهم في السلطة، وتناولها المغرضون والمشعوذون «الزنادقة» فهي تختلف في العقيدة والايمان والتمسك بأحكام الدين والقرآن مع التشيع، وإن تصور الكيسانية من مذاهب الشيعة تصور باطل وافتراء صريح وكيد بالشيعة والتشيع.

ونستغرب هذا الرأي من الانصاري فإذا كان يرفض الكيسانية كأحد فرق الغلاة من الشيعة فماذا يقول عن الانشقاق الذي حدث داخل الامامية ونتج عنه الاسماعيلية السبعية ومنها القرامطة، والدروز. الخ ولنا أن نسأل الأنصاري، أليست هذه فرق منحرفة دينياً ومغالية؟

تؤكد مصادر التاريخ الإسلامي، الشهرستاني أوالنوبختي أو ابن حزم[5] أو غيرهم من المؤرخين على وجود هذه الفرقة كحقيقة، وليس فرقة وهمية، كما يحاول بعض الشيعة أن يصور الأمر، ومما يلفت النظر هو رفض الشيعة لهذه الفرقة واعتبارها فرقة بعيدة عن الإسلام كما رفضوا سابقاً السبئية وهذا الامر يفنّد نفسه بدليل وجود فرق أخرى أكثر مغالاة في فرق الشيعة كما سنوضح فيما بعد.

---

(1) القمي : المقالات والفرق، ص70؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص198.
(2) الشهرستاني : الملل والنحل ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق ؛ النوبختي: فرق الشيعة.
(3) محمد ابو زهرة : المرجع نفسه، ص40.
(4) عبدالواحد الأنصاري : مذاهب ابتدعتها السياسة، ص174.
(5) الشهرستاني : الملل والنحل ؛ النوبختي : فرق الشيعة ؛ ابن حزم : الفصل في الملل والنحل.

فرق الإمامية «الاثنا عشرية»

هذه الفرقة التي تحمل إسم «الشيعة الإمامية» يدخل في عمومها أكثر مذاهب الشيعة ويدخل في عمومها فرق لم تنحرف في اعتقاداتها إلى درجة أن تخالف نصاً من نصوص القرآن الكريم وفرق أخرى أخفت اعتقاداتها وأعمالها التي لا تدخل في الإسلام وتنحرف انحرافاً شديداً وهي فرق الغلاة[1].

والامامية يقولون: إن الامام يعرف ويعيّن بالشخص وليس بالوصف، فعليّ ﷺ عينهُ النبي ﷺ وهو يعيّن من بعده بوصية، ويسمون بالاوصياء، وقد أجمع الامامية على أن إمامة علي قد ثبتت بالنص عليه بالذات «فالتركيب المذهبي للشيعة مبنيّ على النص الذي هو من عقائدهم الاساسية، فعلي إستخلفه الرسول عليه السلام من بعده»[2].

ولم يكن الامر منه بل هو من عند الله حينما أنزلت عليه الآية الكريمة: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾[3] كما ترى أن الإمامة ليست قضية مصلحية بل هي ركن الدين[4]، ولا يجوز لنبي إغفالها[5]، أو تفويضها إلى الامة[6].

وفي زعمهم أن البيعة لعلي كانت في خطبة غدير خم[7]، فقد بايعه النبي على رؤوس الاشهاد بقوله : «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه»[8] وكان النبي يقول له : «أنت أخي ووصيي ووزيري وخليفتي في أهلي»[9] وغيرها من الاحاديث التي يرويها الشيعة للتأكيد على نص الوصاية من النبي «لعلي رضي الله عنه».

(1) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص44.
(2) محمد ابو زهرة : المرجع نفسه، ص44.
(3) القرآن الكريم : سورة الشعراء، الأية 214.
(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ج 1، ص 195.
(5) ابن خلدون : المقدمة، ص 348.
(6) القمي : المقالات والفرق، ص 154.
(7) فضيلة بن الأمير الشافي : تاريخ الفرق الزيدية، ص 23.
(8) الطوسي : تلخيص الشافي، ص 65.
(9) القمي : عيون أخبار الرضا، ص 121.

عقائد الإمامية :

من عقائد الشيعة الاساسية عموماً.

أولاً : الامامة حيث قالت بوجوبها فسميت الشيعة الامامية ووصفوا بها وأصبحت علماً على من دان بوجودها في كل زمان[1]، وسموا الخليفة «بالامام» وقالوا «علي إمام المسلمين» ويروي جعفر الصادق أن علياً إمام فرض الله طاعته[2].

وقال: إنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف الله وعرف إماماً منا أهل البيت، ومن لايعرف الله عز وجل ولايعرف الامام من أهل البيت، فإنما يعرف ويعبد غير الله[3].

وذهبت الشيعة الإمامية إلى أن طريق وجوبها العقل وليس وجوبها بموقوف على السمع[4] ويفسرون القرآن تفسيرات تؤيد وجهات نظرهم حيث يفسر الكليني[5] الآية الكريمة : ﴿**ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله**﴾[6] يعني اتخذ دينه رأيه بغير إمام من أئمة الهدى.

واتفقت الشيعة على أنه يجب على الأمة الإنقياد لإمام عادل يقيم فيها أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ[7] بل يذهب النوبختي[8] : إلى أن الامامة من أجلّ الامور بعد النبوة، والامام هو أفضل من رعيته في جميع صفات الكمال والجلال، وأجمعت الشيعة على أن الامام يجب أن يكون عالماً، وأدخل هذا في البناء المذهبي.

وفسرت الآيات الكريمة بخصوص ذلك، فقد أورد الكليني : إن الإمام

---

(1) المفيد : أوائل المقالات، ص7.
(2) المفيد : المصدر نفسه، ص7.
(3) فضيلة الشافي : تاريخ الفرق الزيدية، ص43.
(4) الكليني : أصول الكافي، ج 1، ص 189.
(5) الكليني المصدر نفسه، ج1، ص774.
(6) القرآن الكريم : سورة القصص، الآية 50.
(7) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء، ج 4، ص87.
(8) النوبختي : فرق الشيعة، ص 41.

جعفر فسر الآية الكريمة : **﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾**[1] فقال : نحن الذين يعلمون وعدونا هم الذين لايعلمون وشيعتنا أولو الألباب[2].

وتوضح الشيعة من خلال ما اقتبسناه من آل كاشف الغطاء: من أن الأئمة هم الأوصياء استودعهم النبي ﷺ أسرار الشريعة، فالرسول ما أوضحها كلها بل بعضها، فبين ما اقتضاه زمانه وترك للأوصياء أن يبينوا للناس ما تقتضيه الأزمنة من بعده، وذلك بأمانة أودعها إياهم[3].

وإذا كان الإمام له هذه المنزلة، فقد قرروا أن يكون معصوماً من الخطأ والنسيان والمعاصي فهو طاهر مطهر لا تعلق به ريبة وقد أجمع على ذلك «الإمامية» وصرحت بذلك كتب «الاثنا عشرية» قد تناول هذا الأمر بشيء من التفصيل الشريف المرتضى[4].

والامامة متسلسلة في اثني عشر إماماً كل سابق ينص على اللاحق، ويشترطون أن يكون معصوماً كالنبي عن الخطأ والخطيئة وإلا زالت الثقة به ويستندون في هذا على الآية الكريمة : **﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين﴾**[5]. وهي عندهم صريحة في لزوم العصمة في الإمام وأن يكون أفضل أهل زمانه[6]. ويقررون أن عصمته ظاهرة وباطنة[7] : وإنه معصوم قبل أن يكون إماماً، وبعد تولية الامامة.

والامامية يجوزون أن تجري خوارق العادة على يد الامام، لتثبت إمامته، ويسمون الخارق للعادة الذي يجري على يديه معجزة.

والركن الثاني من عقائد الشيعة الامامية يتمثل في العصمة، فترى أن الائمة كالأنبياء معصومون لأن الامامة درجة ثانية من النبوة[8]، فكل مايترتب على النبوة

---

(1) القرآن الكريم : سورة الزمر، الآية (9).
(2) الكليني : اصول الكافي، ج1، ص 212.
(3) محمد حسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة واصولها، ص28.
(4) الشريف المرتضى : الشافي، ص 40.
(5) القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 124.
(6) محمد حسين آل كاشف الغطاء: المرجع نفسه، ص88.
(7) الشافي : الطوسي، ص319.
(8) محمد صادق الصدر : الشيعة، ص 117.

من الفوائد الجليلة يترتب على الامامة. ويفسر المسعودي: «سبب عصمة الامام إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما يدخل فيه غيره من الذنوب فيحتاج أن يقام عليه الحد كما يقيمه على غيره فيحتاج الامام إلى إمام إلى غير نهاية فيبرر بذلك عصمة الامام»[1].

ويوضح ابن حزم: إن الامامية أصبحوا بأن قالوا لابد من أن يكون هناك إمام معصوم عنده جميع علم الشريعة هو ضروري لحفظ الشريعة وصيانتها من الضياع فهو يتمها ويحميها ويجد الشيخ المفيد أن الآية القرآنية **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾**[2] نزلت بمعنى يقول: إن حبل الله هو دينه والائمة معصومون لأنهم متمسكون بطاعة الله تعالى[3].

يتضح من هذا كله أن العصمة جزء من العقيدة الشيعية فلا يقول الشيعة بغيرها ثم أخذت الشيعة بالتقية واعتبرتها جائزة في الدين عند الخوف على النفس[4]، وقد اتخذها الائمة ديناً لهم ولأتباعهم، مادامت تحقن دماءهم ولا تسيء إلى الآخرين ولا إلى الدين، و الشيعة كلها تؤمن بالرجعة، وتقول: إنه لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدي[5] ولا يخلو الناس من حجة الله[6] فانتظار المهدي كان من الاعتقادات الأساسية للشيعة، ويدعي الشيعة حديثاً للرسول بهذا الشأن حيث: لا تذهب الدنيا حتى يقوم بأمر أمتي رجل من ولد الحسين يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً[7] وقد ذكرت الكثير من الأحاديث التي تؤكد وجود المهدي على لسان رسول الله ﷺ[8].

ولعل ارتباك الشيعة وخيبة أمالهم للوصول إلى السلطة وتعصب العباسيين ضدهم أدى إلى ذلك كله وإلى اتجاههم نحو المسائل العقائدية تَقِيَّة وأوضحوا

(1) المسعودي. مروج الذهب، ج3، ص237.
(2) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية 103.
(3) الشيخ المفيد : اوائل المقالات، ص 96.
(4) الشيخ المفيد : المصدر نفسه، ص96.
(5) ابن عبدربه : العقد الفريد، ج2، ص406.
(6) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص237.
(7) ابن رستم الطبري : دلائل الامامة، ص240. نقلاً عن فضيلة الشافي : تاريخ الفرق الزيدية.
(8) الطوسي : الغيبة، ص111.

للناس ظلم العباسيين وانحرافهم عن أمور دينهم مستغلين بذلك تفسيرهم الباطني للقرآن لخدمة أغراضهم.

والإمامية فِرق كثيرة متعددة، كالباقرية والجعفرية الواقفة[1] والناووسية التي قالت بأن جعفر الصادق حي لم يمت ولن يموت حتى يظهر أو الأفطحية الذين قالوا بإمامة عبدالله الافطح ابن جعفر الصادق، والاسماعيلية الواقفة الذين قالوا بإمامة إسماعيل إلا انهم اختلفوا على أنفسهم، فمنهم من قال إنه مات في حياة أبيه، ومنهم من قال إنه لم يمت، وإن أباه أظهر موته خشية أو تقية من الخلفاء العباسيين، والموسوية المفضلية الذين يقولون بإمامة موسى بن جعفر الصادق.

على أن أشهر كل تلك الفرق الإمامية التي ذكرناها هي فرقة «الاثنا عشرية» التي أوضحنا معتقداتها، وهذه الفِرقة نفسها يطلق عليها الجعفرية كما يطلق عليها الإمامية وأحياناً الشيعة، الاثنا عشرية لأنهم يؤمنون بإثني عشر إماماً متتابعين هم: «علي بن أبي طالب، ثم إبنيه الحسن والحسين، ثم علي زين العابدين بن الحسين، ثم محمد ين علي وعلي بن محمد، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، محمد بن الحسن».

ولكل إمام من هؤلاء الأئمة الإثني عشر لقب عرف به، وهذه الألقاب هي على الترتيب : علي المرتضى، والحسن المجتبى، والحسين الشهيد، وعلي زين العابدين السّجاد، ومحمد الباقر وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد النقي، وعلي الهادي التقي، والحسن العسكري الزكي، ومحمد المهدي القائم بالحجة.

وإذا كانت قد سميت بالجعفرية نسبة إلى جعفر الصادق وهو دليل على «أنها تستمد علمها من جعفر الذي عرف بغزارة العلم في الدين، وأوفر الحكمة، كامل الأدب كان زاهداً وورعاً ومتسامحاً» إلا أنهم حرفوا ما قيل على لسان الإمام[2].

فالإمامية يزيدون على أركان الإسلام الخمسة، ركناً آخر هو الاعتقاد بالإمامة

(1) مصطفى الشكعة : إسلام بلامذاهب، ص189.

(2) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص192.

«أي إنهم يعتقدون إن الإمامة منصب إلهي كالنبوة»[1] ويعتقدون إن الله كما يختار من يريد من عباده للنبوة، كذلك يختار من يشاء للإمامة، وأمر بنيه بالنص عليه وأن ينصبه إماماً للناس من بعده (لكي يثبتوا إمامة علي بالنص ويؤكدوا عليها) والفارق الوحيد عندهم بين النبي و الإمام هو الوحي، فالنبي يوحى إليه أما الإمام فلا ويتمسك الامامية بهذا الركن تمسكاً شديداً.

أهم فرق الغلاة المنبثقة عن فرق الشيعة

الإسماعيلية:

واحدة من الفرق الشيعية التي جنحت إلى الغلو أكثر من ميلها إلى الاعتدال، وإنما سميت بـ «الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ويطلق عليهم أيضاً اسم الواقفة» لأنهم يوقفون سلسلة أئمتهم عند الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق والفرق بينهم وبين الامامية «الاثني عشرية من حيث ترتيب موسى الكاظم إلى ابنه علي الرضا إلى آخر الائمة» الاثني عشر على الترتيب الذي ذكرناه سابقاً.

بينما وقف الاسماعيليون عند إمامته فسموا لذلك «بالسبعية» وإسماعيل هو الابن الأكبرللامام السادس جعفر الصادق والذي توفي في حياة والده، ويقولون إن والده نحى عنه الامامة، لأنه وجده ثملاً، وليس من المعقول أن يُوصِي جعفر الصادق وهو التقي الورع العالم الفاضل لابنه الذي لم يلتزم بحدود الدين فاقترف الكبيرة وشرب الخمر، غير أن أنصار إسماعيل أنكروا على جعفر هذا التصرف، وقالوا إن إسماعيل معصوم وإنه وإن شرب فإنما شربها لأمر في علم الله، وتمسكوا به إماماً ورفضوا الاعتراف بإمامة أخيه موسى، ورأوا أن شرب الخمر لا يفسد عصمته وإنه لايجوز لله أن يأمر بشيء ثم ينسخه[2]، وتقول رواية أخرى أن إسماعيل توفي في حياة أبيه فانتقلت الامامة بعد ذلك إلى ابنه محمد بن إسماعيل، لأن الامامة لاتكون إلا في الاعقاب وغير جائز أن تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة واحدة فريدة هي انتقالها من الحسن إلى الإمام الحسين،

---

(1) مصطفى الشكعة : المرجع نفسه، ص193.

(2) القمي : المقالات و الفرق، ص79.

وللاسماعلية في ذلك تأويل من القرآن وهم يفسرون القرآن تفسيراً باطنياً خاصاً ويتذرعون بالآية الكريمة ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبهِ**﴾[1] وفسروا الكلمة بأنها إمامة، ولذلك وجب أن تكون في الاعقاب دون الاخوة ورفضوا إمامة موسى الكاظم ولم يعترفوا بها[2].

أما الشهرستاني فيقول إن الاسماعيليين يعتقدون: إن إسماعيل لم يمت في حياة أبيه بل إنه مات بعده بخمسة أعوام، وقد أظهر أبوه موته من قبيل التقية[3]، خوفاً على حياته، لأن الائمة كانوا مضطهدين من الخلفاء الامويين والعباسيين وخوفاً عليه من العباسيين أشهد أبوه الناس على موته، ويؤكد البعض هذه الرواية بما يذهبون إليه من أن إسماعيل قد رؤي بالبصرة وإنه قد مر على مُقعد فدعا له فبرئ بإذن الله.

تلك هي الروايات المختلفة التي وردت بصدد موته، على أن أكثر الروايات تذهب إلى أنه مات في أيام أبيه (143هـ/ 760م) بالمدينة قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام.

الإسماعيلية سياسياً:

غير أن الإسماعيلية لم تظهر كفرقة تلعب دوراً سياسياً إلا بعد موت إسماعيل بأكثر من قرن من الزمان، إذ ظهرت في المشرق والمغرب على حد سواء بنشاط وهمة يدعوان إلى الاهتمام، مرت الفترة بين موت إسماعيل وبين ظهور الدعوة نشطة وقد عبر عنها (بفترة التستر) حيث تجري الدعوة والدعاية للمذهب في كتمان وسرية وحذر، وعندما استشفوا إمكان النجاح جاهروا بالدعوة وهو ما يطلقون عليه «دور الظهور».

ويرجع تاريخ الإسماعيلية إلى 48 هـ / 765م عندما اشتدت ضربات العباسيين للحركات الشيعية بعد فشل ثورة محمد الملقب بذى "النفس الزكية"

---

(1) القرآن الكريم : سورة الزخرف، الاية 28.
(2) كامل حسين : طائفة الاسماعيلية، ص12.
(3) الشهرستاني : الملل والنحل، ص171، ج1.

مما اضطرهم للاختفاء والتكتم، وفر محمد بن اسماعيل للري ومنها إلى روماند واستقر بقرية سميت باسمه «محمد أباد» مما اضطره إلى الاختفاء والتكتم من العباسيين، بينما اختفى أبناؤه في خراسان وفي إقليم قندهار في السند، وقد اتّخذ أئمة الإسماعلية مدينة (سلمية) مركزاً لنشر دعوتهم[1].

ومهما كان الأمر فالإسماعلية لم تعرف كفرقة ذات إتجاهات قبل أواخر القرن الثالث الهجري، ويربط بعض المؤرخين[2] : بين ظهور الإسماعلية وظهور حركة القرامطة، ويرى إن ظهور القرامطة في البحرين والشام كان إيذاناً بظهور الإسماعيلية على مسرح السياسة بصفة ظاهرة، بعد أن ظلت الدعوة الاسماعيلية مستترة حوالى قرن من الزمان.

كان من أشهر دعاة الاسماعيلية ميمون القداح الذي وضع أسس المذهب الاسماعيلي ويعتقد أن له ميولاً شعوبية ترمي إلى مقاومة الإسلام والعروبة[3] وخلّفه من بعده ابنه عبد الله بن ميمون الذي اتخذ الأهواز مركزاً لنشر دعوته، ولما انكشف أمره لدى واليها هرب إلى الشام وأقام في سلمية إلى أن مات[4].

ويرجع إلى عبد الله بن ميمون القداح أساس الدعوة الإسماعلية السبعية التي تختم الإمامة بإسماعيل بن جعفر الصادق، وقسمها إلى سبع، وقالت إن الإمام السابع هو اسماعيل، وإنه لم يمت وإن والده قد غيبه خوفاً عليه من الخلفاء العباسيين، وسافر إلى سلمية فدمشق وكان ذلك سنة 145هـ/ 763م وحذره والي دمشق الإسماعيلي بطلب الخليفة له فهرب إلى العراق حيث شوهد بالبصرة وبقي الإمام إسماعيل يتنقل بين أتباعه سبع سنوات حتى توفى عام 158هـ / 774م في البصرة، ورزق بمحمد وعلي وفاطمة ونص على إمامة ولده محمد[5].

ويرى المؤرخون المستشرقين من أمثال (دوزي)، وبروكلمان إن عبد الله بن ميمون القداح صاحب مؤامرة قوية الدعائم تمَّ تنظيمها بمهارة فائقة، بسبب كرهه

---

(1) (السلمية) من محافظة حماة السورية.
(2) كامل حسين : طائفة الإسماعيلية، ص 15.
(3) محمد صادق : الفرق، ص 89.
(4) حسين إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية، ص 59.
(5) مخطوط كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان إعتقادهم لمحمد بن مالك اليماني تحت رقم 1928، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة.

للعرب واحتقاره للإسلام والمسلمين. مدفوع إلى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة[1].

لقد نجح أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة الإسماعيلية في نشر أفكاره في شمال المغرب 297هـ / 910م بعد أن هرب من المشرق، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح للإسماعيلية والشيعة السلطان المطلق في جهات غربي القيروان، ثم أرسل أبو عبد الله الشيعي إلى أبي عبد الله المهدي الجد الأعلى للإسماعيلية للحضور إلى أفريقية وكان ذلك إيذاناً بقيام الدولة الفاطمية في المغرب.

عقيدة الإسماعيلية :

يقول الإسماعيليون بالوحدانية، ولكنهم في نفس الوقت يقولون بأن لكل ظاهر باطن، وإن لكل تنزيل تأويلاً ظاهراً وتأويلاً باطناً. ولذلك فإن من أسمائهم التي عرفوا بها عبر التاريخ (الباطنية)[2].

وهي الإمامية والغلاة مختلطة بعضها ببعض، فكل متشيع وغال، وخارج عن نهج المسلمين نشأ مذهبهم في منتصف القرن الثالث وضعه قوم أشرب في قلوبهم بغض الدين، وكراهية النبي، ومن دعاتهم ميمون بن ديصان، والقداح الثنوي، ومحمد بن الحسين الملقب بذيدان فظاهر مذهبهم فروع الشيعة، ولكن عقيدتهم عقيدة الفلاسفة والملاحدة، فظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض[3]. وهؤلاء الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على إظهاره خوفاً من سيوف المسلمين إلى أن تحين فرصتهم للوثوب على دولة الإسلام وكانوا دائماً يسببون القلاقل في الدولة الإسلامية. ثم إن الباطنية لما تأولت أصول الدين على الشرك احتالت لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس بحيث أباحوا نكاح البنات والاخوات وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات. (ويؤكد ذلك أن الغلام الذي ظهر منهم بالبحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسن القرمطي سن لأتباعه اللواط وهو المعروف بابن

---

(1) أمثال دوزي، وبروكلمان، ونيكسون، وفيليب، وبندلي جوزي.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل، ص 200، الشكعة: إسلام بلا مذاهب ص 250.

(3) الشهرستاني : المصدر نفسه ص 201.

زكريا الطامي وطالت فتنته إلى أن سلط الله عليه من ذبحه في فراشه)[1] والباطنية لايظهرون أسرارهم الدينية لغيرهم إلا لمن كان معهم ويصفهم البغدادي(بأنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ويبطلون العبادات والجنة والنار)[2].

كما إنه من أسمائهم التي عرفوا بها السبعية وبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية وفي خراسان التعليمية والملحدة[3]، وهم يقولون (نحن إسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم)[4].

فالتأويل الظاهر للإيمان وللقرآن يتفق إلى حد كبير مع التشريعات السنية، وقد جعل الإسماعيلية من شروط الإيمان أن يؤمن الإسماعيلي بالظاهر والباطن معاً والإيمان بواحد منهما دون الآخر يعتبر خروجاً على المذهب وكفراً.

ولقد قال الشيرازي الداعي : من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه[5].

والتأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع، إلى المعنى المرجوع لدليل يقترن به فاذا لم يكن اللفظ محتملاً للمعنى الذي حمل عليه ولم يبين المتأول الدليل الذي حمله على ذلك كان تأويلاً فاسداً بل تلاعباً بالنصوص[6]. والتأويل الفاسد هو الذي اعتمده الغلاة مدعين أن للقرآن ظاهراً وباطناً وأن المراد منه باطنه دون ظاهره، وهكذا أخذ الغلاة يحرفون اللفظ القرآني عن معناه الذي سيق إليه إلى معان تتفق مع عقيدتهم وتنسجم مع أهوائهم ونزعاتهم. وكان التأويل من أهم أسلحة الغلاة في التحلل من القيم الأخلاقية والشعائر الدينية وفي إشاعة الإباحية والإلحاد.

وتتلخص أفكار الباطنية والغلاة في التأويل والحلول والتناسخ. والحلول من

---

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص271.

(2) البغدادي : المصدر نفسه، ص278، انظر التفاصيل في هذا الموضوع عند البغدادي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ط 4 سنة 1980م.

(3) فرقة من الشيعة يحصرون عدد الأئمة الظاهرين في سبعة.

(4) الشهرستاني : المصدر نفسه ص 202.

(5) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 85، الشهرستاني : الملل والنحل، ص 108؛ النوبختي : فرق الشيعة، ص57.

(6) الذهبي : في التفسير والمفسرون نقلاً عن حسن صادق : الفرق الإسلامية، ص 129.

أخطر أفكار الغلاة ويراد به حلول الإله أو روحه جزءاً أو كلاً في البشر و اعتقدوا بألوهية الأنبياء والأئمة.

ويراد بالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن وهذا هو معنى القيامة عندهم ومقتضى ذلك إنكار القيامة والجنة والنار[1].

وينكر الإسماعيلية صفات الله ويعللون ذلك بأن الله فوق متناول العقل ويؤكد الكرماني هذا المعنى بقوله: إن الله لا يوصف بصفات المخلوقين ولا يقال عنه ما يقال على المخلوقين (فليس الله بنظرهم كريماً ولا رحيماً ولا غفوراً ولا سميعاً ولا بصيراً)[2] لأن هذه من صفات المخلوقين، وإن نفي الصفات عن الله تنزيهٌ له، وإن توحيده يعنى معرفة حدوده وليس هو بالقديم كما أنه ليس بالمحدث[3]، فالقديم أمره وكلمته والحديث خلقه وفطرته.

والإسماعيلية يسمون العقل الحجاب أو المحل أو الصلة ويقولون أيضاً إنه لم يخلق العالم خلقاً مباشراً بل أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإرادة، والعقل الكلي محل لجميع الصفات الإلهية وفي نظرهم الإله مثلاً في مظاهره الخارجية. (والعقل الحال يسمى «ناطقاً» والنفس الحالة تسمى «أساساً» والناطق هو النبي الذي يبلغ الكلام المنزل، والأساس هو الإمام الذي يفسره معتمداً على التأويل)[4].

وهكذا نجد الإسماعيلية يعمدون إلى المغالاة في طريق وصولهم إلى معرفة الله، فالخالق إذن عند الإسماعيلية تبعاً لهذا الإعتقاد، هو العقل الكلي والنفس الكلية وقالوا: إن العقل الكلي في العالم العلوي يقابله الإمام في العالم الجسماني.

وانتهوا من ذلك إلى أن جميع الأسماء والصفات التي خلعت على العقل الكلي هي أيضاً أسماء وصفات خلعت على الإمام، لأن الإمام مثلٌ للعقل الكلي فأسماء الله الحسنى جميعاً هي أسماء للإمام[5].

---

(1) أنظر الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 85؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص 106؛ النوبختي : فرق الشيعة، ص 57

(2) الكرماني أكبر فلاسفة الدعوة الإسماعيلية : كتابه الرياضي.

(3) دائرة المعارف الإسلامية (مادة الإسماعيلية).

(4) كامل حسين : الإسماعيلية، ص 158.

(5) كامل حسين : الإسماعيلية، ص 160.

ومحور العقيدة الإسماعيلية يدور حول شخصية الإمام بعد الذات الإلهية، لأنهم ربطوا بين الإمام والآلة بكثير من الروابط الوصفية والاسمية كما أسلفنا وتتفق كل الفرق المغالية المنشقة عن الإسماعيلية بضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعقاب، والإمام هو محور الدعوة الإسماعيلية، ولعل ذلك هو أحد الأسباب التي جعلها تنظم للفرق المغالية، فهم يقولون إن الأرض لا تخلو أبداً من إمام، وتمشياً مع خطورة مركز الإمام يقول الإسماعيلية : (إن من مات ولم يعرف (إمام زمانه)[1] مات ميتةً جاهلية، ومن مات ولم يكن في عنقه بيعة الإمام مات ميتةً جاهلية) والإمامة عندهم مقامات ودرجات هي : الإمام المقيم والإمام الأساسي، والإمام المتمم، والإمام المستقر، والإمام المستودع، والإمام القائم بالقوة، والإمام القائم بالعقل.

وعلى هذا النمط من تعظيم الإمام جعل الإسماعيلية للأئمة صفات لم تعرفها فرق الشيعة، ذلك إنهم يقولون ظاهراً إن الأئمة بشرٌ كسائر الناس يأكلون وينامون ويموتون، ولكنهم في تآويلهم الباطنية يقولون إن الإمام هو(وجه الله، ويد الله، وجنب الله) وإنه الذي يحاسب الناس يوم القيامة ويقسمهم بين الجنة والنار، وإنه هو (الصراط المستقيم، والذكر الحكيم، والقرآن الكريم).

ولتعاليم الإسماعيلية ظاهر وباطن، ولا انفصال لأحدهما عن الآخر، والتأويل الباطني يكمن في تفسيرهم للقرآن وله معنى ظاهر تدل عليه أساليب اللغة العربية وقواعدها، ومعنى باطن للآيات خص الله به سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ[2].

وإن هذا التأويل قد تسلل في الأئمة من نسل علي فهم وحدهم المختصون بالتأويل وهم الراسخون بالعلم الذين قصدتهم الآية الكريمة: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾[3] وهكذا أخضع المفسرون الإسماعيليون الآيات القرآنية لتفسيرات رمزية تتمشى مع عقيدتهم المغالية ويلقنونها بشكل سري

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص171- 172.

(2) حسن صادق : الفرق الإسلامية، ص 96 ط الاولى سنة 1991 مكتبة مدبولي.

(3) حسن صادق : الفرق الإسلامية، ص 96.

ويدعون إلى طاعة الإمام طاعة عمياء. وزعمت الإسماعيلية إن لديها كتاباً توارثوه عن الإمام علي ﷺ اسمه (الجفر)[1] وينسبونه زوراً إلى علي بن أبي طالب ويقولون إن فيه أسرار الغيب فيقولون إن علياً وضع أصوله وجعفر الصادق فسره وأضاف إليه.

بالإضافة إلى قولهم إن الإمام ليس مسؤولاً أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن يخطئه مهما يأت من أفعال، بل يجب عليهم أن يصدقوا إن كل ما يفعله خير لاشر فيه، لأن عنده من العلم ما لاقبل لأحد بمعرفته، ومن هذا قرروا أن الأئمة معصومون لا بمعنى أنهم لايرتكبون الخطايا التي نعلمها، بل على معنى أن ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه، ويكون سائغاً لهم وليس بسائغ لسائر الناس[2].

وبالتالي فالباطنية تفرعت إلى عدة فروع وعرفت بعدة أسماء منها القرامطة، المزدكية والتعليمية، والخطابية، والمعمرية، واليزيغية والإسماعيلية.

وقد وصفت الباطنية بكل فروعها بأنها أخطر الفرق وضررها أعظم من ضرر المجوس والنصارى واليهود بل وصفهم بأنهم أشد كفراً من الدهرية وسائر أصناف الكفرة. واعتبر أن فضائحهم لا تعد ولا تحصى[3]، ويعبر الشهرستاني: إن الباطنية والإمامية والغلاة، مختلطة بعضها ببعض، فكل متشيع وغالٍ وخارج عن نهج المسلمين[4]، ونشأ مذهبهم في ق 3 هـ وضعه قوم أشرب في قلوبهم بغض الدين والإسلام وكراهية النبي ﷺ وهؤلاء من الملاحدة والفلاسفة فاستغلوا العلم والفلسفة في إبعاد الناس عن دينهم وتشكيكهم فيه بنظريات فلسفية غير مقنعة عن الظاهر والباطن ولم يخجلوا في نفي الصفات عن الله فهم يقولون في الباري تعالى: (أنا لا نقول هو موجود ولا موجود ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز)[5].

وهدف هؤلاء هو إبعاد الناس عن دينهم وكانوا يبعثون دعاتهم إلى الأفاق،

---

(1) حسن صادق : الفرق الإسلامية، ص 97.
(2) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 53.
(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 265 – 266.
(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 201.
(5) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 203.

لدعوة الناس إلى مذهبهم وعقائدهم وقد تفرع من الإسماعيلية الباطنية الفرق التالية :

أ- الخطابيـة:

هم أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأجدع الأسدي المقتول سنة 138هـ / 756م وهم جماعة قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم فرقة من المباركية غالوا في تأليه آل البيت وادعى زعيمهم الأجدع النبوة[1].

وقد ظهر أبو الخطاب في الكوفة وقال بالغلو وكان (يدّعي أن عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام جعله قيماً ووصياً من بعده وعلمه اسم الله الأعظم، ثم تَرقّى إلى أن ادعى النبوة، ثم ادّعى الرسالة، ثم ادّعى إنه من الملائكة، وإنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم)[2].

وكان أبو الخطاب من تلامذة جعفر الصادق ويقال: إنه كان أحمق ولا يحفظ وكان يزيد في ما يرويه الصادق، وقد نسب أبو الخطاب الكثير من الأقوال إلى جعفر الصادق يصفه بها ويخصه في معرفة الغيب والعلم وغيرها.

وتفيد النصوص إنه وبالرغم من اللقاء بين أبي الخطاب وجعفر الصادق في أكثر من مناسبة فإن جعفراً نفى بصورة قاطعة ما نسبه إليه أبو الخطاب من أقوال، ويبدو أن أبا الخطاب كان من الغلاة الطموحين شأنه في ذلك شأن من سبقه من الغلاة، أراد أن يتخذ من صلته ومعرفته بجعفر الصادق، جسراً للوصول إلى أهدافه وغايته، ومباشرة العمل باسم الإمام وذات مرة قال أحدهم: (لّما لبّى القوم الذّين لبوا حيث قال الغلاة أصحاب أبي الخطاب لبيك جعفر لبيك)[3] في الكوفة، وعندما سمع عبد الله جعفر بن محمد خرّ ساجداً وبكى وقال: (لو سكتّ قال فيَّ أبو الخطاب كان حقاً على الله أن يصم سمعي، ويعمي بصري)[4].

أما الآراء التي تبناها أبو الخطاب فكانت مناقضة للشريعة الإسلامية وهذه هي

---

(1) النوبختي : فرق الشيعة، ص 59

(2) النوبختي : المصدر نفسه، ص 38.

(3) النوبختي :المصدر نفسه، ص 39.

(4) عبد الله يقصد به الإمام جعفر الصادق.

سياسة الفرق الباطنية، حيث أحل أبو الخطاب لأتباعه المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأمرهم بترك الزكاة والصلاة والصيام والحج، وأباح لهم الشهوات وتأولوا على ما استحلوا قول الله : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾[1].

وقالوا خفف عنا أبو الخطاب ووضع عنا الأغلال والآصار يقصدون الصلاة والزكاة. الخ، فمن عرف الرسول النبي الإمام فليصنع ما أحب[2] ويقول عنهم البغدادي : (إن هذه الطائفة كافرة من هذه الجهة، وهذه الفرقة تتفق مع الكيسانية في أن الدين طاعة رجل وهو الامام)[3].

وتعتبر الخطابية جامعة لكل آراء الغلاة منظمة لها، ويقول الشيبي : (كان لأبي الخطاب دور خطير في تطوير الغلو ولإسناده بالنصوص والأحاديث)[4]، واستعان الخطابية في دعم أرائهم بالتأويل وهي طريقة الفرق الباطنية والتي ولج إليها كل من أراد إدخال آراء غريبة عن الإسلام، وقد لعنه عبد الله بن جعفر (الإمام الصادق) فقال: (والله ما عنيت إلا محمد بن مقلاص بن أبي زينب الأجدع البراد عبد بني أسد فلعنه الله ولعن أصحابه ولعن الشاكين فيه، ولعن من قال إني أضمر وأبطن غيرهم)[5].

أما ابن الأثير فيقول: لما فشا الإسلام في الناس، وقامت له أعداء ينتظرون استئصاله بالقوة، فلم يقدروا أخذت الأعداء تستعمل الحيل في ذلك، وكان يعتبر العبادات وإقامة الشعائر الإسلامية قيودا للعامة ساقطة عن الخاصة[6].

ويقول المقريزي والفرقة الثالثة الخطابية أتباع أبي الخطاب الأجدع ومذهبه الغلو في جعفر الصادق[7]، وهو أيضاً من المشبهة وأتباعه خمسون فرقة، وكلهم متفقون على أن الأئمة مثل علي وأولاده كلهم أنبياء، وإنه لابد من رسولين لكل أمة : أحدهما

---

(1) القرآن الكريم : سورة النساء، الاية 27.
(2) النوبختي : المصدر نفسه، ص 35.
(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 243.
(4) الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ج1، ص 143.
(5) الأشعري : المقالات، ص 120.
(6) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج1، ص 483.
(7) المقريزي : الخطط المقريزية، ج2، ص 352؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 150؛ والشهرستاني : الملل والنحل، ص 300.

ناطق، والآخر صامت فكان محمد ناطقاً، وعلي صامتاً، وجعفر الصادق كان نبياً ثم انتقلت النبوة إلى أبي الخطاب الأجدع[1].

وكانوا يدينون بشهادة الزور لتبرير مواقفهم ولا يعرف شيئاً آخر عن تفاصيل حياته سوى إن عيسى بن موسى والي الكوفة من قبل العباسيين قتله في عام 143هـ / 761م[2].

أما المعمرية:

فهي الفرقة الثانية من «الخطابية» وهي الفرقة السابعة من «الغالية» يزعمون أن الإمام بعد أبي الخطاب رجل يقال له معمر[3] وإليه نُسبوا حيث عبدوه كما عبدوا أبا الخطاب، وزعموا أن الدنيا لا تفنى، وأن الجنة هي التي تصيب الناس من خير ونعمة وعافية، وان النار هي التي تصيب الناس من شر وبلية، وقالوا بالتناسخ وإنهم لا يموتون ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم، واستحلّوا الخمر والزنا، واستحلّوا سائر المحرمات وتركوا الصلاة، كما استحلّوا الميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات[4].

البزيغية:

وهي الفرقة الثالثة من الخطابية وهي الثامنة من الغالية يقال لهم «اليزيغية» أصحاب بزيغ بن موسى، شهد لأبي الخطاب بالرسالة، وزعمت فرقته إن جعفر بن محمد هو الله وإنه ليس بالذي يرون وإنه تشبه للناس بهذه الصورة، وزعموا أيضاً إنهم يرون أمواتهم بكرة وعشياً[5]. وزعموا إن كل ما يحدث في قلوبهم وحي[6]. وإن

---

(1) للمزيد من معرفة معتقدات الخطابية. أنظر البغدادي : اعتقادات فرق المسلمين، ص58؛ والفرق بين الفرق، ص 150؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص309.
(2) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 77.
(3) الاشعري : المصدر نفسه، ص78؛ الكرماني : مخطوط الفرق الإسلامية، ص41.
(4) النوبختي : فرق الشيعة، ص 39.
(5) النوبختي : المصدر نفسه، ص38.
(6) المقريزي : الخطط المقريزية، ص 174.

كل مؤمن يوحى إليه، وزعموا إن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد[1] وسخّروا الآيات القرآنية لخدمة أغراضهم الدنيئة وفسروها بما يتماشى مع معتقداتهم كقوله تعالى : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾[2].

ومنهم من قال : الإمام بعد أبي الخطاب عمر بن بيان العجلي[3]، إلا أنهم اعترفوا بأنهم يموتون ولا شك في كفر الخطابية لجعلهم الأئمة آلهة، واستباحتهم المحرمات وكذا أحزابهم[4].

المفضلية:

والفرقة الخامسة من الخطابية وهي العاشرة من الغلاة، يقال لهم «المفضلية» لأن رئيسهم كان صيرفياً يقال له المفضل وكانوا يقولون بربوبية جعفر، كما قال غيرهم من أصناف الخطابية وانتحلوا النبوة والرسالة، وإنما خالفوا في البراءة من (أبي الخطاب) لأن جعفراً أظهر البراءة منه[5].

هذه بعض تفرعات فرقة الخطابية المغالية، وغيرها كثير كما أوضحت المصادر الإسلامية[6] والتي أجمعت جميعاً على تكفيرها وخروجها.

القرامطة :

إحدى الفرق المتفرعة عن الإسماعيلية، وتنسب إلى رجل يقال له حمدان قرمط، [7] كان فلاحاً بسواد الكوفة، وكانت مقابلته لحسين الأهوازي سبباً في

---

(1) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص12.

(2) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية 145.

(3) العجلي هو الذي آلت إليه الإمامة بعد مقتل أبي الخطاب، وزعمت فرقته بأنهم يموتون وكذّبوا من قال عكس ذلك كما إنهم عبدوا جعفراً وزعموا إنه ربهم، فضربوا له خيمة في كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادته فأخذ يزيد بن عمير بن هبيرة عمير بن بيان وقتله وحبس جماعته. الاشعري : مقالات الإسلاميين، ص 12.

(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ج 1، ص 351.

(5) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 79.

(6) الشهرستاني : المصدر نفسه ؛ ابن حزم : الملل والنحل، الأشعري : مقالات الإسلاميين ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق.

(7) قرمط : لقب أُطلق على حمدان لأنه كان قصير القامه والساق، كما جاء عند ابن النديم، ص 255 في الفهرست، بينما يرى المقريزي فيقول : إن القرمطة في الخط هي مقاربة السطور =

انضمامه إلى الإسماعيلية، وكان الأهوازي أحد دعاة عبد الله بن ميمون، وقد خلفه في قيادة الحركة في المنطقة بعد وفاته ونزل حمدان قرب بغداد، واتصل بشيخ الإسماعيلية الذي كان يقيم في عسكر مكرم، وبنى لنفسه قرب الكوفة مقراً رسمياً دعاه «دار الهجرة» وقد اتّخذ المذهب الإسماعيلي عقيدة لغرض في نفسه، وما لبث أن أفصح عن مجهوداته وجلده على نشر الدعوة المتمثلة في المذهب الفاطمي والمذهب القرمطي.

حتى إن بعض المستشرقين[1] يذهبون نتيجة لذلك إلى أن الفاطميين والقرامطة طائفة واحدة[2]. وسواء كان ذلك صحيحاً أم لا فالأمر الذي لا شك فيه هو أن فرق القرامطة كانت فرقاً متفرعة، شغلت العالم الإسلامي لفترة طويلة، وهزمت جيوش العباسيين في مواقع كثيرة، ودخلوا مكة أثناء الحج وقتلوا الحجاج وطموا بجثثهم بئر زمزم، وهدموا الكعبة، وانتزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم حيث ظل لديهم بضعة وعشرين سنة[3] ويمكننا أن نميز من القرامطه الفرق التالية:

1) الفرقة الأولى: قرامطة سواد العراق، وأبرز دعاتهم: وتدان، وحمدان، وعبدان، وآل مهرويه.

2) الفرقة الثانية: قرامطة البحرين وأبرز دعاتهم آل الجنابي.

3) الفرقة الثالثة: قرامطة القطيف وجنوبي البصرة وأشهر دعاتهم أبو حاتم البرواني، وأبو الفوارس[4].

ولا نجد حركة في التاريخ الإسلامي أكثر غموضاً وإبهاماً من الحركة القرمطية في العراق والبحرين، خاصة وإن القرامطة أقاموا دولتهم على حساب نفوذ بني

= وفي المشي تعني المقاربة في الخطوات، أما الفيروزابادي: فيضيف إن القرمطة تعني دقة الكتابة، بينما يرى دوزي إن كلمة قرمط الشخص الذي لايفي بوعده وبالتالي المجاهرة بمذهب القرامطة بينما يرى هوتسا إنها صفة، أما ابن الأثير: فيقول: إن معناها (مدلس) في اللغة الأرامية المحلية وفي اللغة النبطية معناها (أحمر العنيين) ويزيد أبو الفداء في حوادث 278هـ إن معناها كرميته قد صخّفت وأصبحت قرمط.

(1) بروكلمان، أوليري لاس، ريسلر.

(2) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص 59.

(3) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص 239.

(4) سهيل زكار: أخبار القرامطة، ج1، ص 123؛ عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين.

العباس في العراق والبحرين، كما إنهم انشقوا عن الدعوة الإسماعيلية عقائدياً ورفضوا الاعتراف بالتبعية لأئمتها رغم انبثاقهم منها أصلاً.

بالإضافة إلى الاختلافات المذهبية التي خالفوا فيها الإسماعيليين أنفسهم في مسألة تأويل كثير من المسائل المذهبية ولا ننس أمراً نعتقد إنه في غاية الأهمية من الناحية الإجماعية والاقتصادية، وهي إن حركة القرامطة ضمت أقواماً من المستضعفين من العمال والفلاحين والذين عانوا من جبروت وطغيان خلفاء بني العباس في مسألة الأرض والإقطاع والدهاقين، وكان من أول الاتهامات التي وجهت إلى القرامطة إبطالهم للعبادات الشرعية.

فيذكر المالطي : إنهم يزعمون إن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض كما قال البغدادي[1]، ورغم ما ذكر نجد إن الدلائل تشير إلى عكس ذلك تماماً[2]، فها هو الغزالي نفسه يذكر إن الداعي القرمطي كان يشترط على المستجيب للدعوة أن يحج إلى بيت الله ثلاثين حجة، وإلا أخل بواجباته[3].

وذكر الطبري : إن القرامطة كانوا لا يغتسلون من الجنابة إنما يكتفون بالوضوء فقط[4]، ومن ناحية أخرى يروى أن أحد كبار الملاك ضاق ذرعاً بفلاح قرمطي يعمل في ضياعه لحرصه على أداء الصلاة[5].

وأورد المقريزي: إن الداعي ذكرويه القرمطي عظم قدره في أعين الناس وصارت له مرتبة في الفقه والدين[6]، وإن حمدان الأشعث- زعيم الحركة - عرف بالزهد والتعبد وكان أنصاره يسمون أنفسهم (المؤمنون المنصورون بالله)[7].

ويقول إسماعيل الميرعلي: لابد من الاعتراف التاريخي بأنهم إسماعيليون،

(1) المالطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص 26-27.
(2) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 278.
(3) الغزالي : فضائح الباطنية، ص 47.
(4) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص 159.
(5) الطبري : المصدر نفسه، ص 162.
(6) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص 107.
(7) المقريزي : المصدر نفسه، ص 107.

إلا أنهم متطرفون في أفكارهم التحررية الاقتصادية والاجتماعية[1]، وكلمة القرامطة لم يطلقوها على أنفسهم بل أطلقت عليهم إذ كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الفرقة «العقدانية» أي أصحاب العقيدة[2]. ثم إنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي مثل باقي المنضمين إلى الدعوة، كما أن هذه التسمية أطلقت على حمدان بن الأشعث وهو اسم على صفة، الذي عينه الإمام داعياً للدعاة في العراق.

ومن الملاحظ أن الثورات الاجتماعية التي حدثت منذ ق 1 إلى ق 4 كانت تتدرج تحت دعوة مذهبية حيث غطوها بمظهر ديني أو كلامي، فالحركات السياسية والاجتماعية كانت بحاجة إلى تبرير ديني لإكسابها صفة الشرعية، ومصداق ذلك في قيام دولة القرامطة حيث اتفقت الدعوة الإسماعيلية مع آمال الناس الساخطين في سواد العراق والبحرين، في النصف الثاني من ق3 هـ. خاصة وأن هذه الدعوة قامت في ظروف سياسية واجتماعية قاسية كان يعيشها هذان الإقليمان منها تشاحن السلطان وخراب العراق وفساد البلدان بالإضافة إلى حالة الفوضى السياسية وانشغال الخلافة وضعفها وتسلط الأتراك على مقدرات الحكم والسياسة وسيطرتهم عليها. فتمكن الدعاة لهذه الأسباب من بسط أيديهم في البلاد فعلت كلمتهم حالة الفوضى السياسية التي شجعت على إتاحة مناخ جيد لنمو بذور الدعوة القرمطية وكان نجاحها قد جاء نتيجة طبيعية للفوضى السياسية حيث حدثت تحولات اقتصادية ومشكلات اقتصادية تفاقمت في العصر العباسي (277هـ - 890م) فاستمالت كافة الطبقات المستضعفة من كافة العناصر والقوميات، وليس كما يدعي بعض المستشرقين[3]، في أن للحركة طابعاً قومياً عنصرياً، لأن الأحداث التاريخية تؤكد أن الدعوة القرمطية استقطبت سائر العناصر والعصبيات المقهورة في سواد العراق.

ويحدثنا ابن الجوزي: إن القرامطة أصناف من أهل السواد والأكراد وجفاة

---

(1) إسماعيل الميرعلي : القرامطة ص 129 نقلاً عن رسالة ماجستير بعنوان موقف القرامطة في بلاد الشام، ص13 إعداد / عاشور أبو شامه / جامعة القاهرة، مصر.

(2) أنظر حمد بن مالك اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص 92.

(3) من أمثال بلوشه كار أديفو، ولويس : أصول الأسماعيلية، ص 189.

الأعاجم فضلاً عن جفاة العرب[1]، ونعت الطبري هذه العناصر بأنهم «جفاة» و «عامة»[2] وهو أمر لا يخلو من مغزى اجتماعي فله دلالته على أنهم طبقات مستضعفة رحبت بالدعوة وانخرطت فيها، فأهل السواد يقصد ابن الجوزي الفلاحين النبط المقيمين بمنطقة البطيحة، يضاف إليهم طائفة الزنوج المجلوبين من السواحل الشرقية الأفريقية فالزنج لفلاحة الضياع واستصلاح الأراضي بالإضافة إلى عنصر «الزط»[3] من فقراء الهنود الذين استجلبهم الحجاج إلى العراق لخدمة الأرض، وهؤلاء مع الزنوج هم الذين قاموا بثورتهم المشهورة وعرفت باسم (ثورة الزنج 249هـ / 868م) في مطلع العصر العباسي الثاني الذي يطلق عليه اسم (عصر نفوذ الأتراك) أما ما سموا (بجفاة العرب) فهم القبائل العربية بمنطقة السماوة، إذ عادوا إلى حياتهم البدوية الأولى بعد تسريحهم من الجيش العباسي، وإسقاطهم من (ديوان العطاء) في خلافة المعتصم(218-227هـ/ 833-852 م).

هذه العناصر كلها جمعتها ظروف سيئة واحدة فشكلوا طبقة اجتماعية واقتصادية مغلوبة على أمرها في أواخر ق 3 هـ استقطبتها الدعوة القرمطية[4]، خاصة بعد اتساع الهوة بين الطبقات وبلغ التناقض الاجتماعي مداه، فوجدت الدعوة القرمطية تربة صالحة بين جمهرة الفلاحين وأرقاء الأرض.

واتجه الفكرالشيعي بصفة خاصة نحو تبنى قضية العدل الاجتماعي من أجل كسب المؤيدين والمناصرين لحركتهم واستقلالهم لبث عقيدتهم ونشرها وقد كان الوتر الشيعي من أهم هذه الأوتار الإسلامية حساسية وأفاد منظمو الحركات السياسية منه في بث دعوتهم وتأليب الناس حولهم[5].

وسواء أكانت الاسماعيلية هي التي احتوت الثورة الاجتماعية في العراق أم إن الثورة الاجتماعية هي التي استترت بالدعوة الشيعية لخدمة أغراضها فإن اللقاء

---

(1) ابن الجوزي : المنتظم المنشور بمجلة revui tode glistudiorien toli vorxll p269 عن محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، ص 114.

(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص 214 - 215.

(3) المسعودي : التنبيه والاشراف، ص7.

(4) تناولنا ظروف هذه الطبقة في الفصل الثاني من البحث (التحولات الاقتصادية والاجتماعية) أنظر ذلك.

(5) جبور عبد النور : إخوان الصفا، ص 25.

بين الدعوة والثورة قد تم وأسفر عن نجاح الثورة إذ تشير الدلائل على أن القرامطة طائفة سياسية اتّخذت الدعوة الإسماعيلية الشيعية وسيلة لتطبيق آراء ومبادئ اجتماعية واقتصادية ثم انفصلت عن الإسماعيلية فاتّخذت هذه الحركة اتجاهاً آخر.

وفي الفترة ما بين عامي (261هـ- 278هـ / 874م) دأب حمدان بن الأشعث على تنظيم الدعوة وإحكام خططها، وفي عام 278هـ/ 874م أعلن الثورة على بني العباس ودحر جيوشهم الواحد تلو الآخر، واستطاع إرساء قواعد دولة مستقلة في سواد العراق، تولى حكمها حتى عام 296هـ وتطلع القرامطة للاستيلاء على بلاد الشام، وأحرزوا العديد من الانتصارات، ولكن العباسيين أفلحوا في إيقاف توسعهم وتم القضاء على دولتهم بالعراق في النهاية، بينما أخفقوا في إسقاط قرامطة البحرين فظلت دولتهم قائمة حتى 398هـ.

وقد قال سعد القمي وهو أحد الذين عاصروا القرامطة ورأى نشاطاتهم الحربية المعلنة: (وتشعبت بعد ذلك فرقة.. ممن قال بإمامة محمد بن إسماعيل تسمى القرامطة، وسميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب بقرمطويه[1]. وقالوا: يكون بعد محمد ﷺ سبعة أئمة : علي وهو إمام رسول، الحسن والحسين، علي بن الحسين، محمد بن علي وجعفر بن محمد، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر، وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول، وهؤلاء رسل أئمة).

وقد زعم هؤلاء إن النبي صلى الله عليه وسلم انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بتنصيب علي بن أبي طالب للناس بغدير خم، فصارت الرسالة في ذلك اليوم إلى أمير المؤمنين وفيه، ثم بعد ذلك صار النبي تابعاً لعلي محجوباً به، وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي، والقائم عندهم معناه أنه يبعث بالرسالة وبشريعة محمد ﷺ وأهم أفكارهم المذهبية:

1) القرامطة تشعبوا عن الإسماعيلية.

2) الإيمان بإمامة إسماعيل وابنه محمد.

---

(1) سعد القمي : أقدم من كتب في الملل والنحل توفي في أواخر ق3هـ ؛ سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص318-319.

3) الصراع مع الإمامية الاثني عشرية.

4) الفرقة سبعية.

5) عقيدة القائم والقيامة هي الأساس والمحور.

6) التأويل الباطني.

7) النبوة انتهت يوم غدير خم وبدأت بإمامة علي.

8) استعراض الناس جميعاً بلا استثناء.

9) إباحة بعض المحرمات.

ولعل أهم هذه الحقائق التي كشف عنها حمدان لخاصته من النقباء، إنه يدعو لنفسه وليس للامام الاسماعيلي في حين أن ما عداهم قد حجب عنهم هذا السر، فكان النقباء يعطون الدعاة خواتيم من الطين الابيض مكتوباً عليها : محمد بن إسماعيل الامام المهدي ولي الله[1]، حتى يقبل الأتباع على الدعوة لارتباطها بآل البيت كما حرص حمدان على اختيار النقباء من أصهاره واقاربه[2]، ثم حدد لهم أقاليم الدعوة فانتشروا فيها[3]، وقيل إن عبادان ـ صهر حمدان ـ وضع كتاباً في شروط اختيار الدعاة عرف بكتاب «الحدود» حدد فيه صفات الدعاة كالعلم والتقوى والسياسة والمداراة والمخاتلة والقدرة على الجدل والخطابة.. . الخ[4].

ولم يطلق حمدان للدعاة مطلق الحرية في الدعوة، إنما حدد لهم الأساليب والوسائل، حيث يتم الاختيار عن طريق التفرس، والمؤانسة، والتشكيك، والتعليق، والربط والتدليس، والتلبيس والخلع والسلخ[5].

وحين يثبت الداعي التزامه بتعاليم الدعوة ومباشرة شؤونها يكون قد انسلخ عن مذهبه السابق وأصبح عضواً في الدعوة القرمطية وبذلك يتم استقطاب العضو العامل

(1) أدم ميتز (Adam metz) : الحضارة الإسلامية في ق 4هـ، ج2، ص72.

(2) محمد عبدالفتاح عليان : قرامطة العراق، ص162.

(3) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص153.

(4) محمود اسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، ص127.

(5) الغزالي : فضائح الباطنية، ص21.

في الدعوة بعد اجتياز تلك الشروط السبعة التي وضعها صهر حمدان في كتابه والتسليم ببلاغاتها[1].

مما سبق يتضح أن الدعاة استغلوا الدين في دعوتهم فضلاً عن استغلالهم الظروف الاجتماعية والاقتصادية رافعين شعار العدالة الاجتماعية ومن هنا نجحوا في كسب المؤيدين الذين كانوا يعانون ظروفاً اقتصادية سيئة، والحقيقة إن دعوة القرامطة لو كانت مذهبية فقط لما قدر لها النجاح والانتشار[2].

أما الجانب الاجتماعي الذي انطوت عليه الدعوة ممثلاً في إقرار مبدأ العدالة فقد صادف استجابة لدى الجماهير الساخطة من الفلاحين والعبيد المسخرين والعمال في سواد العراق والبحرين خاصة أن الدعاة يقدمون اليهم من الاموال ما يعينهم على مواجهة اعباء العيش ومتاعب الحياة فضلاً عن وعدهم لهم بأنهم سيرثون املاك سادتهم وجلاديهم من اهل الظلم والجور[3]. مستندين في ذلك على الآية الكريمة **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين﴾**[4].

وفي موضوع العدالة الاجتماعية يذكر ابن الاثير : إن علي بن عيسى وزير المقتدر العباسي (295-320هـ/ 908 ـ 932م) كان صاحب ضياع واسعة قبض على قرمطي فأجابه قائلاً : «لما صح عندي إنه على الحق وانت وصاحبك ـ أي الخليفة ـ كفار تأخذون ماليس لكم»[5] وفي هذا دلالة واضحة على أن الدعوة القرمطية كانت تنشد عدالة الإسلام من الناحية الاجتماعية والاقتصادية على الاقل رغم تطرف ومغالاة عقائدها الدينية.

وأعتقد أن ما ذكره محمود اسماعيل : من أن القرامطة وإن نجحوا في تطبيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية وتطبيق " الاشتراكية " إلا إنهم ارتكبوا العديد من المغالاة في حق الشريعة منها ايقاف الحج بشكل نهائي واعتدائهم على المقدسات وسبيهم النساء واستعبادهم الاحياء ونهبهم القوافل وغيرها من الامور.

---

(1) ابن النديم : الفهرست، ج1، ص42.
(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج8، ص230.
(3) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص151.
(4) القرآن الكريم : سورة القصص الآية 5.
(5) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج8، ص81.

ولقد دخل القرامطة مع الخلافة العباسية في العديد من المعارك والمواقع حيث أرسل المكتفي (289 ـ295هـ/ 902 ـ 908م) جيشاً كبيراً إلى زكرويه خاصة بعد أن سار لاعتراض طريق الحجاج واثاروا الرعب في قلوب حجاج المسلمين حيث قيل إنه قتل في قافلة واحدة زهاء عشرين الف رجل عمل منهم دكة وقف عليها زكرويه[1]، وأخيراً وقع زكرويه في يد الخليفة المكتفي 289هـ / 902م. هو وزوجته وخليفته القاسم وابنه وكاتبه حيث هلك بعد خمسة ايام فأرسلت جثته إلى بغداد وصلب هناك[2].

أما قرامطة البحرين فبدأ دورهم عام 281 هـ / 894م حين جاء يحيى المهدي أحد دعاتهم إلى القطيف[3]. واجتمع اليه عدد كبير من الناس وجماعة من الاعراب والقرامطة، وقد نزل على رجل يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان مولى الزيادين، وكان يغالي في التشيع، فأظهر له يحيى إنه رسول المهدي[4] وإن ظهوره قد اقترب فتجاوب معه شيعة القطيف كافة وشيعة البحرين وعلى رأسهم أبو سعيد الجنابي، ثم تخلص أبو سعيد الجنابي من يحيى فقتله لينفرد بالرئاسة، ثم نشط بالدعوة إلى مذهبه وقد قتل أهالي القرى التي حوله ثم سار إلى القطيف فقتل من بها ثم التقى بجيش المعتضد(279-289هـ/ 892-902م) بقيادة العباس الغنوي فهزمه، فهاجم «هجر» عاصمة البحرين واحتلها وجعلها عاصمة له، وقد قتله العبيديون لأنه حاول في أواخر ايامه التقرب من الخليفة العباسي، وفي سنة 317هـ في عهد الخليفة المقتدر(295-320هـ/ 908-932م) زحف أبو طاهر على مكة في موسم الحج وفي اليوم السابق للوقوف بعرفة اعتدى على الحجاج وأعمل فيهم سيوفه فقتلهم وردم بهم بئر زمزم وفرش بهم المسجد وقتل في شعاب مكة من أهل خراسان والمغاربة ثلاثين الف حاج وسبى النساء والاطفال وحطم باب الكعبة واقتلع الحجر الاسود[5]، وذهب به إلى القطيف، وقد ظل الحجر الاسود

---

(1) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج8، ص81.

(2) ابن خلدون : المقدمة، ج4، ص187.

(3) قصبة البحرين واعظم مدنها في الإسلام. معجم البلدان.

(4) يرجّح أن المقصود به هو المهدي الفاطمي الذي سيكون ظهوره في أفريقية 297 حيث سيكون المؤسس الحقيقي لحكم الخلافة الفاطمية.

(5) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ص272.

في حوزة القرامطة العراقيين قرابة اثنين وعشرين عاماً حتى أعيد ثانية إلى مكانه بجوار الكعبة[1]. وكان أبو طاهر وهو من اشد الناقمين على الإسلام والمسلمين يقول وهو يخلع باب الكعبة: أنا بالله وبالله أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا، وقد أهلكه الله سنة 331(هـ ـ 942م)[2].

وكانت نهاية القرامطة في عهد المستنصر حيث طردوا من جزيرة أوال عام 458هـ 1065م نتيجة سلسلة ثورات قام بها أهل السنة البحرانيون حيث لاحق السلاجقة في العصر العباسي الرابع القرامطة فانضمت القبائل تحت قيادتهم وانتصروا عليهم في موقعة الخندق الفاصلة عام (470هـ/ 1077م) وفي هذه الموقعة تم القضاء نهائياً على القرامطة الذين كانوا مصدراً للرعب زهاء قرنين من الزمان.

تؤكد عقائد القرامطة على مغالاتهم إلى درجة أن البغدادي اعتبرهم «زنادقة وكفاراً»[3] فقولهم إنهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء (إنكار الأنبياء) وعلى القول بقدم العالم لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مديراً لا نعرفه (إنكار الله) وإن الجنة نعيم الدنيا، وإن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصوم والحج والجهاد (إنكار الإسلام) وإن أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم إيمانهم (حلول الألوهية في شخص الحاكم) وقد خرج البغدادي من القرامطة بعد أن كان ينتمي إليهم بعد ما قالوا بألوهية محمد بن إسماعيل[4].

وقد اختلف موقف القرامطة لدى العامة من زعمائهم، فالعامة ـ كان همها الوحيد النهوض على الظلم والفقر، أما زعماؤهم فقد دخلوا في قلب اللعبة السياسية بين الاسرتين الهاشميتين الكبيرتين مع إنهم لم يفسروا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلا إنهم انضموا تحت لواء إحدى الأسرتين والسبب الجوهري هو عدم قيام الملك إلا بعصبية دينية[5].

---

(1) مرآة الزمان ـ مخطوطة احمد الثالث 11/ 31.

(2) ابن الاثير : المصدر نفسه، ج8، ص62.

(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص179.

(4) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ص128؛ البغدادي : المصدر نفسه، ص284.

(5) رأى ابن خلدون ـ في المقدمة، فصل العصبية.

لذا فقد انضووا تحت لواء الفاطميين إلى حدود 358هـ كان عبد الله الشيعي الداعي قد لعب دوراً كبيراً في نشر المذهب الشيعي وخاصة وأنه اقتصر على نشر مبادئ الفرقة الإسماعيلية بين قبائل كتامة وقبائل البربر.

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر أثناء عمله بأن الإمام الذي يدعو اليه هو المهدي من أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق، ونقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الإسماعيلي الخاص قاد قبائل البربر إلى النصر في عديد من المعارك التي مكنته من أن يصبح سيداً للمغرب الأوسط، وقادراً على إزالة دولة الأغالبة[1] وفي السلمية حدث إنشقاق خطير بين أفراد الدعوة الإسماعيلية. يتجلى بقيام ما يعرف بحركة قرامطة الشام بزعامة «صاحب الحمل»[2] حيث قام بالهجوم على السلمية مما جعل زعيمها الذي يعرف باسم المهدي الفاطمي، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية، وأخذ المهدي معه أبا القاسم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثاني وسيعرف باسم القائم[3]، وأسس المهدي دولته في رقادة في 21 ربيع الثاني297/ 15 يناير 910 وبعد ذلك مرت الخلافة الفاطمية بطورين رئيسيين هما : الطور الأفريقي، والطور المصري، والطور المصري الأول ينتهي مع بداية عصر الخليفة الحاكم بأمر الله (386 ـ 411هـ / 390م) وينتهي الثاني بسقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي (564هـ ـ1168م) وقام هذا التقسيم على اعتبارات سياسية ودينية.

وكان من الطبيعي ألا تكتفي الدعوة الإسماعيلية بأفريقيا، بل ابتغت التوسع ليس في بلاد المغرب العربي فحسب، ذلك لأن هدف الدعوة الإسماعيلية الأساسي كان يتمثل في إزالة الخلافة العباسية وإحلال الخلافة الفاطمية محلها على أساس عقيدتها الإسماعيلية وبعدما توطد الفاطميون في مصر صار تحدي العقيدة الإسماعيلية للخلافة العباسية والفكر السني أشد قوة وأشد خطراً بعد أن أصبحت لهم إمبراطورية مترامية الأطراف إلا أنها فشلت في تحقيق إسقاط الخلافة العباسية بسبب إخفاق الفاطميين في الاستيلاء على بلاد الشام، وضعف القدرات العسكرية، والصدام الشديد مع قرامطة الأحساء والبحرين.

---

(1) المسعودي : مروج الذهب ج1 ص 71؛ ابن خلدون : المقدمة، ص32.

(2) سهيل زكار : الجامع في اخبار القرامطة، ص71.

(3) سيرة الحاجب جعفر، مخطوط : 120/ 133.

وكان الصراع على السلطة في هذه الأونة على أشده في بغداد، وقد أدى فيما أداه إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (334-363هـ / 946- 974 م) واستخلاف ولده الطائع[1].

وهكذا لاحظنا أن كلاً من الأسرتين قد أثرث على الحركات القرمطية فوجهتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة وفقاً لأهدافها السياسية، وقد شملت هذه الحركة شمال غربي العراق وبلاد الشام لعدة أسباب منها ابتعادها عن بغداد عاصمة الخلافة والتحرك بسرعة دون الوقوف في مكان معين كي لا تستطيع الجيوش العباسية أن تقضي عليها، ثم إن الإسماعيلية لهم سابقة تاريخية في اللجوء إلى بلاد الشام (سالمية) لنشر دعوتهم بتوجيه الدعاة إلى مختلف النواحي وهذا ما جعلهم يكسبون أنصاراً في كل البلاد.

إن الثورة القرمطية كانت هدامة وثورية في نفس الوقت، فهي هدامة بسبب تشويهها للدين ومغالاتها في شرائع الانتقام من العباسيين، ثم إرضائها للفاطميين في فترات معينة من تاريخها. وثورية لأنها نادت بالعدالة الاجتماعية (التكافل). أو «ما يعرف اليوم بالاشتراكية» وقضوا على التفرقة ونادوا بمبادئ تكفل فيها الجماعة الفرد وإلى رفض النظام الإقطاعي الذي ساد منذ العصر العباسي الثاني 247هـ/ 961م وجعل الأرض مشاعاً لكل الناس في حدود استغلالها لإشباع حاجتهم.

فرق الزيدية:

كان أصل تسميتها منسوباً إلى زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي وهي فرقة من فرق الشيعة المتعددة كالاثني عشرية، والاسماعيلية، والكيسانية.. الخ، وهم أكثر تسامحاً من غيرهم من الشيعة في الإمامة والبعد عن مهاجمة الخلفاء الراشدين حيث يقولون (بإمامة المفضول مع وجود الأفضل)[2]. وقد دخلت في صراعات دموية مع الأمويين والعباسيين لتعبر تعبيراً صادقاً عن الاتجاه السياسي في التشيع والسعي إلى تولي أمر الخلافة.

كان زيد بن علي أول علوي يقاوم بني أمية بالسلاح ويسعى إلى هدم ملكهم

(1) هذه الفترة الزمنية خارج حدود البحث.

(2) فضيلة عبد الأمير الشافي: تاريخ الفرق الزيدية بين ق2، ق3هـ، ص283.

إلى أن استشهد بعد أن رسم الطريق لأصحابه لتكوين خلافة تجمع بين السلطة الدينية والروحية، وقصة استشهاد زيد بن علي تكاد تكون طبق الأصل عن استشهاد جده الحسين في كربلاء بعد أن استدعاه أهل الكوفة، كما استدعوا جده مما دفع بصاحبه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب إلى تحذيره من هذه الدعوة حيث قال : (لا تقبل قول أحد هؤلاء الذين يدعونك، فإنهم لايفون لك، أليسوا أصحاب جدك الحسين بن علي)[1] ولكنه أبى أن يرجع وكأنما أراد التاريخ أن يعيد نفسه وفعل أهل الكوفة مع زيد كما فعلوا مع جده حيث تقاعسوا ولزموا المسجد أول الأمر بينما زيد يخوض المعارك ضد الجيش الأموي وحده[2].

وهكذا كان زيد شهيد السياسة والعقيدة معاً، ولعل السياسة في المقام الأول وقد عرف زيد بالتقوى والورع والعلم، وكان يفزع من فرقة المسلمين ويتمنى لو التأم شملهم وتجمع شتاتهم.

وكان السبب في خروج زيد على السلطة الأموية مناوأته لحكمهم الذي اتسم في بعض جوانبه بملاحقة آل البيت واضطهادهم، واستنكاره لبعض ممارستهم العنيفة التي كان من جرائها الإساءة للأماكن المقدسة[3] في الحجاز أثناء ملاحقاتهم لخصومهم، ولما تولى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك 105هـ/723م انتهج سياسة الرفق واللين مع أهل العراق فأحس شيعته بالفرح في حين أن واليه على العراق يوسف بن عمر الثقفي اعترض على هذه السياسة، فأرسل إلى الخليفة هشام رسالة يقول فيها: (إن أهل هذا البيت من بني هاشم، كانوا قد هلكوا جوعاً، حتى كانت همة أحدهم قوت عياله، ولما جاء خالد أعطاهم الأموال فقووا بها حتى تاقت نفوسهم إلى طلب الخلافة)[4].

فاستجاب هشام إلى عملية يوسف الثقفي وعزل خالد القسري واليه على العراق الذي اتّبع سياسة اللين مع الشيعة وتولى الأمر من بعده يوسف الثقفي حيث عمل كل مافي وسعه لاضطهاد الشيعة، ولم يدع أحد معروفاً بموالاة

---

(1) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين، ص135.
(2) أنظر الصراع على السلطة الفصل الأول من البحث.
(3) مثل ضرب مكة بالمنجنيق، وحصار المدينة (مدينة رسول الله).
(4) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص 295.

الهاشميين إلا ألقاه في سجنه بواسط[1].

لقد كسب زيد محبة الناس وبيعتهم ضد ظلم بني أمية ودعا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسمة الفيء بين المسلمين كافة بالسوية ورد المظالم وهذه هي دعوة الإسلام الحقيقية، فمن وافقه على ذلك أخذ يده، وقال له : «عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لتفين ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتنصحن لي في السر والعلانية فإذا قالوا نعم مسح يده على أيديهم»[2]. وقد أكد ولدُه يحيى ذلك في حديث جرى بينه وبين بعض الشيعة وجاء فيه : إن أبي أعقل من أن يدّعي ما ليس له بحق، إنما قال أدعوكم إلى الرضا من آل محمد وعنى بذلك ابن عمه جعفر(ع)[3].

وبعد موت زيد خرج ابنه يحيى بن زيد وهو يحمل السيف بعد أن جاهد في الكوفة ثم خرج منها متخفياً حتى انتهى إلى الري من بلاد إيران إلى أن وصل إلى بلخ ودارت معارك بينه وبين نصر بن سيار أدت إلى مقتل يحيى بن زيد، كما خرج من أولاد زيد الشهيد عيسى بن زيد حيث ساهم في ثورة محمد بن عبد الله المحض وبعد قتله اشترك في المعارك مع إبراهيم بن عبد الله التي دارت بينه وبين العباسيين وأوصى له إبراهيم بالأمر من بعده، وأخيراً اختفى بين أهل الكوفة[4] وعاش عمراً طويلاً مختفياً عن الناس حتى لا يقع أسيراً عند العباسيين وتحديداً في يد المهدي 158 هـ - 785م إلا أن أمر الزيدية لم ينتظم[5] بعد مقتل زيد وولده يحيى ومحمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم إلى أن أظهر ناصر الأطروشي في بلاد الديلم والجبل سنة 301هـ فدعا أهل تلك البلاد للخروج إلى الحرب ومناصرته ضد السلطة الاموية.

وكانت الزيدية تضع شروطاً للإمامة لو توفرت في أي فرد يمكن أن يصبح

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج8 ص296.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ص 297.

(3) هاشم حسني : الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص 68.

(4) الطبري : المصدر نفسه ج 8، ص 298.

(5) الشهرستاني : الملل والنحل ج1، ص 254؛ ناصر الأطروشي هو الحسن بن علي بن الحسن بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين وكان يلقب بالناصر واستولى أخيراً على طبرستان.

إماماً ومن هذه الشروط أن من دعا إلى نفسه وجرد سيفه فهو الإمام المفروض الطاعة وموجوبة إمامته من الله على أهل بيته وسائر الناس كلهم[1] فسار أئمة الزيدية وفق هذه الشروط وركزت الفرقة مبادئها عليها.

ويمكننا القول إن الزيدية فرقة من فرق الشيعة لموالاتها آل البيت، وأن كانت غير مغالية في موقفها تجاه الصحابة فهي تتميز باعتدالها[2]، رغم أن زيداً يرى أن الخلافة حق لهم، وإن الأولين قد استأثروا بها ودفعوهم عنها[3] وأن الإمام الحق هو علي، بمعنى إنهم يعتقدون بأن الإمام الذي أوصى به الرسول ﷺ من بعده لم يعينه بالإسم ولكنه عرف به بالوصف الذي يطابق في رأيهم شخصية علي بن أبي طالب ومع هذا لا نتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. اختلفت الفرقة الزيدية عن الفرقة الإمامية حول الإمامة لأنها تذهب إلى أن الإمام هو زيد بن علي زين العابدين.

والإمامية تقول: إن زيداً مخطئ في خروجه وطلبه الخلافة لأن أباه لم ينص عليه، ورأوا إنه نص على أخيه أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر[4]، وإن الإمامية تقول: بإمامة علي بن الحسين (زين العابدين) ولا تقول به الزيدية لأنه لم يشهر سيفه في مناجزة الظلمة[5]. والإمامة عندهم ليست بالنص، أي أنه لا ينص على الإمام، بل كل من توفرت فيه الشروط السابقة. جازت إمامته، ومعنى ذلك أن الإمامة عندهم ليست وراثية وإنما بالبيعة، وهذا يقتضي نظاماً يخالف نظام الاثني عشرية. والزيدية تقول إن النبي نص على علي رضي الله عنه بالصفة لا بالإسم[6]، فهو الإمام الموصوف كما أشرنا من قبل أضف أيضاً أن الزيدية يجيزون وجود أكثر من إمام في وقت واحد في قطرين مختلفين[7].

هذا مما يوضح لنا تمسك الزيدية بالإمام علي، واعترافها بإمامته، شأنها في

(1) القمي: المقالات والفرق، ص 70.
(2) الحنفي: الفرق المفترقة، ص 30.
(3) هاشم الحسني: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص 72.
(4) الحسيني: غاية الاختصار، ص 78.
(5) الحسيني: المصدر نفسه، ص 82.
(6) فضيلة عبد الأمير الشافي: تاريخ الفرق الزيدية، ص287.
(7) المفيد: الفصول المختارة، ج1، ص63 نقلاً عن فضيلة الشافي: تاريخ الفرق الزيدية.

ذلك شأن الإمامية وإن وجدت بعض الاختلافات، فهناك توافق بين آراء الزيدية والإمامية، وأول هذا التوافق تمسكها بآل البيت، لأنها من آل البيت أصلاً فاتفقتا على أن الرسول ﷺ قال : ((إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وهما الخليفتان من بعدي))[1].

ويرى أحد الباحثين المحدثين : إن زيداً تتلمذ على واصل بن عطاء، وإنه كان معتزلياً في أصول الإسلام[2]، وقد اعتمد في ذلك على الشهرستاني خاصة فيما يتعلق بذات الله والجبر والاختيار، وأن صانع الكبيرة مخلد في النار وهم يرفضون التصوف رفضاً باتاً[3]. وقد رفض بعض من شيعة الكوفة مقولة زيد بن علي التي تجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ولذا سموا رافضة[4].

انقسمت الزيدية بعد زيد إلى فرق جنحت إلى الغلو، وخالفت رأى الإمام زيد في الشيخين وفي غير ذلك من بعض المسائل الأخرى وهذه الفرق هي: الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن أبي زياد، والسليمانية أصحاب سليمان بن جرير، والصالحية والبترية وهم أصحاب الحسن بن صالح وكثير النوى الأبتر، وكل فرقة من هذه الفرق تميل في بعض الأحكام إلى الاعتدال وتجنح في بعضها الآخر إلى الشطط[5] كما سنرى فيما بعد.

والملطي: يصنفها أربعة ولايذكر أسماءها[6]، أما النوبختي فيرى أن للزيدية أربعة أصناف الأولى منها أصحاب أبي الجارود، وأبي خالد الواسطي، وفضيل الرسان ومنصور بن سرحون ويسميها (السرحونية) والثانية العجلية أصحاب هارون بن سعيد العجلي، والبترية أصحاب الحسن بن صالح بن حي وكثير النوى، والحسينية[7].

---

(1) الشيخ الصدوق وكمال الدين ج1 ص17 نقلاً عن فضيلة الشافي تاريخ الفرق الزيدية، ص 287.
(2) مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب ص 131؛ محمد أبو زهرة : الإمام زيد، ص 58.
(3) الشهرستاني : كتاب الملل والنحل، ص 95.
(4) مصطفى الشكعة : المرجع نفسه ص 230.
(5) الشهرستاني : المصدر نفسه، ج1، ص312.
(6) الملطي : التنبيه والرد على أهل الأهواء، ص 33.
(7) النوبختي : فرق الشيعة، ص77.

وقد ميز المؤرخون الزيدية وصنفوها إلى ثمانية أصناف كالمسعودي[1] أما المقريزي فجعلها أربع فرق[2] وجميعهم لا يختلفون في أن الإمامة في جميع ولد علي بن أبي طالب من فاطمة وكل من خرج منهم يدعو إلى كتاب الله والسنة، وجب سل السيف معه ؟[3].

لذا نشأت بموجب ذلك الفرق المغالية الزيدية المتعددة يجمعها اطار الفرق الزيدية ومذهبها العام هو المذهب الزيدي.

فالجارودية : فرقة من فرق الغلاة الزيدية سميت بهذا الإسم نسبة إلى مؤسسها أبي الجارود[4] : وهو كوفي وتلقب بالسرحوبية أيضاً لأن أبا الجارود كان مكفوف البصر، وكان أبو جعفر محمد بن علي (الباقر) لقبه السرحوب[5]، وكان أبو الجارود من علماء الزيدية، وقال عنه الطوسي[6] : إنه كان من أصحاب أبي عبد الله، وروى عنه في كتاب الفهرست (وزعمت الجارودية أن النبي ﷺ أشار على علي رضي الله عنه بالوصف دون التسمية والإمام بعده علي، والناس قصروا حيث لم يعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم، فكفروا بذلك)[7] وقد خالف أبو الجارود في هذه المقالة إمامة زيد بن علي، فإنه لم يعتقد بهذا الاعتقاد.

وقال إن علياً أفضل الناس بعد النبي وأولى الناس بالإمامة[8]، ومن خالفه وتقدمه، وادّعى الإمامة عليه فهو كافر[9]، ويقول إن الأمة كفرت وضلت في تركها بيعته[10]. وإن الناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف، ولم يطلبوا

---

(1) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص 220.
(2) المقريزي : الخطط، ج2، ص351.
(3) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء، ج 4، ص92.
(4) أبي الجارود زياد بن المنذر الهمداني ويقال النهدي والثقفي الكوفي وهو كذاب : ليس بثقة وكان رافضياً : الشهرستاني : الملل والنحل، ص 151.
(5) الكشي: الرجال، ص 199.
(6) الطبري : مناقب آل ابي طالب، ج4، ص130.
(7) ابن النديم : الفهرست، ص98.
(8) القمي : المقالات والفرق، ص71.
(9) الاصفهاني : مقاتل الطالبيين، ص136.
(10) القمي : المصدر نفسه، ص18.

الموصوف وإنما نصبوا أبا بكر بإختيارهم فكفروا بذلك[1] ولم تكتف الجارودية بهذا الرأي بل كفروا من خالفه من الصحابة[2] وقالت : إن الصحابة كفروا بتركهم البيعة لعلي[3].

وتنقل الجارودية الإمامة من علي إلى ابنه الحسن والحسين وتقول: إنهما إختصا بالإمامة دون إخوتهما من ولد أمير المؤمنين في المعاني التي يستحق بها الإمامة من العلوم والورع والبصيرة في التدبير والسياسة وهذه الأمور يجب ان تكون موجودة في الأئمة، ولولا ذلك لما جوزناها في الحسن والحسين دونهم[4]. ثم نقول :إنها صارت بعد مضي الحسن والحسين في ولديهما وهم كلهم شرع سواء كل من قام منهم، ودعا لنفسه فهو الإمام المفروض الطاعة، بمنزلة علي بن أبي طالب، واجبة إمامته من الله عز وجل على أهل بيته دون سائر الناس كلهم[5].

والجارودية تقول إن كل من تخلف عن بيعة الإمام والدعاء لنفسه من جميع الخلق فهو هالك وكافر[6]. وهي تشترط أن يقوم الإمام مقام رسول الله، وهو صاحب الحكم في الدار كلها، وهو الذي يختارهم جميعهم، ويرضون به ويجمعون على ولايته[7].

كما إن هذه الفرقة المغالية تطعن في الصحابة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، كما أنهم كفروا عثمان بالأحداث التي أحدثها[8] وقد ذهبت الفرقة في زعمها إلى أن النبي ﷺ نص على الحسن بن علي، وعلى الحسين بعد الحسن ليقوم واحد بعد واحد[9] وينسب إلى بعضهم القول بالغيبة أي بالإمام الغائب الذي ينتظر خروجه كقولة الامامية التي تعترف بالغيبة، ولكنها تفترق في تشخيصه،

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص217.
(2) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء، ج4، ص92.
(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص30.
(4) النوبختي : فرق الشيعة، ص74.
(5) النوبختي : فرق الشيعة، ص74.
(6) النوبختي: فرق الشيعة، ص74.
(7) القمي : المقالات والفرق، ص19.
(8) المقريزي : الخطط، ج2، ص353.
(9) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء، ج4، ص179.

فطائفة تقول : إنه محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وهو حي ولم يقتل ولامات ولايموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، [1] وهؤلاء يطابقون رأي المحمدية المتشعبة من الشيعة في انتظارها محمد بن عبد الله [2] الذي ظهر في عهد المنصور 136هـ / 754م فقتل بالمدينة، [3] بينما زعمت طائفة أخرى منهم إن المهدي المنتظر هو محمد بن القاسم، وأنهم من قال بإمامة يحي بن عمر القائم بالكوفة أيام المستعين[4] 248هـ / 862م فقتل بها، لكن بعض الجارودية أنكرت مقتله وقالت إنه حي لم يقتل ولامات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً[5].

هذه هي عقائد فرقة الجارودية المغالية والمتشعبة من الزيدية المعتدلة التي تأمل بظهور شخص في آخر الزمان رغم اختلافها في تسمية من يكون.

أما السليمانية: فهم أصحاب سليمان بن جرير، كان يقول: إن الصحابة تركوا الأصلح بتركهم مبايعة علي لأنه كان أولاهم بها، وهذا خطأ لا يوجب كفراً ولا فسقاً، وكفر عثمان بما ارتكب من الأحداث فكفرهُ أهل السنّة بتكفير عثمان.

وقد زهد سليمان في أيام الخليفة المنصور 136-185هـ/ 754-775م[6] وكان سليمان يقول إن الإمامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن ينعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين وإنها تصح في المفضول مع وجود الأفضل، وإن كان الفاضل أفضل في كل حال وتقول: إن الأمة تركت الأصلح في البيعة له، لأن علياً كان أولى بالإمامة منهما[7].

وكانوا يتبرّؤون من عثمان وشهدوا عليه بالكفر وكان سليمان يقدم «عليّاً» على عثمان ويكفرهُ عند الأحداث التي نقمت عليه[8].

---

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص31.
(2) الحميري : الحور العين، ص156.
(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص238.
(4) ابن حزم : المصدر نفسه، ج4، ص179.
(5) البغدادي : المصدر نفسه ج4، ص232.
(6) البغدادي : الفرق بين الفرق ص32.
(7) البغدادي : المصدر نفسه، ص 32.
(8) النوبختي : فرق الشيعة، ص30.

وكان الرد من أهل السنة على سليمان أنهم كفروه لأنه كفر عثمان[1]، كما أن الجريرية تكفر كل من طلحة والزبير وعائشة ومعاوية[2] فكفر كل من حارب علي[3] ويعتبرون أن علي بن أبي طالب لا يضل ولا يخطئ.

والسليمانية يكفرون الجارودية كالبترية بتكفيرهم أبي بكر وعمر ومن تابعهما من الصحابة، ورغم وضوح التناقض في موقف السليمانية لأنهم هم أنفسهم أيضاً يكفرون عثمان بن عفان بعد أحداث الفتنة.

أما فرقة الصالحية (البترية): فهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي الهمداني الثوري الكوفي[4] والبترية أصحاب كثير النواء الأبتر[5]. وهما متفقان في المذهب، وقولهم في الإمامة كقول السليمانية إلا إنهم توقفوا في أمر عثمان أهو كافر أم مؤمن معللين ذلك بقولهم : إنه أحد المبشرين بالجنة كما سمعنا، ولكن الأحداث التي أحدثها من استهتاره بالخلافة والسماح لبني أمية وبني مروان من التحكم في رقاب المسلمين واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة «قلنا: يجب أن يحكم بكفره فتحيرنا في أمره، وتوقفنا في حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين»[6].

والبترية تنقض طلحة والزبير، ويرون الخروج مع كل من خرج من ولد علي ويذهبون في ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،[7] وقد ثبتوا حرب علي، وشهدوا على مخالفيه بالنار، لكنه سلم الأمر لهم راضياً، وفوض الأمر إليهم طائعاً، فهو بمنزلة رجل كان له على رجل حقّ فتركه له[8]. فهم لم يظلموه لكنه سلم لأبي بكر وعمر وإنهما إماما هدى[9] ولو أن علياً لم يسلم لهما وكان راضياً بذلك لكان أبو بكر الصديق هالكاً.

---

(1) الاشعري : مقالات الإسلاميين، ص98.
(2) فضيلة الشافي : تاريخ الفرق الزيدية، ص303.
(3) الاشعري : المصدر نفسه، ص68.
(4) القمي : مقالات الفرق، ص 67؛ النوبختي : فرق الشيعة، ص29.
(5) كثير بن اسماعيل ويقال ابن نافع النواء أبو اسماعيل، زائغ وضعيف الحديث، وكان غالياً في التشيع مفرطاً فيه، الشهرستاني الملل والنحل، ص160.
(6) الشهرستاني : الملل والنحل ص161.
(7) النوبختي : فرق الشيعة، ص78.
(8) القمي : المصدر نفسه، ص7.
(9) ابن حزم : الفصل في الملل والاهواء، ص299.

وهم الذين جوزوا إمامة المفضول وتأخير الفاضل والافضل إذا كان الافضل راضياً بذلك شأنهم في ذلك شأن الزيدية عموماً وقالوا : من شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين، وكان عالماً زاهداً شجاعاً فهو الامام وشرط بعضهم صباحة الوجه، ولهم رأي عظيم في إمامين حيث يرون جواز أن يكون في الوقت الواحد إمامان واجبا الطاعة إنما تنعقد إمامة واحد في الوقت، ويكون الباقون تحت رايته وإن خرجوا عليه دون سبب مقنع يوجب عزله منهم ظالمين إلا إن كان بينهما بحر مانع من وصول نصرة أنصار واحد منهما إلى الآخر فيجوز حينئذ عقد الامامة لكل واحد بين أنصاره من ناحية، ويكون واجب الطاعة في قومه، ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتي الآخر كان كل منهما على حق[1].

يتضح لنا إن فرق الزيدية لم تختلف في المبادئ العامة، بل كان الاختلاف بينها حول شرعية خلافة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وبعضها حول الرجعة والامامة فلا يمكن فصلها كلياً عن الفرقة الزيدية الأم لأنها تتفق على إمامة زيد بن علي.

وقد ظهرت العديد من الفرق الصغيرة المتشعبة عن الزيدية ووضعت لها آراء خاصة بها كاليعقوبية وهم أصحاب يعقوب بن عدي، فانكروا الرجعة، ولم يؤمنوا بها، ولم يتبرؤوا ممّن أقرّ بها، أو من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب[2]. الا إنهم متفقون على تفضيل علي على ابي بكر وعمر[3] من غير تفسيقهما ولا تكفيرهما ولا لعنهما ولا الطعن بهما[4].

ويورد القمي صنفاً آخر من الزيدية وهم الحصينية[5] وينفرد ابن النديم: بذكر القاسمية ويقول إنهم اصحاب القاسم بن ابراهيم وإليه تنسب الزيدية القاسمية ولهم مذهب خاص يسمى (بالهادوية) فيما بعد[6]، ويذكر المسعودي العقبية من الزيدية وكذلك اليمانية وهم اصحاب محمد بن اليمان الكوفي[7] وبيّن الاشعري

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص162.
(2) الشهرستاني : الملل والنحل، ص162.
(3) القمي : المقالات والفرق، ص71.
(4) المقريزي : الخطط، ج2، ص302.
(5) القمي : المصدر نفسه، ص71.
(6) ابن النديم : الفهرست، ص274.
(7) المسعودي : مروج الذهب، ج5، ص220.

وجود صنف من الزيدية يتبرّؤون من أبي بكر وعمر ولا ينكرون رجعة الأموات قبل يوم القيامة[1]. ونتيجة التفسيرات والآراء العديدة حول الإمامة تكونت طوائف الزيدية المختلفة وكلها تجمعها مبادئ الزيدية الأساسية العامة والتي من أهمها:

(1) الإمامة.

(2) عقيدتهم في الله تعالى.

(3) العدل.

(4) صفات الله عز وجل.

(5) الوعد والوعيد.

ونستطيع أن نقول إن حركات الغلو كانت متشابهة في خطوطها العامة إلى درجة لا يستهان بها، سواء كان ذلك من حيث الأهداف التي استهدفها مؤسس تلك الفرق أو من حيث إنها جميعاً كانت متشحة بلباس ديني في الظاهر من أجل منحها المصداقية ولكي يستقطبوا اكبر عدد من المسلمين الذين يعيشون نوعاً من الظلم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بينما تُخفي في باطنها الدعوة إلى تهديم الإسلام والتشكيك بأهدافه والنيل من مبادئه، وللاسف فقد وجد الغُلاة في سيرة بعض خلفاء المسلمين منذ الصراع في عهد عثمان بن عفان 23هـ / 644م والذي أدى في نهاية المطاف إلى قتله ثم في ازدياد هذا الصراع عنفاً بعد موقعة صفين (37هـ/ 657م) وموقعة الجمل (36هـ / 656م) ثم في اتّخاذ مقتل علي بن ابي طالب (40هـ/ 761م)[2] حجة لكسب عطف عناصر المستضعفين من الموالي والعرب على السواء وسيلة لبث الافكار البعيدة عن روح الإسلام ومضامينه والسامية زد على ذلك بعد أن الخلافة الاموية (41 ـ 132هـ/ 661ـ 750م) أثقلت كاهل الناس بالضرائب رغم أن الإسلام ومبادئه السمحة ترفض استغلال المسلم لأخيه المسلم وتدعو إلى العدالة الاجتماعية والشورى، ونبذ العصبية، ولكن النتيجة كانت انضمام عدد كبير من المستضعفين إلى الفرق المناوئة للسلطة واصبحوا مناصرين لها، فأصبحوا من انصار المختار، وزيد بن علي، وعبدالله بن معاوية، وابي الخطاب، والقرامطة[3].

---

(1) الاشعري : مقالات الإسلاميين، ص158.

(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج5، ص151.

(3) للمزيد من التفصيل في الاسماء، انظر : الفصل الاول، الصراع على السلطة.

وهكذا كان للتذمر السياسي والاقتصادي وتغلغل الشعوبيين والزنادقة نصيب كبير في نجاح فرق في العودة لدياناتهم الفارسية القديمة التي كانوا يدينون بها قبل الإسلام، وفي تمكين هؤلاء ايضاً من قيادة حركات الغلو والتسرب اليها وتوجيهها نحو هدف واحد وهو تدمير الإسلام وزعزعة الأمن والاستقرار، وقد استغلوا آل البيت كرمز لثورتهم حتى يمنحوا المصداقية لحركاتهم لانهم من عنصر النبوة والإمامة، كما أن أهل البيت كانوا يرفضون الظلم والتفرقة واستغفال الضعفاء والبسطاء من الناس. ثم هناك نقطة مهمة جداً أعتقد أنها ساهمت في استغلال الغلاة لآل البيت وهي أنه بعد مقتل الحسين في (10محرم 61هـ/ 680م)[1] اعتزل بنو الحسين السياسة وانصرفوا للإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا فأستغل الغلاة أسماءهم و أسموهم «بالأئمة المعصومين» ليتيسر لهم أن يحققوا من ورائهم أطماعهم ومطامحهم.

ولا يعني هذا أن أئمة الشيعة الذين عرفوا فيما بعد «بالأئمة المعصومين» «الاثني عشر» لم يتبنوا موقفاً صريحاً وصلباً تجاه الغلاة بل الصحيح أن هؤلاء الائمة قد تبرّؤوا من زعماء الغُلاة ونفوا وجود أية صلة لهم بأولئك الغلاة حيث قال الإمام علي: (بُني الكُفر على أربع دعائم الفسق، والغلو، والشك والشبهة)[2] بينما يرى الإمام الصادق أن جلوس الرجل المؤمن إلى مغالٍ يستمع إلى حديثه ويصدقه على قوله لا نصيب له في الإسلام حيث يقول إن أبي حدثني عن جده (ع) إن رسول الله ﷺ قال: «صنفان من أمتي لا نصيب لهم في الإسلام الغلاة والقدرية» وغيرها كثير من الأحاديث التي رواها الشيعة أنفسهم عن الغلاة وهو دليل أنهم دسيسة من دسائس الشعوبية أرادوا بها أن يشوهوا الإسلام في الماضي والحاضر.

أما الدافع السياسي فقد كان هو الأصل في ظهور فرقة الشيعة وكانت قضية الخلافة القضية الأولى التي اختلف المسلمون عليها عقب وفاة الرسول 10 هـ / 632م. حيث حُسمت البيعة لأبي بكر الصديق 11-13هـ/ 632-634م ثم لعمر بن الخطاب (13-32هـ/ 634-644م) وعندما حدثت أحداث السنوات الأخيرة من عهد عثمان بن عفان (35هـ ـ 655م) رأت قطاعات عريضة من الأمة أن هناك جوراً

---

(1) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ج5، ص 400؛ الاصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص109.
(2) الكليني: الكافي، ص369.

وظلماً تمارسه عصبية قريش الأموية وإن هناك ضعفاً من الخليفة يمنعه من التصدي لهذا الجور ولهذا كانت الثورة على الخليفة عثمان قوية وعنيفة وبخاصة عندما رفض التنازل عن الخلافة[1].

وفي عهد علي بن ابي طالب (35-40هـ/ 655-661م) إتسع نطاق الصراع، وصار الصراع مسلحاً بسبب الخلافة والتي كان من نتائجها موقعة صفين 37هـ / 657م وموقعة الجمل 36هـ/ 656م ومعركة النهروان 38هـ / 658م ولم ينته الأمر إلا بعد أن تولى بنو أمية الخلافة وحولوا الحكم إلى حكم وراثي ورفضوا مبدأ الشورى التي نادى بها القرآن مما دفع بظهور فرق مضادة للدولة الاموية 41هـ / 661م من أهمها الخوارج والشيعة والأخيرة قامت بعدة ثورات فاشلة انتهت بمأساة كربلاء الحسين 61هـ / 680م والإبادة الجماعية لانتفاضة التوابين 65هـ / 684م، وهزيمة المختار الثقفي وثورته 67هـ / 687 م بالكوفة[2].

وبعد هذه المآسي التي عاشها الشيعة من خلال عجزهم عن الوصول إلى السلطة وتولي أمر الخلافة تحولت هذه الفرقة لفترة من الزمن عن طريق الثورة إلى معايشة المحنة واتباع أسلوب «التقية» وكسب المؤيدين عن طريق معايشتهم للألم وللاضطهاد حيث نسجوا منه رباطاً روحياً وعاطفياً يجمع من حول أئمتها الأنصار[3]. حتى غدا حب آل البيت عقيدة بعد أن كان موقفاً سياسياً واجتماعيا فقط ضد سلطان الأمويين وتسلطهم ثم تسلط العباسيين فيما بعد.

وقد تبلورت العقيدة الشيعية مع ظهور جعفر الصادق 148 هـ / 765م وصاغت لاتباعها نظرية متميزة وجديدة في الخلافة حيث نرى أحقية أئمتها في السلطة ليس لأنهم الأصلح لأمور الدنيا ونشر العدل فحسب، بل لأنهم هم الذين اختارتهم السماء وعينتهم للخلافة والإمامة وحصرت هذه السلطة فيهم وهكذا صنع الشيعة هذه النظرية السياسية وبهذه الصيغة الدينية حدث أخطر تحول في المناخ الفكري الثقافي والسياسي في الدولة الإسلامية، و أصبحت الخلافات السياسية خلافاً في الدين وبدأ الانقسام بسبب الحكم السياسي وكأنه انقسام في الدين، كما لاحظنا من خلال تناولنا فرق الشيعة.

---

(1) انظر الفصل الاول «الصراع على السلطة».

(2) تناولنا هذا الموضوع في الفصل الأول «الصراع على السلطة» بشكل مفصل.

(3) موسوعة الحضارة الإسلامية، ص204 / نظرية الخلافة.

المبحث الثاني

فرق الخوارج

يرتبط نشوء الخوارج كفرقة سياسية بقضية الإمامة أو الخلافة وهي قضية أثارت الجدل والخلاف بين المسلمين، وأدت إلى صراع عنيف ودموي بين المسلمين حدث على أثره تصدع في الصف الإسلامي.

ذلك الصدع الذي عرف «بالفتنة الكبرى»[1] والتي يمكن أن تندرج في مصاف الثورات الأهلية نتيجة إفرازات سياسية واقتصادية واجتماعية، كان يعيشها المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت والتي أسفر عنها مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان (35هـ / 655م) فتفرقت الأمة الإسلامية نتيجة ذلك إلى شيع وفرق متناحرة.

انبثقت فرقة الخوارج من قضية التحكيم الشهيرة بين علي بن أبي طالب (35-40هـ/ 655-661م) ومعاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-671م) واختلفت الآراء حول أسباب ظهور مصطلح الخوارج وصياغته[2] وفي كل الأحوال يظهر

---

(1) طه حسين جعل هذه التسمية عنواناً لكتابه عن خلافتي عثمان وعلي.

(2) البعض قال : إن الخوارج أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية انطلاقاً من الآية القرآنية ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ كدليل على اعتزال الخوارج كافة القوى التي شاركت في الحرب ضد عثمان، أما الشيعة والسنة رأوا في المصطلح ما يفيد الخروج على الملة. وتحت تأثير هذا الاتهام أطلق الخوارج على أنفسهم (المحكِّمة) تأسيساً على مبدأهم المعروف (لاحكم إلا لله) كذلك سموا أنفسهم (بالحرورية) نسبة إلى القرية التى اعتصموا بها بعد مغادرتهم معسكر علي بن أبي طالب وهي قرية حروراء وسموا أنفسهم (الشراة) تعبيراً عن شرائهم الآخرة بالدنيا. الشهرستاني : الملل والنحل ص 106؛ الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص 167.

بوضوح تأثير الاتجاهات السياسية، ورغم أن معظم المصادر التاريخية[1]، تحمل الخوارج مسؤولية إرغام علي بن أبي طالب على قبول التحكيم ثم محاولة الضغط عليه لرفضه والتنصل من العهود التي قطعها على نفسه بوقف القتال فإن هذه الفئة قد تنصلت من النتيجة التي انتهى إليها التحكيم بسبب خداع ممثل معاوية في التحكيم وحيلته وقررت إشهار السيف بوجه الخليفة، وكان العام 37هـ / 657م الذي شهد ظهور فرقة الخوارج هو عام مكتظ بالصراعات والانقسامات ذات الطابع السياسي المصحوب بدوافع اجتماعية وقبلية وإقليمية دون أن تضفي على مبادئها وأهدافها طابعاً من عقائد الإسلام كدين ولم يختلفوا حول أي شرائع دينية أو أن الإسلام كدين وقف على موقف فريق دون فريق[2]. إنما كان خلافاً سياسياً بالدرجة الأولى حول (الإمامة والخلافة) وقبلياً واقتصادياً واجتماعياً، إنه صراع حول الزعامة بين قريش وباقي القبائل العربية الأخرى الأقل نفـوذاً خاصة وأن الصراع الاجتماعي كان قد زاد قوة بين البيت الهاشمي والقرشيين وبين قريش بإعتبار أن النبي ﷺ منها وبين القبائل العربية الأخرى التي تفتقد هذه الميزة، وأصبح الصراع بين أبناء الدين الواحد دون أن يزعم طرف من أطرافه أن له صبغة من الدين في البداية.

أما الخوارج، فلقد كان انشقاقهم، على عهد خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة 37هـ / 657م وإبان صراعه ضد معاوية بن أبي سفيان، وأنصاره ولم يقفوا في صراعهم مع علي ومعاوية عند الحدود السياسية بل أضفوا عليه طابعاً من الدين، وذلك عندما زعموا أنهم هم المؤمنون وأن من عداهم (قد مرق من الدين مروق السهم من قوسه)[3].

وزادت المشكلة تعقيداً عندما استخدم خصومهم ذات السلاح، فأصبحت سائر فرق الإسلام تقريباً، تضفي على مبادئها السياسية وأرائها الفكرية والاجتماعية، صبغة من الدين والعقائد لمنح الشرعية لمبادئهم السياسية كما أوضحنا سابقاً[4] وتملقا للناس واستجلاباً لتأييدهم.

---

(1) الطبري ؛ المسعودي ؛ اليعقوبي.

(2) حسن حنفي : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ص 595.

(3) حسن حنفي : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج2، ص545.

(4) أنظر الفصل الأول : الصراع على السلطة.

ولعل قسوة الصراع الذي انشق الخوارج أثناءه، ووضوح مخاطر خصومهم. وخاصة بني أمية ودولتهم (41 هـ - 132هـ / 661م - 750م) على قيم الدين ومثله العليا كما يعتقد الخوارج ساعد كل ذلك في نشأة فرقة الخوارج الأولى حيث كانت على يد كوكبة من القراء - وهم فقهاء ذلك العصر، وحفظة القرآن، وكانوا يرفضون الدنيا ويبتعدون عنها، ويتمسكون بالآخرة وبالدين، لهذا السبب خلطوا بين ما هو سياسة بما هو دين.

لقد كانت الطلائع الأولى التي كونت فرقة الخوارج مكونة، في أغلبها، من القراء، وكان لهؤلاء دور كبير جداً في إحداث الثورة التي شبت ضد عثمان بن عفان (23-35هـ/ 644-655م) بسبب استغلال بني أمية لنفوذهم في السنوات الست الأخيرة من حكمه، واعتبروا الخروج عن طاعته أمراً واجباً بسبب ضعف حكمه وعدم قدرته على تسيير دفة الأمور، واعتبروا الضعف، أو الفسق أو الجور، أسباباً ثلاثة استقر الفكر السياسي الإسلامي الثوري على اعتمادها أسباباً تبرر الثورة أو «الخروج» على من يتصف بها[1].

وبعد مقتل عثمان بن عفان (35هـ / 655م) كان هؤلاء القراء من أكثر أنصار علي بن أبي طالب الخليفة الجديد (35هـ / 655م) وكانوا يعتبرون طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام وأصحاب موقعة الجمل (36هـ / 656م) كلهم خصومهم مع بني أمية وأنصارهم.

وأثناء الصراع بين علي ومعاوية في صفين (37هـ / 657م) لم يكن يخالج هؤلاء القراء أي شك أنهم على حق، لأن عليّ بن أبي طالب هو من بايعته الجموع وهو من تعهد بإزالة كل الأسباب التي ثار الناس من أجلها على عثمان بن عفان[2]، أما معاوية وأصحابه فهم من أنصار عثمان وأقربائه وبالتالي هم (بغاة) والصحابة الذين خاطبوا معاوية قالوا له: (إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله، ولا أظنه يخفى عليك أن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي)[3].

---

(1) حسن حنفي : المرجع نفسه، ص 546.

(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص 47.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج5، ص6.

إذاً فالقراء كانوا يرون في علي بن أبي طالب السابقة والفضل، ولهذا ناضلوا معه في البداية بكل قوة واستشهد منهم عدد كبير، ولكن للأسف كانت تنقصهم الحنكة السياسية والبعد الحربي في هذه الأمور، بل إن تمسكهم الشديد بالدين أزهدهم في الدنيا وفي السياسة والتخلي عن أي صراع هو من أجل الدنيا والطمع فيها.

فعندما لجأ عمرو بن العاص إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح كان متأكداً أن هذه الخديعة ستكسبه الوقت أولاً، ثم ستكون سبباً قوياً في غرس الفرقة في صفوف جيش علي بن أبي طالب ﷺ [1]، وبما أن القراء معروفون بتمسكهم الشديد بالقرآن، فقد فرضوا على علي الاستجابة حيث قالوا:

(أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دُعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أونفعل كما فعلنا بإبن عفان)[2]، وهم الذين فرضوا عليه اسم الذي سيمثلهم في التحكيم وهو أبوموسى الأشعري رغم رفض علي هذا الاختيار فإنه أجبر مرة أخرى على القبول خوفاً من الفتنة بين صفوف جيشه بعد أن تصايحوا في معسكر صفين 37هـ/ 657م: لا حكم إلا لله، فعرفوا بالمحكِّمة منذ رفضهم لقرار التحكيم 37هـ/ 657م، وبعد أن اجتمع الحكمان - أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص - وأسفر التحكيم كما هو معروف عن إضعاف شرعية علي وتعزيز شرعية معاوية وازداد المحكِّمة (الخوارج) يقيناً بسلامة موقفهم، وبخطأ موقف علي بن أبي طالب فذهبوا إليه يطلبون:

(1) رفض الاعتراف بالتحكيم ونتائجه.

(2) النهوض لقتال معاوية ومن معه.

ورغم أن علياً ﷺ عاتبهم، لأن مجموعة كبيرة منهم كانت قد فرضت عليه القبول بالتحكيم عندما كان متردداً فإنهم اعترفوا أنها زلة وخطيئة منهم حين رضوا بالتحكيم، وقالوا :

(قد تبنا إلى ربنا ورجعنا عن ذلك فارجع كما رجعنا، وإلا فنحن منك براء)[3].

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج5، ص 28.

(2) الطبري: المصدر نفسه، ص 49.

(3) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص 63.

وكان للأشعث دور كبير ومسؤول في التأثير على المترددين من جماعة علي خاصة وأن الوثيقة التي وقعت بين الحكمين أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص ساوت بين موقعي المتنافسين علي ومعاوية أي أنها جردت علياً من لقبه الخلافي ووضعته في موقع الند لخصمه المتمرد[1].

ولم ينج الأشعث من إدانة أنصار الحرب في الجبهة العراقية، واتُّهم بالتواطؤ مع جبهة الشام مما جعل الأشتر يهدده بالقتل[2]. فانتفض في وجهه (عروة بن أدية) أحد زعماء بني تميم وكاد أن يفتك به، لولا أن هوت ضربة السيف على مؤخرة فرسه[3]. مما أدى إلى صراع قبلي برز على السطح من جديد. فحدث تكتل كندة اليمنية حول زعيمها الأشعث.

ولنا أن نتصور تأثير ذلك على جبهة القتال العراقية التي افتقدت اثنين من أكبر القبائل المشاركة في الحرب وفي صفوف علي بن أبي طالب، فكندة تعاطفت وأيدت التحكيم الذي يصب في مصلحة معاوية وأهل الشام، بينما تمادت الثانية وهي (تميم) في خطها الرافض لهذا المبدأ، وعبرت عنه بالقول الشهير (لا حكم إلا لله)[4].

وكان ذلك الموقف نواة ما عرف لاحقاً بحركات الخوارج التي اتخذت هذه العبارة شعارها الرئيسي وبعد أن كان المسلمون فريقين : أهل العراق يقودهم علي، وأهل الشام يقودهم معاوية وظهر الفريق الثالث وهم (المحكمة) الذين اختاروا لهم زعيماً. لم يكن من قريش ولا ينتمي إليها بل هو الصحابي عبد الله بن وهب الراسبي (38هـ / 658م) فكانت تلك هي النشأة الأولى لفرقة الخوارج وهي أولى الفرق في حياة العرب والمسلمين، وما لبثت (حروراء) وهي إحدى قرى الكوفة، أن تحولت إلى مقر لهؤلاء الذين بلغوا اثني عشر ألفاً، وذلك بقيادة تميمي أخر هو شبث بن ربعي[5].

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 189- 190.

(2) اليعقوبي : المصدر نفسه، ج2، ص 189.

(3) المسعودي : مروج الذهب، ج2، ص 393.

(4) المسعودي : المصدر نفسه، ج2، ص 393؛ الطبري : المصدر نفسه، ص 64.

(5) (الأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من أقوالهم في حروراء، ابن الأثير : الكامل، ج3، ص 165.

وبعد انتقالهم إلى حروراء بدأوا يتحولون في معارضتهم من الاحتجاج إلى المجابهة السافرة، ورغم محاولات علي بن أبي طالب المستمرة لتطويق هذه المشكلة خاصة إبان الموقف الصعب الذي تطلب تجنيد كافة الطاقات في وجه خصمه معاوية فإنه لم ينجح في تطويق أزمة الخوارج وانفصالهم وانسحابهم إلى النهروان (38هـ / 658م) بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي[1]، وتحول هؤلاء إلى قوة سياسية معارضة وإلى فرقة احتلت مركزاً قوياً في الحركات الثورية التي استهدفت النظام الأموي بشكل خاص.

غير أن اتساع نفوذ الخوارج في منطقة النهروان، وظهورهم في إطار جماعات مسلحة[2] دفع علياً إلى مواجهة خطرهم قبل التفرغ لمعاوية بن أبي سفيان، فالتقى جيش علي مع الخوارج في النهروان (سنة 38هـ/ 658م) حيث قتل زعيمهم الراسبي، ويستعيد بعضهم إلى معسكره، ولكنه لم يستطع القضاء عليهم نهائياً، وكانت هذه الاحداث كافية لاضعاف جيش علي، وكافية أيضاً لمنح القوة والوقت لمعاوية لترتيب صفوفه.

وفي النهاية اجتمع ثلاثة من الخوارج بعد معركة النهروان 38هـ / 658م واتفقوا على الانتقام لقتلاهم وذلك بالقضاء على المسؤولين الثلاثة، علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وقد فشلا مع الأخيرين ونجح عبد الرحمن بن ملجم المرادي[3] في طعن الخليفة علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة ثم موته (40 هـ / 661م) وبذلك أسدل الستار على النظام الراشدي الذي بدأ مع أبي بكر الصديق (11هـ / 632م) وانتهى مع علي بن أبي طالب (35هـ/ 655م).

وقد شكل الخوارج أحد فرق المعارضة في الإسلام، وكان فكرهم السياسي معبراً عن قطاع عريض وكبير من الجماهير الساخطة على نظام الحكم القائم، وعلى تمركز السلطة في قريش، ورأيهم في الخلافة يجعلهم هم أول من نادى

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص170.

(2) كان من بين ضحايا الخوارج عبد الله بن خباب أحد الصحابة المقربين من علي، ابن الأثير : الكامل، ج3، ص 193

(3) قتل علي بن أبي طالب في رمضان 40 هـ / 761م ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج1، ص 147، ابن طباطبا : الفخري في الأدب السلطانية، ص 151.

بالشورى الإسلامية المطروحة في القرآن الكريم والتي طبقها الرسول ﷺ في دولة المدينة ونادوا بالعودة إلى الأصول التي تدعو إلى حرية الاختيار للأفضل لتولى أمر الخلافة[1] دون النظر إلى أي انتماء قبلي أوسياسي أو اقتصادي أو اجتماعي بقدر ما يكون أهلاً لهذا المنصب وقادر على تحمل مسؤولياته كما جاء في الإسلام وروح القرآن، على خلاف أهل السنة الذين رجحوا حق الإمامة لقريش، والشيعة الذين جعلوها حكراً على آل البيت وحدهم.

ونظراً لتمسكهم الشديد بأهداب الدين، والتزامهم بالقرآن والسنة دون تأويل أو تحريف، ودعوا إلى الصرامة في اتباع نهج السلف الصالح ممثلاً في سياسة الرسول ﷺ والشيخين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وقد عرفت إنتفاضتهم بالثورة، لأنهم هم أنفسهم رفعوا شعار (الثورة على أئمة الجور) مما جعلهم جديرين بلقب ثوريي الإسلام[2].

لقد تطرف الخوارج في بداية عهدهم إلى حد المغالاة في استحلال دماء مخالفيهم في المذهب وحكمهم على مرتكب الكبيرة بالكفر، وكانت آراؤهم في العدالة والمساواة تنم عن اتجاه إسلامي أصيل منطلق من مبدأ العدالة الاجتماعية والمساواة.

وتاريخ الخوارج حتى أواخر العصر الاموي 334هـ/ 945م يساير مبادئهم الاعتقادية في التطرف، فقد ثاروا على الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ مراراً وأقضوا مضجعه بغاراتهم المستمرة على البصرة والكوفة فضلاً عن ثوراتهم الدائبة في الولايات الشرقية[3].

ورغم أن علي بن ابي طالب رضي الله عنه خاض الكثير من المعارك التي كادت أن تنتهي بالقضاء على جيوش الخوارج برمتها خاصة معركة النهروان 38هـ / 658م فإنه لم يتيسر له الزمن الذي يقضي فيه عليهم جميعاً واستمرت ثوراتهم بعد مقتله (رضي الله عنه) انضم الخوارج إلى عبد الله بن الزبير الذي ثار ضد الامويين في الحجاز والعراق 65هـ / 72هـ لما أظهر الميل لمذهبهم، فحاربوا في صفه زمناً، ثم

---

(1) الأسفراييني : التبصير في الدين، ص 46.

(2) محمود اسماعيل : الحركات السرية، ص16.

(3) أنظر الفصل الأول (الصراع على السلطة / ثورات الخوارج).

انقلبوا عليه حين لاح لهم أنه يظهر خلاف مايبطن، خاصة في مسألة العقائد[1]، ودارت معارك كثيرة بين الطرفين أزهقت فيها آلاف الأوراح من الخوارج وخصومهم ومن المؤكد أن تحوّل الخوارج من نطاق أسلوب الفر والكر في حروبهم إلى نطاق المواجهة المسلحة المنظمة، بدأ في عهد زعيمهم مرداس بن أدية التميمي[2]، ويبدو أنه كان في سجن البصرة قبل اختلافه مع حاكمها الجديد عبيد الله بن زياد إثر مقتل أخيه عروة بن أدية الذي أعدم في البصرة 58هـ / 678م[3] واعتصامه في الاهواز، وكان مرداس قد قضى على فرقة أرسلها الوالي في أثره[4]، وأخيراً استطاع القضاء على مرداس وأصحابه في مجزرة جماعية 61هـ / 681م[5] في الاهواز.

كان الغموض وربما التناقض يحيط الصراع بين الخوارج والسلطة الاموية ولعل ذلك عائد إلى أن الخوارج بوصفهم فرقة سياسية وثورية لم تكن قد بلغت حداً من النضج والاستقرار في وقت كانت قبضة السلطة المركزية شديدة القوة في البصرة على الخصوص[6] ولابد أن الصراع الداخلي هو الذي نجم عنه انقسام الخوارج إلى عدة فرق[7] مختلفة المنهج والرؤية العقائدية في جميع مراحل صراعهم مع السلطة ولم يثبتوا وصولهم إلى مرحلة النضج في الأفكار والأطروحات بل ظلوا يوصفون بالسذاجة الثورية التي تعتمد على سرعة ردود الفعل دون التروي الهادي في التخطيط من أجل تحقيق الأهداف، لهذا فإن التحرك الثوري لم يبلغ مداه من الخطر في السنين الاولى من الحكم الأموي، إلا بعد تنامي هذه الأفكار في العهد المرواني 64هـ / 684م جاء نتيجة عوامل مساعدة منها الفراغ السياسي الذي حدث في الدولة الأموية وساهم باستكمال الأطر المحددة لتنظيمهم بوصفهم فرقة سياسية معارضة.

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج7 ص 56.
(2) ابن الأثير : الكامل، ج3 ص 258-259.
(3) الطبري : المصدر نفسه، ج6، ص 174.
(4) الطبري : المصدر نفسه، ج6، ص 175.
(5) الطبري : المصدر نفسه ج6 ص 271؛ أبن الاثير : الكامل في التاريخ، ج3، ص48.
(6) إبراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية، ص 232.
(7) يحددها البغدادي بعشرين فرقة : المحكمة الأولى / الأزارقة / النجدات / الصفرية / العجاردة / الشعيبية / المعلومية / المجهولية / الصلتية / الأخنسية / الشيبانية / الشبيبية / المصيرية / الرشيدية/ المكرمية / الحمزية / الثعالبة / الإبراهيمية / الموافقة / الأباضية. البغدادي : الفرق بين الفرق، ص45.

ومن الملاحظ أن أول موقف سياسي منظم اتّخذه الخوارج هو التحالف مع عبد الله بن الزبير، حيث شارك نافع بن الأزرق أحد أبرز زعمائهم ومؤسس فرقة الأزارقة المتطرفة المنسوبة إليه، في الدفاع عن مكة مع جماعته ضد القائد الأموي الحصين بن نمير السكوني، غير أن هذا التحالف كان مرحلياً فقط، لأن خلافاً عقائدياً أدى إلى انفصال الخوارج عن ابن الزبير حيث عاد بعضهم إلى الأهواز بقيادة ابن الأزرق والآخر إلى اليمامة مع نجدة بن عامر الحنفي زعيم الفرقة النجدية[1] كما سنوضح فيما بعد.

على أن نشاط الخوارج ظل مقصوراً على الجانب الشرقي من الدولة الإسلامية فترة طويلة وكان مصدر خطر دائم على البصرة، ولم ينتقل نشاطهم إلى أفريقية إلا على عهد العباسيين واتسع نشاطهم في الجزيرة العربية بين سنتي 65هـ و72هـ إذ أستولوا خلالها على حضرموت واليمامة والطائف واليمن.

غلاة فرق الخوارج

أولاً: فرقة الأزارقة:

وهم أتباع نافع بن الأزرق الذي كان من بني حنيفة، وكانوا أقوى الخوارج شكيمة وأكثرهم عدداً وأعزهم نفراً، وهم الذين خاضوا الصراعات الأولى مع ابن الزبير والأمويين وقد قاتل الخوارج بقيادة نافع بن الازرق عبد الله بن الزبير، وقواد الأمويين تسع عشرة سنة[2]. وقد قتل نافع في ميدان القتال، ثم تولى بعده نافع بن الأزرق، ثم قطري بن الفجاءة. ويبدو أن الخوارج من الأزارقة ساهموا بوسائلهم الإرهابية في انقلاب البصرة الذي كان نتيجة إخراج جماعتهم من السجون ومغادرة المدينة مع أتباعهم إلى الأهواز بعد أن استخدموا العنف[3] والشدّة وسفك الدماء، يقتلون النساء والأطفال على حد سواء ويستحلون الأموال ويقطعون الطريق وكانت البصرة مركزاً قوياً لضرب الخوارج وهدفهم الدائم مما

---

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج7، ص 56؛ سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية، ص 117.

(2) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 69.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص 225؛ ابن الأثير : الكامل، ج 4، ص 196.

دفع بسكان البصرة نتيجة الخوف إلى محاولة إنشاء قوة ذاتية[1] دون الاعتماد على قوات منظمة من الدولة لصد الخطر الخارجي ولكنها فشلت[2]، فاضطر أهلها إلى طلب المساعدة من عبد الله بن الزبير مقابل الاعتراف به، وكان نتيجة هذا التحالف مع خليفة الحجاز هزيمة الأزارقة وقتل قائدهم في معركة قوية جرت في إحدى قرى الأهواز[3]، وتولى زعامة الأزارقة بعد ذلك عبيد الله بن الماحوز في الوقت الذي تولى المهلب بن أبي صفرة بولاية البصرة، بعد أن عينه عبد الله بن الزبير من أجل مقاومة الخوارج وكان استجابة لرغبة زعماء البصرة الذين تفاءلوا بقدرة المهلب في مساعدتهم لمواجهة ضربات الخوارج، وقد نجح المهلب في مطاردة ابن الماحوز حتى قضى عليه وأبعد جماعته من الأهواز[4](66هـ / 686م) مما دفع الخوارج إلى تجميد نشاطهم والاعتكاف على إعادة تنظيم أنفسهم واختيار خليفة جديد لزعامتهم بعد مقتل قائدهم ابن الماحوز.

غير أن الخوارج ما لبثوا أن استعادوا مبادرة التحرك بقيادة قطري بن الفجاءة، وهو من قبيلة تميم وكان على غرار أسلافه السابقين الذين ثاروا على علي بن ابي طالب في مسألة «التحكيم» وكان معاصراً لمصعب بن الزبير الذي اصبح حاكماً على العراق في ذلك الحين، غير أن مشاكل العراق الداخلية أعاقت مصعب من التصدي للخوارج مما جعله يلجأ إلى المهلب ويستدعيه من الموصل حيث عينه قائداً على العراق لاعتبارات استراتيجية وللاستفادة من كفاءته العسكرية في الحرب ضد الامويين[5]. ولكن المهلب لم يستطع هذه المرة سوى صد الخوارج عن البصرة والدخول معهم في مفاوضات طويلة امتدت إلى أن انتهى الحكم الزبيري في العراق.

---

(1) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص 23؛ الدينوري : الأخبار الطوال، ص 297.

(2) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص 85 تعرف القريه باسم دولاب وقد قال قطري :

ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى في الحرب غير ذميم

غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم

وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم

(3) أبي العباس المبرد : الكامل من أخبار الخوارج، ص 92.

(4) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج7، ص86-89.

(5) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص138.

وكان عبد الملك بن مروان، 65هـ / 684م، بعد انتصاره على مصعب، يدرك الخطر الذي يواجه العراق ويهدد استقراره والمتمثل في هجوم الخوارج عليه، حيث عين عليها أخاه بشر بن مروان وهو أول حاكم مرواني[1]. وبعد وفاته بادر إلى توحيد العراق في ولاية واحدة على أن يكون قائده المخلص والقوي الحجاج بن يوسف حاكماً عليها 75هـ / 794م.

وكانت ثورة الخوارج وتدهور الموقف الأموي، المؤشر الذي دفع الحجاج إلى استعمال الغلظة والقوة ضدهم وقام بتعبئة المقاتلين وحملهم على الالتحاق بالمهلب[2].

بدا الوضع الحربي في الأهواز صعباً ومتعثراً رغم كثافة المقاتلين، واضطر قائدها إلى استهلاك أكثر من ثلاثة أعوام متواصلة في ملاحقة الازارقة، دون تحقيق أي نتائج حاسمة، وكان ذلك بسبب الصراع العصبي القوي بين الكوفيين والبصريين في جيش المهلب مما جعل الوضع صعبا وغير منسجم في جيش بني أمية وأدى إلى قتل قائدهم وهزيمة الكوفيين[3].

وكان الوضع الداخلي عند الازارقة مفككاً ومنقسماً وهي ظاهرة ما انفكت تلازم الخوارج في معظم مراحل تاريخهم السياسي ربما لطابعهم الثوري غير المنظم ثم لاختلاف وجهات النظر في فكرهم العقائدي، خاصة بعد انشقاق فئة من الأزارقة بقيادة عبد ربه الكبير حيث اتخذت من كرمان قاعدة لها، بينما ابتعد قطري بجماعته إلى الشمال واستقر في طبرستان[4].

وهذه الفُرقة التي حدثت في الخوارج كانت المؤشر لحسم الحرب لصالح المهلب وبني أمية، حيث لم يجد المهلب صعوبة في مطاردة عبد ربه إلى كرمان والقضاء عليه.

أما قطري فقد انتهى دوره على يد جعفر بن عبد الرحمن بن مخنف[5] الذي أرسله الحجاج إلى طبرستان، لانهاء اخطر ثورات الخوارج في العراق وكانت سبباً قوياً في اثارة الفوضى والاضطرابات مما ادى إلى حالة من القلق السياسي اصاب الدولة وحملها

---

(1) بيضون : ملامح التيارات السياسية في ق1 هـ، ص135.

(2) المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص 127؛ ابن الاثير، ج4، ص185.

(3) ابن الاثير : المصدر نفسه، ج4، ص189 قائدهم عبد الرحمن بن مخنف.

(4) الطبري : تاريخ الامم والملوك، ج7، ص 274 - 275.

(5) جعفر بن عبد الرحمن مخنف، ابن القائد الذي قتل في حملة المهلب / الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص274 - 275.

الكثير من الأموال المبذولة للقضاء على هذه الحركة[1]، وهكذا تم القضاء على خطر الخوارج الازارقة وكافأ الخليفة عبدالملك بن مروان 65هـ/ 684م واليه المخلص الحجاج الثقفي بأن ضم إليه خراسان وسجستان إلى جانب حكم الكوفة والبصرة، ومنح الحجاج للمهلب بن صفرة مكافأة له على إخضاعه الخوارج الازارقة، لكن ثورة الخوارج لم تنته بالقضاء على الازارقة.

ثانياً: فرقة الصفرية:

لم تنته ثورة الازارقة بل استمرت فرقة أخرى تحمل لواءها وهي فرقة الصفرية[2] المغالية التي لم يكن بينها وبين ثورة الاهواز أي صلة، لأن ثورة الصفرية انفجرت في وقت متأخر وفي بقعة جغرافية مختلفة.

كانت الكوفة هدف الخوارج الصفريين انطلاقا من قواعدهم في الموصل والجزيرة "76هـ / 695م"[3] وكان أول من تصدى لهم حاكم المنطقة محمد بن مروان، غير إنه فشل في إخماد ثورتهم، حتى أتت التعزيزات من الشام وساعدته في الهجوم على الخوارج الصفرية باثنتين من الفرق الكبيرة، مما دفع زعيمهم صالح بن مسرح إلى مغادرة الجزيرة والعزوف عن هذه المعركة بعد شعوره باختلال الموازين العسكرية لصالح الأمويين[4]، وتحول باتجاه الكوفة وكأن خطأً فادحاً منهُ لأن الحجاج استطاع بسهولة أن يقضي عليهم وينزل بهم الهزيمة ويقتل قائدهم[5].

وبعد مقتل صالح بن مسرح اختار الصفريون شبيب بن يزيد قائداً لهم، وقد نجح هذا القائد في السيطرة على المدائن، وقام بعمليات انتقامية أحدثت الرعب في المنطقة ودفعت الناس إلى الاحتماء بالكوفة[6].

وقد فشل الحجاج في ردعهم بسبب انشغال قواته في مقاتلة الازارقة بقيادة المهلب[7] وبلغت المفاجأة مداها بدخول الصفريين إلى الكوفة وارتقاء قائدهم قصر

---

(1) انظر ثورات الخوارج في الفصل الاول : الصراع على السلطة.

(2) نسبة إلى زياد بن الاصفر مؤسس هذه الفرقة البغدادي : الفرق بين الفرق، ص70.

(3) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص221.

(4) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص192.

(5) الطبري : تاريخ الامم الملوك، ج7، ص221.

(6) الطبري : المصدر نفسه، ج7، ص225.

(7) ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج4، ص192.

الامارة معلناً الحكم باسمه، بينما غادرها الحجاج إلى البصرة بعد الضربات الناجحة والمتكررة من الصفريين على الكوفة[1].

ولقد اتبع الصفريون في قتالهم الضربات الخاطفة والهجمات الصاعقة واسلوب الترويع والقتل الجماعي، على غرار ما جرى في مسجد الكوفة من قتل المصلين على يد سفيان بن الأبيرد الكلبي[2] وغير ذلك مما ساهم في نجاح هذه العمليات العسكرية الجريئة. وكان لابد من تدخل الخلافة الاموية في الشام لانقاذ الموقف، حيث قضوا على شبيب بن يزيد في معركة عند نهر دجلة، حيث قتل غرقاً على الارجح 77هـ / 698م[3].

وهكذا كان القضاء على ثورة الصفرية منعطفاً هاماً في تاريخ الخوارج السياسي حيث إن المرحلة التالية من تاريخ الخوارج الثوري كانت مرحلة انكفاء وتراجع بشكل عام دامت نحو ربع قرن من الزمن[4]، وانطفأ وهج الثورة الخوارجية في المشرق وخاصة في العراق بعد الملاحقة العنيفة التي استهدفتهم على يد الولاة الامويين[5].

غير أن فئة من الخوارج (الصفرية، الاباضية) اتجهت نحو التبشير بأفكارها السياسية والاجتماعية ناحية المغرب العربي حيث الأرض الواسعة، والسكان المتشنجين من تعسف الولاة القيسيين، خاصة في السنوات الاخيرة من الدولة الاموية. ومن ثم يمكن القول إن مذهب الخوارج الذي كان في صدر الإسلام مذهباً سياسياً دينياً قحاً اكتسب في العصرين الاموي والعباسي بعداً اجتماعياً بتنصيب الخوارج أنفسهم «حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطغاة»[6].

وفي عهد الدولة العباسية " 132هـ / 750م " لم يختلف الامر لدى الخوارج وكان موقفهم من الصراع الذي حدث بين البيت العباسي والبيت العلوي في الاسرة الهاشمية، موقفاً سلبياً، لانهم يرون أن الخلافة حق لكل مسلم، دون

---

(1) ابن الاثير : المصدر نفسه ج4، ص197.
(2) المسعودي : مروج الذهب ج3، ص131.
(3) ابن الاثير : المصدر نفسه ج4، ص209، المسعودي : مروج الذهب، ج3، ص 139، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج2، ص175.
(4) الطبري : المصدر نفسه، ج8، ص131.
(5) بيضون : ملامح التيارات السياسية، ص240.
(6) فان فولتن van volten : تاريخ الدولة العربية، ص73.

النظر إلى النسب القرشي أو النسب النبوي وكانت ما تزال تصر على مبدئها وتبثه بين المسلمين، ولم يكن رأيها في البيت العباسي الحاكم الجديد ليختلف عن رأيهم في البيت العلوي البائد «أي علي بن أبي طالب وانشقاقهم عنه بعد مسألة التحكيم، فكلهم في نظرهم لا يصلحون للخلافة ولم يختاروا اختياراً حراً صريحاً، ولم يستوفوا الشروط التي يجب توفرها في الامام، وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم، وعزلهم إن أمكن قتلهم»[1]. على أن المجموعة الخارجية تغيرت واختلفت منذ أواخر العهد الاموي في عدة أمور منها:

1- كانت كتلة الخوارج في البداية من العرب وخاصة البدو وأضيف لهم قبيل العهد العباسي بعض الموالي والبربر في كل من فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان وافريقية والمغرب

2- كانت قضيتهم سياسية أولاً، ثم أصبحت سياسية واجتماعية، واصبح شعارهم العدل الاجتماعي والمساواة ورفض الظلم من عقائد حركتهم[2].

3- كانت المواقع التي يتمركزون فيها في العهد الاموي (41-132 هـ / 661-750م) هي الاقاليم المركزية ما بين الجزيرة والعراق حتى الاهواز وفارس ثم تحولوا منذ أواخر العهد إلى اذربيجان وسجستان وخراسان وكرمان وعمان واليمن وافريقيا.

وكانت الضربات القوية التي تعرضوا لها جعلتهم يفرون إلى مناطق بعيدة عن مناطق السلطة حتى يحافظوا على بقائهم، ولم يكن مجيء العباسيين له تأثير عليهم في تغيير مواقفهم الثورية، وقد حاربوا بني العباس في صلابة وجلد لا يقلان عن ما فعلوه في عهد السلطة الأموية، ولم يكن قد مضى على أبي العباس (132هـ / 750م) سنة واحدة حتى تحرك الخوارج عليه[3] حيث شهدت مناطق الجزيرة وأرمينية وعمان في عهد أبي العباس حركات خارجية عنيفة ضد جيش الخلافة العباسية[4].

---

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص226.

(2) شاكر مصطفى : المرجع نفسه، ج1، ص36.

(3) تناولنا ثورات الخوارج في العصر العباسي في الفصل الاول "الصراع على السلطة ".

(4) عمر (فاروق) العباسيون الاوائل، ص248.

وفي عهد المنصور (136-185هـ/ 750-754م) استمرت اضطرابات الجزيرة كما أيد سكان الموصل الخوارج في حركتهم ضد السلطة العباسية، وقد استمرت تحرشات الخوارج بالدولة العباسية، وخاصة في صعيد مصر والمغرب و اليمن، كما عرفت فترة حكم الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) عدة حركات خارجية مثل : حركة الوليد الشاري الخارجي (الجزيرة 178هـ) والقحقح الخارجي (الموصل 171 هـ) وغيرها[1].

ومن أهم تلك الحركات ظهرت حركة عبدالسلام اليشكري الخارجي الذي ثار في الجزيرة وهزم جند الخليفة عدة مرات[2].

ومن خلال الرسائل المتبادلة بين الخليفة المهدي (158-169هـ/ 775-785م) وعبد السلام الخارجي نلاحظ دفاع كل منها على وجهة نظره ومعتقده فالمهدي اعتمد في تهديده للخوارج بدافع الدفاع عن علي وإن كان ذلك على المستوى النظري فقط رغم أن الحقيقة هي دفاعهم عن سلطتهم وخلافتهم واستقرارها، بينما رأى عبدالسلام الخارجي أنهم على البغي والباطل متبعون حيث يقول له : «سلام على من اتبع الهدى واجتنب الغي وقام بالحق، فلا الهدى اتبعت، ولا الغي اجتنبت ولا الحق أقمت...»[3]

ثالثاً: فرقة النجدات:

وهم اتباع نجدة بن عويمر من بني خليفة وهو من أكبر مشعلي نار الثورات والفتن في صدر الإسلام (36ـ69هـ / 656ـ688م) وكان في البداية مع نافع بن الازرق ثم فارقه بعدما اختلفوا في بعض العقائد كما ذكرنا فخرج نجدة إلى اليمامة 66هـ في عهد عبدالله بن الزبير على رأس جماعة ثم استقر في البحرين، ولقب نفسه «أمير المؤمنين» وبايعه خلق كبير من الخوارج بعدما استولى على قافلة تحمل أموالاً إلى ابن الزبير وفرقها على أصحابه، ودخل في مواجهة عسكرية مع جيوش الزبير وبقيادة مصعب بن الزبير استطاع أن يهزمهم في اكثر من معركة وينتصر عليهم، وقد أصبح نجدة في 68هـ في ثمانمائة وقيل في الفين وستمائة من

(1) انظر تاريخ الطبري : ج8، ص142.
(2) الطبري : المصدر نفسه ج8، ص142.
(3) تاريخ خليفة بن خياط : ج2، ص475 -477.

أصحابه ومعه صالح بن الزبير واتفقا على المصالحة وأن يكف بعضهم عن بعض[1].

ثم انقسم عليه أصحابه عندما بعث سرية إلى أهل القطيف واستعمل ابنه عليهم، فقتلوا وسبوا وغنموا، وكان من بين السبي[2] نساء نكحوهن قبل أن يقسمن، كما أكلوا الغنائم قبل أن تقسم ثم رجعوا إلى نجدة واخبروه بما فعلوا فأنكر عليهم ذلك ولكنهم قالوا إنهم لم يكونوا يعلمون، فعذرهم نجدة وعفا عنهم، واصبح من مبادئ الفرقة عذر من ارتكب معصية عن جهل بعد الاجتهاد، ولكن قوماً من أنصاره وجماعته رفضوا هذا الرأي.

وقد نقم عليه أصحابه لتعطيله حد شارب الخمر، وكونه فرق الاموال بين الاغنياء وحرم منها ذوي الحاجة وقد وثب عليه أبو فديك فقتله[3].

لقد خالف النجدات الازارقة في تكفير «القعدة من الخوارج» أي الذين لا يخرجون للقتال. واستحلال قتل الاطفال كما خالفوهم في حكم أهل الذمة، فالازارقة قالوا إنه لاتباح دماؤهم احتراماً لذمتهم التي دخلوا بها في أمان أهل الإسلام. وقال النجدات إنها تباح دماؤهم كما أُبيحت دماء من يعيشون في كنفهم من المسلمين. وهم من الفرق المغالية والمتطرفة.

والنجدات يرون أيضاً أن إقامة إمام ليست واجباً شرعياً، بل هو واجب تقتضيهُ الظروف والمصلحة، كما أن فرقة النجدات أول من شرعت مبدأ «التقية» في فرق الخوارج حيث يسمح للخارجي أن يخفي عقيدته حقناً لدمائه حتى يحين الوقت المناسب لاظهارها واستطاع نجدة (66هـ ـ 685م) الاستيلاء على البحرين، وحضرموت، واليمن، والطائف[4].

وانقسمت النجدات بعد مقتل نجدة إلى ثلاث فرق ـ فرقة من أنصار نجدة بقيت على ما عليه وفرقة انضمت إلى أبي فديك، وفرقة انضمت إلى عطية بن الاسود.

---

(1) إسماعيل العربي : معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ص366.
(2) مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب، ص129.
(3) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل، ص 190؛ تاريخ الطبري ج4، ص168.
(4) اسماعيل العربي: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ص166.

أما أهم معتقدات النجدات فقد قالت: الدين أمران معرفة الله، ومعرفة رسله وتحريم الحجة عليهم، ومن استحل شيئاً عن طريق الاجتهاد فما هو محرم، فهو معذور[1].

وقالوا: من خاف العذاب على المجتهد في الاحكام المخطئ قبل أن تقوم الحجة عليه فهو كافر ومن لم يهاجر اليهم فهو منافق. وقد لاحظ البغدادي: اختلال التوازن في موقف النجدات في المسائل التالية فقد قالوا إن من نظر نظرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو كافر[2]. فهم يرون أن من زنى وشرب الخمر وسرق ولم يصر على ذلك فهو مسلم إذا كان من موافقيهم. وقالوا إن اصحاب الكبائر منهم ليسوا بكفار واصحاب الكبائر من غيرهم كفار، والنجدات يجوزون التقية في القول والعمل كله، وإن كان ذلك في قتل النفس. وهم لايحتاجون إلى إمام إلا إذا اقتضت المصلحة والحاجة اليه.

وقد ذكر ابن حزم أن النجدات فرقة مغالية بادت في عهده (منتصف القرن الخامس الهجري)[3].

أراء الخوارج السياسية والدينية والعقائدية:

أولاً: آراء الشراة السياسية: الشراة هم الخوارج الاوائل، وقد كان لهم آراء ومبادئ سياسية تختلف عن آراء ومبادئ خوارج العصر الاموي (41-132هـ / 661ـ750م) وأبرز آراء الشراة رأيهم في التحكيم (فقالوا: اخطأ علي في التحكيم، إذ حكّم الرجال ولاحكم الا الله.. وتخطوا عن التخطئة إلى التكفير)[4].

وهم يكفّرون علياً بعد ان تخلوا عنه في مسألة التحكيم، وكفّروا عثمان في السنوات الستة الاخيرة من حكمه، ولم يسلم منهم ايضاً طلحه والزبير وعائشة، بينما يعظمون أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب[5] ويعللون تكفيرهم علياً

(1) الاشعري: مقالات الإسلاميين، ص171.
(2) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص80.
(3) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ص190.
(4) الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص175-176.
(5) الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص46.

وعثمان بأن علياً «حكّم الحكمين وخلع نفسه عن إمرة المؤمنين، وحكم في دين الله فكفر، وعثمان وليَ رقاب المؤمنين ولاة جور فحكموا بغير ما حكم الله فكفر»[1].

ومهما اختلف الخوارج في آرائهم ومبادئهم، فهم متفقون حول مسألة «تكفير علي وعثمان والحكمين واصحاب الجمل (36هـ / 656م) وكل من رضي بتحكيم الحكمين»[2].

ومن اهم مبادئ الشراة السياسية رأيهم في الخلافة، فقد ذهبوا إلى صحة خلافة أبي بكر وعمر لصحة انتخابهما وقالوا بصحة خلافة عثمان في سنينه الاولى، كما أقروا بصحة خلافة علي بن ابي طالب، ولكنهم قالوا إنه أخطأ في التحكيم، وحكموا عليه بالكفر كما كفروا طلحة والزبير وعائشة والحكمين.

ثم وضعوا أسساً لاختيار الخليفة فجوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وكل من مثل العدل واجتنب الجور كان إماماً، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه، ومن غيّر السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله، وهم اشد الناس قولاً بالقياس وجوزوا أن لا يكون في العالم إماماً اصلاً، وإن احتيج اليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً[3] «وشعار لاحكم إلا لله »كما قال ﷺ الخليفة علي بن ابي طالب كلمة حق أريد بها باطل فهي جملة براقة لايستطيع أحد أن يعارضها أو يناقضها خاصة مع وجود خلاف سياسي أو تيار متطرف أو اتجاه عنيف. يهدف إلى التلاعب بالالفاظ والابتعاد عن المنطق، ولقد رفع هذا الشعار في مجال خصومة سياسية حين رفع جيش معاوية المصاحف على أسنة الرماح ولكنهم لم يرجعوا إليه في حل القضية المطروحة.

والمسألة عند الخوارج لا تعني أن الله سينزل على الأرض، ويحكم بين الناس بقدر ما تعني العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه في الحكم وتحكيم الشرائع القرآنية، وتطبيق الشورى المطروحة كما جاءت وبشكل واضح في القرآن ﴿**وأمرهم شورى**

---

(1) الملطي : التنبيه والرد، ص53.
(2) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص45.
(3) الشهرستاني : المصدر نفسه، ج1 ص174-175.
(4) القرآن الكريم : سورة الشورى، الآية 38.
(5) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية 109.

بينهم﴾[1] ﴿وشاورهم في الامر﴾[2] وهذا الامر يعرفه الخوارج جيداً لأن معظمهم كان من حفظة القرآن حتى عرفوا تاريخياً باسم «القراء» خاصة الرعيل الاول منهم.

وهنا فاننا نستغرب رأي العشماوي عندما يقول: لم ترد أية واحدة أو حديث واحد صحيح، يرتب نظام الحكم في الأمة الإسلامية[3].

فالحقيقة لم ترد آية توضح النظام شكله أو هيئتهُ، ولكن هناك دعوة سياسية عامة تنظم كيف يتم اختيار الامام أو الخليفة أو الحاكم في الإسلام ومنها ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾[4] والشورى تعني الاختيار الحر في الحكم وشكل هذا الحكم ومدى صلاحيته للأمة بشرط أن توافق عليه الأمة الإسلامية، والرسول عليه السلام يقول :(كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته) ثم نظام الرسول في المدينة وصحيفة المدينة هي شكل من اشكال النظام الإسلامي المنبثق من روح الإسلام والقرآن؟.

والخوارج يرون إمضاء أحكام الشرع، فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ احكام الله تعالى، لم يحتج إلى إمام ولا يجب تنصيبهُ، وهؤلاء محجوجون بالاجماع[5] والذي دفعهم لذلك خوفهم من الملك ومساوئه، ولكن لا يعني هذا رفضهم لأصول الدين أو أمر الخلافة بمنظور ديني كما كان في عهد الرسول ﷺ حكم الله اسماً وفعلاً وهذا صعب لأن الله ترك الشكل السياسي التنظيمي وجعله أمراً دنيوياً تفرضه الظروف والاوضاع التي يعيشها الناس مع تحديد الشرائع التنظيمية والجوهرية للإسلام «كالشورى والعدل والمساواة والحرية». خاصة بعدما ملوا الخضوع للسلطان والحكم المركزي[6] ونرى فيها معالم السخط على قريش والتذمر من استئثارها بالخلافة من خلال سخطهم على علي بن ابي طالب وهو آخر الخلفاء الراشدين ولا ننسى أن معظمهم ينتمي إلى القبائل البدوية التي ترفض التبعية لقريش منذ الجاهلية الاولى، فكيف بعدما حررها الإسلام من هذه التبعية وأعلن المساواة بينهم «ولافرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى» والخوارج جبلوا على الحرية والانطلاق وعدم التقيد لأي حكم مركزي نتيجة للتأثير السيكولوجي وللطبيعة الجغرافية التي عاشوا فيها «البادية» وكرهوا استئثار قريش بالمجد قبل الإسلام وبعده.

---

(1) العشماوي : الإسلام السياسي، ص40.

(2) سورة الشورى الآية، ص38.

(3) ابن خلدون ـ المقدمة، ص340.

(4) الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص7.

لهذا رأوا أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الإسلامية عن طريق الإختيار المطلق من كل قيد، ورفضوا نظرة التقديس التي كان الناس ينظرون بها إلى قريش.

واعتبروا حديث الرسول «الإمامة في قريش» حديثاً موضوعاً ومشكوكاً في مصداقيته[1] ولايعتد به، وكان أول من عارض هذا الحديث سعد بن عبادة، زعيم الانصار بعد وفاة النبي ﷺ ثم سكتت هذه المعارضة في عهد ابي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى حمل الشراة الخوارج لواء المعارضة السياسية من جديد، ونفذوا نظريتهم في الخلافة فاختاروا عبدالله بن وهب الراسبي أميراً للمؤمنين، ولم يكن قرشياً وهذه الشورى التي نادوا بها هي فكرة عربية إسلامية دعا اليها القرآن كما أشرنا، وأقرها عمر بن الخطاب 13هـ / 634م وخالفوا بذلك المذهب الشيعي الذي يجعل الخلافة في بيت الرسول، والمذهب الذي يدعو إلى أن تكون الخلافة في قريش.

وأضاف الشراة الخوارج إلى مبدأ الاختيار في الخلافة أمراً آخر وهو أن الخليفة مرغم على قبول الخلافة ولا يحق له النزول عنها. وإذا حاد عن طريق الحق يجب عزله وقتله، ويرون أن لا مانع من الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة[2]. لأن الناس عندما يطبقون الإسلام وشرائعه يستغنون عن وجود أمير وهذا الامر يعيبهُ ابن عبد ربه على الخوارج: «إنما مذهبهم أن لايكون أمير، ولابد من أمير بِرٌ كان أو فاجرٍ»[3].

أراء الشراة الدينية:

إلى جانب هذه الآراء السياسية كان للشراة الخوارج آراء دينية خطيرة. وكما علمنا فالخوارج أهل فقه لا أهل كلام، فقد حاولوا إقرار العقيدة على أساس جديد يعتقدون أنه أقرب ما يكون إلى القرآن الكريم، وكانت الأسئلة التي تطرح من قبلهم : من هو المسلم؟ وكيف تكون العلاقات بين المسلم مع رفاقه من المسلمين ؟

---

(1) سبق ان تناولنا شرح هذا الحديث ومناقشته في الفصل الاول " الصراع على السلطة".

(2) الحميري: الحور العين، ص150.

(3) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج2، ص388.

وقد اتفق الخوارج على هذه الآراء الدينية بشكل عام وإن اختلفوا في المبادئ السياسية أو في الحرب، لقد نظر الشراة الخوارج إلى أنفسهم على أنهم الفئة المسلمة المؤمنة حقاً وأن من سواهم من المسلمين يجب عليهم جهادهم وردّهم إلى حظيرة الدين[1] لأنهم يعتقدون أن العبد يصير كافراً بالذنب[2] ووضع الخوارج برنامجهم على أساس العودة إلى العصر الإسلامي الاول في عهد الرسول والصحابة.

ويذكر الماوردي: إنه (إذا بغت طائفة من المسلمين، وخالفوا رأي الجماعة، وانفردوا بمذهب ابتدعوه.. وإن امتنعت هذه الطائفة الباغية من طاعة الامام ومنعوا ما عليهم من الحقوق وتفردوا باحتياز الأموال وتنفيذ الاحكام، فإن فعلوا ذلك ولم ينصبوا لأنفسهم إماماً ولا قدموا عليهم زعيماً، كل ما اجتنبوه من الأموال غصب لا تبرأ منه ذمة، وما نفذوه من الأحكام مردود لا يثبت به حق)[3].

الدعوة الخارجية والتنظيم:

كان دعاة الخوارج فيما بينهم يعرفون بـ «حملة العلم» وكانوا يرسلون دعاتهم من البصرة والموصل إلى الأمصار بعد تلقينهم أصول الدعوة وتدريبهم على أساليب نشرها مع الالمام بحلّ علوم العصر النقلية والعقلية، فضلاً عن اعداد الدعاة إعداداً كافياً، يزودونهم بالمال والمتاع لمساعدتهم للانتقال إلى المواطن التي يكلفون بالذهاب اليها، ومن هنا يرسلون برسائلهم في انتظام إلى شيخ التنظيم ليقف على نشاطاتهم ويزودهم بنصائحه وتوجيهاته[4].

وبفضل هذه الدقة في التنظيم بالإضافة إلى ظروف المغرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي ساعدتهم بشكل كبير على إقامة دولة في المغرب، ولولا الانقسام الذي تعرض له الخوارج والذي أدى إلى تشتيت جهودهم خاصة

---

(1) العبادي: صور من التاريخ الإسلامي، ص120.
(2) الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص46.
(3) محمود اسماعيل: الحركات السرية في الإسلام ص19، يقول إنه تحصل على وثيقة هامة ضمن مجموعة الفتاوى الفقهية تدل على دقة التنظيم واسلوب عمله، موجودة بدار الكتب المصرية.
(4) الرازي: إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص46.

بعد أن انقسموا إلى جماعات متناحرة جاوزت العشرين فرقة، لكان لهم شأن آخر في التاريخ ويبدو أنه كان عليهم أن يغيروا من أساليب كفاحهم بنبذ طريق الثورة واتباع اسلوب العمل السري والدعوة المستورة خاصة بعد التصفية التي تعرضوا لها، مما جعلهم ينقلون نشاطهم إلى الأطراف بعيداً عن متناول ممثلي الدولة.

وقد عرفت تلك الفرق تطورات هامة أخضعت مبادئها إلى الواقع الذي فرض عليه بعض التغيرات، ظهر ذلك في عزوف الأتباع الجدد عن أراء الفرق المتطرفة والمغالية (كالأزارقة، والنجدات) وإقبالهم على معتقدات اكثر الفرق اعتدالاً «الصفرية والإباضية» كما فتحوا الباب أمام الموالي لاعتناق مذهبهم وأصبح يضم أكبر عدد من المظلومين سياسياً وكانوا يطلقون على الداخلين الجدد في مذهبهم اسم «المهاجرة»[1].

وعندما تعرض الخوارج لاضطهاد العباسيين (132 ـ 232هـ/ 750- 847م) التجؤوا مرة أخرى إلى أسلوب العمل السري، فبايعوا أحدهم بالإمامة بعد مصرع قائدهم (أبو الخطاب) وكانوا يسمون إمامهم مرّة (بإمام الدفاع أو بإمام الظهور) إذا توفرت له ظروف آمنة للعمل العلني، وقد تجسد ذلك بشكل واضح حينما أسسوا دولتهم عام 162هـ بالمغرب الأوسط في مدينة (تاهرت) عاصمة الدولة الرستمية (661هـ/ 777م) وكانت هناك انتصارات كثيرة للخوارج في المشرق العربي وخاصة في البصرة[2].

إن فرق الخوارج دخلت الساحة السياسية قوية وصلبة، وخاضت حروباً قوية، وعنيفة متشددة في طرح مبادئها ولكنها خرجت من تلك الساحة ضعيفة واهنة ومهزومة بسبب الانقسام الذي حدث أولاً في فرقة الخوارج، وبسبب التنكيل والتعذيب الذي لاقوه من قبل الخلفاء والولاة والقادة ثانياً مما جعلهم يتفرقون وتنهزم وحدتهم إلى أقاصي الخلافة البعيدة بسبب موقفهم القوي والعنيف والمختلف عن السنة والشيعة في أمر الخلافة ونظرتهم في الإمامة وأحقية كل من يرى في نفسه القدرة، والعدل والمساواة حتى إن من بينهم من أجاز تولي المرأة لمنصب الإمامة العظمى، ووضع هذا الرأي في التطبيق[3].

---

(1) عمر(فاروق) : العباسيون الأوائل، ص 240.

(2) إسماعيل محمود : الحركات السرية في الإسلام، ص 26.

(3) حسن حنفي : الحضارة العربية الإسلامية، ص 553.

وقد نشط الخوارج في رحاب الدولة الإسلامية يدعون إلى فكرتهم بالعنف والشدة وسفك الدماء وهذا الأمر اتبعه كل غلاة الفرق من الخوارج، واشدهم إقبالاً على الدماء فرق الأزارقة والنجدات والصفرية كما نوهنا.

إذ كان من مبادئهم قتل النساء والاطفال واستحلال الأموال وقطع الطريق، وهذا الأمر كان سبباً في استنكار زعيم فرقة (النجدات) تصرفات وأعمال الأزارقة، وكان كلاً من نافع و(نجدة) يلقب بين قومه بلقب أمير المؤمنين وكلا منهما يعتقد أنه على حق وهو أمر دفع ببعض شعرائهم إلى تمجيدهم وتمجيد انتصاراتهم[1].

وقد أظهر الخوارج نشاطهم الحربي والسياسي والعقائدي على مسرح الدولة الإسلامية وقد صمدوا واستمروا حتى القرن الثاني الهجري، ولكن كثرة خلافاتهم[2] فيما بينهم وتناحرهم وتشتت صفوفهم وكثرة الانقلابات الداخلية في الفرقة الواحدة وتطرف بعضهم أدى إلى وقوع اصطدامات عسكرية بين الفرق وأحياناً بين صفوف الفرقة الواحدة.

وكان الخلاف حول الوسائل التي يتبعونها لكي يصلوا إلى أهدافهم السياسية في الحكم، وكان الانقسام في الرأي سبباً في الخلاف الشديد بينهم، غير أن هذا الخلاف الفكري السياسي ما لبث أيضاً أن دفع بهم إلى خلاف عقائدي في صلب الدين فمزجوا بين (الدين والسياسة) كما فعلت بعد ذلك فرق الشيعة وغيرها وخلطوا بين الحكم والعقيدة. ورغم أن أكثرها ذاب وانتهى في غمرة أحداث الزمان، ولم يبق منها الآن إلا الاباضية التي ما تزال تتبع نفس أسلوبهم.

---

(1) يقول عيسى بن فاتك الخارجي بالاضافة إلى شاعرهم الكبير الطرماح بن حكيم الطائي وكان منتسباً إلى فرقة الازارقة:

أألفا مؤمن فيما زعمتُم ... ويهزمُهم بأسهك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتُم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا

اما الطرماح يكثر ذكر الشراة فيقول :

لله درّ «الشراة» إنهم ... اذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجعون الحنين آونة ... وإن علا ساعةً بينهم شهقوا

(2) مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب، ص130.

عقائد الخوارج:

1- كان من أولى عقائد الخوارج أنهم جوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وإن خالفهم في ذلك الشهرستاني الذي اشترط أن تعقد الإمامة في قريش بناء على حديث روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "الأئمة من قريش، ما بقي منهم اثنان"[1]، واعتقد أن رأي الخوارج حول الإمامة هو اقرب للمنطق من حيث أن يكون مؤمناً وعادلاً منصفاً وعالماً ولا يهم انتسابه لأي قبيلة، وهذا هو دافعهم أصلاً للخروج ضد علي بن أبي طالب وبني أمية وبني العباس وساعدهم على هذا الاعتقاد درجة معرفتهم وقراءتهم للقرآن وإقامتهم للشرائع، لأن القرآن لم ينص بنص واحد لا بشكل ظاهر ولا بشكل باطن يؤكد «إمامة قريش».

أما الحديث الذي روي عن الرسول عليه السلام فقد يكون حديثاً موضوعاً خاصة وأن كل فرقة ابتدعت الاحاديث التي تؤكد حقها في الحكم والسلطة وتدافع عن مبادئها. ولو افترضنا صدق الحديث فإن الرسول عليه السلام يتكلم أساساً عن الامامة وكان هذا المصطلح مصطلحاً دينياً بحتاً يخص الصلاة[2].

لقد أجاز الخوارج الخروج على الامام إذا غيّر السيرة وعدل عن الحق ووجب عزله وحتى قتله وهم أشد الناس قولاً بالقياس، ويرفضون وجود إمام أصلاً اذا كانت الأمور تسير بين الناس بالتفاهم والعدل والمساواة بعد تطبيق شرائع القرآن وكأنهم بذلك يدعون إلى قيام حكم «الجماهير بنفسها» دون وجود حاكم وهي نظرة سياسية متطورة أصبحت بعض البلدان المعاصرة تؤمن وتنادي بها ولو كان بشكل أكثر تطوراً.

بالإضافة إلى أنهم لا يرفضون وجوده كمُنظر وداعٍ وقائد إذ احتاجت اليه الامة ويجوز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشياً، أليس هذه الدعوة قمة الشورى والحرية السياسية؟ وأظن أننا نتفق معهم في هذا الرأي السياسي العميق والمتطور والسابق لزمانهم.

أما رأيهم الآخر فيتمثل في انهم قالوا أخطأ علي في التحكيم، إذ حكّم الرجال لاحكم إلا لله تعالى وقد كذبوا على علي رضي الله عنه. ويرد عليهم

---

(1) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص108.

(2) تناولنا هذا الموضوع في الفصل الاول «الصراع على السلطة».

الشهرستاني : فيقول في مسألة تحكيم الرجال، ليس ذلك صدقاً لانهم هم الذين حملوه على التحكيم[1]، والثاني إن تحكيم الرجال جائز فإن القوم هم الحاكمون في هذه المسألة وهم رجال ولذا قال علي بن أبي طالب «كلمة حق اريد بها باطل».

كان موقف الخوارج في مسألة التحكيم عنيفاً وعنيداً كما نوهنا ولهذا جاءت ثورتهم عنيفة وقوية كرد على هذه المسألة مما جعلهم ينقسمون إلى فرق مغالية ومتطرفة أخذت على عاتقها فرض آرائها ومبادئها بالقوة وعن طريق سفك الدماء والقتل الجماعي وتكفير باقي المسلمين.

وكانت هذه الفرق المغالية مصدر قلق وتوتر دائم للدولة الإسلامية خرجوا في البداية عن سيدنا علي بن أبي طالب وكانوا سبباً في اغتياله 40هـ/ 761م ثم خرجوا ضد الدولة الأموية (41-132هـ / 661 ـ750م) وهبّوا من جديد في خلافة بني العباس (132ـ232هـ/ 750ـ 847م) وكان من أشهر فرق الغلاة فرقة الازارقة وقد سبق الحديث عنها من الناحية السياسية والعسكرية، ولكن من الناحية الدينية، فقد صنّف الشهرستاني بدع الأزارقة إلى ثمانية[2]:

1- إنهم كفّروا علياً واستشهدوا بالآية الكريمة **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾**[3]. واعتبروا عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله الذي اغتال الخليفة علي بن أبي طالب (40هـ/ 761م) شهيداً ومدحوه في الشعر[4]، وقالوا فيه إن الله انزل في شأنه **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾**.

وهكذا نرى استغلالهم للقرآن وتفسيره على هواهم، وما يتفق مع آرائهم ومبادئهم رغم أن هذه الأيات لها اسباب نزول تختلف كلياً عن محاولتهم الملفقة في التحليل والتفسير.

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص109.
(2) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص113.
(3) القرآن الكريم : سورة البقرة، الآية 204:
(4) عمران بن حطان شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم قال :

يا ضربة من منيب ما أراد بها الا ... ليبلغ من ذي العرش رضوانا
اني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

والثانية: انهم زادوا على تكفير علي تكفير عثمان وطلحة، والزبير، وعائشة، وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم جميعاً «وكّفروا من لم يهاجر إليهم ورفضوا «التقية»[1] وقال الازارقة فيهم: «لايحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم وهم الكفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام والسيف».

والثالثة: إباحتهم قتل أطفال المخالفين لهم، وقتل النساء أيضاً.

والرابعة: رفضوا الرجم وأسقطوه على الزاني لأنه لم يرد في القرآن بنص، وإسقاطهم حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، وإقامة الحد على قاذف المحصنات من النساء.

الخامسة: حكمهم بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم[2].

السادسة: إن التقية غير جائزة في قول ولا عمل.

السابعة: يجوزون أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافراً قبل البعثة، والكبائر والصغائر سواء وهي كفر، وفي الأمة من جوز الكبائر والصغائر على الأنبياء عليهم السلام فهي كفر[3].

الثامنة: أجمعت الأزارقة على أن من ارتكب من الكبائر شيئاً كفر كُفر ملة، خرج به عن الإسلام جملة ويكون مخلداً في النار مع الكفار.

أما فرقة النجدات فقد قالوا: الدين أمران أولهما: معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم السلام، وتحريم دماء المسلمين أي الموافقين لهم في الرأي والإقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع، والجهل به لا يعذر فيه. الأمر الثاني: ما غير ذلك من بعد الإيمان ومعرفة الله ورسله فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام، واستحل نجدة بن عامر دماء أهل العهد والذمة وأموالهم في دار التقية وحكم بالبراءة ممن حرمها.

وقالوا: من استحل اجتهاده شيئاً محرماً فهو معذور ومن خاف العذاب على المجتهد المخطئ قبل قيام الحجة عليه فهو كافر[4] ومن كذب أو من نظر نظرة وأصر

---

(1) المبرد : الكامل ص169.
(2) المبرد : المصدر نفسه ص169.
(3) الشهرستاني : الملل والنحل ص115.
(4) البغدادي : المصدر نفسه ص67.

عليها فهو مشرك ومن زنا وشرب وسرق غير مصر على ذلك فهو غير مشرك.

هذه الفرق غيرت جميعها في عقائد الإسلام وحرفت القرآن بما يخدم أهدافها مثل الازارقة والنجدات المغالين في أفكارهم و أحكامهم الذين يعتقدون أن كل مخالفيهم كفار ومشركين[1]، واعتقد أن الازارقة لم يكونوا متطرفين فقط بل كانوا خطراً على الإسلام نفسه حيث توسعوا في عداوتهم لغيرهم من المسلمين، وكفّروهم جميعاً، وحرّموا على أنفسهم الصلاة مع غيرهم، واسقطوا الحدود ومنعوا ما أباحه الله و أباحوا ما حرمه الله ولا أعتقد أن هذه الأفعال التي ارتكبوها تجعلنا نصنفهم على أنهم أحد فرق المسلمين المغالية بقدر ما نستطيع أن نصفهم بأنهم حادوا عن الصواب، وخرجوا عن تعاليم الإسلام بشدة تطرفهم ومغالاتهم، ولهذا انتهت هذه الفرق لأن المسلمين جميعهم وقفوا ضدهم وحاربوهم بما فيهم فرق الخوراج المعتدلة والقريبة من الجماعة (السنة) مثل فرقة الصفرية والاباضية والتي لا تزال تعيش إلى يومنا هذا في بعض البلاد الإسلامية في عمان مثلاً، وزنجبار، وشمال إفريقية، ومسقط، وهم ينكرون علاقتهم بفكر الخوارج الغلاة[2] بل ربما أنكر بعضهم أية صلات لمذهبهم بمذهب الخوارج على الإطلاق.

فقد تطور مذهب الاباضية مثلاً مع تطور الحياة وأحداثها وأثرت في أفكارهم حتى اقتربوا من مذهب أهل السنة في الكثير من المقالات.

لم تنجح ثورات الخوارج بشكل عام في إقامة دولة مستقرة يستمر حكم الخوارج فيها طويلاً لكنها قد أصابت الدولة الاموية وأنهكت قواها، حتى انهارت انهيارها السريع تحت ضربات ثورة العباسيين في132هـ/ 750م رغم أن الخوارج استمروا قرابة القرن يحاربون بني أمية، والعباسيون هم الذين قطفوا ثمرة ما زَرَعهُ الثوار.

ولما انتصر الأمويون على الخوارج بقيادة قائدهم المهلب بن أبي صفرة فإن هذا الأخير لم يستطع أن يهزم الخوارج إلا بعد أن أخذ الأرض وخراجها إقطاعا له ولجنده

---

(1) بدأت تظهر هذه الحركات وتحت تسميات معاصرة في نهاية القرن العشرين في مصر، والجزائر والبحرين وهذه الحركات تحمل تسميات دينية أيضاً وتستخدم العنف والارهاب وسيلة لتحقيق مآربها.

(2) علي يحيى معمر : الاباضية بين الفرق الإسلامية، ص454.

للمحاربة بل واستعان المهلب في قتاله للخوارج بالاتجار في تمويل حملاته الحربية[1] كما استعان في حربه بالأحاديث الكاذبة، كان يضعها ضدهم وينسبها إلى رسول الله لكي يضعف أمر الخوارج ويفقدهم مصداقيتهم عند الناس[2].

وبهذه الإمكانيات والأسلحة رجحت كفة المهلب بن أبي صفرة على كفة الخوارج وهي نفس الطريقة التي اتبعها العباسيون أيضاً في حربهم ضد الخوارج، إلا أن فلسفتهم السياسية ونظريتهم في الإمامة والخلافة، ظلت تثير الجدل الذي أصبح وقوداً يذكي نار الصراع على السلطة بين الفرق المعارضة وبين الأمويين ومن بعدهم بني العباس.

---

(1) محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، ص19.

(2) محمود إسماعيل : المرجع نفسه، ص20.

المبحث الثالث

فرقة المرجئة

يقول الشهرستاني في تعريفه للمرجئة : (الإرجاء على معنيين أحدهما : التأخير، قالوا: ﴿ أرجه وأخاه﴾ أي أمهله وأخّره، والثاني : إعطاء الرجاء، أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول وهو صحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد، وأما المعنى الثاني فظاهر، لأنهم كانوا يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة)[1] وبمعنى آخر فك الارتباط ما بين العمل والإيمان.

بينما نجدهم في معجم الفرق : اسم فاعل من الإرجاء وله معنيان :

1- التأخير كما في قوله تعالى: ﴿أرجه وأخاه﴾[2] أي أخره وأمهله.

2- إعطاء الرجاء ويقال : أرجيت فلاناً، أي أعطيته الرجاء[3].

نشأت هذه الفرقة في أوضاع سياسية سيئة كانت تسود الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، وبداية الحكم الأموي (60هـ / 680م) الذي كان له أثر كبير في نشأة الخوارج والشيعة اللذين كانا في أول أمرهما حزبين سياسيين تصارعا من أجل السلطة (الخلافة والإمامة).

وهذه الأحداث هي نفسها التي أدت إلى ظهور حزب سياسي نستطيع أن نطلق عليه صفة محايد هو (المرجئة) والفرق بين هذه الفرقة وفرقتي الشيعة

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص137.
(2) القرآن الكريم : سورة الأعراف، الآية 111.
(3) إسماعيل العربي : معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ص 132.

والخوارج هو أنهما سعيا بكل الوسائل والطرق من أجل الوصول إلى السلطة واستغلوا الدين في ذلك، بينما المرجئة كانوا محايدين سياسياً رغم استغلال بني أمية لآرائهم في فكرة الإرجاء سياسياً وأرجؤوا الحكم لله وكان موقفهم سلبياً تجاه ما يجري من أحداث.

اختلف المؤرخون في نشأة المرجئة، فبينما يرى النوبختي : أن هذه الفرقة ظهرت بعد قتل علي ويقول: (لما قتل علي ﷺ التقت الفرقة التي كانت معه، والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن أبي سفيان إلا القليل منهم شيعته ومن قال بإمامته بعد النبي ﷺ وهم السواد الأعظم وأهل الحشود وأتباع الملوك وأعوان كل من غلب أعني الذين التقوا مع معاوية فسموا جميعاً (المرجئة)[1]).

بينما يرى مؤرخ معاصر: إن البذور الأولى التي نبتت فيها هذه الفرقة كانت في عصر الصحابة في آخر عصر عثمان 23هـ / 644م خاصة بعد أن شاع الكلام عن عثمان وحكمه وعمت الفوضى السياسية الدولة، وظهرت الفتن التي أدت إلى قتله 35هـ / 655م وفي أثناء ذلك اعتصمت طائفة من الصحابة بالصمت وامتنعت عن الاشتراك في الأحداث التي عصفت بالمدينة المنورة والتي أدت إلى قتل الخليفة ثم لما امتدت هذه الفوضى إلى عهد علي بن أبي طالب 35هـ / 655م، استمروا على امتناعهم وامتنعوا عن المشاركة أو إبداء الرأي فيما يحدث ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، وأبو بكر راوي الحديث وعبد الله بن عمر، وعمران بن الحصين، وبهذا أرجئوا الحكم في أي الطائفتين أحق، وفوضوا أمورهم إلى الله[2].

بينما يرى إبراهيم حركات: أن المرجئة أصحاب مذهب سياسي عقائدي كالمذهب الشيعي[3] ويرى أبو حاتم الرازي أن الإرجاء لقب لكل من فضل أبا بكر وعمر وعلي بن أبي طالب ﷺ جميعاً وأن فرقة المرجئة نشأت بعد قضية التحكيم التي أفرزت كلاً من الشيعة والخوارج والمرجئة[4].

---

(1) النوبختي : فرق الشيعة ؛ أحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية.

(2) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص113.

(3) إبراهيم حركات : السياسة والمجتمع في العصر الأموي، ص 298.

(4) الرازي : الزينة، نشر القسم الثالث من كتاب الزينة ضمن الغلو والفرق المغالية د/ عبد الله سلوم، بغداد، ص249 نقلاً عن إبراهيم حركات.

ويرجح من خلال الدراسة المصدرية أن نشأة فرقة المرجئة كانت بعد الانشقاق الذي حدث في صفوف المسلمين، فقد قام الخوارج وراحوا يكفّرون علياً وعثمان، والقائلين بالتحكيم، كذلك كان من الشيعة من كفّر أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم وكلاهما يكفّر الأمويين، ثم جاء الزبيريون وراحت كل فئة تكفر الأخرى، وكلاً يدّعي أنه على حق ويستند على أحاديث تنسب إلى الرسول عليه السلام لتدعيم هذا الحق مما أصاب بعض المسلمين بخيبة أمل عنيفة، وكأنما صارت أفكارهم في الموقف الذي سوف يتخذونه يكون مع جانب ضد الآخر على الصعيد السياسي ففضلوا الحياد وأثرت هذه الفئة موقفاً وسطاً وأرجأت الحكم على الفرقاء المتخاصمين إلى الله حيث يقول النوبختي: (توالوا المختلفين جميعاً وزعموا أن أهل القبلة كلهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان ورجوا لهم جميعاً المغفرة)[1].

وهكذا كان الموقف السياسي للمرجئة موقفاً حيادياً متسامحاً ونستطيع أن نعتبره موقفاً سلبياً من الأحداث السياسية التي كانت تجري على الساحة والمحتمل أن السبب في هذا الموقف هو خوفهم من السلطة الحاكمة ومن قمعها. ويقال أيضاً : إن الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) أول من قال بالإرجاء وكتب بذلك كتباً كانت تقرأ بالنيابة عنه في شتى الأقطار.

ورغم أن المرجئة في موقفهم هذا استندوا على حديث الرسول ﷺ :

(ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به)[2] وهذه النزعة المتسامحة هي الأساس التي بني عليه مذهب الأرجاء وهي عدم الدخول في الحروب التي بين أبناء الامة الواحدة (أمة الإسلام).

بينما اعتبر المستشرق جولد تسيهر أنّ فريقاً كبيراً من المسلمين الورعين قد اكتفى بالاستسلام، وهذا الفريق كان يسند النظرية (أن كل شيء متوقف على الإيمان) فاذا كان الايمان قائماً لم يضر العمل، وإذا كان المرء غير مؤمن لم ينفعهُ العمل "[3].

---

(1) النوبختي : فرق الشيعة، ص6.

(2) صحيح البخاري، ج9، ص64.

(3) جولد تسيهر (Cold ziher): العقيدة والشريعة في الإسلام، ص75.

بينما أسماهم ابن عساكر في تاريخه «الشكاك» أي الذين يشكون في وجه الحق في هذا الخلاف ويقول إنهم الشكاك الذين شكوا، وكانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان، وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان وجدوا الناس وهم متفرقين وأمرهم مختلف فيما بينهم، فقالوا : تركناكم وأمركم واحد وليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً، وكان أولى بالعدل هو وأصحابه، وبعضكم يقول علي أولى بالحق وأصحابه كلهم ثقة، وعندنا مصدق، ومن هنا أعلنوا عدم تبرؤهم من أصحابه ولا لعنهم ولا تحيّزهم لاحد على حساب الأخر، وقالوا: "نرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون هو الحكم بينهما"[1].

ونتيجة للصلة الوثيقة بين نشأة «المرجئة» والعوامل السياسية التي أدت إلى قيامها كان أهم ما بحث فيه المرجئة من آراء وتعاليم تحديداً للايمان والكفر والمؤمن والكافر فكثير من المرجئة كانوا يرون أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له والإقرار والمعرفة برسله والمحبة له بالقلب والاقرار به.

وقد أخروا العمل عن الايمان[2] وفي هذا هم يخالفون الخوارج الذين جعلوا الاعمال جزءاً من الإيمان، والمرجئة تخالف الخوارج في مرتكب الكبيرة (فقد جعلوا مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة العارفين بالله وبرسله المقرين به وبرسله مؤمنين بما معهم من الإيمان فاسقين بما معهم من الفسق)[3] بينما الخوارج رأت أن مرتكب الكبيرة كافر، وقد غلا بعض المرجئة في تحديد الإيمان وزعموا أن الإيمان يكون بالقلب دون غيره من الجوارح، وزعموا أن الصلاة ليست بعبادة الله وأنه لا عبادة إلا الإيمان[4].

كذلك رد المرجئة على غلاة الشيعة الذين عدّوا الإمامة ركناً أساسياً من أركان الدين بينما قالت المرجئة «إن الإمامة يستحقها كل من قام بها إذا كان عالماً بالكتاب والسنة وإنه لا تثبت الإمامة إلا بإجماع الأمة كلها[5]. ومن المبادئ التي يؤمن بها

---

(1) ابن عساكر: التاريخ، ص50.
(2) الاشعري : مقالات الإسلاميين ج1، ص215-217.
(3) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص190.
(4) الاشعري :مقالات الإسلاميين، ج1، ص219.
(5) الاشعري : نفس المصدر، ج1، ص44 وهذا رأي فرقة الجهمية.

المرجئة عدم تكفير أحد من المتأولين وهم لا يكفّرون إلا من أجمعت الأمة على تكفيره»[1].

ولهذا فحكمهم السياسي على كل من الامويين والشيعة والخوارج ليس الكفر بل ترك أمرهم جميعاً لله، وكانوا دائماً يقفون إلى جانب المضطهدين من المسلمين غير العرب في الدولة الاموية خاصة بعد حدوث الصراع الاجتماعي بين العرب والوافدين الجدد في الإسلام، فذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل لسلطة الخلافة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لايزالون على دينهم السابق «الكفر» بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم[2].

وكان موقف الدولة الأموية مع المرجئة مختلف عن موقفهم من الشيعة والخوارج ولهذا لم يتعرض المرجئة للاضطهاد من قبل الامويين بل كانوا يستعملونهم في الوظائف كما فعل يزيد ين المهلب بن أبي صفرة بثابت قطنة وهو شاعر المرجئة فقد ولاه أعمالاً من اعمال الثغور[3].

بل استغل الامويون تعاليم المرجئة في فرض سلطانهم على المسلمين على اعتبار أن الحساب مرجأ إلى الآخرة بمعنى الرضوخ والتسليم لسلطة الخلافة كما فرضه أولو الأمر بغض النظر عن شرعيتها من عدمها على أن تترك امور الثواب والعقاب ومصداقية الشرعية إلى يوم الحساب.

وكان اختلاف المرجئة في تحديد مفهوم الإيمان سبباً في تحولهم إلى فرق متعددة، فقد عدّهم الشهرستاني أربع فرق هي : مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة[4].

والنوبختي يعدها أربع فرق فيدعوها «الجهمية، الغيلانية، الماصرية، والحشوية»[5] بينما عدّها الاشعري اثنتا عشر فرقة وهي الجهمية و الشمرية و

---

(1) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ص225.

(2) فان فولتن (Van volten): السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص65.

(3) أبو الفرج الأصفهاني : الاغاني، مجلد 13، ص90.

(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ص136.

(5) النوبختي : فرق الشيعة، ص2-7 فالجهمية مرجئة أهل خراسان، والماصرية مرجئة اهل العراق، والغيلانية مرجئة اهل الشام.

الحنفية والثوبانية و النجارية والغيلانية و الشبيبية و الحنفية و الصالحية، واليونسية، والمريسية، والكرامية[1].

أما البغدادي (فيعدها ثلاث أصناف: صنف منهم قالوا بالارجاء بالايمان وبالخير في الأعمال على مذهب جهم بن صفوان فهم من جملة الجهمية، وصنف منهم قالوا بالإرجاء في الإيمان وما يقدر على مذاهب القدرية والمعتزلة، والصنف الثالث خارجون عن الخير والقدرية)[2]. أما ابن حزم: فقسّم غلاة المرجئة طائفتين: إحداهما الطائفة القائلة بأن الايمان قول اللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله، وطائفة اخرى قائلة إن الايمان عقد بالقلب وإن اعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله ومن أهل الجنة[3].

وقد تفرع عن هذا الاعتقاد المتمثل في تحديد ماهية الإيمان، عدة مسائل: منها مثلاً: هل يزيد الإيمان وينقص؟ وذهب اكثر المرجئة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق غير مقول بالتشكيك والإقرار باللسان إما أن يكون أو لايكون[4].

كما اختلفوا في مسألة المعاصي هل هي من الكبائر أم لا، وانقسم المرجئة إلى فرقتين: فرقة تقول إنها من الكبائر، وقالت الفرقة الاخرى إن بعضها من الكبائر، والبعض الآخر من الصغائر.

واختلفت المرجئة في فجار أهل القبلة، واختلفت في ماهية الكفر، كما اختلفت في مسألة تخليد الكفار في النار، كما اختلفوا في ماهية البارئ، وفي القدر وفي أسماء الله وصفاته وأخيراً في مسألة خلق القرآن.

وفي خضم تلك الاقوال وتضاربها وجد من المتّبعين لهذا المذهب من يستهين بحقائق الايمان وأعمال الطاعات، ومن يستهين بالفضائل ووجدوا فيه فرصة للاستهانة وللفساد واتخذوا من الإرجاء ذريعة لمآثمهم ومنهلاً لمفاسدهم ولنياتهم

---

(1) الأشعري: المصدر نفسه، ج1، ص214.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص190.

(3) ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء، ص 204 فصل شنع المرجئة.

(4) إسماعيل العربي: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ص334 (منشورات دار الآفاق الجديدة / المغرب).

الخبيثة، وانقسم المرجئة إلى طائفتين إحداهما: متوقفة في الحكم على الخلاف الذي وقع بين الصحابة، والخلاف الذي وقع بعده في العصر الاموي.

وأخرى: فهي ترى أن عفو الله يسع كل شيء وتحكم بأن الله يعفو عن كل الخطايا ما عدا الكفر. وقد قال في هذا القبيل زيد بن علي بن الحسن «أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله تعالى»[1].

وقد استغل المعتزلة آراء المرجئة الذين يخالفونهم الرأي في أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وكل من يخالفهم في هذا الرأي أطلقوا اسم المرجئة عليه، وكأنها تهمة تلتصق بكل من يخالف المعتزلة في آرائهم.

وهذا يؤكد تضارب المعتقدات بين هذه الفرق المغالية والمتطرفة في آرائها إلى درجة أن المعتزلة أطلقوا اسم المرجئة على أبي حنيفة وتلاميذه ابي يوسف ومحمد وغيرهم.

وقد قال الشهرستاني: «ومن العجب أن غساناً كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه ويعدهُ من المرجئة، ولعله كذب، ولعمري كان يقال لأبي حنيفة وأصحابه مرجئة السنة ولعل السبب منه أنه كان يقول الإيمان هو التصديق بالقلب، وهو لايزيد ولا ينقص، ظنوا به أنه يؤخر العمل عن الإيمان وله سبب آخر وهو أنه كان يخالف القدرية، والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول. والمعتزلة كانوا يلقبون كل من يخالفهم في القدر مرجئاً، وكذلك الوعيدية من الخوارج ولهذا فاللقب لزمه من فريقي المعتزلة والخوارج[2]».

لقد قسّم بعض العلماء المرجئة إلى قسمين: مرجئة السنة وهم الذين قرروا أن مرتكب الذنب يعذب بمقدار ما أذنب ولا يخلد في النار، وقد يعفو الله عنه ويتغمدهُ برحمته، فلا يعذب أصلاً وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وفي هذا القسم يدخل أكثر الفقهاء والمحدثين، والقسم الثاني مرجئة البدعة وهؤلاء هم الذين اختصوا باسم الارجاء عند الاكثرية وهم الذين يستحقون مقالة السوء من الجميع[3].

---

(1) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص116.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل، ص 139: غسان هو غسان الكوفي المرجئ وصاحب فرقة الغسانية.

(3) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص117.

إن هذا الأمر فيه الكثير من اللبس والخلط وهو بعيد عن الصواب فلا أعتقد أن الفقهاء والأئمة من أهل السنة يمكن أن يوصفوا ضمن فرقة الإرجاء هذه الفرقة التي ضمت عدداً كبيراً من الإباحيين والمفسدين فهم أجلّ من ذلك، ومقولة أهل السنة في مرتكب الكبيرة هي أساساً مأخوذة من النص القرآني: **﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾**[1].

إذ ليس معقولاً أن يكون أبوحنيفة ضمن الفرقة التاسعة من المرجئة كما قال الاشعري:

«فأما غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة فإنهم يحكون عن أسلافهم أن الايمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له»[2] وهذا القول يرفضه الشهرستاني ولا يعتبر أبا حنيفة من ضمن فرقة المرجئة كما أوضحنا خاصة وأن الأشعري[3] 260 ـ 324هـ / 874 ـ 936م يقسم فرق المرجئة إلى اثنتي عشرة فرقة، وهي:

1- الجهمية: اتباع الجهم بن صفوان المتوفى سنة 128هـ / 745م.

2- الصالحية: اتباع ابي الحسين الصالحي.

3- اليونسية: اتباع يونس النميري.

4- الشمرية: اتباع أبي شمر ويونس.

5- الثوبانية: اتباع أبي ثوبان.

6-النجارية: اتباع الحسين ين محمد النجار.

7- الغيلانية: اتباع غيلان بن خرشة الغبي.

8- الشبيبية: اتباع محمد بن شبيب.

9- الحنفية: اتباع أبي حنيفة النعمان.

10-المعذية الثومنية: اتباع أبي معاذ الثومني.

11- المريسية: اتباع بشر المريسي.

12-الكرامية: اتباع محمد بن كرام السجستاني.

---

(1) القرآن الكريم: سورة الزلزلة الآية 7،8.

(2) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص221.

(3) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص221.

وجميعهم لا يتفقون في معنى الإيمان أو الطريقة التي يتبعونها لتعريفه هل هو تصديق باللسان دون القلب وكل المرجئة يقولون : إنه ليس في أحد من الكفار إيمان بالله ﷻ[1] .

عرف المجتمع الإسلامي تيار الإرجاء مع بداية بني أمية وقيام دولتهم على أسس سياسة الاضطهاد والعنف مما جعل الحياة الفكرية تشرع في البحث عن دلالة ماهية المؤمن والعمل والإيمان بسبب عجزهم عن تفسير مواقف بعض خلفائهم وولاتهم ووصفهم بالكفر ورأو أن يتم إرجاء الحكم على العقائد إلى الله سبحانه يوم القيامة وهكذا هي المرجئة عند الأشعري ويختلف معه في التعداد مؤرخو الفرق فهم تسعة عند البغدادي[2]، بينما هم أربعة أصناف عند الشهرستاني[3] وعددهم الخوارزمي ست فرق بينما جعلهم ابن حزم فرقتين[4].

وهذا الاختلاف سببه أن الاختلاف في رأي أو مسألة يؤدي بزعيم الفرقة إلى الانفصال عن فرقته الأم بمسألته ورأيه، فيصنف على أساس أنه زعيم فرقة أو تيار خاصة بعد أن أهملت الأصول السياسية والدوافع الاجتماعية التي كانت سبباً في هذه الفرقة ونشأتها وانحصرت الرؤية ووقف البحث عند مقالات هذه الفرق بإعتبارها جدلاً دينياً لاعلاقة له بالواقع السياسي والاجتماعي الذي عاش فيه أصحاب المقالات، وقد تأكد لدينا صعوبة دراسة هذه الفرق على أساس جدلي ديني بحت دون النظر إلى هذا الجدل على أساس أنه سياسي اجتماعي اقتصادي تم توظيف الدين فيه لخدمة أغراضهم وأهدافهم التي انطلقوا أساساً من أجلها وهو الصراع على السلطة.

إن البغدادي يلعن كل فرق المرجئة، ويقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً، قيل من المرجئة يا رسول الله ؟ قال الذين يقولون الإيمان كلام)[5] وكل الفرق التي تم ذكرها تكفر بعضها

---

(1) الأشعري : المصدر نفسه، ص222.
(2) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 140.
(3) الشهرستاني :الملل والنحل، ص 139.
(4) الخوارزمي:مفاتيح العلوم ؛ ابن حزم :الفصل في الملل والأهواء، ص 204.
(5) البغدادي : المصدر نفسه، ص 190.

بعضاً كما تكفر سائر الفرق بعضها بشكل عام. أما الشهرستاني: فيقسمها إلى أربعة أصناف : مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة: ونحن سنعدد معه المرجئة الخالصة :

1- اليونسية (يونس النميري) قالوا: الإيمان المعرفة بالله والخضوع له والمحبة بالقلب ولا يضر معها ترك الطاعات، ورغم أن إبليس كان عارفاً بالله، وإنما كفر بإستكباره.

2- العبيدية: (أصحاب عبيد المكذّب) زادوا أن علم الله لم يزل شيئاً غيره، وإنه تعالى : (على صورة الإنسان).

3- الغسانية: أصحاب غسان الكوفي قالوا الإيمان المعرفة بالله ورسوله وبما جاء من عندهما إجمالاً، والإيمان يزيد ولا ينقص وقال: إن الله فرض الحج إلى الكعبة غير أني لا أدري أين الكعبة ولعلها بغير مكة، وبعث محمداً ولا أدري أهو الذي بالمدينة أم غيره، ويدّعي غسان أن أبا حنيفة من نفس مذهبه وتياره[1].

4- الثوبانية: أصحاب ثوبان المرجئ قالوا : الإيمان هو المعرفة والإقرار بالله وبرسله وبكل ما لايجوز في العقل أن يفعله واتفقوا على أنه تعالى لو عفا عن خاص لعفا عن كل ما هو مثله، وقد اختص غيلان بالقدر والخروج من حيث إنه قال يجوز أن لا يكون الإمام قرشياً (وهذا مثل قول الخوارج).

5- الثومنية: أصحاب أبي معاذ الثومني قالوا : الإيمان هو المعرفة والتصديق والمحبة والإخلاص والإقرار، وترك كله أو بعضه كفر وكل معصية مهما صغرت أو كبرت ولم يجتمع عليها المسلمون هي كفر، ولا يقال لصاحبها فاسق، ولكن يقال فسق وعصى ويقول : من ترك الصلاة والصيام مستحلا كفر، وإن تركها على نية القضاء لم يكفر، ومن قتل نبياً أو لطمه كفر، لأنها دليل على البغض والعداوة وبه قال ابن الراوندي، وبشر المريسي وقالا : السجود للصنم علامة الكفر وهذه هي المرجئة الخالصة، ومنهم من جمع إليه القدر كالصالحي وأبي شمر ومحمد بن شبيب وغيلان.

---

(1) تناولنا هذا الموضوع فيما سبق.

ثورات فرق المرجئة في صراعها مع السلطة الحاكمة :

نشأت فرق المرجئة بوصفها تياراً فكرياً نشأت في عهد بني أمية، وإن الفكرة المحورية التي تبلور من حولها هذا التيار كانت الفصل أو التمييز بين «الإيمان» وبين «العمل» فصحة الإيمان عندهم لا يتأثر عندهم بعمل المؤمن - فالإيمان هو التصديق بالقلب ولا تضر معه معصية كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة، وهذا التيار جاء ليناقض فكر الخوارج من الحكم بكفر مرتكبي الكبائر.

وقد استغل بنو أمية فكرة (الإرجاء) في تبرير المظالم التي كانوا يقيمون بها من خلال سياسة أمراء الجور وولاة الفساد.

إن كل الدراسات التي عرضت لقضية المرجئة والإرجاء لم تتعرض إلى جوانبه السياسية والاقتصادية واكتفت بالخوض في جانبه الفكري الذي برر مظالم بني أمية، فوظفوا فكرة الفصل بين الإيمان والعمل في خدمة الحكام، كان هناك مرجئة ثوار اتخذوا من الإرجاء وأصوله الفكرية أسلحة يدافعون بها عن العامة، وبالذات عن الذين انخرطوا في سلك الدين الجديد من أبناء البلاد المفتوحة شرقي العراق. خاصة أن قضية الجزية أثارت المشاكل بين أبناء البلاد المفتوحة التي أسلم أهلها حيث استمر الأمويون يجمعون الجزية مما سبب الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية وساهم مساهمة كبيرة في نشوء الفرق المغالية والمتطرفة بسبب إحساسهم بالاضطهاد والجور مما دفع بالخليفة عمر بن عبد العزيز[1] (61-101هـ / 681-720م) إلى إيقاف الجور حيث أعلن مقولته المشهورة: (بأن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً) وساد نوع من الهدوء والاستقرار وخمدت الفرق في عهده، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلاً فبعد وفاة عمر بن عبدالعزيز اشتكى الولاة وجباة الأموال من قلة الأموال التي ترد إلى خزائن الدولة وسبب إرباكاً في اقتصاد الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت رقعتها وشملت العديد من الشعوب، وقد زعم الأمويون أن الناس قد دخلت في دين الله أفواجاً هرباً من الجزية، مما أثار الشكوك حول صدق عقائد هؤلاء المسلمين الجدد.

---

(1) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ص 302.

وبسبب هذه المزاعم التي بررت السلطة الحاكمة تصرفها الذي أدى إلى انفجار الثورات ضد حكم بني أمية، ففي إقليم «السند» خرج سبعة آلاف من الذين أسلموا حديثاً وعسكروا على سبعة فراسخ من (سمرقند) وانضم إليهم كوكبة من (القراء والفقهاء) الذين رأوا ضرورة الاعتراف بإسلام هؤلاء الذين شهدوا (أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) ورفضوا التشكيك في صدق إيمان هؤلاء المسلمين الجدد ورفضوا أي مواصفات أو شروط تربط صحة الإيمان بصحة الأعمال[1]، وقالوا إرجاء الحكم من صدق عقيدتهم إلى الله سبحانه وتعالى يوم الحساب، وكان من بين (القراء والفقهاء) الذين شاركوا في هذه الثورة : (أبو الصيداء صالح بن طريف وربيع بن عمران التميمي، والقاسم الشيباني)[2].

ولقد قامت للمرجئة ثورة ثانية في بخارى، احتموا أثناءها بالمسجد الجامع يصيحون بأعلى أصواتهم (أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) ولكن الولاة انتقموا منهم وشنقوا منهم أربعمائة[3].

وفي البصرة تكررت الثورة واشتعلت من جديد عندما أمر الولاة بإجلاء الموالي عنها، فخرجوا وعسكروا في العراء يبكون ويناودن : يا محمداه ! يا محمداه ! وخرج إلى معسكرهم قراء البصرة يبكون معهم وينتصرون لهم[4].

وهذا دليل أن الناس جميعهم كانوا يتعرضون للظلم والاضطهاد وأن كل ما يحدث إنما هو رد فعل تجاه ظلم الولاة وطغيانهم، وتؤكد هذه الأحداث على تلاحم المسلمين بعضهم مع بعض عرب وموالي دون تفرقة وتعاطف المسلمين العرب مع إخوانهم في الإسلام ووقوفهم ضد الولاة القساة الظالمين وهذا ينفي التهمة العصبية التي اتهم بها الشعوبيون العرب المسلمين.

وقد كان من نتائج هذه الثورات الفاشلة التي أشعلها المرجئة هو خروج الحارث بن سريح زعيم قبيلة الأزد في عهد هشام بن عبد الملك (105-125هـ/

---

(1) الطبري : تاريخ الطبري ج8، ص 35، ص 196-197؛ . فان فلوتن :السيادة العربيه والإسرائيليات، ص53، 55.

(2) محمد عمارة: موسوعة الحضارة الإسلامية، ص 493.

(3) البلاذري : الكامل ج4، ص158.

(4) محمد عمارة: موسوعة الحضارة الإسلامية، ص493.

724-743م) ومعه جهم بن صفوان وهو من أبرز مفكري الجبر والإرجاء في الفكر الإسلامي[1]، انتشرت هذه الثورة في مواطن الترك الذين دخلوا الإسلام، ورفض الخلفاء الأمويون الاعتراف بأنهم مؤمنون، وقد كانت من مطالب هذه الثورة أن تعود (الشورى) فلسفةً لنظام الخلافة، وأن يعزل الولاة، وقادة الشرطة، وأن يشترك الناس في اختيار الولاة الذين يحكمون الأقاليم[2] وكان الشعر إحدى وسائلهم المهمة في التعبير عن مبادئهم وقواعدهم في الإرجاء وممثلاً لتيارات الإرجاء حيث يقولون:

نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا

وهذا يدل على هويتهم في أنهم ثوار معارضون للظلم منكرون على الظالمين، كما كان لهم موقف واضح وصريح في مسألة الصراع السياسي الذي حدث أيام عثمان بن عفان (23-35هـ/ 644-655م) وعلي بن أبي طالب (35-40هـ/ 655-661م) وهذا الموقف يختلف كثيراً عن موقف الخوارج والشيعة، وبني أمية حيث يقول شاعرهم :[3]

أما علي وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا

وهم يؤكدون هنا إن ما حدث بينهما هو بإرادة الله وهو موقف المجبرة وفكرها، ونحن نلاحظ إن فكر المرجئة نشأ نشأة سياسية وفي ظل صراعات سياسية واجتماعية ووظف هذا الفكر في نصرة فريق ضد فريق، فبعضهم استخدمه للدفاع عن الدولة والحكام والبعض الآخر استخدمه في الدفاع عن العدل ضد الدولة.

وكان الاختلاف قوياً بين فرق المرجئة حول تعريف الإيمان مما أدى إلى صراعات وخلافات قوية أسهمت في بروز فروق فكرية بين العديد من علماء المرجئة رغم إن فكر الإرجاء في حقيقته هو واحد فالاختلاف فقط في الجزئيات

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج8، ص 196-197.
(2) محمد عمارة : المصدر نفسه، ص694.
(3) شعر ثابت قطنة نقلاً عن محمد عمارة : موسوعة الحضارة الإسلامية، ج2، ص577.

داخل الإطار الواحد والأعم والأشمل لفكر المرجئة، خاصة وأن فكر الإرجاء نشأ بدافع سياسي حول ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل والأفضلية، وقد رفع هذا الشعار أيضاً المعتزلة كما قال به أيضاً من الخوارج كثيرون، أما الشيعة وخاصة الغلاة من فرقها وتياراتها فقد فضلت علي بن أبي طالب على الصحابة أجمعين.

ومهما كان الحال فمما لا شك فيه أن المرجئة قد ظهروا في أواسط العصر الأموي وساعدهم الحكام الأمويون على إشاعة هذه الفكرة (فكرة الإرجاء) وانتشارها، لأنها تثبت إيمانهم، وهم في أمس الحاجة إلى هذه الصفة، حيث كان الخوارج ينادون بكفر الأمويين وجميع الصحابة، والمعتزلة يرون أن الإسلام عقيدة وعمل بالفرائض وبكل ما جاء به الإسلام ممن لم يعمل يستحق الخلود في جهنم، ولو كان معتقداً بكل أركان الإسلام.

أما عند المرجئة فهم مؤمنون لم يخرجوا عن الإيمان بالرغم من إسرافهم في المنكرات والمعاصي، بل ذهب بعضهم إلى أن الإيمان لا يعتبر فيه أكثر من الاعتقاد بالله ورسوله، وإن أعلن الكفر بلسانه[1].

ويبدو أن هذه الأفكار فرضتها الظروف السياسية، فالخوف من السلطة الحاكمة دفعهم إلى مهادنتهم عن طريق هذه الأفكار، ولهذا السبب لم يتعرضوا للتعذيب والتنكيل من بني أمية وبني العباس، كما حدث للخوارج أو الشيعة خاصة وأن هذه الأفكار تعطي للسلطة الحاكمة شرعية حكمهم وتسلطهم على رقاب المسلمين مهما أسرفوا في المعاصي و استهتروا بتعاليم الإسلام.

ورغم أن الأسفراييني يقول إن أول من سمى أهل السنة والجماعة بالمرجئة هو نافع بن الأزرق الخارجي أحد زعماء الخوارج في العصر الأموي إلا أن الإرجاء الذي شاع في العصرين الأموي والعباسي، وأصبح مذهباً لفريق من الناس في مقابل غيرهم من أصحاب المذاهب، وهم لا يحكمون على العصاة بأي حكم ويدعي بعضهم أنهم مخلدون في الجنة لأنهم مؤمنون[2].

ولهذا فقد اعتبرتهم فرقة الإماميين الشيعية فسّاقاً مُعذبين بذنوبهم حيث قال فيهم الإمام علي بن موسى الرضا إن النبي ﷺ قال :(صنفان من أمتي ليس لهم

---

(1) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل، ج4، ص 204؛ أحمد أمين : فجر الإسلام، ص271.

(2) الأسفراييني : التبصير في الدين، ص 691؛ ومقالات الإسلاميين، ص205.

في الآخرة نصيب المرجئة والقدرية)، وجاء عن زيد بن علي بن الحسين ﷺ إنه قال : لعن الله المرجئة لأنهم أطمعوا الفساد في عفو الله[1]. لقد بدا واضحاً أن الانقسام السياسي والخلاف السياسي خلافٌ في الدين. وبدأ الانقسام بسبب الحكم السياسي وكأنه انقسام في الدين نفسه، وحلت مصطلحات : (الكفر والإيمان) محل مصطلحات (الخطأ والصواب) وظهرت تيارات فكرية تعارض الفكر الشيعي أولاً وفكر الخوارج ثانياً ثم فكر المرجئة ثالثا وكان ظهور المعتزلة كفرقة عقلية فلسفية استخدمها الحكام في البداية للرد على أعدائهم من الفرق الإسلامية المناهضة لهم والرد على كتب وفرق الشعوبيين والزنادقة من ناحية أخرى. خاصة بعد أن أشاعت الدولة الأموية (41هـ-661م / 60هـ-671م) وأظهرت في الحياة الفكرية بمجتمعها عقيدتي (الجبر) و(الإرجاء) لتبرر بالأولى مظالمها من خلال التحول السياسي الذي أحدثته من خلافة شورى إلى (ملك وراثي) وتحاول أن تفلت بالثانية من إدانة المعارضين لها في حكمها.

وهكذا جاء فكر المعتزلة كرد قوي وعنيف على الفكر السائد في الدولة الأموية والمتمثل في فكر المرجئة والدخول في جدل فلسفي مع فكر الخوارج والشيعة في عدة قضايا عقائدية تمس جوهر الدين كما سنرى[2].

---

(1) هاشم المعروف الحسني : الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ص 107.

(2) أنظر المبحث الرابع : فرق المعتزلة، ص 231.

المبحث الرابع

فرق المعتزلة

معظم كتب التاريخ[1] لم تحدد لنا على وجه الدقّة السنة التي ظهر فيها التيار المعتزلي، والشهرستاني ربط ظهورهم باسم واصل بن عطاء[2]، وبالحادثة المشهورة التي وقعت بينه وبين أستاذه (الحسن البصري) في مسجد الكوفة حين اختلف معه حول حكم مرتكب الكبيرة ثم اعتزل[3] واصل مجلس أستاذه وقيل أيضاً[4] إن مدرسة المعتزلة قد بدأت بمواطنين من البصرة هما واصل بن عطاء، وعمرو بن عَبيد، وكانت فترة نشاطهما أثناء خلافة هشام وخلفائه الأمويين سنة 105هـ / 724م.

والمقريزي يحدد ظهور المعتزلة بعد المائة الأولى من سني الهجرة[5]، بينما يرى هاملتون: إن حركة الاعتزال بدأت في الواقع في نهاية القرن الأول الهجري كانعكاس أو رد فعل خلقي للتطرف المذهبي للخوارج المتعصبين من ناحية، للسلبية المطلقة لجماعة المرجئة من ناحية أخرى[6].

---

(1) الطبري : تاريخ الامم والملوك ؛ المسعودي : مروج الذهب ؛ ابن قتيبة : المعارف ؛ الشهرستاني : الملل والنحل.

(2) الشهرستاني : الملل والنحل، ص38.

(3) ابن قتيبة : المعارف، ص166.

(4) إبراهيم زكي خورشيد، احمد الستتاوي : دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، ص112.

(5) المقريزي : خطط المقريزي، ج4، ص183.

(6) HAMILTON. A. R. MAHAMED ANISM. P. 88، نقلاً عن أدب المعتزلة : عبدالحكيم بليغ، ص101

بينما ترى بعض المصادر العربية[1] أن ظهور المعتزلة كان بالبصرة، وفي الفترة التي تقع ما بين القرن الاول، وبداية القرن الثاني الهجري. في حين يرى مؤرخ معاصر[2] : إن فرقة المعتزلة بدأت في وقت مبكر جداً عن مرحلة واصل ويرجعها إلى الموقف المحايد الذي اتخذه بعض الناس من مشكلة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وهي الفئة التي عناها «قيس بن سعد» عامل علي بن أبي طالب على مصر حينما كتب إليه يقول : «إن قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم، وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويرى رأيهم، فقد رأيت أن أكف عنهم، أو لا أتعجل حربهم، وأن أتآلفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل بقلوبهم، ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله». كذلك دائرة المعارف الإسلامية: تذهب إلى أن المعتزلة لا بد أن تكون قد نشأت في فلك سياسي، كما نشأت حركتا الشيعة والخوارج، وإن هذا يعود إلى بداية ظهور التيارات الإسلامية، التي بدأت مع تولي علي بن أبي طالب الخلافة 35هـ / 655م حينما وقفت طائفة من المسلمين على الحياد، ولم يشاركوا في الأحداث السياسية، فسمي هؤلاء المعتزلة.

بينما المرتضى وهو من متأخري المعتزلة في القرن التاسع هجري: يرى إنها تعود إلى أقدم من ذلك فهو يرجعهم في الأصل إلى النبي ﷺ، فقد أخذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد مذهب الاعتزال عن هاشم بن عبد الله، وأخذه هذا عن أبيه محمد بن الحنفية وهذا عن والده علي بن أبي طالب، وأخذه علي عن النبي ﷺ[3] وهذا يوافق رأي الشهرستاني : الذي يقول إن واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية[4] ويؤكد المرتضى هذا التفسير عندما يقول إن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وخُطبه، وكل ما جاء على لسان المعتزلة من كلام مأثور، إنما هو تفصيل لتلك الجمل التي أوردها علي في خُطبه[5].

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق ؛ المقريزي : الخطط ج 2؛ المسعودي : مروج الذهب. أبو حسين الخياط : الانتصار.

(2) أحمد أمين : فجر الإسلام، ص290 -300.

(3) المرتضى : المنية والامل، ص4،5.

(4) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص62.

(5) المرتضى : المصدر نفسه، ج1، ص103.

ورغم هذه الاختلافات في نشأة فرقة المعتزلة فقد يكون الرأي القائل أن نشأتهم حصلت في فترة النزاع بين علي ومعاوية، هو رأي غير صائب لأن ظروف اعتزال أولئك يختلف كلياً عن فكرة الاعتزال التي تضمن مضمونا فكريا ودينيا، فالاعتزال الاول كان سلبياً نتيجة لموقف سياسي رفضوا أن يشاركوا به.

أما الاعتزال[1] الذي تم ربطه بواصل، فالامر هنا يرتبط ارتباطاً كلياً بأسس فلسفية دينية وجدل في مرتكب الكبيرة على أعمال المسلمين منذ نشب الخلاف بينهم على موضوع الخلافة، فهذا لا يعني أن هناك علاقة موضوعية قامت على أسس فكرية وكوّنت مدرسة لها مبادئها وفلسفتها الخاصة.

أما أغرب اتجاه فهو الاتجاه الذي يربط بين المعتزلة والنبي عليه السلام فهي أساساً قامت على اساس التقلبات السياسية والاتجاهات الفكرية والدينية المتناقضة وجاءت كرد فعل على حركة الجبر، التي اعتمدها الأمويون كمنهج سياسي قدري وليس لها علاقة بالنبي ﷺ خاصة وأن الفترة التاريخية التي عاش فيها الرسول ﷺ امتازت بالاستقرار السياسي والاستقرار الفكري والديني، وهذه الحركة جاءت في فترة قلق وتوتر ساد العالم الإسلامي حول العديد من القضايا الفكرية الدينية التي كان مبعثها سياسياً في الأصل.

ومذهب الاعتزال قائم على أصول خمسة أساسية ومعروفة وهي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا مذهب ذو صبغة دينية واضحة جداً، وسياسية لأن هذه الاصول كانت رد فعل لأمور سياسية خاصة وأن تلك الفترة أو العصر جاء بعد وفاة الخلفاء الراشدين، وكانت المعتزلة تنظر للمسائل الدينية والسياسية كشيء واحد فكلاهما مؤثّر في الأخر ومتأثر به.

من ناحية أخرى يجب أن لا نغفل أنّ هذه الفرقة هي فرقة فكرية، قامت بدور رئيسي في توجيه الحركات العقلية الإسلامية إلى وجهة جديدة، وهذا الدور هو الذي أعطاها تلك الصبغة التاريخية والشهرة الواسعة خاصة في دفاعها عن الإسلام من المارقين، وقد جاء على لسان عمرو بن عبيد يصف صديقه واصل بن

(1) ويرى المعتزلة أن تسميتهم بهذا الاسم تمت من قبل خصومهم في حين أنهم يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد. أنظر شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص46.

عطاء ومدرسته بقوله: (ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخلفين والرد عليهم منه)[1].

إذ نهضت هذه الحركة العقلية بعبء كبير للدفاع عن الإسلام في الرد على مضمون أفكار الزنادقة والوقوف بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، خاصة بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة التي شملت ممالك العراق والشام ومصر وفارس وأرمينيا وأفريقيا وأرض الهند[2].

ولم يكن بد من أن يتفرق المسلمون في هذه البلاد المختلفة، ويتصلوا بأهلها ويتأثروا بمختلف الديانات والعقائد والمذاهب من ثنوية وزرادشتية، ومانوية، وديصانية ومزدكية ومرقونية[3]، واليهودية والمسيحية والعقائد والثقافات والديانات الأخرى مما أدى إلى الغوص في الموضوعات اللاهوتية الخطيرة واشتد حولها الجدل واحتدم النقاش.

وكان منها القول بنفي القدر والاعتداد بحرية الإنسان في أفعاله، وإنه قد يأتي هذه الأفعال بمحض اختياره ولا سلطان للقدر عليها، وهذه الموضوعات كانت مثار جدل ونقاش من قبل في الديانة اليهودية والمسيحية والزرادشتية، كما كانت مثار جدل في الفلسفة اليونانية حتى برزت نتيجة لهذا الجدل فرق إسلامية متأثرة به، فتكونت منهم فرقة مشهورة سميت بالقدرية، وهم الذين يقولون بحرية الإنسان وإرادته في أفعاله وإنه مخيّر فيها، وكان من أشهر المتكلمين في ذلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي[4] وللرد على فرقة القدرية ظهرت فرقة تقول إن الإنسان مجبر في أفعاله ولا اختيار له فيها، وقد عرفت هذه الفرقة باسم الجبرية[5] ورئيسها الجهم بن صفوان الذي عرفت فرقته بالجهمية[6].

وعلى هذا فإن المعتزلة قد تأثروا في كثير من مبادئهم باللاهوت المسيحي واللاهوت اليهودي، كما تأثروا بأصول الفلسفة اليونانية، والديانات الفارسية،

(1) المرتضى: المنية والأمل، ص18.
(2) ابن قتيبة: المعارف، ص192.
(3) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص270 ـ 271.
(4) المقريزي: الخطط، ج4، ص181.
(5) الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص110.
(6) سنتناول هذه الفرق بالتفصيل في عقائد المعتزلة.

وقد أكد ذلك طائفة من المستشرقين[1]. ومعنى هذا أن مذهب الاعتزال كان في كثير من مبادئه وأصوله صدى لتلك التيارات المختلفة التي كان الشرق يزخر بها، إلا أن المعتزلة قد عرضوا مذهبهم الجديد من خلال عقيدتهم وقرآنهم وانتمائهم للإسلام واستطاعوا المزج بين الثقافة الإسلامية والثقافات الاخرى، كما كان مذهب الاعتزال صدى للصراع الديني والسياسي، وقد اطلق خصوم المعتزلة من أهل الحديث ورجال السلف الموالين للخلافة حيث اعتبروا المعتزلة (مارقين سياسياً، وضالين دينياً وقد وصفهم الشهرستاني بأنهم مجوس الأمة)[2]. وهي تسمية سياسية كما يقول النوبختي اكثر منها دينية، بينما سمّى المعتزلة انفسهم أنهم أهل التوحيد والعدل[3]، بينما كتب الفرق الإسلامية تنسب سبب هذه التسمية إلى قول الحسن البصري لواصل بن عطاء لقد «اعتزلنا»[4] أي قد اعتزلا قول الأمة وسمّي اتباعهما من يومئذ معتزلة.

المعتزلة والصراع على السلطة :

منذ أن اختلف المسلمون على الخلافة، انجرّوا إلى حروب دامية كان نتيجتها موقعة الجمل 36هـ / 656م وموقعة صفين 37هـ / 657م وانتهى بهم الامر إلى قتل عثمان 23هـ / 644م وتكفير الصحابة وأصبحوا لايتورعون عن ارتكاب الكبائر باسم السياسة وهنا اثيرت مسألة دينية هامة اختلفت حولها اراء المسلمين، وكان اختلافهم فيها ناجماً عن ميولهم واتجاهاتهم السياسية وهي مسألة مرتكب الكبيرة، وما حكمه، أهو مؤمن أم كافر أم فاسق ؟ فأهل السنة يحكمون بأنه مؤمن ولكنه فاسق يستحق العقاب والخوارج يتشددون في الحكم فيذهبون إلى أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار[5].

والمرجئة يذهبون إلى طرف مقابل للخوارج فيحكمون بأنه مؤمن وأمره يوم القيامة موكل إلى الله تعالى[6].

---

(1) فولكريمر، دي بور، هاماشون، كريتنس، أنظر أدب المعتزلة : عبدالحكيم بليغ ص114، 115.
(2) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص50.
(3) النوبختي : فرق الشيعة، ص5.
(4) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص98.
(5) انظر الشهرستاني : الملل والنحل ج1 ص155، البغدادي : الفرق بين الفرق، ص97.
(6) أمالي السيد المرتضى ج1، ص114.

ولم يكن المعتزلة من حيث هم فرقة لها مذهبها الخاص أشد مخالفة لأهل السنة من الشيعة في ذلك العهد ذلك أن من الفريقين، كما قال ابن حزم، من يخالف أهل السنة الخلاف البعيد، ومنهم من يخالفهم الخلاف القريب[1].

وهكذا ذهب البعض إلى أن العامل في نشوء المعتزلة كان متمثلاً بالأخص في «قضية الخلافة» وهو الذي حدد ووجه جميع افكارها ومبادئها ويرفضون رفضاً قاطعاً، أن يكون للعامل الديني مدخل في نشوء المعتزلة، ويؤكد أن السياسة والإمامة بوجه أخص هي المحك الذي ولّد شرارات الفرق والمذاهب في الإسلام، ويثبت أن الاصول الخمسة للمعتزلة ذات طبيعة سياسية، وأن العامل السياسي هو عامل نشأتها وتبلورها وتطورها[2]. ونعتقد أن هذا الامر مبالغ فيه فالسياسة لعبت دوراً كبيراً في ظهور هذه الفرقة، كما أن النزعات الدينية والعوامل الاجتماعية والاخلاقية والتحديات الخارجية المتمثلة في صراع الديانات والثقافات الاخرى كل هذه العوامل ساهمت في ظهورهم، ولم يكن وارداً عند المعتزلة أو عند أي فرقة اخرى التفريق بين ما هو ديني وما هو غير ديني في مرحلة النشوء والتأسيس وكانوا عندما يدلون برأي في السياسة أو يقفون موقفاً عملياً من الحكام يفعلون ذلك على اساس أنهم يتصرفون تصرفاً دينياً تماماً كما لو كانوا يبحثون في قضية عقائدية أو مسألة فقهية تعبدية.

وهكذا كان الخلاف حول هذه المسألة يشتد يوماً بعد آخر وتعقد المجالس وتقام الحلقات في المساجد لمناقشتها وإبداء الرأي فيها، وهنا ظهر رأى جديد قدمه واصل بن عطاء كما جاء عند الشهرستاني : (دخل واحد على الحسن البصري، فقال له : يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر وتخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ولايضر مع الايمان معصية، كما لاينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن

---

(1) ابن حزم : الفصل بين الملل والنحل ج2، ص111.
(2) محمد عمارة : المعتزلة والثورة ص99 (المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1977).

مطلقاً ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما اجاب به على جماعة من اصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمّي هو وأصحابه معتزلة)[1]. وقد ربط بين هذه الرواية وظهور الإعتزال بواصل بن العطاء والحسن البصري[2] ويحدد زمن هذا الظهور بالعشر الاوائل من القرن الثاني، ولا شك أن هذه الرواية اقرب إلى الصحة من كل الروايات لأن فيها ما يظهر الظهور الرسمي للمعتزلة كفرقة كلامية واضحة المعالم، متميزة القسمات في آرائها ومنهجها. ولا ننفي أن أحداث الفتنة الحاصلة في القرن الأول (صدر الإسلام) وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان (35هـ / 655م) ثم موقعة الجمل (36هـ / 656م) كان لها تأثير واضح في نشوء الفكر الاعتزالي الكلامي، وقد ظهر ذلك التأثير بوضوح في مبدأ المنزلة بين المنزلتين وهو الخطوة الأولى في سبيل ظهور المعتزلة وتميزها كاستمرار في ميدان الفكر والنظر لمعتزلة الفتنة في ميدان السياسة والعمل[3] أضف إلى ذلك أن عنصر البغي والفساد الذي انتشر في زمن بني أمية وظهور فكرة الجبر كتبرير لها، وهو تبرير من شأنه أن يؤول بالمجتمع الإسلامي إلى فساد كبير ويمنحه صبغة الشرعية كان عاملاً مساعداً على توطيد الفكر المرجئ كرد عليه وهو القول بالإرجاء وهو يتهاون بالجانب السلوكي رافعين شعار لا يضر مع الإيمان كمعصية، كما لاينفع مع الكفر طاعة. كانت هذه الأحداث مع ما اقترنت به من الآراء دافعة إلى ظهور مقاومة تنقذ المجتمع من الفساد، وقد تمثلت تلك المقاومة في ظهور المعتزلة، وقد اتجه هؤلاء إلى معالجة هذه الأحداث في الأسباب التي انطلقت منها وتطورت، واكتسبت صبغة التنظير والتأصيل الفكري العميق، خاصة بعد الأحداث السياسية التي طرأت بعد وفاة الرسول ﷺ (10هـ - 632م). مثل قضية الخلافة، وقضية الفتنة، وتحول الخلافة ملكاً عند بني أمية والبحث في تلك القضايا في ذلك الزمن وإصدار الآراء فيها، وكان للمعتزلة دور

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص47، 48؛ الأشعري : مقالات الإسلاميين، ج1، ص 197- 201.

(2) تجعل بعض الروايات عمرو بن عبيد محل واصل بن عطاء، أنظر المقريزي : خطط المقريزي ؛ وأبو حاتم الرازي: الزينة، ص273 لعبد الله السامرائي.

(3) علي الشابي، أبو لبابة حسين وآخرون : المعتزلة بين الفكر والعمل، ص 26.

كبير في هذه الآراء التي وظفت في خدمة الوضع السياسي الراهن وتوجهه. وقد ذهب رأي المعتزلة في أمر الخلافة إلى أن الإمام بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، ثم من اختارته الأمة وعقدت له ممن سار على منهاجهم القديم، ولذلك تراهم يعتقدون إمامة عمر بن عبد العزيز لما سلك طريقتهم[1]. ولكن المتأخرين منهم لما بدأ الامتزاج بينهم وبين الشيعة في أواخر القرن الثالث تغير رأيهم في هذه القضية، ورتبوا الخلفاء ترتيباً آخر، حيث يقول القاضي عبد الجبار: (إعلم أن مذهبنا الإمام بعد النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم زيد بن علي، ثم من سار سيرتهم)[2] وذهب عامة المعتزلة بأن أمر الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين ثم في نطاق القواعد الإسلامية من الشورى والبيعة، وإشارة إلى أنه ينبغي أن يتم كذلك في كل زمن، ويندرج هذا ضمن نقد الطريقة الأموية في الحكم التي تقوم على مبدأ الوراثة. أما رأيهم في القتال السياسي الذي دار بين علي ﷺ من جهة وطلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل (36هـ -656م) ومعاوية ومن معه في صفين (37هـ/ 657م) من جهة أخرى فنجد أن واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد سلكا مسلك التوقف وقد روى عنهم الخياط: (قد علمنا أن أحدكما عاصية والأخرى على حق ولكن لا ندري أيكما هي)[3].

وقد تطور هذا الرأي ليصبح عند إبراهيم النظّام وبشر بن المعتمر اعتقاد صواب علي بن أبي طالب في كل حروبه وخطأ من قاتله. بينما رأى القاضي عبد الجبار : (إن عائشة وطلحة والزبير من المخطئين التائبين)[4] والمعتزلة يرون عدم مشروعية حكم بني أمية، ويعتبرون أن مقاتلة معاوية لعلي هو أمر مخطئ وتولّي معاوية الحكم هو اغتصاب غير مشروع، وقد اختلف المعتزلة في هذا الشأن بين معتدل في الحكم على معاوية بن أبي سفيان وبين فعال في الوقوع واتهامه بتهم شنيعة[5] وهذا الحكم يشمل كل خلفاء بني أمية لأن الخلافة آلت إليهم بالوراثة

(1) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة، ص 758.
(2) القاضي: المصدر نفسه، ص757.
(3) الخياط : الانتصار ص 97-98.
(4) القاضي عبد الجبار : المغني، ج20 قسم 2، ص 150.
(5) من المغالين في ذلك : الجاحظ في رسائله، ص 41؛ والقاضي عبد الجبار : المغني ج20 في مواضيع كثيرة(5) (3)، ص78. وتعتبر هذه المبالغة إحدى سقطات المعتزلة

المغتصبة أصلاً من أصحابها (المقصود علي بن أبي طالب). لذلك أضف ما ارتكبه خلفاء وولاة بني أمية من الجور ومن الفسق والمجون مثل زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، والوليد بن يزيد، وتبريرهم لهذه المقولة بالجبر وتعليل ما يأتونه من المخالفات به. وقد استثنى المعتزلة بعض خلفاء بني أمية أمثال يزيد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز حيث يقول فيه القاضي عبد الجبار:(إن عمر بن عبد العزيز كان إماماً لا بالتفويض المتقدم، لكن بالرضا المتجدد من أهل الفضل)[1].

وقد استطاع المعتزلة أن يستميلوا بعض خلفاء بني أمية إلى مذهبهم الاعتزالي، ومن الذين استمالوهم من الأمويين مروان بن محمد 132هـ/ 750م أخر خلفاء بني أمية الذي أصبح يعتنق الاعتزال، ولكن مدة حكمه لم تطل فقد أسقطه العباسيون 132هـ / 750م ولهذا لم يكن لاعتزاله أثر في سياسته. وقد انتظر المعتزلة خيراً بعد سقوط بني امية المغتصبين الجائرين على رأيهم، وتولي بني العباس للحكم، وقد اتصل المعتزلة بالعباسيين وترددوا عليهم وأسدوا إليهم النصيحة، ومن ذلك مثلاً عمرو بن عبيد الذي كان صديقاً لأبي جعفر المنصور قبل أن يتولى الخلافة وكان يعظه ويبصره بأخطائه.

وقد استمرت محاولات المعتزلة في إرشاد العباسيين واستمالتهم، ولم تبلغ تعاليمهم مبلغها من الانتشار والقوة إلا في العصر العباسي الأول، وخاصة في عهد المأمون 198هـ / 813م الذي عمل على عقد مجالس للمناظرة بقصره، وأباح للمتناظرين الكلام في مختلف الموضوعات ومنها قضية الإمامة. وكان المأمون يرى أن هذه المجالس تساعد على إزالة أسباب الخلاف بين العلماء. وقد اعتنق المأمون مذهب الاعتزال وحمل الناس عليه، واستمر على ذلك بعده خليفتاه المعتصم والواثق. ورغم دعوة المعتزلة نظرياً من مثالية الحاكم عدلاً بين الناس، وتكريماً للإنسان فقد جرى الواقع بضد ما رفعوا من شعارات، فما أن يصبح الحاكم معتزلياً، حتى يعمل على كبت الحرية الفكرية، ويمارس إذلال الناس وإهانتهم على نحو ما فعل المأمون ووزيره المعتزلي أحمد أبي دؤاد من إكراه الناس على الاعتقاد بأن القرآن مخلوق وهو ما عرف بمحنة خلق القرآن، فقد أعلن المأمون تبني الدولة رسمياً للمبدأ الاعتزالي في (خلق القرآن) وفرض هذا

---

(1) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص 461؛ وأنظر أمالي المرتضى ج1، ص174.

المبدأ على الناس بالقوة وحملهم عليه مرغمين وعقد له مجالس الجدل، حتى وصل به الأمر إلى أن أضاف إلى الشهادة الوحدانية (لا إله إلا الله، صاحب القرآن المخلوق)[1] وعزل كل من يخالفه في ذلك، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يتدخل خليفة المسلمين في أمر العقيدة، ويصدر أوامره وينفذها بالقوة، بل ويعتبرها المذهب الرسمي للدولة ويعاقب مخالفيه.

وقد كان الخلفاء من قبله يشرفون على تطبيق أحكام الدين وإعلاء كلمته، فأصبح المأمون فقيه الدولة الرسمي[2].

ويبدو أن تبني المأمون لفكر المعتزلة جاء بسبب أن كثيراً من العلماء والفقهاء المشهورين وأتباعهم قد عرفوا بميول علوية معتدلة ووصف بعضهم بالزيدية مثل مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري وابن غيلان.. الخ. والزيدية كانت تبني فكرها الفلسفي الفقهي على أساس الاعتزال ونقصد به في البداية اعتزال الصراع كموقف سلبي لأنهم لم يستطيعوا أن يتبينوا وجه الحق من الضلال في ذلك الصراع السياسي زمن علي بن أبي طالب (39هـ-655م) ومعاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/ 661-671م) وتحول الصراع السياسي إلى صراع ديني في حكم مرتكب الكبيرة أمؤمن هو أم كافر ؟ وصارت الإمامة مبحثاً هاماً من مباحث الصراع بين الفرق المغالية خاصة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء دروس أستاذه حسن البصري بينما إتهم السنة به أصحاب مذهب الاعتزال ولقبوهم بالمعتزلة لأنهم اعتزلوا مذهب أهل السنة وعامة المسلمين كما يعتقدون فكانت تهمة ألصقت بهم أكثر من أنها اسم فلسفي أو فقهي، وكانت نظرية الزيدية والمعتزلة في الإمامة متطابقة وهي تعطيها للأجدر دون اعتبار الفرع النبوي الذي ينتسب إليه[3].

ونتيجة لانكماش الجماعة العباسية عن المأمون الذي وجد نفسه خارج النظرية العباسية التي تؤمن بأحقية أخيه الأمين، وهكذا وجد في الفكر المعتزلي الزيدي ما يثبت حقه في الخلافة ويبرر إمامته وقد استخدم في ذلك الوقت كبرهان

(1) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج1، ص412.
(2) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص412.
(3) شاكر مصطفى: المرجع نفسه، ص452.

على حق الإمامة للأفضل وعلى ضرورة توحيد الاتجاهات الإسلامية حوله مستغلاً وجود علي الرضا الذي كان من الفرع الجعفري كما ولم يتوان عن قتله بالسم بعد أن انتهت مهمته 203هـ/ 816م[1] وأوقف شتم علي رضي الله عنه[2].

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون (218 هـ / 833 م) في حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولم يكن له حظ من العلم أو معرفة بهذه المسألة، وإنما سار ينفذ وصية أخيه المأمون، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من لا يعترف بخلق القرآن من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل وسجنه وضربه بالسياط هو وكل من لم يأخذ برأي المعتزلة بخلق القرآن. كذلك اقتدى الواثق 227 هـ / 842 م بأبيه المعتصم في انتصاره للمعتزلة، وتشدد في آرائه ومحاربته لكل من يخالفه، وكان أحمد بن نصر من هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن في بغداد، ودعوا إلى عزل الواثق، لكنه قبض عليه وعلى أعوانه وقدمه للمناظرة في سامراء وناظر الواثق أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن، فقال له : يا أحمد ما تقول في القرآن ؟ قال: كلام الله، قال أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله. قال: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة ؟ قال: يا أمير المؤمنين ! جاءت الأثار عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر)، إلا إن الواثق أصدر أمراً بقتله، وقد غلا الواثق في معاملة القائلين بعدم خلق القرآن، فقد طلب عندما تبادلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه في القرآن، وكان نصيب من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الإسلام[3].

وكان من أهم مبادئ المعتزلة السياسية الخروج على الإمام العادل خاصة إذا كان هذا الإمام قد جار وظلم ولم تنفع فيه النصيحة، فإنه يجب على الناس الخروج عليه إذا توفر لهم الإمكان والقدرة.

ولذلك فإننا نجد أن المعتزلة عندما تتوافر عندهم هذه الشروط لايتوانون في الخروج على السلطان الجائر ونصرة الإمام العادل عليه، ومن ذلك وقوفهم إلى

(1) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ص647 -650.
(2) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج11، ص 19.
(3) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ج2، ص 157.

جانب يزيد بن الوليد 126هـ/ 744م الأموي الذي اعتنق مبدأ الاعتزال حينما أعلن الثورة على الوليد بن يزيد 125هـ/ 743م بعد أن شاع أمر فسقه وجوره[1].

كما ناصر المعتزلة كلاً من محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في خروجهما على أبي جعفر المنصور 136هـ / 754م، وكان واصل بن عطاء قد دعاهما إلى القول بالقدر في موسم الحج، ويبدو أنهما اعتنقا الاعتزال واستجابا لواصل، وهذا ما جعل عبد الله بن الحسن يلوم ابنه محمد على ذلك الذي أوضح عجزه عن تركه[2].

وقد رأى المعتزلة في محمد أولاً وفي إبراهيم بعده الإمامين العدلين الجديرين بالخلافة الإسلامية، وقد جاءت هذه التزكية الاعتزالية من قبل عمرو بن عبيد حيث قال : (نظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة للخلافة وهو محمد بن عبد الله الحسن فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظهر أمرنا معه وندعو الناس إليه)[3]. ثم آزر المعتزلة محمد بن عبد الله على المنصور 136هـ/ 754م وقد خرج إبراهيم (بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد وشخص على البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن مسلم فحاربهما حتى قتل، وقتلت المعتزلة بين يديه)[4].

كما وقفوا إلى جانب إدريس بن عبد الله بن الحسن في المغرب العربي بعد مقتل أخويه بالمشرق فالتفّ حوله المعتزلة المتواجدين هناك والذين دعاهم عبد الله بن الحارث الذي بعثه واصل بن عطاء إلى هناك كداعية لمذهب المعتزلة في المغرب وقد نجح في ذلك ثم جاء نجاح إدريس في الانفصال عن الخلافة العباسية، وتكوين دولة الأدارسة التي كان مذهبها الاعتزال[5].

إن المعتزلة لم يضعوا همهم في أن يؤسسوا دولة معتزلية كما حدث للشيعة والخوارج وربما يكون السبب هو انشغالهم بمقاومة التيارات العقائدية والفلسفية

---

(1) المسعودي : مروج الذهب، ج2، ص176 - 177.
(2) الشريف المرتضى : الأمالي ج1، ص109.
(3) أحمد محمود صبحي : نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية ص 366-367.
(4) الأشعري : مقالات الإسلاميين، ج1، ص154 ؛ المسعودي : مروج الذهب، ج2، ص234.
(5) القاضي عبد الجبار : باب ذكر المعتزلة، ص 110.

التي وجهت لفساد عقائد الإسلام والدخول في منازعات ومجادلات مع أقطاب مختلفة من المعارضين للفكر الإسلامي، ولم ينسوا دورهم السياسي فاتجهوا ناحية التنظير السياسي وفي ترشيد الحكام ونصرة قوى الحق والعدل كما يعتقدون هم. ولا شك أن طابع العنف والفرض الذي تميّز به المذهب الاعتزالي في فترة مناسبة من قبل الدولة كما في عهد المأمون والمعتصم والواثق قد حجب عن الأنظار تلك المسحة العقلانية، فعزف الناس عنه نتيجة للقوة والعنف الذي استخدمه الخلفاء الذين يدينون به ضد الناس، فكانت العامة والفقهاء أكثر الناس عزوفاً عن المعتزلة. ولم يترك المعتزلة سبيلاً للوصول إلى عقول الناس وقلوبهم، أفادتهم ثقافتهم الواسعة واعتبروا أنفسهم أفقه الناس وأعلم الناس وأن دورهم توجيههم، وكان طبيعياً أن يرافق شعور التفوق عندهم، ميل إلى السخرية ممن يعتبرونهم دونهم فكراً وعقلاً وهذه السخرية واضحة عند أعلامهم كثمامة والجاحظ وأبي الهذيل وطبعتهم بطابع يميّزهم عن غيرهم[1].

وكان لهذا أثر خطير في فقدانهم لقاعدة اجتماعية شعبية، وأصبح المعتزلة فرقة بعيدة، كل البعد عن الناس البسطاء وعن همومهم، ولم يتعاطف الناس معهم عندما تعرضوا إلى محنة سياسية كبيرة في عهد المتوكل 232 هـ / 847 م وقد تبارى أهل الحديث في حرق كتب ومصنفات المعتزلة. أصبح المعتزلة في عهد المأمون والمعتصم والواثق (198هـ/ 813م)(218هـ/ 833 م) (227هـ/ 842م) المالكين لزمام الأمور، فاستأثروا بالوظائف الحساسة في الدولة، وضيقوا الخناق على مخالفي المعتزلة ليس من الروافض فقط بل أيضاً من أهل السلف المحدثين أيضاً، ولا ريب أن الخلاف بين المعتزلة والشيعة حول مسألة الإمامة أعمق بكثير من الخلاف بين المعتزلة وأهل الحديث حول مسألة خلق القرآن، وقد بلغ من تشدد المعتزلة وغلوهم في هذه المسألة أنه (لم يبق محدث أو فقيه ولامؤذن ولا معلم إلا وامتُحن بسببها حتى لقد كتب المعتزلة في مساجد مصر: (لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق)[2].

وهكذا بدأت المحنة التي تصيب المسلمين الرافضين للمذهب المعتزلي بين التهديد وقطع الرزق والقتل والتي أنزلتها السلطة بأهل الحديث طيلة عهد المأمون 198هـ/

---

(1) محمد نجيب أبو طالب : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، ص103.

(2) معن زيادة : الموسوعة الفلسفية العربية، ج2، ق2ص- ى، ص1125.

813م وحتى عهد الواثق 227 هـ/ 842م مما كان له انعكاس سلبي لدى عامة المسلمين، وبعد انقضاء الفترة التي توصل فيها الفكر الاعتزالي إلى أعلى مراحله في الوصول إلى الدولة كانت ردة فعل الحنابلة (أهل السنة) شديدة على المعتزلة حتى استطاعوا مع الوقت القضاء نهائياً على الفكر المعتزلي.

وقد قال أحمد أمين: (من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة، وعلى أنفسهم جنوا)[1] وأعتقد أن المسلمين فقدوا فكراً قوياً ساعد على الدفاع عن الإسلام وعقائده ضد الفلاسفة والملاحدة الذين أرادوا تشويه الإسلام عن طريق مجادلتهم التي تصدى لهم فيها المعتزلة، ولكنهم جنوا على أنفسهم فيما بعد عندما تدخلوا في عقائد الدين. وتطرفوا في الأمر وغالوا فيه إلى درجة كبيرة مثل مسألة خلق القرآن، وصفات الله، عندما قالوا بنفي الصفات الإلهية وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله، وقد ضل بعض المعتزلة عندما سيطر لديهم فقط سلطان العقل وألغوا كل ما ينافي هذه السلطة مما دفع بالأشعري في أواخر القرن الثالث بالخروج عن المعتزلة بعد أن كان واحداً منهم، وبدأ يحاربهم بسلاحهم وكان مذهب الأشعري مذهب توفيق ما بين مذهب المعتزلة والسنة، ولذلك سمي مذهباً أوسط[2] زاد المعتزلة ضعفاً بعد خروج أبي الحسن الأشعري على المعتزلة وانشقاقه عنهم بعد أن كان إماماً فذاً من أئمتهم[3].

على كل حال لقد تشتت المعتزلة وصاروا فرقاً كثيرة اعتنقت كل فرقة منها طائفة من المسائل الفرعية الخاصة بها وكان لكل فرقة منها رئيس تنسب إليه وتعرف به، ولقد أحصت المصادر الإسلامية تلك الفرق بعشرين تارة واثنتين وعشرين تارة أخرى[4].

ولقد كان لإسراف المعتزلة في ثقتهم بالعقل، وإهمالهم للنص، وازدرائهم لأهل الحديث وإمعانهم في الجدل والمناقشة إلى حد التشعب والخلاف وتكفير بعضهم لبعض[5]، أثر كبير في انتكاس حركاتهم التقدمية في التفكير الإسلامي، والقضاء على تلك الروح التي تتوهج بالحرية الفكرية قرابة قرن ونصف من الزمان.

---

(1) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج5، ص270.
(2) آدم ميتز (Adam Mez) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص378.
(3) المقريزي : خطط المقريزي، ج4، ص186.
(4) القاضي عبد الجبار : باب ذكر المعتزلة، ص 110؛ الشهرستاني : الملل والنحل ؛ البغدادي : الفرق بين الفرق.
(5) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 110.

عقائد المعتزلة وفرقهم:

عرفت هذه الفرقة بعد اعتزال واصل بن عطاء الغزال[1](80-131هـ / 696-748م) عن مجلس الحسن البصري[2](21-110هـ / 642-728م) وقوله :(إن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر) وأصحاب هذه الفرقة لقّبوا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد لقولهم بوجوب الأصلح، ونفي الصفات القديمة، وقالوا جميعاً بأن القدم أخص وصف الله، وينفي الصفات وبأن كلامه مخلوق محدث، وبأنه غير مرئي في الآخرة، والحسن والقبح عقليان ويجب عليه رعاية الحكمة في أفعاله، وثواب المطيع أو التائب، وعقاب صاحب الكبيرة[3].

وأقوالهم هذه تجمع عادة في خمسة أصول هي العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمنزلة بين المنزلتين، وهم يعتبرون أنهم يخالفون، بهذه الأصول الخمسة الدهرية والملحدة، والمعطلة (بالتوحيد)، والمجبرة (بالعدل) والمرجئة (بالوعد والوعيد) والخوارج (بالمنزلة بين المنزلتين) والشيعة والإمامية (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[4].

الفرقة الأولى : الواصلية

نسبة إلى واصل بن عطاء[5] يقول : بنفي صفات الباري تعالى من العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة وهذا بداية الخلاف بينهم وبين السنة، فالحق أن علم الله وقدرته، وإرادته وسمعه وبصره وكلامه صفات له أزلية، ونعوت له أبدية ونفيها يعني نفياً للموصوف، وذهبوا إلى الحكم بتخطئة أحد الفريقين من عثمان «الخليفة الثالث» 23 هـ / 644م وقاتليه، وجوزوا ألا يكون عثمان مؤمناً ولا كافراً، وأن يخلد في النار كذلك علي بن أبي طالب 35 هـ / 655م ومقاتلوه،

---

(1) هو واصل حذيفة بن عطاء الغزال درس على يد أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية 99 هـ/ 727م انتقل إلى البصرة والتحق بحلقة الحسن البصري قائد تيار العدل والتوحيد.

(2) قاد تيار العدل والتوحيد وعارض (الجبرية) التي دعمها الأمويون.

(3) عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة، ص732.

(4) جعلها الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) ست فرق هي : الحسنية نسبة إلى الحسن البصري، والهذلية، والنظامية، والمعمرية، والبشرية، والجاحظية، ص84.

(5) الشهرستاني : الملل والنحل، ص40.

وحكموا بأن علياً وطلحة والزبير بعد وقعة الجمل لو شهدوا على باقة بقلة لم تقبل[1].

والقول بالقدر وقد قال في ذلك الجهمي الذي كان أول من تكلم في القدر[2] ونهى الحسن البصري الناس عن مجالسته، صلبه عبد الملك في القدر، وقيل بل عذبه الحجاج بأنواع العذاب وقتله سنة 80 هـ كذلك غيلان الدمشقي قتل أيام هشام بن عبد الملك 105 هـ / 743م.

وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر ما كان يقرر الصفات ويقول إن الله تعالى حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه شر وظلم، كذلك قوله في المنزلة بين المنزلتين، وقد خالف الحسن البصري الخوارج والمرجئة في مرتكب الكبيرة ولكي يخالفهم قال : (أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر)[3]. والبغدادي : يصنفها عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها وهن : الواصلية،والعمرية، والهذيلية، والنظامية، والأسوارية، والمعمرية، والأسكافية، والجعفرية، والبشرية، والمردارية، والهشامية، والثمامية، والجاحظية، والحايطية، والحمارية، والخياطية والحدثية، والكعبية، والجبائية، والبهشمية[4]، ويعتبر البغدادي أن الحايطية والحمارية من فرق الغلاة والفرق الباقية قال عنها أنها قدرية محضة يجمعها كلها في بدعتها أمور مشتركة منها :

(1) نفيهم لصفات الله الأزلية وقولهم بأنه ليس لله عز وجل علم ولاقدرة ولاحياة ولا سمع ولابصر.

(2) قولهم إن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة.

(3) استحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار وزعموا أنه لا يرى نفسه ولا يراه غيره.

(4) اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل وحدوث أمره ونهيه وخبره ويسمون كلام الله مخلوقا.

(5) قولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لإكساب الناس وزعموا أن الناس

---

(1) محمد العربي : المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عند العرب، ص 62.
(2) معبد بن عبد الله الجهمي : كان أول من تكلم في القدر، شذرات أول، ص88.
(3) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 42.
(4) البغدادي : الفَرق بين الفرق، ص93.

هم الذين يقدرون إكسابهم وإنه ليس لله عز وجل في إكسابهم ولاء ولهذا أسماهم المسلمون قدرية.

(6) اتفاقهم على أن الفاسق لا مؤمن ولا كافر ولأجل هذا سماهم المسلمون (معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها)[1]. يسفه البغدادي أراء المعتزلة، ويقبح مذاهبهم، ويحكم عليهم بالكفر ويصف أراءهم بأنها فضائح ويقول عن ذكره لعمرو بن عبيد :(وكان جده من سبي كابل، وما ظهرت البدع والضلالات في الأديان إلا من أبناء السبايا كما روي في الخبر)[2]، ويقول عند ذكره للنظام: (والمعتزلة يموهون على الاغمار بدينه، يوهمون أنه كان نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون، إنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة)[3] كما يصف الجاحظ بالجهل والضلالة[4]. وقد ألفت الكتب التي تطعن في المعتزلة منها كتاب ابن قتيبة الدينوري «تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث» سنة 276هـ، وكتاب «مناقب الامام أحمد بن حنبل للامام أبي الفرج الجوزي» سنة 597هـ كذلك «الملل والنحل للشهرستاني»، والفصل لابن حزم.

وقد كفر أهل السنة المعتزلة واستباحوا دماءهم وأموالهم وليس على قاتل الواحد منهم دية ولا كفارة بل لقاتله عند الله القرابة[5].

وروي عن محمد بن يحيى أحد رجال السنة أنه قال: (من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر وخرج عن الإيمان وبانت منه امرأته، يستتاب : فإن تاب وإلا ضربت عنقه وجعل ماله فيئاً بين المسلمين، ولم يدفن في مقابرهم)[6].

وقد عالج معظم المعتزلة علم التوحيد بتوسع كبير وقد انساق بعضهم وراء المناظرات والجدل، مما أبعدهم عن روح الإسلام وطوح بهم عن تعاليمه، وكان بعضهم يعتقد بالتناسخ، وقد ذكر البغدادي عن خروج الحائطية وهم أتباع أحمد بن حائط القدري الذي كان من أصحاب النظام في الاعتزال كما يقول بالتناسخ وزعم

---

(1) البغدادي : الفَرق بين الفِرق، ص94.
(2) البغدادي : المصدر نفسه، ص101.
(3) البغدادي: المصدر نفسه، ص113.
(4) البغدادي : المصدر نفسه، ص160.
(5) البغدادي: المصدر نفسه، ص101.
(6) ابن قيم الجوزية : مختصر الصواعق المرسلة، ص308 نقلاً عن أدب المعتزلة : عبد الحكيم بليغ، ص148.

هو وفضل الجدني بـ(أن للخلق ربين وخالقين، أحدهما قديم وهو الله سبحانه، والآخر مخلوق وهو عيسى ابن مريم)[1]، وقد خرجوا على جميع فرق المعتزلة وأهل السنة.

الفرقة الثانية : العمرية

أصحاب عمرو بن عبيد، كان جده باب من سبي كابل من جبال السند كان يتردد على الحسن البصري، ثم أصبح شيخ المعتزلة في وقته[2]، وكان من رواة الحديث معروفاً بالزهد سار على نفس العقائد التي جاء بها واصل بن عطاء وزاد عليه في التفسيق، وقال إن علياً ومقاتليه كلاهما فاسق، وكذا عثمان وقاتليه[3].

الفرقة الثالثة : الهذيلية

أصحاب أبي الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف[4]، شيخ المعتزلة، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء[5] وتفرد عن أصحابه بعدة قواعد منها :

أولاً: القول بفناء مقدورات الله تعالى وهذا قريب من مذهب جهم بن صفوان.

ثانيا : إن حركات أهل الخلدين في الآخرة، أي حركات أهل الجنة وأهل الجحيم، فإنهما دارا الخلد، وإن حركات أهل الخلدين تنقطع كلها ضرورة لا قدرة للعباد عليها، وكلها مخلوقة للبارئ تعالى، إذ لو كانت مكتسبة لكانوا مكلفين بها ولا تكليف في الآخرة ويصيرون إلى خمود دائم وسكون وتجتمع في ذلك السكون اللذات لأهل الجنة والآلام لأهل النار[6].

---

(1) البغدادي : المصدر نفسه، ص260- 261.

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج3، ص461.

(3) تحقيق سليمة عبد الرسول : مخطوط الفرق الإسلامية، كتاب شرح المواقف للكرماني، ص11.

(4) لقب بالعلاف لان داره بالبصرة كانت في العلافين، له ستون كتاباً في الرد على المخالفين : طبقات المعتزلة لابي المرتضى، ص44-49.

(5) الشهرستاني : الملل والنحل، ص44.

(6) جهم بن صفوان من المرجئة وهو يقول بفناء الجنة والنار لان جهم كان يقول ان الله قادر في ذلك الوقت على أن يخلق مثلها : الشهرستاني : المصدر نفسه ص 45؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص122.

ثالثاً: إن الباري تعالى عالم بعلم هو عين ذاته، قادر بقدرة هي عين ذاته، واقتبس ذلك من الفلاسفة المعتقدين أن ذاته واحدة[1].

رابعاً: إن الله تعالى مريد بإرادة لا محل لها وهو أول من أحدث هذه المقالة وتابعه عليها المتأخرون[2].

خامساً: إن بعض كلامه لا في محل وهو قوله كن، وبعضه في محل كالأمر والنهي، والخبر والاستخبار، فكأن أمر التكوين غير أمر التكليف[3].

سادساً : إنه قال بالتواتر لا يقوم حجة فما غاب إلا بخبر عشرين أو أكثر منهم واحد من أهل الجنة ولا تخلو الأرض من جماعة هم أولياء الله معصومون لا يكذبون ولا يرتكبون المعاصي، منهم الحجة إلا التواتر[4] معتمداً على الآية الكريمة: ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**﴾ ويقصد بهذا تعطيل الأحكام الشرعية عن فوائدها[5].

الفرقة الرابعة : النظامية

أصحاب إبراهيم بن سيار النظّام، والشهرستاني يقول: سميّ نظّاماً لأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة، ولم يكن ينظم الكلام المنثور والشعر الموزون كما يدعي أصحابه[6]، وقد تأثر كثيراً بكتب الفلاسفة ومزج كلامهم بكلامه وأهم قواعده:

1- إنه زاد على القول بالقدر، وإن الخير والشر منا، وإن الله لا يفعل الشرور والمعاصي في الدنيا إلاّ أنه يفعل ما يصلح لعباده، وباقي المعتزلة قالوا إنه قادر عليه لكنه لا يفعله لقبحه[7].

2- ولا أن يزيد أو ينقص من ثواب وعقاب، وكونه مريداً لفعله فهو خالقه، ولفعل العبد أنه أمر به، والإنسان هو الروح، والبدن آلتها، والأعراض أجسام،

(1) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص45.
(2) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص45.
(3) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص45.
(4) الشهرستاني القاعدة العاشرة، ص 47.
(5) مخطوط الفرق الإسلامية : ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني : تحقيق سليمة عبد الرسول.
(6) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 47؛ والبغدادي : الفرق بين الفرق، ص 113.
(7) مخطوط الكرماني : ص 15؛ والشهرستاني، ص47.

والجوهر مؤلف من الأعراض والعلم مثل الجهل، والإيمان مثل الكفر، والله خلق الخلق دفعة، والتقدم والتأخر في الكون والظهور، ونظم القرآن ليس بمعجز، والتواتر يحتمل الكذب، وقالوا إلى الرفض ووجوب النص على الإمام وثبوته، لكن كتمه عمر رضي الله عنه[1].

الفرقة الخامسة: الأسوارية

أصحاب الأسواري، أبي علي عمر بن قائد الأسواري،[2] وقد وافق على جميع ما جاء على لسان النظام وزاد عليه أن الله لا يقدر على ما أخبر بعدمه، أو علم عدمه، والإنسان قادر عليه[3].

الفرقة السادسة: الإسكافية

أصحاب أبي جعفر الإسكافي قالوا: الله لا يقدر على ظلم العقلاء بخلاف ظلم الصبيان والمجانين[4].

الفرقة السابعة: البشرية

أصحاب بشر بن المعتمر، قالوا : الأعراض من الألوان، والطعوم والروائح وغيرها تقع متولدة، والقدرة سلامة البينة، والله قادر على تعذيب الطفل ظالماً ولو عذبه لكان عاقلاً عاصياً وفيه تناقض[5].

الفرقة الثامنة: المزدارية

أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار قال : إن الله قادر على أن يكذب ويظلم، ولو كذب وظلم لكان إلهاً كاذباً ظالماً، تعالى عن قوله، ويجوز أن يقع فعل من فاعلين تولداً، والناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظماً وبلاغة، كما قال النظام، وهو الذي بالغ في القول بخلق القرآن،

---

(1) مخطوط الكرماني ص17؛ الشهرستاني، ص 51؛ محمد العربي : المناهج والمذاهب الإسلامية، ص63.

(2) المقريزي : الخطط، ج4، ص 165.

(3) يمكن أن تنظم إلى فرقة النظام.

(4) لا قيمة فكرية تذكر لما انفردت به هذه الفرقة وهي تكرار لما جاء على لسان النظام.

(5) النوبختي : فرق الشيعة، ص13- 14؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 156- 159؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص56.

وكفّر من قال بقدمه وقال من لابس السلطان كافر لا بوارث وكذا من قال بخلق الأعمال، وبالرؤية وهذه قواعد بعيدة جداً عن المنطق والدين الإسلامي ومن المغالاة في القول[1].

الفرقة التاسعة: الهشامية

أتباع هشام بن عمر الفوطي من معتزلة القرن الثاني المعاصر للمأمون (198هـ / 813م) وكان لايجيز لأحد من المسلمين أن يقول: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[2] مدعياً عدم إطلاق الوكيل عليه تعالى وذهب أيضاً إلى أن الله سبحانه لم يؤلف بين قلوب المؤمنين ولم يضل الكافرين، وأن الجنة والنار ليستا بمخلوقين، وقال من قال أنهما مخلوقتان كافر، وغيرها من الأراء الشاذة التي ذكرها الشهرستاني بشيء من التفصيل.

الفرقة العاشرة: الصالحية

أصحاب الصالحي جوزوا قيام العلم والقدرة[3]، والارادة والسمع والبصر بالميت وخلوا الجوهر عن الأعراض.

الفرقة الحادية عشرة: الحابطية

نسبة إلى أحمد بن حابط من أصحاب النظام قالوا : للعالم إلهان، قديم هو الله تعالى ومحدث هو الذي يحاسب الناس في الآخرة.

الفرقة الثانية عشرة: الحدبية

أتباع فضل الحدبي زادوا التناسخ وأن كل حيوان مكلف.

---

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 164-167؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص 60.

(2) بالرغم من وجود الآيات التي تنص على ذلك كما في الآية 173 من سورة آل عمران، الآية 9 من سورة المزمل.

(3) أنظر مقالات الإسلاميين للأشعري، ص158؛ البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 159؛ التبصير في الدين، ص 71- 72؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص67 وقد تناول الموضوع بشكل مفصل ودقيق.

الفرقة الثالثة عشرة: المعمرية

نسبة إلى معمر بن عباد السلمي، قالوا : الله لم يخلق شيئاً غير الأجسام، ولا يوصف بالقدم، ولا يعلم نفسه، والإنسان لا فعل له غير الإرادة.

الفرقة الرابعة عشرة: الكعبية

أصحاب أبو القاسم بن محمد الكعبي قالوا : فعل الرب واقع بغير إرادته ولايرى نفسه ولاغيره إلا بمعنى أنه يعلمه وهي لا تختلف كثيراً عن الخياطية.

الفرقة الخامسة عشرة: الخياطية

أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط قالوا بالقدر وتسمية المعدوم شيئاً وجوهراً وعرضاً، وأن إرادة الله كونه غير مكره ولا كاره وهي في أفعال نفسه الخلق، وفي أفعال عباده الأمر، وكونه سميعاً بصيراً أنه عالم بمتعلقاتهما، وكونه يرى ذاته غير أنه يعلمه.

الفرقة السادسة عشرة: الثمامية

نسبة إلى ثمامة بن أشرس النميري، قالوا: الأفعال المتولدة لا فاعل لها والمعرفة متولدة من النظر وإنها واجبة قبل الشرع واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يتحولون إلى تراب بعد موتهم، لا يدخلون جنة ولا ناراً، كذا البهائم والأطفال، ومن لا يعلم خالقه من الكفار معذور والمعارف كلها ضرورية ولا فعل للإنسان غير الإرادة وهو نفس قول المعمرية[1].

الفرقة السابعة عشرة: الجاحظية

أصحاب أبي عثمان عمرو بن بحر قالوا: المعارف كلها ضرورية ولا إرادة في الشاهد إنما هي عدم السهو[2]، ولفعل الغير الميل إليه وقد ذهب إلى أن الله لا يدخل العصاة النار بل هي تجذبهم إليها وأن القرآن جسد ينقلب تارة رجلاً وأخرى امرأة وقد عاصر الجاحظ المعتصم 218-227هـ/ 833-852م والمتوكل 232-247هـ/ 847-861م.

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل، ص 61.

(2) الشهرستاني : المصدر نفسه، ص 63؛ هاشم المعروف الحسني: الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة، ص 121.

الفرقة الثامنة عشرة : الجبائية

أتباع محمد بن عبد الوهاب الجبائي وهو الزعيم الأول للطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة حسب تصنيف بعض المؤلفين في المذاهب الإسلامية[1] قال : إرادة الرب حادثة لا في محل والعالم يفنى بفناء لا في محل، والله تعالى يكون موصوفاً مريداً لها، والله متكلم بكلام يخلقه في جسم ولا يرى (الله) في الآخرة، والعبد خالق لفعله، ومرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر، وإذا مات بلا توبة يخلد في النار ولا كرامات للأولياء، ويجب لمن يكلف إكمال عقله وتهيئة أسباب التكليف له، والأنبياء معصومون. وقال: إن الله عالم لذاته أي إنه ذو حالة هي صفة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإن معنى كونه سميعاً بصيراً، إنه حي لا آفة به.

الفرقة التاسعة عشرة: البهمشية

هو أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي انفرد عن أبيه الجبائي في استحقاق الذم والعقاب بلا معصية، وبأنه لا توبة عن كبيرة مع الإصرار على غيرها عالماً بقبحه، ولا مع عدم القدرة، ولله أحوال لا معلومة ولا مجهولة، ولا قديمة ولا حادثة[2].

الفرقة العشرون : الجعفرية

أصحاب الجعفرين، جعفر بن مبشر الثقفي المعروف بالعلم والورع، وجعفر بن حرب الهمداني من أهل بغداد كانا يضرب بهما المثل فيقال (علم الجعفرين زهدهما)[3] قالا إن في فساق الأمة من هو شر من الزنادقة والمجوس، والإجماع على حد الشراب خطأ، وسارق الحبة منخلع عن الإيمان[4].

---

(1) الشهرستاني: الملل والنحل، ص 67؛ مخطوط الكرماني: تحقيق سليمة عبد الرسول، ص32.
(2) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص 186؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص67.
(3) القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص 76- 77؛ تحقيق فؤاد سيد، طبعة تونس 1972م
(4) البغدادي : المصدر نفسه، ص 105- 107؛ الرازي : التبصير في الدين، ص73- 74؛الكرماني : الفرق الإسلامية،ص19.

موقف المعتزلة من الشعوبية والزندقة :

لقد حارب زعماء المعتزلة الشعوبيين وحركتهم المضادة للإسلام وللعروبة ودعوا إلى تحقيق الوحدة بين الشعوب الإسلامية في إطار المساواة.

ففي العهد العباسي 132هـ انتعشت مذاهب (المانوية) وفرقها واستعادت قوتها، ودخلت في صراع فكري ضد عقائد الإسلام، واستند هذا الصراع المانوي إلى عصبية شعوبية، مستترة أو ظاهرة في جهاز الدولة وساهمت المانوية في نشر الزندقة والإلحاد والاستخفاف بالدين في الحياة الفكرية.

وقد لعب المعتزلة دوراً كبيراً في التصدي لحركة المانوية وفرقها، فدرسوا منطق أرسطو وفلسفة اليونان وقد سطع نجمهم في عهد المأمون 198هـ / 813م وشكلوا جبهة للدفاع عن الإسلام ضد أعدائه وساهموا في نشر الإسلام وكسبوا أنصاراً جدداً كثيرين وأجادوا أسلوب الجدل والمناقشة والفلسفة ومما يروى عن أبي الهذيل العلاف 235هـ / 879م وهو الذي اكتملت في عصره أصول المعتزلة الخمسة قد دخل الإسلام على يديه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل[1] وقد دخل أبو الهذيل في مجالات عديدة مع اليهود وخاصة قصته مع اليهودي الذي جادل جماعة من المتكلمين حول صدق النبي موسى حتى إذا اعترفوا له بذلك بين عليهم ما يريد من تقريره على نبوته، ولكن أبا الهذيل تنبّه فجأة وبما لم يكن في حسبانه وقطع عليه طريقه بقوله: (إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بنبي وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق) يريد بذلك أن يضطر اليهودي إلى الإقرار بنبوة محمد، وتستمر المجادلة طويلاً ولكن أبا الهذيل استطاع أن يهزم اليهودي حتى خرج هارباً من البصرة[2].

وموقف آخر لأبي الهذيل مع مجوسي من عبدة النار حيث كان يقول في النار : قال بنت الله وقال في البقر إنها ملائكة الله قص أجنحتها، والماء نور الله، والجوع والعطش قال عنهما : فقر الشيطان وفاقته فجادله أبا الهذيل حيث قال له : (فما في الدينا شر من المجوس، أخذوا ملائكة الله فذبحوها، ثم غسلوها بنور الله، ثم شووها ببنت الله، .. الخ فانقطع المجوسي وخجل مما لزمه)[3].

---

(1) المرتضى : أمالي المرتضى. ج1، ص 124، طبع في القاهرة ط أولى سنة 1907.

(2) المرتضى : المصدر نفسه، ج1، ص 126.

(3) الثنوية : فرق من المجوس كانت تذهب إلى القول بأن الكون أصله نور وظلمة ومن هؤلاء =

وكان أبو إسحاق النظام، صورة رائعة للتفوق العقلي الذي وصل إليه المعتزلة وقد حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن عقيدة التوحيد التي آمن بها وفني في سبيلها حيث ناظر النظام كثيراً من الزنادقة والمجوسية والدهرية والثنوية وناقض كثيراً من آراء الفلاسفة وفندها[1].

وقد استخدم شيوخ المعتزلة مبادئ الفلسفة ونظرياتها في مقارعة الزنادقة حجة بحجة وهكذا كانوا في جدلهم ومناظراتهم التي لا يتسع المجال لذكرها[2]، يهدفون إلى الدفاع عن أرائهم ومبادئهم التي كانوا يعتقدون أنها روح الإسلام وجوهره.

ومجمل القول إن المعتزلة اهتموا بإستخدام العقل، وأقروا للعقل بالسلطة المطلقة واعتبروا الشرع موضحاً ومتمماً لشريعة العقل وإذا حدث تناقض بين ما جاء به الوحي وبين مغالاة ما حكم به العقل فلا بد من تأويل الوحي بما يوافق أفكارهم وقواعدهم لأن شريعة العقل عندهم في منتهى القداسة، لا يمكن أن تمس بأي حال من الأحوال، إلى درجة المغالاة والتطرف، ونفي صفات الله وقدرته وغيرها من المبادئ البعيدة عن روح الإسلام وما جاء في الدين، وابتعدوا عن النص القرآني واعتبروه مخلوقاً مما أدى إلى اتساع الهوة بين عامة المسلمين من أهل السنة من الفقهاء والعلماء وعامة الناس وبين مذهب الاعتزال وتضاعفت نقمة المحدثين من أهل السنة عليهم عندما وقف الحكام العباسيون بجانبهم، وحاولوا فرض آرائهم ونظرياتهم التي تخدم السياسة والسلطة العباسية على الناس بالسيف، ولاسيما مسألة خلق القرآن التي جرت المحنة والبلاء على فريق من كبار العلماء وبلغت أشدها في عهد المأمون 198هـ/ 813م والمعتصم 218هـ/ 833م والواثق 226هـ/ 842م منفذين لوصية المأمون في مناصرة المعتزلة والتنكيل بخصومهم، وانتشر مذهب الاعتزال حتى جاء المتوكل بن المعتصم 232هـ/ 847م فخفّف من حدته، وفسح المجال لأهل السنة أن يعبروا عن آرائهم حسب اجتهادهم ورفع منزلتهم بين الناس. من خلال ما تم سرده نجد أن المعتزلة لم يتعرضوا منذ نشأتهم لمقاومة الحكام الذين عاصروهم، فالامويون وإن لم

= الديصانية والمنانية، أنظر الشهرستاني : الملل والنحل، ص 88.

(1) الخياط : الإنتصار، ص 30-31.

(2) أحمد بن المرتضى : المنية والأمل، ص35، ويذكر الكثير من المجادلات والمناظرات بين المعتزلة وخصومهم.

يقفوا إلى جانبهم، كما فعل بعض الحكام العباسيين، ولكنهم لم يتدخلوا في أمورهم وفسحوا المجال لهم ولغيرهم للبحث وللخصومات المذهبية وإن اجتهدوا في محاربة العلويين والخوارج حتى يشغلوهم عن شؤون السياسة وسوء الإدارة للبحث والتفكير في الخصومات في العقائد والآراء. واتبع العباسيون في السنين الاولى من عهدهم نفس سياسة بني أمية مع المعتزلة ومع انتهاء خلافة الرشيد 170هـ/ 786م انصرفوا إلى التنكيل بالعلويين (الشيعة) ومطاردتهم، ولما جاء المأمون 198-218هـ/ 813-833م تبنى بنفسه آراء المعتزلة وقربهم من مجالسته وجعل منهم الحجاب والوزراء، وعقد المجالس للمناظرة بينهم وبين الفقهاء والمحدثين وقد ساد مذهبهم بصفته مذهباً رسمياً لا بصفته مذهباً عقلياً، وقد اكسبتهم هذه المعاملة نفوذاً وسلطة سياسية استغلها المأمون لتأكيد سلطته وشرعيته في الحكم، واستغلها المعتزلة لفرض آرائهم بالقوة مما جعل عامة الناس والعلماء تنقم عليهم حتى عدهم أبو يوسف تلميذ ابي حنيفة من الزنادقة، كما أفتى مالك والشافعي بعدم قبول شهادتهم، وكان محمد بن الحسن الشيباني لا يجيز الصلاة معهم[1]. وبنظرة فاحصة لكل الفرق والخصومات المذهبية والتي استمرت قروناً من الزمن نجد أنها أضرت بالمسلمين، وأدخلت على العقيدة الإسلامية بعض الاراء والمعتقدات من الديانات القديمة كاليهودية والنصرانية وغيرها مما دفعهم إلى تعقيد الشريعة ولفها بالغموض رغم بساطتها والتي جاء بها الرسول ﷺ وكانت هذه الفرق أُلعوبة في يد رجال السياسة من الخلفاء والامراء بل هم صنيعتهم يؤازرونهم لدعم مواقفهم السياسية ولضرب كل فرقة بأخرى حتى ينشغل الناس بأمور ثانوية تبعدهم عن أمور السياسة وما فيها من ظلم وطغيان، فالقرآن واحد والرسول جاء للمسلمين كافة والله واحد أحد ولا خلاف على هذا بين أحد من أصحاب الفرق شيعة أو خوارج أو معتزلة، والقضية الوحيدة التي كانت سبباً في الخلاف كله هي قضية الإمامة والخلافة، وهي قضية سياسية بحتة تؤكد مدى ارتباط هذه الفرق بهذه النزعة.

والواقع الذي لا يمكن تجاهله أن لكل طرف من الاطراف حسناته وسيئاته فكل الفرق قد أفسدت وأدخلت على الدين من البدع والخرافات مايشوّه وجهه ويسيء إلى تعاليمه ومبادئه، كما أصلحت من ناحية اخرى وأفادت الفكر وأكسبته

(1) محمد ابو زهرة : المذاهب الإسلامية، ص227.

قوة ومرونة في وجه حركة الشعوبية والزندقة وتهيأ لكل الاطراف بواسطة هذا الصراع الفكري نشر الثقافة الإسلامية وساهم في إحياء النشاط الفكري والثقافي ووقفوا إلى جانب العقيدة في اكثر من محنة ضد الخطر الذي أحدق بها في تلك الفترة من تاريخ الإسلام ومهما كان الحال فالتحجير على العقول، وتحديد صلاحياتها يعتبر إساءة إلى العلم والى الدين والى الامة، ولكن هذا لا يعني التشجيع على استخدام العقل في طرح آراء تبعدنا عن روح الإسلام وتعاليمه، كما فعلت فرقة الحائطية أتباع أحمد بن حائط القدري، والحمارية من معتزلي عسكر مكرم حيث كانوا يقولون بالتناسخ ويقولون أن للخلق ربين وخالقين «أحدهما قديم وهو الله سبحانه وتعالى والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم»، فهذا أمر مرفوض شكلاً ومضموناً لأن القرآن أجاب عن كل هذه التساؤلات ولا يصح أن نعتبرهم فرقاً مغاليةً بل نتفق مع البغدادي الذي اعدهم فرقاً كافرة وذكر فضائحهم[1]، واعتبرهم فرقاً ضالة بعيدة عن روح الإسلام وانتهت هذه الفرقة بخروج ابي الحسن الاشعري عنهم بعد ما كان ينتمي إلى مذهبهم بدليل ما ذكره أبو بكر الصيرفي: (كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم)[2] والحقيقة أن الذي أتى على مجد المعتزلة وأذهب ريحهم هو تلك الإصابات الخطيرة التي استهدف لها الكثير منهم نتيجة ارتمائهم في أحضان الآراء الدخيلة الملحدة أو المنحرفة بعد أن حرّفوا الشريعة وبذلك صدق فيهم القول: (ولئن كانت بدايتهم دفاعاً عن الإسلام من طعنات أعدائه، فلقد كانت نهايتهم تعصباً مذهبياً لغاية التطرف والمغالاة)[3].

(1) البغدادي : الفرق بين الفرق، ص186.

(2) الشهرستاني : الملل والنحل، ج1، ص132 -133.

(3) مصطفى الصاوي الجويني : مجلة العربي عدد 122، ص143 سنة 1990



الخاتمة

1- بدأت بوادر الخلاف في صفوف الجماعة الإسلامية حول نظام الحكم وطريقة تطبيقه في المجتمع الإسلامي منذ وفاة الرسول مباشرة 10هـ/ 632م والذي أدى فيما بعد إلى تفرقهم شيعاً وأحزاباً وفرقاً فكانت السياسة أداة تفرقة وخلاف منذ البداية وعلى طول فترة الدراسة وما بعدها.

2- رغم صيغة الشورى المفتعلة التي رافقت بيعة السقيفة، نجد أن قريشا حالت دون خروج السلطة من المهاجرين وأصبحت نظرية فرضها القرشيون على المسلمين كافة وكانت من أهم أسباب الخلاف بين المسلمين حول معايير اختيار الحاكم.

3- وقعت الخلافة كمؤسسة ونظام في المأزق التشريعي الذي لم يفارقها بعد ذلك، بحيث كان على القيّمين عليها أن يجدوا لها التنظير الإسلامي المتطابق في ظل ما يعرف بالشورى، وليس من قبيل الصدفة تجاهل القرآن لأمر السلطة بعدما وضع الاساس وهو الشورى، فهذا التجاهل نابع من الاختيار الأول للدين والروح بالمعنى الارادي والحر الباطني، وأثبتت الوقائع التاريخية أن ما جرى في السقيفة كان صراعاً حول من يتولى السلطة «الزعامة».

4- إن التقسيم في توزيع الثروة أدى إلى ظهور طبقة من الأثرياء في عاصمة الخلافة وهو أمر خلق حالة من انعدام التوازن الاقتصادي والاجتماعي بحيث لم يعد ممكناً تفادي الانفجار بعد غياب الخليفة القوي، هذا التمييز في المجتمع الإسلامي خلق طبقة مميزة بالنفوذ والسيطرة، وتعالت على سواها مما أدى فيما بعد إلى نشوء عصبية الموالي من غير العرب والذين ساهموا بشكل كبير في خلق ما يعرف بالفرق الإسلامية.

5- إن سياسة العطاء التي اعتمدت على إغضاب البعض وإسكات البعض الآخر من بني هاشم وزعماء القبائل وغيرهم، لم تستطع أن تضمن الاستقرار إلى الابد وإن سخط العامة والشذوذ بدأ يتنامى ويولد الاحقاد ويثير الفتن لأن العطاء نفسه يذكي الضغائن ويساهم في السخط والتمرد وكان من نتائجه ظهور فرق الغلاة المضادة لبني أمية ولسياستهم المالية، كما حدث مع سكان المغرب العربي، والخوارج في المشرق والمغرب وبعض ثورات الشيعة الذين رفضوا العطايا وطريقة توزيعها، مما أدى إلى قيام ثورات مسلحة أنهكت ميزانية الدولة.

6- أصبح الصراع الاقتصادي عاملاً مهماً جداً في تغذية الثورات السياسية والاقتصادية ودافعاً مهماً للانخراط في فرق الغلاة، فظهرت حركة القرامطة، وحركة الزنج وكانت هذه الحركات دوافعها سياسية واقتصادية واجتماعية، إلا أنها استغلت حتى الحد الاقصى بعد ذلك، وتحولت إلى حركة إقطاعية انفصالية شعوبية، استغلت الدين وحاولت أن تجعل من آرائها في الغلو فرقاً دينية تنادي بالمساواة والعدالة، وهذا أدى إلى تغيير مستمر في الأسر الحاكمة في بغداد وإلى ضعفها ووقوعها في يد الاتراك 232هـ/ 946م والبويهيين 334هـ/ 1055م.

7- نتيجة لتشجيع بني أمية للعصبية القبلية، فقد دفعوا ثمناً غالياً بعدما ثارت ضدهم كل الشرائح الاجتماعية المهمشة والرافضة من فرق الغلاة من شيعة وخوارج وموالي وعبيد ممن رفع قدرهم الإسلام والخلفاء الراشدون، وفقدوا هذا الامتياز في عهد الامويين.

8- إن تصدي العصبية العربية للتغلغل الفارسي والموالي له دافعه القوي وهو المحافظة على الدولة العربية المستحدثة، ولايمكن التفريط بها بيد من دخل حديثاً للإسلام، أضف إلى ذلك اشتراكهم مع كل خارج على السلطة الاموية والعباسية وإثارة الفتن، هذا التصادم أدى إلى ظهور بوادر الشعوبية في الدولة الاموية التي اتخذت شعار المساواة بالعرب غطاءً للتستر والاختفاء، حتى أصبحوا يعرفون بـ «أهل التسوية».

9- يمكن أن نشير إلى أن الانتماء الثقافي للعروبة أصبح يسير جنباً إلى جنب مع الانتماء العرقي لها منذ قيام الدولة العباسية لكن ذلك لا يعني أن الدولة الإسلامية في العهد الاموي والعهد العباسي الاول كانت متحاملة على المسلمين من غير العرب كي يزعم البعض بأن ظهور بعض الحركات الهدّامة كان بسبب هذا

التمييز العنصري وضعف مفهوم العصبية العربية منذ تدخل الاعاجم في الحكم في العصر العباسي الثاني وما تلاه، وتسمح بالتالي ما جاء من ردود أفعال لحركة الشعوبية والزندقة كان أسبابها أعمق وأخطر حيث سعت للنيل من الامة العربية، وضرب العقيدة الإسلامية والعروبة والعبث بقيم وأخلاق ومثل المجتمع الإسلامي.

10- من الآثار الدينية الخطيرة التي ترتبت على حركة الزندقة، تكمن في محاولات تزييف الاحاديث النبوية الشريفة، والعبث بكتب الفقه وإنكار الاديان جميعا، ولقد تسللت عقائد وتعاليم المجوسية إلى عقائد الخوارج وخاصة فرقة الازارقة المغالية التي اتخذت من مدينة الأهواز مركزاً لنشاطها السياسي والحربي وأصبحت تنادي بتعاليم المجوسية التي تتعارض تماماً مع تعاليم الإسلام.

11- أما فرقة المرجئة، فرغم اعتدالها في مبادئها السياسية والدينية إلا أن الشعوبيين والزنادقة نجحوا في التسلل إلى صفوفها، واستتر هؤلاء وراء ستار إعتدال المرجئة حيث نصب أولئك التقاة من أنفسهم حماة للضعفاء والموالي، وقد وقع بعض قادة المرجئة فريسة لسموم الشعوبيين الدينية كذلك.

12- وجد الشعوبيون في فرق الشيعة التي أعلنت عداءها وبغضها للدولة الأموية الملاذ الأمين والمجال الخصب لتسللهم فيها وتكونت منهم فرق الغلاة في أول الأمر مثل فرقة السبئية، و فرقة الكيسانية والإسماعيلية وكذلك حركة الخرمية. وهكذا نجد مدى خطورة حركة الزندقة وآثارها الكبرى على الفرق وغلاتهم حيث كانت تتخذ من الإسلام ستاراً لاستدراج العامة وإبعادهم عن روح الإسلام.

13- ومن الأمور المهمة التي اختلف المسلمون حولها «مصطلح الإمامة» حيث حاول كل فريق مغال أن يوظفه لمصلحته السياسية، حاولتُ قدر جهدي في هذه الدراسة أن أثبت من خلال الوقائع التاريخية والنصوص، أن هذا المصطلح كان على عهد الرسول (ص) يحمل معنىً دينياً أكثر منه معنىً سياسياً، ولم يتبلور هذا المصطلح ويحدد بشكل مقنن سياسياً إلا في عهد عثمان بن عفان 23هـ/ 644م وظهور الشيعة الذين أكدوا على إمامة علي بن أبي طالب 35هـ/ 655م السياسية والدينية وتبلور الفكر الشيعي على هذه النظرية «نظرية الإمامة».

14- لقد اصطبغت جميع الفرق وغلاتها بصبغة دينية قوية نظراً لما للدين من

أثر ومكانة في النفوس، ولاعتقادهم وإيمانهم الراسخ أن آراءهم وطموحاتهم السياسية لن تنجح إلا عن طريق واحد وهو تغليفه بالدين رغم أن الصراع بين هؤلاء جميعاً كان صراعاً سياسياً حول منصب الخلافة وأحقية كل طرف من أطراف النزاع في تولي الامر.

15- إن خروج جميع فرق الغلاة عن دولة الخلافة كان لأسباب سياسية بحتة هدفها الوصول إلى السلطة متخذة من بعض الشعارات الدينية ستاراً لتحقيق أغراضها سواء كان شعار العدالة أو المساواة، أو شعار أحقية الأمة في اختيار الخليفة الامام أو شعار أحقية البيت العلوي في تولي أمر الخلافة مستغلين الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتحقيق ذلك وتغذيهم حركة الشعوبية والزندقة بأفكارها الهدامة التي تسربت إلى عقائد هذه الفرق المغالية من أمثال فرقة الازارقة، والصفرية، والاسماعيلية، والفرق الباطنية الهدامة وبعض أفكار المعتزلة ومبادئهم وكلها بعيدة عن روح الإسلام والقرآن.

أخيراً نستنتج أن الصراع على السلطة والسعي إلى تولي الأمور السياسية هي الأرضية التي غذت فرق الغلاة وساهمت في ظهورهم وعندما وصفهم المؤرخون[1] بالغلاة لم يكن هذا تجنياً كما يعتقد بعض المستشرقين أو المؤرخين المحدثين[2].

ولفظة الغُلاة جاءت من خلال تشددهم في آرائهم ومعتقداتهم واتباع كل الوسائل من قتل الأبرياء وسفك الدماء وإثارة الفتن والحروب لغرض بث معتقداتهم وأفكارهم كما أوضحنا من خلال الدراسة ولكن الذي يجعلنا نتأمل خيراً أن هذه الفرق وعلى كافة اتجاهاتها تتفق في الأصول مثل وحدانية الله الواحد الأحد، وتؤمن بالقرآن دستوراً لهم جميعاً وإن اختلفوا في طريقة تفسيره وبأن محمداً بن عبد الله الرسول الأمين، وبيوم القيامة، وبكل الكتب السماوية وكل الأنبياء وما عدا ذلك صنعته الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والأمل موجود في وحدة المسلمين من جديد والدعوة ملحة لننهض ونواجه التحدي، ونقف ضد كل التيارات المدمرة ونأخذ العبرة من الذي حدث تاريخياً،

---

(1) البغدادي ؛ الشهرستاني ؛ ابن حزم.

(2) فلهوزن ؛ كارل بروكلمان ؛ محمود إسماعيل ؛ الجابري.

فحركة الشعوبية والزندقة لم تنته بعد ولا تزال تنفث سمومها إلى وقتنا الحاضر، وإن أخذت شكلاً آخر وأسلوباً أكثر تطوراً.

فالإسلام هو دين كل الناس دين المحبة والسلام والعدل والمساواة دين الحرية الفكرية والثقافية، يدعو إلى الرحمة ويرفض العنف بكافة أشكاله واتجاهاته مهما تكن الأسباب والدوافع، ونحن نرفض هذه الفرق وكل ما تنادي به شكلاً ومضموناً من أجل الحفاظ على وحدة الأمة والتمسك بمقوماتها الدينية والقومية لتواصل مسيرتها التاريخية الحضارية.



تحديد المصطلحات والملاحق



تحديد المصطلحات

الخلافة:

أولاً في القرآن:

خلف: ﴿ فَخَلفَ مِن بَعْدِهِمْ خلف ورثوا الْكِتَابَ. ﴾(169)الأعراف 7

اخلفني: ﴿ وقَال مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني في قومي وَأَصْلِحْ. ﴾ (142)ك الأعراف 7

أستخلف: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ. ﴾(53) م النور24

خليفةً: ﴿ وَإِذْ قَال رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إني جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً. ﴾ (29) م البقرة 2

﴿ يا داود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْضِ فَاحْكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِ. ﴾ (25) ك ص38

خَلائِفَ: ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ. ﴾(167) م الأنعام 6

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا. ﴾ (73) ك يونس1

﴿ هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ في الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيهِ كُفْرُهُ. ﴾ (39) ك فاطر 35

خُلَفَاء: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ (68) ك الأعراف 7

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْضِ﴾ (73) ك الأعراف 7

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ. ﴾ (64) كـ النمل 27[1]

ثانيا في الحديث:

في حديث عمر ﷺ لولا الخليفة لأذنتُ. وفي رواية: لو أطقتُ الأذان مع الخليفة بالكسر والتشديد أو القصر.[2]

الأصل اللغوي للاصطلاح:

الخلافة: الإمارة وهي الخليفة، وإنه لخليفةٌ بين الخلافةِ والخليفة الخلافةِ، وهو وأمثاله من الأبنية كالرمية، والدليل مصدر يدل على معنى الكثرة، يريد به اجتهاده في ضبط أمور الخلافةِ وتصريف أعنتها.[3]

ابن سيده: قال الزجاج جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه وقال غيره: الخليفة السلطان الأعظم، وقد يؤنث[4].

وأنشد الفارابي:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قال: ولدته أخرى لتأنيث اسم الخليفة والوجه أن يكون ولده آخر.

نظر ابن عربي إلى الخلافة على أنها (نيابة) مجردة عن شخص النائب والمناوب عنه فيما ملّكه التصرف فيه وبذلك تتعدد أشخاص الخلائف بتعدد فعل الاستخلاف.

والخلفاء هم أفراد النوع الإنساني: وهم إما خلفاء عن الله - الرسل الأنبياء - ويخلفون الرسل ويخلف بعضهم بعض (أولياء).

وأما الخلافة اليوم فعن الرسل لا عن الله، فإنهم ما يحكمون إلا بما شرع لهم الرسول ولا يخرجون عن ذلك، وأشكال ظهور الخلافة عن الله في الإنسان ستة أشكال وهي الولاية، النبوة، الرسالة، الإمامة، الأمر، الملك[5].

---

(1) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص238، 240.
(2) ابن منظور: لسان العرب المحيط، المجلد الثاني ص883.
(3) ابن منظور: لسان العرب المحيط، المجلد الثاني ص 882.
(4) ابن سيدهلا: المخصص. ص413.
(5) سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، الحكمة في حدود الكلمة، ص 101.

وعرّف العز بن عبد السلام الخلافة فقال: (رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم)[1].

وقال البيضاوي: (الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملة)[2].

ويقول ابن خلدون: (الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي، في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به)[3].

وفي هذه الدراسة سوف يُستخدم لفظ الخلافة كمصطلح سياسي سلطوي استخدم بعد وفاة الرسول عليه السلام أكثر مما هو لقب ديني كما تعودت المصادر الإسلامية أن تتناوله وتوصي به في ذهن المسلمين وهذا ما حاولت إيضاحه بشيء من التفصيل خلال البحث.

الموالي

الأصل اللغوي للإصطلاحك

المولى الحليف، وهو من انضم إليك بعزك وامتنع بمنعتك، قال عامر الخصفي من بني خصفة:

هم المَوْلى وإن جنفوا علينا وإنا من لقائهم لزور

قال أبو عبيدة: يعني الموالي أي بني العم، وهو كقوله تعالى: ﴿**ثم يخرجكم طفلا**﴾.

والمولى: المعتق انتسب بنسبك ولهذا قيل للمعتقين الموالي، قال: وقال أبو الهيثم: المولى على ستة أوجه: المولى ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم، والمولى الناصر، والمولى الولي الذي يلي عليك أمرك، قال: ورجل ولاء وقوم ولاء في معنى ولي وأولياء من الولاء مصدر، والمولى، مولى الموالاة وهو الذي يسلم على يدك ويواليك والمولى مولى النعمة وهو المعتق أنعم على عبده

(1-2) ندوة التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، ص83.

(3) ابن خلدون :المقدمة، المجلد الاول، ص338.

بعتقه، والمولى المعتق لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له، فهذه ستة أوجه.

قال الجعدي:

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطيناً يسألون الأتاويا

(والحليف عند العرب مولى، وإنما قال موالياً فنصب لأنه رده إلى أصله للضرورة)[1].

ويقول ابن الأثير:

(جاء في وصية المنصور لابنه المهدي، إذ خاطبه قائلاً: (وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خرسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودمائهم في دولتك، وأن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات في أهله وولده، وما أظنك تفعل)[2].

أما الجاحظ فيقول: (الولاء لحمة كلحمة النسب. وحليف القوم منهم لأن السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة. فلنا النسب الذي يصوبه العربي ولنا الأصل الذي يفتخر بهم الأعجمي... فقد شاركنا العربي في فخره والخرساني في مجده والنبوي في فضله. ثم تفردنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا إليه (لأن) شرف الموالي راجع إلينا)[3].

وينقسم الموالي إلى قسمين. مولى رق أو مولى اصطناع وحلف ومولى الرق هو العبد يعتقه سيده فيصبح ولاؤه له ثم يرثه إذا مات ولم يترك عصبة[4].

ولقد كان اسم الموالي يطلق في العصر الأموي على جميع الذين أسلموا من غير العرب فلقد كانت وضعية الموالي من الناحية الشرعية وضعية أناس أحرار

(1) ابن منظور: لسان العرب المحيط، المجلد الثاني ص 985، 986.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد السادس ص 19.
(3) رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة في رسائل الجاحظ ص 27، 29.
(4) ابن خلدون: المقدمة، المجلد الأول، ص 237.

ولكنهم من الناحية الفعلية الواقعية لم يكونوا يعتبرون في مرتبة واحدة مع العرب لقد كان هناك تمايز اجتماعي وحواجز سياسية[1].

أما الموالي في الدولة العباسية، فقد كانت تعني تلك المجموعة المتعددة العناصر التي جمعها الخلفاء وبنو العباس من حولهم خولاً وأعواناً وأقاموا معها لاجتذاب إخلاصها رابطة الولاء(ولاء الاصطناع) ولو أن بعضها كان من عبيدهم السابقين وبعضهم من متفرقة الناس من عرب وعجم ولم يكن لهؤلاء أول الأمر من دور عسكري أو علاقة بالجيش وحين يذكر المؤرخون اصطناع الخلفاء (أو المنصور والمهدي بالذات لمواليهم فإنما كانوا يعنون ما أعطوهم إياه من أعمال إدارية في البلاط أو في الولايات)[2].

ومن خلال ما تم عرضه من آراء وتفسيرات نجد أنهم قوم أحرار عمل الإسلام على تسويتهم بالعرب ولكن من الناحية السياسية والتي بدأت منذ بداية حكم بني أمية ظهر نوع من التمايز الاجتماعي والسياسي بين العرب والموالي وبالتالي فإن ما له علاقة بهذا البحث هو ردة فعلهم السياسية أو دورهم في صنع الأحداث والمولى الذي كان موضوع بحثنا هو مولى الرق ؛ومولى الاصطناع والحلف.

الإمامة

أولا: في القرآن[3]

إن القرآن عندما استخدم مصطلح (الإمام) فإنه قد خص به في الغالب، الإمامة والتقدم في الدين.

فالله قد قال لإبراهيم: ﴿ **إني جَاعِلُك لِلنَّاسِ إمَاماً**﴾ البقرة 124.

والإمام في قوله سبحانه: ﴿ **وَيَتلُوهُ شاهد منه وَمِن قَبْلِهِ كتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً** ﴾ هود الآية17.

وفي قوله ﴿ **يَوْمَ ندعو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ الإسراء 71.

وفي قوله ﴿ **وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** ﴾ الفرقان 74.

---

(1) محمد عابد الجابري :نقد العقل العربي، العقل السياسي العربي، ص244.

(2) الطبري :تاريخ الطبري، ص 175.

(3) محمد فؤاد عبد الباقي :المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم.

وجميعها استخدامات في نطاق النبوة والإمامة الدينية، وليس فيها من مدلولات لنظام الدولة السياسي وسلطتها العليا شيء.

الأصل اللغوي للكلمة:

الإمامة والإمام: كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم[1] أو كانوا ضالين. يقول ابن عربي في قوله ﷻ: ﴿ **يَوْمَ ندعوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ الإسراء الآية 71. قالت طائفة بكتابهم وقال آخرون بنسبهم وشرعهم، وقيل بكتابه الذي أحصى فيه عمله وسيدنا رسول ﷺ إمام أُمتِه، وعليهم جميعا الائتمام بسنته التي مضى عليها. ورئيس القوم إمامهم.

ابن سيده: والإمام ما ائتم به من رئيس وغيره، والجمع أئمةِ[2]. وفي التنزيل العزيز: ﴿ **فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ** ﴾ التوبة الآية 12، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم الذين ضعفاؤهم تبع لهم.

وقال المازني: أئمة ولم يقلب، وإمام كل شيء :قيّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين وسيدنا محمد رسول ﷺ إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعيةِ، وإمام الجند قائدهم. وهذا أيمأ من هذا وأومأ من هذا اي أحسن إمامة منه، قلبوها إلى الياء ومرة إلى الواو وأخرى كراهية التقاء الهمزتين وقال أبو إسحاق: وإذا فضلنا رجلاً في الإمامة قلنا: هذا أومأ من هذا، وبعضهم يقول هذا أيمأ من هذا: والأصل في أئمة أمِمّة لأنه جمع إمام مثل مثال وأمثِله.

والأمام : بمعنى القدّام. وفلانٌ يَؤمُ القوم: تقدمهم، ويقال: صَدرك أمامك بالرفع إذا جعلته اسماً ونقول : أخوك إمامك بالنصب لأنه صفة. وقال أبو بكر: معنى قولهم يَؤمُ القوم أي يتقدمُهم أخذ من الأمام يقال: فلان إمام القوم، معناه هو المتقدم لهم ويكون الإمام رئيسًا كقولك إمام المسلمين.

وقوله عز وجل: ﴿ **وَٱجعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً** ﴾ الفرقان الآية 74[3].

فالشهرستاني يقول:(إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد، بحيث يفضي النظر فيها إلى قطع ويقين بالتعيين)[4].

---

(1) ابن منظور :لسان العرب المحيط، ص151، 152.

(2) ابن سيده : المخصص، ص 415.

(3) القرآن الكريم : سورة الفرقان، الآية 73.

(4) الشهرستاني : نهاية الأقدام في علم الكلام، ص 478.

وعضد الدين الايجي والجرجاني يقولان: (إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد. بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين)[1].

والجويني يقول: (إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد)[2].

والغزالي يقول: (إن النظر في الإمامة ليس من المهمات، وليس أيضا من فن المعقولات فيها بل من الفقهيات.. ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات به أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإن القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديدة النفار)[3].

ويعرفها الماوردي فيقول: (الامامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم في الأمة واجب بالإجماع)[4].

أما ابن عربي فيقول: (الخلافة هي الإمامة من حيث أنها تقتضي تقدم الخليفة على كل ما استخلف عليه وظهوره بجميع صفات من استخلفه وهي تختلف عن الإمامة من حيث إن مفهوم الاستخلاف نفسه يحمل في طياته عدم الأصالة: فالمستخلف مستعار في رتبة هي بالأصالة لغيره. أما الإمام فقد يكون في إمامته على وجه الاستحقاق والأصالة. ويقول: (إن سبب المنازعة أمران: الاستخلاف الذي هو الإمامة والخلق على الصورة. فلابد للخليفة من أن يظهر بكل صورة يظهر بها من استخلفه، فلا بد من إحاطة الخليفة بجميع الأسماء والصفات الإلهية التي يطلبها العالم فكل نائب في العالم، فله الظهور بجميع الأسماء)[5].

ويقول ابن خلدون: (وسُمّي القائم بذلك خليفة إماما، فأما تسميتهُ إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة، في اتباعه والإقتداء به، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله. واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم، ومنع الجمهور منه، وقد نهى أبو بكر ﷺ لما دعي به، وقال لست خليفة الله، فأجازه بعضهم[6] وقال :ولكني خليفة رسول الله ﷺ

(1) عضد الدين الأيجي: شرح المواقف، مجلد3، ص 261.
(2) الجويني :كتاب الإرشاد، ص410.
(3) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص134.
(4) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص3.
(5) سعاد الحكيم: المعجم الصوفي. الحكمة في حدود الكلمة، ص412.
(6) ابن خلدون :المقدمة. المجلد الأول، ص 191.

والخلافة هنا لقب سلطوي سياسي أطلق على الشخص الذي خلف الرسول عليه السلام أكثر مما هو لقب ديني).

أما كلود كاهن فيقول إن الإمامة حسب رأي الغلاة، ليست الإمام زعيماً دنيوياً فحسب، فقد خصه الله بميزات وفضائل ثابتة تجعله يهدي المؤمنين «سواء السبيل». ورأى بعضهم أنه يمكن اكتساب هذه الفضائل بالدرس والتحصيل فقط أو بالتحصيل والكفاح في سبيل الخلافة (وهذه الفكرة التي شاعت في النصف الثاني من القرن الثامن) واستنكرت فئة ثالثة أن ينصح الإمام بالسعي والكفاح خوفا من أن يقع هذا الرجل الموهوب عبثا في مكاره لا قبل له بها. مما ساقهم حينئذ إلى التنويه بصفات نفسية باطنية من واجب الإمام أن يخفيها على الناس فترة طويلة من الزمن وأن يحرص عليها[1]

ويقول أدونيس: التنويه بصفات نفسية باطنية من واجب الإمام أن يخفيها على الناس فترة طويلة من الزمن وأن يحرص عليها[2].

(يختلف الإمام عن الخليفة في أن الإمامة أولاً: حق أصلي، أما الخلافة فسلطة اكتسابية واقعية.

ويختلف ثانياً: في أن الخلافة عن الرسول مطلقة في مسائل الدنيا لكنها مقيدة في مسائل الدين، أما الإمامة فمطلقة في الدين والدنيا. ويختلف ثالثا في أن الخليفة ليس نائبا عن الله أما الإمام فينوب عنه. لكن ذلك لا يعني غياب الله، إنما يعني، على العكس مزيداً من حضوره الساطع الحي. فالإمام خليفة الله وخليفة الرسول في آن. وهذه الخلافة -النيابة ليست اختيارا من الناس وإنما هي اختيار من الله. وإذا كان الله هو الذي يختار الإمام الذي ينوب عنه، فقد خصه بالعلم كله، ما كان وما يكون، وعصمه من الخطأ). والله لا يعلم الإمام بالوحي، فهذا خاص بالنبي، وقد انقطع بعده لكنه يعلمه بالإلهام والنكت في القلب، والنقر في الأذن، والرؤيا في النوم، والملك المحدث له[3].

أما في هذا البحث فسوف نستخدم مصطلح الإمامة بالمفهوم الديني الذي قصد به في البداية كما كان في عهد الرسول عليه السلام والذي كان يطلق على إمام

(1) كلود كاهن (C. Kahen): تاريخ الشعوب الإسلامية، ص47.
(2) أدونيس، على أحمد سعيد: الثابت والمتحول. الأصول ص215.
(3) الأشعري :المقالات والفرق، ص97.

المسلمين ثم نتتبع تطوره من المفهوم الديني إلى المفهوم السياسي مع بداية تولى أبي بكر الصديق الخلافة ثم كيف أصبح هذا المعنى ذا طابع خاص عند الشيعة وتحديداً بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ. إلى أن وصل الإمام إلى لفظ خاص عند الغلاة الذين اشترطوا صفات خاصة به إلى درجة تأليهه الإمام ومنحه صفات ذات طابع إلهي كما هي فرقة السبئية وسوف نتناولها عند كل فرقة من الفرق.

العروبـــة

اولا : في القرآن[1]

عربي: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عربي مُبِينٌ﴾ 103ك النحل 16

﴿ نَزَل بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عربي مُبِينٌ﴾ 195ك الشعراء 26.

﴿ أعجمي وعربي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ 44ك فصلت 41

عربيًا: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءاناً عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ 2ك يوسف 12

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًا ﴾ 37م الرعد 13

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرءاناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ. ﴾ 113ك طه 20

﴿ قُرْءَاناً عَرَبِياً غَيرَ ذي عِوَجٍ لعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. ﴾ 28ك الزمر 39

﴿ كِتَابٌ فُصِّلتْ ءايَاتُهُ قُرْءاناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. ﴾ 3ك فصلت 41

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيًا. ﴾ 7ك الشورى 42

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. ﴾ 3ك الزخرف 43

﴿وَهَذاَ كِتَابٌ مُصَدِقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنْذِر الَّذِينَ ظَلَمُواْ. ﴾ 12ك الأحقاف 46

(1) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص 456.

ثانيا: في الأحاديث

قال رسول الله ﷺ: (ليست العربية من أحدكم بأب أو أم إنما العربية اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي)[1].

وروي عن أبي بكر الصديق ﷺ قوله: قريش هم أوسطُ العَرب في العَرب دارًا، وأحسنُه جوارا، وأعَربه ألسنِةً.

ثالثاً : في اللغة[2]

واختلف الناس في العَرب لم سُمُوا عرباً فقال بعضهم: أول من انطق اللهُ لسانهُ بلغة العرب، يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة والعرب المستعربة، وقيل: أن أولاد إسماعيل نشأوا بقرية وهي من تهامة، فنسبوا إلى بلدهم.

وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب يمنهم ومعدهم وعَربُ الرجل يعرُبُ عُرباً وعروبا، عن ثعلب، وعرُوبةً وعَرابةً وعُرُوبيّة، كفصح. وعَربَ إذا فصح بعد لُكنهِ في لسانه. ورجل عريب مُعْرِبُ. وعرّبه علمه العَربِيَة.

وفي حديث الحسن أنه قال له النبي: ما تقول في رجل رُعف في الصلاة ؟ فقال الحسن: إن هذا يُعرّبُ الناس، وهو يقول رُعف، أي يعلمهم العربية ويلحنُ، إنما هو رَعُفَ وتعريب الاسم الأعجمي: أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول عرّبته العربُ، وأعرَبتْه أيضاً، وأعرب الأغنمُ، وعَرُبَ لسانه بالضم، عُرُوبةً أي صار عربياً وتعرب واستعرب أفصح.

وجاء التعريف التاريخي عند ابن منظور حين يقول:

(وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها، فهم عرب يمنهم ومعدهم. . .والعرب المستعربة هم الذين دخلوا فيهم فاستعربوا)[3] وبذلك يعطى المفهوم الشامل الذي استقر للعرب.

---

(1) حديث حسن رواه الحافظ السلفي.

(2) ابن منظور: لسان العرب، المحيط. ص723، 724 (مادة عرب).

(3) ابن منظور: المرجع السابق، المجلد 15، مادة العرب.

مفهوم العروبة تاريخيـــاً :

ويبدو أن كلمة عرب كانت مألوفة بمعناها العام في مكة عند ظهور الإسلام[1] وترد كلمة عربي في القرآن الكريم، نسبة إلى اللغة العربية، في آيات عدة ذكرناها فيما سبق وكلمة عربي مقابل أعجمي للناطق بها[2] كما ترد إشارات إلى الأعراب (البدو) بالمقابلة للقارين[3] وورد في الحديث ذكر العرب إشارة لأهل القرى وتبقى لنسبة (العربي) في القرآن إلى اللغة العربية، وهى لغة أهل البادية والحاضرة، دلالتها المقبلة في تحديد الهوية، وأهميتها الأساسية في تكوين الأمة العربية. حيث جاء التنزيل بلسان عربي مبين، فثبت العربية وأكسبها منزلة خاصة، وجعلها أساس العروبة حين جعل النسبة إليها مقابل الفكرة القبلية السائدة التي كانت تؤكد النسب، فكان لذلك أبعد الأثر في تكوين الأمة العربية الإسلامية في التاريخ ولو استعرضنا مقولات الأقدمين من نقاد وكتاب ومؤرخين وفلاسفة في هذا الموضوع لوجدنا الجاحظ يقول : إن العروبة هي التي ينصهر فيها الموالي والعرب ينصهرون فكريا وقوميا وحضاريا، ويبشرون حتى بلسان الموالي بتلك الولادة التي تقدم على الأرض العربية أمة واحدة صنعتها العادات والأخلاق والشمائل والسجايا الواحدة والواقع الممتد والولاء للحضارة الجديدة. وهي أسباب أشد في فعلها وفاعليتها التوحيدية من النسب والعرق الذي باعد بين متعصبي العرب ومتعصبي الشعوبيين[4].

ويرى الفارابي: (أن التجمع البشري ينتهي إلى الأمم ويناقش الروابط في الأمة ليذكر رابطة النسب على رأي البعض، ويلاحظ أن مرور الزمن يذهب بها. ثم يورد الرأي الآخر وهو أن مقومات الأمة تشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان. وأن الأمم تتباين بحصول تباين في هذه الأمور الثلاثة)[5].

---

(1) القرآن الكريم، قال تعالى ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة.** ﴾سورة التوبة الآيتان 101، ومن سورة الأحزاب في قوله﴿**يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً** ﴾، الآية 19.

(2) البلاذري :انساب الأشراف تحقيق عبد العزيز الدوري، ص20.

(3) القرآن الكريم :سورة فصلت، الآية 44. وسورة النحل، الآية 103.

(4) الجاحظ :رسائل الجاحظ،ج1، ص29-34 تحقيق عبد السلام هارون.

(5) الفارابي: أراء أهل المدينة الفاضلة، ص154-157.

ويعطي المسعودي الأهمية الأولى للسان حين يتحدث عن العرب ولذلك يقرر: (إن إبراهيم لم يكن عربياً ولا إسحاق إبنه، وأن ابنه إسماعيل أول من نطق بالعربية وتكلم بها)[1] وبذلك يوضح عروبة إسماعيل ويجعل العربية أساس الانتماء إلى العرب.

فيما يعرف ابن خلدون العروبة ويقول : اللغة لها أهمية خاصة فهو يأخذ بالمفاهيم المألوفة ابتداءً، ليذكر أن العرب بائدة وعاربة ومستعربة وتابعة للعرب، ويفسر عروبة هذه الطبقات على أساس اللغة العربية. وهكذا تبقى اللغة العربية أساس العروبة[2].

وفي العصر العباسي، وخاصة في أواخر القرن الثاني للهجرة وأوائل القرن الثالث تتكرر الإشارة إلى العرب مقابل العجم، وإلى العروبة بمدلول ثقافي أساسه اللغة فابن قتيبة: يُعرب عن دور اللغة في قوله: (والدليل على أن أصل اللسان لليمن أنهم يقال لهم العرب العاربة، ويقال لغيرهم العرب المستعربة، يراد الداخلة في العرب المتعلمة منهم)[3]. وأكد الزمخشري نسبة العروبة إلى العربية وقال دفاعاً عن العربية: (والله أحمد، على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية) ثم أضاف: (ولعل الذين يغضون من العربية ويصغرون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خير رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه)[4].

ولاحظ البيروني صلة العروبة وارتفاع شأنها به، فقال: (ديننا والدولة عربيان، وتوأمان يرف على أحدهما القوة الإلهية، وعلى الآخر اليد السماوية) ثم يبين أن العربية لغة الإسلام والثقافة فيقول: (وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الأفئدة.)[5]

---

(1) المسعودي: التنبيه والأشراف، تحقيق دي غويه، ص75، 80.
(2) ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون، ص317، 318.
(3) ابن قتيبة: رسائل البلغاء، ج1، ص278، 282.
(4) الزمخشري :المفصل في صيغة الأعراب.
(5) البيروني :كتاب الصيونة، تحقيق الحكيم محمد سعيدو،رانا إحسان إلهي. المجلد 2، ص 19.

وبعد أن يذكر أن كل أمة تستحلي لغتها ميز العربية قائلا: (والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه... وزال الانتفاع...) ويعرّف محمد عمارة العروبة: بالمعنى الحضاري، لا العرقي على النحو الذي بلغته في الصراع ضد قطبي التطرف الشعوبي الرافض لكل ما هو عربي، والعصبية التي أحيتها الدولة الأموية والتي تغض من شأن كل ما ليس بعربي عرقيا[1].

ويقول عبد العزيز الدوري: كان للعروبة دلالة بشرية ابتداءً، ولكنها تطورت لنجد في اللغة والثقافة أساسها ومعناها. ويضيف: نلاحظ أن الحركة الشعوبية التي بدأت في القرن الثاني وتجاوزت القرن الثالث جوبهت من قبل أنصار العربية والإسلام بالتأكيد على أن العربية لغة وثقافة كانت قاعدة العروبة وأساسها[2].

وبعد فمن خلال ما تم عرضه نستطيع تلخيص مفهوم العروبة بالإعتماد على الفهم القرآني الذي يعتبر اللغة العربية أساس الوجود بالنسبة للعرب وفيما كان المفهوم القبلي يعتبر النسب والدم أساس الانتماء، فالعروبة بالمفهوم القرآني ليست عرقاً بقدر ما هي ثقافة ولغة التخاطب التي يتخاطب بها العرب وهي جزء من البناء الثقافي للمجتمع الإسلامي، وليس للعروبة علاقة بعرق أو بدم وبالتالي فإن حركة الشعوبية التي ظهرت في الفترة المحددة لهذه الدراسة واعتبرها المستشرقون صراعاً بين ما هو عربي وبين ما هو فارسي واعتبروا العروبة هي نقطة الخلاف بينهم متخذين من العرق والدم سبباً لذلك الخلاف والصراع، ونعتقد بخطأ هذا الرأي لأن الإسلام وحد بينهم جميعا بمجرد أن تكلموا باللسان العربي وتعلموا الثقافة العربية وهكذا تحدد مفهوم العروبة المستخدمة في هذا البحث على أساس ثقافي لا عنصري، واكتسب منهجاً يتحدى التجزئة السياسية أو الجغرافية. ولقد بقيت العروبة قاعدتها العربية، وبقي الإرث الثقافي قاعدة مشتركة، وهو يحوي فكرة الأمة العربية بمفهومها الثقافي ويربط العروبة بالإسلام.

إذاً اللغة هي وعاء الحياة ووعاء الفكر وتعد أهم رابطة قومية تربط أبناء الشعب الواحد برباط العبارة المشتركة والفهم المشترك (فمن تكلم العربية واتخذها لغة له،

---

(1) محمد عمارة: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المجلد الثاني، ص 386.

(2) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، ص47.

وعاش في المجتمع العربي عيشة العربي وأحس بما يحس به العرب من ألم أو أمل فهو عربي، ولو كان فارسي الدم أو تركياً أو رومياً)[1].

الشعوبيـة

اولاً : في القرآن

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ سورة الحجرات 13

فبالرجوع إلى التفاسير نجد ابن كثير يقول في تفسير هذه الآية إن المراد بالشعوب بطون العجم وبالقبائل بطون العرب[2]

وابن عباس لا يختلف عنه عندما يقول: إن المراد بالشعوب الموالي، وبالقبائل العرب[3]

ثانيا: الحديث الشريف

قال الرسول ﷺ: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية).

(لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

ثالثا: الأصل اللغوي للكلمة[4]

(وقد غلبت الشعوبُ، بلفظ الجمعِ، على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبي، أضافوا إلى الجمعَ لغَلَبتهِ على الجيل الواحدِ، كقولهم أنصاري. والشعوب : فرقة لا تفضل العرب على العجم.

والشعوبي : الذي يُصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم.

قال ابن الأثير : الشعوب ههنا العجم، ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب، أو العجم فخص بأحدهما، ويجوز أن يكون الشعوبي وهو الذي يصغّر شأن العرب، كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي).

---

(1) دي لاسى أُوليري، ترجمة حاتم حسان: الفكر العربي ومكانه في التاريخ. ص5.
(2) تفسير ابن كثير، 4، ص214.
(3) ابن الجوزي: زاد المسير، ج7، ص473.
(4) ابن منظور :لسان العرب، المحيط ص312.

أما من الوجهة التاريخية : فالشعوبية حركة تتعصب على العرب وتحتقرهم وظهرت في العهد الأموي تحت ستار «أهل التسوية» ولم تتضح معالمها كحركة منظمة إلا في العصر العباسي)[1].

أما الجاحظ فيقول : (. . .وأعلم انك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً، ولا أقل غناً، من أهل هذه النحلة.. ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزي كل لغة وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيأتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولم تكون ! لأراحوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم!. . . .)[2].

وهناك صلة وثيقة بين الزندقة والشعوبية، ذكرها الجاحظ في رسالته في بني أمية حيث قال عن الشعوبية: (إن أساسها العصبية التي لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية)[3].

ويعرفها ابن قتيبة: (إن الشعوبية نتيجة الحسد وهي تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة، وتغلو في القول، وتسرف في الذم. . .وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف، وتغض من النبي عليه السلام إذا ذكر بالشيء وهي تبعد من الله، وتفرط في الحسد. . .الخ)[4]. ويقول ابن النديم في الفهرست: (وهو وعلان (بن. .) الشعوبي أصله من الفرس وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمتنافرات منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون وللبرامكة عمل كتاب الميدان في المثالب الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها)[5]. ويروي الطبري: إن المعتصم سمع بأن الأفشين يتجنى على الإسلام والمسلمين ويقول: (لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب، والمغاربة، والأتراك، والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس، وهؤلاء الذباب يعني المغاربة إنما أكلة رأس، وأولاد الشياطين يعني «الأتراك» فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم، ويعود الدين

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ص320.

(2) الجاحظ : البيان والتبيين، ج3، ص405، 406.

(3) الجاحظ : رسالة الجاحظ في بني أمية، ص 299؛ المقريزي : النزاع والتخاصم، ص151.

(4) ابن قتيبة : رسالة البلغاء. كتاب العرب أو الرد على الشعوبية، ص269.

(5) ابن النديم : الفهرست، تحقيق رضا نجد، ص117، 118.

إلى ما لم يزل عليه أيام العجم)[1].

ويقول أحمد أمين: (إن أصل الشعوبية من الشعوب، ويعتقد أنها جاءت من احتجاج الموالي بالآية الداعية إلى المساواة والتقارب بين الشعوب **﴿يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** ويستبعد أحمد أمين بحق رأى بعضهم في أن المقصود من الشعوب في القرآن هم العجم وبالقبائل العرب)[2].

ويعرفها الدوري ويقول :(الشعوبية تمثل حملة على العرب وإنها تنطوي على نزعه إيرانية على هامش الحياة الإسلامية)[3].

ويقول حسين قاسم: (وكانت هذه الحركة النامية الشعوبية، بين أفراد الطبقات المضطهدة ذات طابع تقدمي، لأنها كانت تنشد الدفاع عن كرامة الشعب وإظهار مآثره، ورفع الاحتقار والانتقاص من شأنه)[4] والشعوبية (تسمى حركة بث الصبغة الفارسية باسم الشعوبية وجرى الناس على أن يعتبرها تياراً من رد الفعل بين الفرس ضد السادة العرب[5]، إلا أن هذا التفسير غاية في الضيق فقد كان أصحاب هذه الحركة هم طبقة الكتّاب العاملين في الدواوين).

ويقول شاكر مصطفى: (وحركة الشعوبية تيار جمع تحت هذا الاسم الحركات والجهود التي قامت بها عدة شعوب وعدة طوائف دينية وعدة نوازع اجتماعية ومادية لأسباب بعضها ديني ولكن بعضها الآخر اقتصادي أو سياسي بهدف إلغاء التناقض أو التسلط الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي)[6].

إذاً فالشعوبية موقف أفرزته ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية عند بعض الفئات من غير العرب وهو موقف امتد بين الحسد والحقد إلى العداء الصامت ثم إلى النشاط الفعال بهدف الانتقاص من العرب تاريخاً وحضارة وفكراً وانتماء قومياً. وقد بدأت طلائعها منذ العهد الأموي رافعة شعار «التسوية» بين

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص109.
(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج1، ص57.
(3) الدوري، عبد العزيز :الجذور التاريخية للشعوبية، ص66.
(4) عزيز، حسين قاسم : البابكية، ص93.
(5) جب : دراسات في حضارة الإسلام، ص15، 18.
(6) شاكر مصطفى : دولة بني العباس الجزء الأول، ص188.

العرب وغيرهم لأنها لا تجرؤ على المطالبة بأكثر من ذلك وعلى ضوء هذا الفهم تم التصدي لدراسة حركة الشعوبية في هذا البحث، وتبين أنها كانت حركة تسعى لهدم الدين الإسلامي، واختصت بالتحرك في ميادين الثقافة وحياة المجتمع والسياسة والاقتصاد وعملت ضد العرب، وسعت في النهاية إلى سلب جوهر الدين الإسلامي، وبدا عمل الشعوبية متمماً لعمل الزندقة.

الزندقة

التفسير اللغوي للكلمة :

جاء مصطلح الزندقة من كلمة زنذة أو زنذيك الفارسية وتعني من يعمل بالتأويل (والزند كتاب وضعه ماني لتأويل كتاب آفستا المقدس لزرادشت)[1].

وقد انتشر استعمال الكلمة تحت ظل الساسانيين قبل الإسلام للدلالة على المانويين الذين طوردوا وقتلوا مع صاحبهم ماني، وحرم مذهبهم كسرى آنو شروان لأنهم حرفوا الزند وأتوا بتأويل جديد يخالف المذهب الزرادشتي الرسمي.

وكلمة الزندقة تطلق في بادئ الأمر على الذين يعتنقون مذهب المانوية ثم اتسع معناها حتى شمل كل صاحب بدعة وكل ملحد، وأطلقت أخيراً على كل من يحيا حياة ماجنة من الشعراء والكتاب[2] وبذلك يمكن تقسيم الزنادقة إلى طوائف ثلاث:

أ- طائفة يسميها صاحب الفهرست رؤساء المنانيين في الإسلام[3].

ب - طائفة المتكلمين.

ج - طائفة الأدباء الماجنين من كتاب وشعراء.

والدوافع تكاد ترجع كلها إلى ثلاثة أيضاً:

فمنهم من كان يؤمن بالمانوية عن إخلاص وعقيدة دينية ومنهم من تزندق احتفاظاً بدين آبائه وإرضاء للنعرة القومية والنزعة الشعوبية، وطائفة أخرى اتخذت

---

(1) أنظر دائرة المعارف الإسلامية. مادة الزندقة، ص120.

(2) عبد الرحمن بدوي من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص24.

(3) ابن النديم : الفهرست، ص471، 473.

من الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكري التي يلجأ إليها الشكاك[1].

ويقول الطبري إن كلمة زنديق استعملت بالمعنى السابق نفسه بين حمراء الموالي في الحيرة والكوفة في العهد الإسلامي بدليل أنها فسرت على الشكل نفسه من قبل الخليفة المهدي حين قال لابنه، عقب قتل بعض الزنادقة: (أي ابني إذا صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل بالآخرة ثم تخرجها من هذه إلى عبادة تدعو إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين:

أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى بداية النور)[2].

ويرى الجاحظ أن الزنادقة هم الشعوبيون، أعداء العروبة والإسلام، فيقول: (فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله إن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات لتنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف)[3].

وتحدث طه حسين عن الزندقة في العصر العباسي، فوصفها (بأنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص، ويرى إنها أيضاً ضرب من الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيها من عقيدة دينية)[4].

أما المؤرخ عبد العزيز الدوري فيرى أنّ الشعوبية هي العامل الأول في قيام حركات الزنادقة فيقول: (إن الشعوبية كانت من الدوافع الأساسية للزندقة، وهذا نتيجة الارتباط الوثيق من ناحية السير التاريخي بين العروبة والإسلام من جهة، وبسبب ارتباط الشعوبية والزندقة بمفاهيم وعقائد دينية قديمة وإسلامية ومجوسية

---

(1) عبد الرحمن بدوي : نفس المصدر السابق، ص34.
(2) الطبري: تاريخ الطبري، المجلد الثامن، ص220.
(3) الجاحظ : البيان والتبيين، ص14.
(4) طه حسين : حديث الأربعاء، ج2، ص163.

وغيرها من جهة أخرى)[1].

وقد لاحظنا أن مصطلح الزندقة ومفهومه قد أخذ معاني مختلفة بمرور الزمن وبشكل تدريجي وازداد تنوعاً في الاستعمال أيضاً، وكثيراً ما وصم بها أفراد لم يدينوا بها حتى أصبحت مرادفة للتطرف السياسي كما أضحت في الوقت نفسه تهمة إدارية سياسية جزاؤها القتل كما لاحظنا في عهد الدولة العباسية، بل وغدت تشمل كل أنواع التمرد على أمور الدين، ما ظهر منها وما بطن، وبذلك يكون مصطلح الزندقة قد مر بأطوار مختلفة في الاستخدام ليشمل الجدل الكلامي النظري المنحرف أولاً ثم يتعداه ليكون مصطلحاً إدارياً سياسياً ثم انتهى ليكون مصطلحاً دينياً. ونتفق مبدئياً مع الدكتور شاكر مصطفى عندما قال: الزندقة تعمل على تهديد وتهديم الدين الإسلامي، وإلى ضرب الأسس التي يقوم عليها الحكم العربي والدولة الإسلامية وهو هدف الشعوبية نفسه[2].

الفرقة

الأصل اللغوي للكلمة:[3]

الفرقُ: خلاف الجمع، فرّقه يفرّقُه فرقاً وفرّقه، وقيل: فرق للصلاح فرقاً، وفرق للإفساد تفريقاً، وانفرق الشيء وتفرق وافترق.

قال: وأفراق جمع فرقٍ، وفرق جمع فرقة ومثله فرقة وفرق وافراق وافاريق. والفرق طائفة من الناس، قال: وقال إعرابي لصبيان رآهم: هؤلاء فريق سود.

والفريق الطائفة من الناس وهم أكثر من الفرق

وفي الحديث: محمدُ فَرق بين الناس أي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه.

والفرقان: الحجة. والفُرقان: النصر. وفي التنزيل: ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان** ﴾.

وقد استخدمنا هذا المصطلح تحت تعريف اجتماع أناس متفرقين حول موقف

---

(1) عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص121.
(2) شاكر مصطفى، دولة بني العباس، الجزء الأول، ص191.
(3) ابن منظور :لسان العرب، المحيط 1085.

ومبدأ وفلسفة ونمط متحد أو متقارب من أنماط التفكير، وهذا ما تؤكده الفرق الإسلامية المختلفة من شيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة وكلها تتفق حسب مبدأ وفلسفة معينة تتخذها شعاراً تحارب من أجله وتسعى لتأكيده والعمل من أجل إبرازه.

الغُلاة

في القرآن:

قال تعالى: ﴿ لا تغلوا في دينكم ﴾ النساء 120

وفي الحديث: (إياكم والغلو في الدين) أي التشدد فيه ومجاوزة الحد، (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق).

الأصل اللغوي للاصطلاح

غلا: الغلاءُ :نقيض الرخص. غلاء السعُر وغيره يغلوُ غلاء، محدود، فهو غالٍ وغليّ، وأغلاه الله: جعله غالياً وغالى بالشيء: اشتراه بثمن غال.

وغلا في الدّين والأمر يغلوُ غُلُواً. وقال بعضهم غلوت في الأمر غلواً وغلانية وغلانيا إذا جاوزت فيه الحدّ وأفرطت فيه[1].

من حيث التاريخ: الغالية هم الذين غلوا في حق أئمتهم، حتى أخرجوهم من حدود الخليقة وحكموا فيها بأحكام الإلهية فربما شبّهوا واحدا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير[2]

ويقول ابن خلدون: ومنهم طوائف يسمون الغُلاة تجاوزوا حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة. إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية، أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى في عيسى عليه السلام[3].

أما الغلاة عند كلود كاهن: فقد نسبوا إلى الخليفة - تقديساً له - صفات

(1) ابن منظور : لسان العرب، المحيط، ص1011.
(2) الشهرستاني: الملل والنحل، المجلد الأول، ص 126.
(3) ابن خلدون : المقدمة. المجلد الأول، ص 351.

تسمو على الصفات الإنسانية وتتصل بالألوهية[1].

وتقول فاطمة جمعة : الغلاة هم الذين أفرطوا فيما وضعوه من آراء ونظريات تدور حول قولهم إن الأئمة آلهة وأنهم أنبياء وأنهم رسل وأنهم ملائكة وتكلموا بالاظلة والتناسخ في الأرواح[2].

ويعرفهم عبد الله الفياض: سمي الغلاة بهذا الاسم لأنهم غلوا في علي وفي طائفة من الأئمة من ولده وقالوا فيهم قولا عظيما أخرجوهم به من حدود البشرية إلى الإلهية[3].

وتجمع الأهواء الغالية على تجسيد الإلهية في علي والأئمة من ولده غاليا، وفي النبي محمد عليه السلام وفي بعض ولد العباس وفي طائفة من عامة الناس أحيانا ولا يقتصر الأمر في هذا القول على اعتبار مشاركة أولئك السادة الكائن الأعلى في الصفات والقوى الإلهية التي ترفعهم فوق المستوى البشري المألوف، ولكن على اعتبار أن علياً والأئمة من ولده بخاصة هم صور وأشكال يتمثل فيهم الجوهر الإلهي ذاته وإن حتمية هذا الجوهر ليست سوى حادث طارئ.

ويقول عبد العزيز الدوري أما حركة الغلو تكوّن جانبا آخر للنشاط الشعوبي في الحقل الديني، لان الغلو ينطوي في أساسه على عقائد وآراء غير إسلامية مزجت ببعض المفاهيم الإسلامية ليتسع المجال للظهور أحيانا[4].

والغلاة عند الجابري هم أولئك المفكرين (الذين شيدوا ميثولوجيا الإمامة متخذين هذا الإمام أو ذاك محورا لها. ثم تُفرِّع كل واحدة من هذه الفرق إلى فروع تسمى بأسماء أشخاص عرفوا برأي خاص في هذه المسألة أو تلك)[5].

آثرنا استخدام لفظة الغلاة في هذه الدراسة بوصفها مصطلحاً ضم الأفكار والآراء والمعتقدات التي تجاوز بها أصحابها حدود العقل والدين، انطلقنا في ذلك من قوله تعالى: ﴿**لا تغلوا في دينكم**﴾ وبذلك فإننا نجد أنفسنا متفقين مع مقولة الجابري في أن قادة فرق الغلاة وزعمائها كانت لهم أراء وأفكار خاصة،

---

(1) كلود كاهن :تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. ص47.

(2) فاطمة جمعة :الاتجاهات الحزبية في الإسلام. ص149.

(3) عبد الله فياض: تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ص 87.

(4) عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص 121.

(5) محمد عابد الجابري : العقل السياسي العربي، نقد العقل العربي رقم 3، ص279.

ولاسيما حين يتعلق الأمر بأساطير الإمامة، إذ اتخذوا موضوع الإمام محوراً لمناقشاتهم ومجادلاتهم الكلامية التي تصب في قالب السياسة في الأخر ولكنهم لم يكونوا بعيدين عن الخوض في نظريات حول النبوة والبعث وما بعد الموت والكفر وتجسيد الألوهية.

الأرستقراطية :

(هي في الأصل، حكم النخبة من الشعب المتميزة بالمعرفة والفضائل لكنها أصبحت تعني منذ القرن الثامن عشر، الطبقة المختصة بالامتيازات المادية لا بالمناقب الحميدة. وهي في الأدب والفن، عناية بالموضوعات المترفة البعيدة عن قضايا الناس ومشاكلهم)[1].

ويعرفها جورج متري : (الأرستقراطية في علم السياسة : مصدر صناعي يعني الحكومة السياسية التي تتولى الحكم فيها فئة اجتماعية، قوامها النبلاء وأصحاب الامتيازات الخاصة كالمال والجاه والمراكز الاجتماعية. بحيث يتوارثها أباً عن جد وتختلف هذه الامتيازات باختلاف المجتمعات والأزمنة)[2].

بينما يرى شاكر مصطفى : أن التقارب بين الطبقات العليا من العرب والطبقات المفتوحة في المصالح حيث كانوا جميعاً على وفاق مع ما نستطيع أن نسميه بالأرستقراطية العربية وقد تعاونوا معها وعاونوها وخاصة في تأمين الجباية وتنظيم الدواوين والسيطرة على التجارات والحرف[3].

ويطلق محمود إسماعيل لفظة الأرستقراطية على أغنياء قريش وأصحاب الثروات قبل الفتح وبعد الفتح الإسلامي وخاصة الفرع السفياني[4].

وتقول فاطمة جمعة :إن الطبقة الثرية من أعلام قريش تكونت باستثناء عمال عثمان بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزان دولتهم وحرمان المقاتلة منها مدعين أن الفيء

---

(1) اميل يعقوب وآخرون : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، ص30.

(2) جورج متري عبد المسيح : معجم مطول للغة العربية ومصطلحاتها الحديثة، ج1، أ-ذ، ص20 فصل أرخ.

(3) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ص23.

(4) محمود إسماعيل : قضايا في التاريخ الإسلامي، ص27.

لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه[1]. والأرستقراطية المستخدمة في بحثنا هذا وردت لتدل على أصحاب الثراء قبل الإسلام من العرب القرشيين والذين يطلق عليهم بيضون الأرستقراطية التقليدية المرتهنة لتراثها الاجتماعي والقبلي ونزعاتها الفردية الخاصة[2].

ثم ازدادت هذه الفئة ثراء خاصة بعد الفتوحات الإسلامية حيث تكونت طبقة تمثل قوة اقتصادية استأثرت بها فئة دون أخرى وكونت امتيازات خاصة بها مما دفع بالخلفاء الراشدين وخاصة عمر بن الخطاب بالوقوف ضدهم ومنعهم من الخروج من المدينة خوفاً من الهيمنة القرشية. ولم يهمل الإسلام حل مشكلة الفقر والتفاوت الاجتماعي وحاول أن ينظم العلاقة بين الأغنياء وطبقة الفقراء حيث وضع تنظيماً تشريعياً إلزاميا يقوم على أساس العدل والتكافل معاً، وتقريب الفوارق بين الطبقات عن طريق توفير وضع مالي جيد للبسطاء عن طريق «بيت مال المسلمين»، (إلا أن انقسام المجتمع في عهد بني أمية إلى مجتمع المدن، ومجتمع الرحل الذي وقع تهميشه اتكالا على أعيان المدن وأنصارهم، أي على الطرف الذي استفاد أكثر من غيره من المغانم، وأصبح يمتلك الأراضي الشاسعة ولا ننفي انسحاب هذا أيضاً على بعض زعماء الرحل الذين انضموا إلى المدن واستفادوا من عطايا بيت المال بغير حساب وهؤلاء هم من أطلق عليهم لفظ «الأرستقراطية» المرادفة للفظ الأغنياء وأصحاب الثروات)[3].

العصبية

التعصب: من العصبية. والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر، قيل تعصبوا.

وفي الحديث: العصبي من يعين قومه على الظلم، العصبي هو الذي يغضب لعصبيته ويحامي عنهم. والعصبةُ: الأقارب من جهة الأب لأنهم يعصبونه ويعتصب بهم أي يحيطون به، ويشتد بهم.

---

(1) فاطمة جمعة : الاتجاهات الحزبية في الإسلام، ص105.
(2) إبراهيم بيضون : ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص100.
(3) إبراهيم حركات : السياسة والمجتمع في العصر الأموي، ص132.

وفي الحديث: (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية.) العصبية والتعصبُ: المحاماة والمدافعة. وتعصبنا له ومعه: نصرناه[1]

إذاً العصبية تترافق مع تفسير شائع يجعل منها مرادفا للتفرقة وتعبيرا عن تغليب مصلحة فئة ما على الجماعة ككل. إذن هي دليل انقسام وقد استخدمت هذه الكلمة للدلالة على التنازع والفرقة والاعتداد بالأنساب.

بينما يحددها الماوردى فيصفها بالألفة الجامعة ويحدد شرحها بأسباب: الدين، والنسب والمصاهرة، والمؤاخاة بالمودة والبر ثم يعرفها قائلاً: فلان الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة، فإذا لم يكن إلفاً مألوفاً تخطفته أيدي حاسديه، وتحكمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مودّة فإذا كان إلفا مألوفا انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع عن حاسديه فسلمت نعمته منهم[2].

أما ابن الأثير فيقول : إن المصلحة كانت تقضي في بعض الأحيان تحالف قبيلة مع جماعات أخرى غريبة عنها على قبيلة تربطها بها رابطة النسب، كتحالف بني ذبيان وبني أسد على بني عبس إخوة ذبيان يوم الهباءة[3].

ويعرفها ابن خلدون بقوله: إن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب، أو ما في معنى ذلك أن صلة الرحم أمر طبيعي في البشر وهي إلا في الأقل، ومن صفتها النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم تهلكة، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا[4].

ويرى ابن خلدون أن العصبية في المجتمع القبلي أمر أساسي ولا يصدق دفاعهم وديارهم إلا إذا كانوا عصبية أهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم إذ نصرة كل واحد على نسبه وعصبيته وتعصّبه[5].

ويعرفها البكري بأنها : سنة الحياة البشرية وخاصة القبلية حيث يحدد الهدف من قيام الأحلاف بقوله: (فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة،

(1) ابن منظور: لسان العرب، ص606.
(2) الماوردي : أدب الدنيا والدين، ص148.
(3) ابن الأثير :الكامل في التاريخ، ج1، ص 241.
(4) ابن خلدون :المقدمة، ص225.
(5) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص227.

وتنافس الناس في الماء والكلأ والتماس المعاش في المتسع واستضعاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم، وانتشر كل قوم فيما يليهم)[1].

ويعرفها المؤرخون المحدثون من أمثال:

الجابري فيقول: (إنها رابطة اجتماعية وسيكولوجية شعورية ولاشعورية معا، تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة، ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد: كأفراد أو كجماعة)[2].

أما أحمد عبد السلام فيقول عنها: (لا يستقيم مجتمع بشري إلا بها ولا يخلو منها مجتمع مهما أغرق في البداوة فالعصبية ظاهرة حياتية لازمت المجتمعات البشرية من يوم وجدت على ظهر البسيطة)[3].

فيما يرى بعض المستشرقين العصبية بأنها ليست حالة وإنما هي سياسة، ويرفض إيف لاكوست اعتبار العصبية رابطة دموية مشيراً إلى أن التضامن القائم على روابط الدم ليس العصبية وإنما هو شرط لتمكين العصبية أن تتطور[4].

يرى كارل بروكلمان :أن (العصبية القبلية التي كانت تسيطر على العرب في جاهليتهم هي وحدها التي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل)[5].

لقد حدد معظم الباحثين والمؤرخين الذين تصدوا لمفهوم العصبية وأكدوا دورها الفاعل في إقامة المجتمع العربي القبلي باعتبارها ركناً أساسياً من أركان وجود الإنسان العربي، ولا يمكن أن يتم هذا الأمر إلا إذ كان عصبة واحدة وأهل نسب واحد إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ إن المجتمع العربي لم يكن قادراً على المحافظة طويلاً على وحدة الدم ولحمة النسب وخاصة بعد انضمام أشخاص آخرين إليها عن طريق الولاء والاستلحاق والاسترقاق والحلف، فلم تعد القبيلة تمثل وحدة مثالية متجانسة لكن ذلك لا ينفي استمرار العصبية القبلية أو العودة

---

(1) البكري : معجم ما استعجم. المقدمة، ص53.
(2) الجابري : العصبية والدولة، ص254.
(3) أحمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السيادة عند العرب ص106، 107.
(4) إيف لاكوست : العلامة ابن خلدون، ص136.
(5) كارل بروكلمان (Brocklman) : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص17.

إليها، بالرغم من أنها انتهت كلياً في عهد الرسول الكريم (ص) إذ حارب القرآن ذلك المنهج الجاهلي في التعصب وقال عز وجل: **﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[1] وقال الرسول (ص): (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل على عصبية).

وخمدت نارها في عهد الرسول الكريم ولكنها بدأت تبرز بعد وفاته وبقوة منذ الصراع السياسي في السقيفة وبلغت ذروتها في الصراع بين علي ومعاوية ثم في زمن خلفاء بني أمية وعلى نقيضها وكرد فعل لها ظهرت عصبية الشعوبية في مقابل عصبية العرب.

كان العربي قبل الإسلام يجد اللذة في ارتباطه بفكرة العصبية وقد أفنى حياته في سبيلها ولم ينأ أبناء الأمة في العصر الحديث عن تعلقهم بفكرة الوطن أو القومية وليس ذاك بعيب ولا يعد أمراً ناقصاً أن يتعصب الإنسان للمثل العليا مثل تعصبنا، نحن المسلمين، لديننا الحنيف، وننصاع لنشره ثم ليس عيباً أن نتعصب لأمتنا العربية في إطار وعي إنساني يضمن رقيها وتطورها وانتصارها.

وبذلك يتبين أن التعصب بمعنى الانتماء إلى الخير والعدل والمساواة ضمن الأمة الواحدة التي تحترم انتماءات الأفراد في الأمم الأخرى سيكون بعيداً عن الجهل والظلم والتعسف، وسيكون هذا الانتماء سلاحاً ماضياً بوجه التفرقة العنصرية والتمايز الشعوبي، وهو أمر أوجده القرآن ورسخته السنة الشريفة وحمل رايته العرب بغض النظر عن الأخطاء التي وقعت هنا وهناك.

---

(1) القرآن الكريم، سورة الحجرات الآية 13.

ثبت المصادر والمراجع الخاصة بالمصطلحات

أولا: المصادر

(1) القرآن الكريم

(2) ابن منظور، لسان العرب المحيط، معجم لغوي علمي قدم له العلامة عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت: لبنان، المجلد الثاني.

(3) الجاحظ، رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة. طبعة بيروت. دار النهضة، لبنان.

(4) الجاحظ، البيان والتبيان. تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت. الطبعة الرابعة، المجلد 1، 4.

(5) ابن خلدون، المقدمة. المجلد الأول. الطبعة الثالثة. مكتبة منشورات المدرسة ودار الكتاب اللبناني (بيروت : لبنان سنة 1967).

(6) الشهرستاني، الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد. دار الكتب العلمية (بيروت: لبنان ط الثانية 1992).

(7) الأشعري، المقالات والفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، مكتبة النهضة مصر. 1963.

(8) المسعودي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس. بيروت، المجلد 3، 4 ط الرابعة 1981.

(9) الطبري، تاريخ الرسل والملوك. الجزء الثامن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية دار المعارف مصر.

(10) ابن قتيبة الدينوري، الامامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، المجلد الأول والثاني، دار المعرفة. بيروت: لبنان.

ثانياً: المراجــع

(1) الجابري. محمد عابد، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: لبنان ط 2 سنة 1983.

(2) الخربوطلي. علي حسني، التاريخ الموحد للأمة العربية - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

(3) الدوري. عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي. مركز دراسات الوحدة العربية. دار المستقبل العربي. القاهرة 1985. طبعة أولى.

(4) أدونيس، علي أحمد سعيد، الثابت والمتحول. دار العودة. بيروت، طبعة رابعة. بيروت لبنان 1983.

(5) عبد الرازق. علي، الإسلام وأصول الحكم، تعليق ونقد ممدوح حقي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: لبنان 1978.

(6) إميل يعقوب، بسام بركة: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، طبعة أولى سنة 1987 م دار العلم للملايين.

(7) أوليري، دي لاسى، الفكر العربي ومكانه في التاريخ. ترجمة تمام حسان. المؤسسة المصرية العامة، مصر.

(8) قدوره، زاهية، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. دار الكتاب اللبناني: بيروت. طبعة أولى 1972.

(9) فياض، عبد الله. تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. بيروت: الطبعة الثانية 1975.

(10) جمعة، فاطمة. الاتجاهات الحزبية في الإسلام. دار الفكر اللبناني، بيروت :لبنان.

(11) جورج متري عبد المسيح: معجم مطول للغة العربية ومصطلحاتها الحديثة، المجلد الأول / أ-ذ مكتبة لبنان، طبعة أولى سنة 1993م.

(12) الحكيم، سعاد، المعجم الصوفي. الحكمة في حدود الكلمة. طبعه أولى 1981 دندرة للطباعة والنشر.

(13) شاكر، مصطفى، دولة بني العباس. الجزء الأول. وكالة المطبوعات. شارع فهد السالم. الكويت.

(14) كاهن، كلود. تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية بدر الدين القاسم. دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة 1983.

(15) عمارة، محمد، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية. المجلد الثاني. حسن حنفي، المؤسسة العربية للدراسات وللنشر. طبعة أولى سنة 1986.

قائمة المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم

ب- المخطوطات :

1- ابن الجزري، محمد بن محمد: **مخطوط تاريخ الجزري**، رقم المخطوط 90 / معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

2- ابن علي، جعفر: **مخطوط استتار الإمام**، رقم المخطوط 3589، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

3- النيسابوري، أحمد بن محمد: **مخطوط استتار الإمام**، رقم المخطوط 3589، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

4- اليماني، محمد بن مالك: **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة**، رقم المخطوط 1928، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

جـ- المصادر

1) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة (ت 586هـ): **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج10 (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1965).

2) ابن أبي الخياط، خليفة (ت240هـ): **كتاب الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، (بغداد، مطبعة العلي، 1967).

3) ابن أبي الفداء، إسماعيل بن علي: **المختصر في تاريخ البشر**، ج1-2 (بيروت: دار المعرفة1959).

4) ابن الأثير، علي بن محمد (ت630هـ): **الكامل في التاريخ**، ج3، 4، 5 (بيروت: دار الفكر، 1979).

5) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين (ت874هـ): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج12 (القاهرة : وزارة الثقافة، 1951).

6) ابن حزم، علي بن أحمد (ت 456هـ) : **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج1، 2، 3، 4، 5(بغداد: مكتبة المثنى، د. ت).

7) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808هـ) : **المقدمة** (بيروت :دار الكتاب، ط 3، 1967).

8) ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت681هـ) : **وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس (بيروت :دار صادر، د. ت).

9) ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي (ت795هـ) : **الاستخراج لأحكام الخراج** تحقيق عبد الله الصديق (بيروت: دار المعرفة 1979).

10) ابن سلام، أبو عبيد القاسم (ت224هـ) : **الأموال**، تحقيق خليل هراس، (بيروت : دار الفكر، 1988).

11) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت328هـ) : **العقد الفريد**، تحقيق محمد سعيد العريان، ج2، 3، 6 (القاهرة : المكتبة التجارية، 1963).

12) ابن العبري، كريكوري أبو الفرج (ت685هـ): **مختصر تاريخ الدول** (بيروت : المطبعة الكاثوليكية، 1958).

13) ابن عذارى المراكشي (تق 8هـ) : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج،س كولان؛ ليفى بروفنسال ج1، 2(بيروت : دار الثقافة، 1983).

14) ابن عساكر، علي بن الحسين (ت571هـ): **تاريخ دمشق**، تحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق: دار الفكر، 1951).

15) ابن طباطبا، محمد بن علي الطقطقي (659هـ): **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** (القاهرة : دار المعارف، 1945).

16) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ) : **الإمامة والسياسة**، تحقيق ثروت عكاشة (بيروت : دار المعرفة، 1967).

17) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت774هـ) : **البداية والنهاية**، (بيروت : مكتبة المعارف، 1966).

18) ابن منظور، محمد بن مكرم (711هـ): **لسان العرب**، إعداد يوسف خياط، ج1 (بيروت : دار لسان العرب، د. ت).

19) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت218هـ): **السيرة النبوية**، ج3، تحقيق مصطفى السقا؛ إبراهيم الابياري (القاهرة: 1955).

20) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت182هـ): **كتاب الخراج**، تحقيق محمود الباجي (تونس: دار أبو سلامة للطباعة والنشر، 1984).

21) الأشعري، علي بن إسماعيل (ت324هـ): **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، ج1، 2 (القاهرة: مكتبة النهضة، 1956).

22) الأصفهاني، أبو الفرج (ت356هـ): **مقاتل الطالبيين** (النجف: المكتبة الحيدرية، 1962).

23) البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل : **صحيح البخاري**، ج1-2 (بيروت :دار المعرفة،د. ت).

24) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت429هـ) : **الفرق بين الفرق** (بيروت : مكتبة المعارف،1966).

25) البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز(ت487هـ) : **المسالك والممالك**، تحقيق أوريان فان ليونن، واندري ميزي (قرطاج : دار العربية الدار للكتاب، 1992).

26) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ) : **فتوح البلدان**، تحقيق محمد باقر المحمودي (بيروت : دار الأعلى، 1974).

27) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت255هـ) : **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، ج1،2 (بيروت : دار الفكر العربي، 1948).

28) الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت402هـ) : **كتاب الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون (القاهرة، 1934).

29) الداودي، أبو جعفر أحمد بن نصر (ت402هـ) : **كتاب الأموال**، تحقيق رضا محمد سالم شحادة (الرباط : مركز إحياء التراث المغربي، د. ت).

30) الدينوري، أبو خليفة أحمد بن داود (ت482هـ) : **الأخبار الطوال**، تحقيق خليل هراس (بيروت: دار الفكر 1988).

31) الذهبي، محمد بن حمد (ت748هـ)، **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام** (بيروت : دار الكتاب العربي، 1987).

32) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ) : **تاريخ الخلفاء** ، تحقيق محمد محي الدين، ط4 (القاهرة : دار الفكر العربي، 1974).

33) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت548هـ): **الملل والنحل**، صححه، أحمد فهمي محمد، ج1، 2، 3(بيروت: دار الكتب العلمية 1992).

34) الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، ج5، 13 (بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة، 1985).

35) عبد الكافي، عمار: **أراء الخوارج الكلامية**، تحقيق عمّار طالبي، ط 2(الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، 1978).

36) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505هـ): **فضائح الباطنية**، تحقيق عبد الرحمن بدوي (الكويت: مؤسسة دار الكتب الثقافية، 1964).

37) قدامة، ابن جعفر (ت328هـ): **الخراج وصناعة الكتاب**، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الرشيد 1981).

38) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة د. ت).

39) الماوردي، أبو الحسن علي البصري (ت450هـ): **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** (بيروت : دار الكتب العلمية د. ت).

40) المبرد، أبو العباس : **أخبار الخوارج من كتاب الكامل في اللغة والأدب والنحو والصرف** (بيروت : دار الفكر، 1978).

41) المبرد، محمد بن يزيد : **الكامل** (القاهرة : مطبعة النهضة، 1936).

42) المسعودي، أبو الحسن (ت346هـ) : **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج1، 2، 3 (بيروت : دار الأندلس، 1981).

43) مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري : **صحيح مسلم**، مج 2 (بيروت : دار إحياء التراث العربي، 1997).

44) المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت845هـ) : **الخطط المقريزية**، مج 3 (بيروت : دار إحياء العلوم، 1959).

ــــــ: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق عبد النافع طليمات (حمص : دار الوليد، د. ت).

45) الواقدي، محمد بن عمر: **فتوح الشام** (بيروت: دار الجبل، 1854).

46) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت284هـ): **تاريخ اليعقوبي**، ج2 (بيروت : دار صادر، 1960).

المراجع العربية والأجنبية

1) آل كاشف الغطاء، محمد حسين: **أصل الشيعة وأصولها**، ط15(النجف: المكتبة الحيدرية، 1969).

2) أبو دبوس، رجب: **الإسلام ومسألة الحكم** (طرابلس الغرب: الدار الجماهيرية للنشر، 1993).

3) أبو طالب، محمد نجيب: **الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية** (تونس: دار المعارف، 1989).

4) أبو زيد، نصر حامد: **نقد الخطاب الديني**، ط2 (القاهرة: دار سينا، 1994).

التفكير في زمن التكفير (القاهرة: دار سينا، 1995).

5) أدونيس: **الثابت والمتحول «الأصول»**، ط4 (بيروت: دار العودة، 1983).

6) أركون، محمد : **تاريخية الفكر العربي الإسلامي**، (بيروت : مركز الإنماء القومي، 1996).

ــــــ: **الفكر الإسلامي** (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1996).

ــــــ: **نافذة على الإسلام**، ترجمة صيّاح الجهيم (لبنان، بيروت، 1996).

7) أرنولد، ت،و: **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة حسين إبراهيم وآخرون (القاهرة: دار المعارف، 1947).

8) إسماعيل، محمود: **الحركات السرية في الإسلام**، بيروت، دار القلم، 1973).

ــــــ: **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، (القاهرة: دار سينا، 1994).

ــــــ: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، (القاهرة: دار سينا، 1992).

ــــــ: **قضايا في التاريخ الإسلامي**، ط 2 (المغرب: دار الثقافة، 1981).

9) أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، ج3 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1938).
ـــــــ: **فجر الإسلام**، ط7 (القاهرة، 1955).

10) الأنصاري، عبد الواحد: **مذاهب ابتدعتها السياسة في الإسلام** (بيروت: دار الغرب الإسلامية، 1973).

11) أوليرى، دي لاسي: **الفكر العربي ومركزه في التاريخ**، ترجمة إسماعيل البيطار (بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1972).

12) بدوي، عبد الرحمن: **مذاهب الإسلاميين**، ج1، 2 (بيروت: دار العلم للملايين، 1973).

13) بلبع، عبد الحكيم: **أدب المعتزلة إلى نهاية ق4هـ**، القاهرة: دار العلم للملايين، 1973).

14) بيضون، إبراهيم: **ملامح التيارات السياسية في ق1هـ** (بيروت: دار النهضة، العربية، 1979).
ـــــــ: **الحجاز والدولة الإسلامية** «دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في ق1هـ» (بيروت : دار النهضة، 1982).
ـــــــ: **الأنصار والرسول** «إشكاليات الهجرة والمعارضة في الدولة الإسلامية» بيروت : معهد الإنماء القومي، 1989).

15) بيل، الفرد : **الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (بيروت : دار الغرب، 1968).

16) تيزيني، طيب : **علم الكلام والفلسفة العربية**، ط4، (دمشق: منشورات جامعة دمشق، 1992)
ـــــــ: **الإسلام المحمدي**، (دمشق : منشورات جامعة دمشق، 1992).

17) الجابري، محمد عابد : **العقل السياسي العربي رقم 4**، ط2 (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية 1983).

18) جب، هاملتون : **دراسات في حضارة الإسلام**، ترجمة إحسان عباس، (بيروت : دار العلم للملايين، د. ت).

19) جعيط، هشام : **الفتنة** «جدلية الدين والسياسة في الإسلام» : ترجمة خليل أحمد خليل، (بيروت : دار الطليعة، 1990).
ـــــــ: **الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي**، ط2 (بيروت : دار الطليعة، 1993).

ـــــــ: **الكوفة: نشأة المدنية العربية الإسلامية**، ط2 (بيروت: دار الطليعة، 1993).

20) جمعة، فاطمة: **الاتجاهات الحزبية في الإسلام منذ عهد الرسول حتى عصر بني أمية** (بيروت: دار الفكر، 1991).

21) الحاجري، محمد طه : **حركة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية** (بيروت: دار النهضة، 1993).

22) الحسني، هاشم معروف: **الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة** (بيروت: دار القلم، 1978).

23) حيدر، أسد: **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**، ط4 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1973).

24) حسن، إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي**، ط 7، مج 1، 2، 3 (القاهرة: مكتبة النهضة1965).

25) حسين، يحي خليفة: **قبس من التراث** «لمحات فلسفية من الأديان» (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990).

26) خالد، خالد محمد: **خلفاء الرسول**، ط2(لبنان: دار الكتاب العربي، 1974).

27) خليل، محسن: **في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي** (بغداد : دار الرشيد للنشر، 1988).

28) الدوري، عبد العزيز: **تاريخ العراق الاقتصادي في ق4هـ** (بغداد، 1948).

ـــــــ: **التكوين التاريخي للأمة العربية** (بيروت: دار الطليعة، 1969).

ـــــــ: **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي** (بيروت: دار الطليعة، 1969).

29) دينيت، راتيل: **الجزية في الإسلام**، ترجمة فوزي فهيم جاد الله، مراجعة إحسان عباس (بيروت مكتبة الحياة، د. ت).

30) الريس، محمد ضياء الدين: **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية**، ط3 (القاهرة دار العلم للملايين، 1988).

31) زكار، سهيل: **تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل البعث وحتى سقوط بغداد**، ط2 (بيروت: دار الفكر 1977).

32) زلوم، عبد النديم: **الأموال في دولة الخلافة**، ط2(بيروت: دار العلم للملايين، 1988).

33) سالم، السيد عبد العزيز: **تاريخ العرب في عصر الجاهلية** (بيروت: دار النهضة، 1971).

ـــــــ: **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للنشر، د. ت).

34) سرور / محمد جمال الدين: **الحياة السياسية والدولة الإسلامية خلال ق1-2هـ**، ط5(لبنان : دار الفكر، 1975).

35) سلامة، عواطف ؛ أديب: **قريش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني** (الرياض: دار المريخ، د. ت).

36) الشابي، علي ؛ حسين ؛أبو لبابة: **المعتزلة بين الفكر والعمل** (تونس : قرطاج، 1979).

37) الشافي، فضيلة عبد الأمير: **تاريخ الفرق الزيدية بين القرنين الثاني والثالث الهجري** (بغداد: جامعة بغداد، 1979).

38) الشكعه، مصطفى: **إسلام بلا مذاهب**، ط11 (الدار المصرية اللبنانية، 1996).

39) شلبي، أحمد : **التاريخ والحضارة الإسلامية** (جامعة القاهرة : كلية العلوم، 1967).

40) شلقم، عبد الرحمن : **الدين والسياسة في التاريخ الإسلامي** (ليبيا : الدار الجماهيرية للنشر1991).

41) الشواشي، سليمان: **واصل بن عطاء وأراؤه الكلامية** (ليبيا : الدار العربية للكتاب، 1993).

42) العامري، محمد الهادي : **تاريخ المغرب العربي** (تونس : الشركة التونسية، 1961).

43) العبادي، أحمد مختار : **في التاريخ العباسي والفاطمي** (بيروت : دار النهضة العربية، 1971).

44) عبد الآخر، أبو الوفا أحمد : **التآمر على التاريخ الإسلامي** (مصر : مطبعة الأهرام / 1990).

45) عبد الرازق، علي : **الإسلام وأصول الحكم**، نقد ممدوح حقي (بيروت : دار مكتبة الحياة،1978).

46) عبد الرسول، سليمة : **ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني** (بغداد : مطبعة الإرشاد، 1973).

47) عبد الكريم، خليل : **قريش من القبيلة إلى الدولة " المركزية "** (القاهرة : سينا للنشر، 1993).

48) العدوي، إبراهيم أحمد : **المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية** (مصر : مكتبة الانجلو المصرية، 1968).
49) العربي، محمد ممدوح : **دولة الرسول في المدينة** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب1988).
50) العشماوي، محمد سعيد : **معالم الإسلام** (القاهرة : سينا للنشر، 1989).
______: **الإسلام السياسي**، ط3(القاهرة : سينا للنشر، 1992).
51) عقل، نبيه : **تاريخ خلافة بني أمية**، ط3(بيروت : دار الفكر، 1975).
52) علي، محمد عثمان : **أدب الإسلام عصر النبوة والراشدين وبني أمية** (طرابلس : الجامعة المفتوحة، 1995).
53) علي، يحيى معمر: **الاباضية بين الفرق الإسلامية** (مصر: مكتبة وهبة، 1974).
54) عمارة، محمد: **الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية** (بيروت : المؤسسة العربية للنشر، 1977).
55) غالب، مصطفى : **اختلاف أصول المذاهب للقاضي النعمان بن محمد** (بيروت : دار الأندلس، 1973).
56) غرديه، لويس ؛ قنواتي، ج : **فلسفة الفكر الديني**، ترجمة صبحي الصالح (بيروت : دار العلم، 1967).
57) غليون، برهان : **نقد السياسة " الدولة والدين "** (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر1973).
58) فرج، هول وجودت: **البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم** (بيروت : دار الفكر، 1995).
59) فلهوزن، يوليوس: **الدولة العربية وسقوط الخوارج والشيعة**، ترجمة عبد الرحمن بدوي (القاهرة : دار الجليل، 1998).
60) فلوتن، فان : **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية**، ترجمة حسن إبراهيم (القاهرة، نشرته لجنة التأليف والترجمة، 1968).
61) فياض، عبد الله : **تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة**، ط2(بيروت : الاعلمي للمطبوعات 1975).
62) القاسمي، ظافر : **نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي**، ط5(بيروت : دار النفائس، 1985).

63) قدوره، زاهية : **الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول** (بيروت : دار الكتاب، 1972).

64) كارل، بروكلمان : **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة بنينة فارس ؛ منير البعلبكي (بيروت، 1949).

65) كاهن، كلود : **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية**، نقله بدر الدين قاسم، ط3(بيروت : دار الحقيقة، 1983).

66) كريمون : **الحضارة الإسلامية**، ترجمة مصطفى بدر (مصر : القاهرة، 1947).

67) الليثي، سمير مختار : **الزندقة والشعوبية** (مصر : مكتبة الانجلو المصرية، 1968).

68) ماجد، عبد المنعم : **التاريخ السياسي للدولة العربية**، ط2(مصر : القاهرة، 1960).

69) مصطفى، شاكر : **التاريخ العباسي** (الكويت : وكالة المطبوعات 1973).

70) ميتز، أدم : **الحضارة الإسلامية في ق4هـ**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة / ط3 (القاهرة : لجنة التأليف، 1957).

71) موسى، جلال محمد : **نشأة الأشعرية وتطورها** (بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1975).

البحوث المنشورة

1- أحمد، المبروك عثمان: «**الفرق الهدامة في تاريخ الإسلام**»، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد 33، طرابلس الغرب، 1990.

2- زعين، حسن فاضل : «**مسالك الدس الشعوبي في الحياة الاجتماعية والمثل الأخلاقية**»، مجلة المؤرخ العربي، عدد 43، 1990.

3- العشماوي، محمد سعيد : «**قراءة في كتاب الإسلام السياسي**» مراجعة محمد ضريف، مجلة الوحدة عدد 221، 1987.

4- النيهوم، الصادق : «**إقامة العدل أم إقامة الشعائر**»، مجلة الناقد، عدد 57، بيروت، 1993.

ـــــــ الشورى «**نظام الحكم**» **التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي** (ندوة)، مالطا منشورات رسالة الجهاد، 1986.

ـــــــ «**التيارات الإسلامية والديمقراطية**» ، ندوة، مجلة المستقبل العربي، عدد 170، بيروت 1986.

الدوريات

1- خماش، نجدة : **أوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الإسلام**، دراسات تاريخية (دمشق) عـ 17-18، 1984.

ـــــــ: **تعريف النقد**، دراسات تاريخية "دمشق" عـ 15-16، 1984.

2- الدوري، عبد العزيز : **نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية**، المجتمع العلمي العراقي " بغداد " 1970.

3- العلي، صالح أحمد : " **العطاء في الحجاز كطور تنظيمه في العهود الإسلامية الأولى**، المجمع العراقي " بغداد " 1970.

4- القاضي، وداد : **عهود الصلح زمن الفتوح الاجتهاد** "بيروت" عـ 1، 1988.

الموسوعات والمعاجم

1) إسماعيل، العربي، **معجم الفرق والمذاهب الإسلامية**، ط1 (المغرب : دار الآفاق الجديدة، 1993).

2) الجندي، أنور : **الموسوعة الإسلامية العربية**، (بيروت : دار الكتاب العربي، 1947).

3) البستاني، بطرس، **موسوعة دائرة المعارف الإسلامية**، ط2، (القاهرة : دار المعارف).

4) حنفي، حسن : **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية**، (عمان : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995).

5) شلبي، أحمد : **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية** ، ط5(القاهرة : مكتبة النهضة، 1978).

6) محمد، عمارة : **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية** «نظرية الخلافة - السلفية الثورة الفرق الإسلامية» (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

7) معن زيادة : **الموسوعة الفلسفية العربية** «المدارس والاتجاهات والتيارات»، مج 2 (بيروت، معهد الإنماء العربي، د. ت).